صلاح جواد شُبّر

العالم، فكر... و سجن

مقالات في السياسة و العلم و المجتمع

العارف للمطبوعات

صلاح جواد شُبّر

العالم، فكر... وسجن

مقالات في السياسة والعلم والمجتمع

الموت الرحيم، الإجهاض، الشيزوفرينيا الاجتماعية، السجون الكندية،
المحكمة العليا الأمريكية، المسلمون السود، الأحزاب الكندية،
دمقرطة شعب، (بل كيتس) العراق، إطالة العمر، مفهوم الجنس،
المرض النفسي، السنة والشيعة، إسرائيل كيف نفهمها،
اغتيال تحت الصفر، نظام الحكم في الإسلام، هل العالم بعيد عن الدين،
أزمة الدولة، (الايدز) إجتماعياً، الإعلام الأمريكي،
الألم و صراعه الفكري

العارف للمطبوعات

العالم، فكر... وسجن
مقالات في السياسة والعلم والمجتمع
صلاح جواد شُبّر

الطبعة الأولى 2014
القياس: 17 x 24
عدد الصفحات: 372
ISBN 978-614-441-026-4

نشر وتوزيع
شركة العارف للأعمال ش.م.م.
العارف للمطبوعات
بيروت – لبنان
00961 1452077
العراق – النجف الأشرف
00964 7801327828
Trl: www.alaref.net

التوزيع في الجزائر والمغرب العربي:
دار الأبحاث للطباعة للنشر والتوزيع
الجزائر – هاتف: 744281 ـ 21 (00213)
البريد الإلكتروني: www.alabhaath@.com

التوزيع في الأردن:
دار المناهج للنشر وللتوزيع
الأردن – هاتف/فاكس 00962 4650624
البريد الإلكتروني: info@daralmanahej.com

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطّي من أصحاب الحقوق.

© All rights reserved. No part of this book may be reproduced, or transmitted in any form or by any means, electronic or mechanical, including photocopyings, recording or by any information storage retrieval system, without the prior permission in writing of the publisher.

الإهداء

أهدي إلى ذلك الفنان الذي لا يبرز مجال فنه إلّا في مجالات مهاراته... ولا تثبت جلالة صنائعه إلّا إذا احتكت بفتنة بدائعه

إلى ذلك المهندس الذي علّمنا كيف نُحيل المقالع

إلى عمارة لننصب عليها الزخرف وّالنقش والعِبَر

ذلك هو من قال لنا:

(كونوا أحراراً في دنياكم...)

وإلى من هم على نسق نهجه

أبي الشهيد وإخواني ثم عائلتي

وإلى شعب العراق الطيّب

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

إن تعاملي مع الأفكار التي يحملها الإنسان في داخله منطلقٌ من فهمي لميكانيكية التطور في عقل الإنسان، لأنّ الفهم ينمو كما ينمو الكائن الحيّ، وقد جاءت الأديان في مرحلتها المتباعدة لتؤكد حقيقة التطوّر الفكري واستيعابه للحياة، وذلك عندما تحوّل القلم إلى علم (بحث) فصارت مراحل التطوّر بدلاً من أن تكون ضمن حساب السنين صارت اليوم تتحرّك ضمن مفهوم الأيّام والشهور وما إلى ذلك، فالبحث يختزل عملية التنظير وعملية الوصول إلى النتائج.

ونحن اليوم وفي هذا القرن من التطوّر قد نستغرب الكثير من الأفكار المطروحة على السّاحة، وقد نرفضها أحياناً، ونقبل بها أحياناً أخرى، وقد نجد فيها من الغرابة المنطلقة من عدم مجاراة الواقع التكنولوجي والواقع البحثي والعلمي.

وحينما تتخلف فئة من النّاس بعقلها وقدراتها عن اللّحاق بركب المسيرة والحياة تصبح الأفكار عندئذ غريبة ويتمّ آنذاك توجيه الكثير من الانتقادات للذين يملكون هكذا أفكار ويُتّهمون ربّما بالتّطرف أو الخروج عن المألوف وأحياناً أخرى بالكفر.

إنّ (أزمة الفهم) هذه وتأخّر اللّحاق بركب العقل والعلم من قبل المجتمع -إن حدثت- فعندئذ تبرز مجموعة من الأفكار الداعية إلى البحث عن (الأصول) وفي الواقع ما هي إلّا محاولة للهروب إلى الخلف هدفها تغطية العجز عن التطوّر والتكامل في المعرفة البشرية.

وأرجو أن لا تؤخذ هذه الفكرة (بكلّياتها) في الوقت الذي أؤكد هنا بأنّ (الأصول) وكلّ جذور الأفكار سواء أكانت أفكار سماوية أو أفكار بحثية أو

ميكانيكية، هي أفكار واحدة وهو ما ذكر في القرآن الكريم (الفطرة) أو باللغة الانكليزية (Innate)، وهي نفس أفكار الإنسان التي جاءت الأديان لكي تبني على أساسها الفهم الواسع للكون والحياة ومفاهيم ارتباط الأرض بالسّماء، وأعني بمفهوم (الأصول) هنا هو الجزء الميراثي الذي كانت الأمم والشّعوب تمارسه في عصور قديمة بسبب الظّرف الجغرافي والتاريخي والعقلي لتلك الشّعوب.

أنا هنا أقصد المفهوم الآخر الذي يحجر على العقل أن يتحرّر، ويحجر على التطور من أن ينطلق لأنّه اتخذ الممارسة أصل ومن الأصل تاريخ، فتمسك بالممارسة ناسياً بأنّها مظهر لا جوهر وسببه كما ذكرت هو العجز عن اللّحاق بركب العقل والبحث الفكري أو العلمي.

ولعلّي في هذا السياق وحسب ما ذكرت من أفكار في كتابي هذا أردت أن أقول بأنّ التطوّر في عقل الإنسان هو حاجة طبيعية، أو مفهوم ربما نقول عنه أنّه مسيرة حتمية... وليس من الغرابة أن نرى أفكار العلماء والباحثين والسّاسة في تطوّر مستمرّ والبعض يقول عنها أو يسميها (تغيّر)... مع أنّ هذا التغيّر هو جزء من التطوّر، ولكنّ المجتمع، وخصوصاً في مجتمعنا العربي والإسلامي يتوقّع من الكاتب أو الباحث أو المؤلف أن يسير ضمن المنهجية الفكرية التي سار عليها خلال حقبة معايشته للواقع، وهذا التفكير هو نوع من الظلم للكثير من المصلحين الاجتماعيين وعلماء الأديان والكتّاب والمؤلّفين فضلاً عن السياسيين.

فالعقل الإنساني دوماً في تغيّر والمفاهيم دوماً في تطور وهو من المفاهيم الفلسفية والعلمية التي يؤمن بها علماء العقل وغالباً ما يرفضها العوام ويرون أن التغيّر في عقل الإنسان هو ضعف في المواصلة وخصوصاً إذا كانت تلك الأفكار (أفكار تحدّيات) سواء أكانت التحديات لحاكم أو لمجتمع أو غيرها، ونرى ذلك في مقولة (التغريب) التي يطلقها المجتمع الآن بسبب حساسيته أمام غزو الأفكار الغربية تلك لواقع مجتمعاتنا مع عدم اعتراضنا على ذلك والتي أنا شخصياً أعزوها ليس إلى نصاعة الأفكار الغربية تلك، وإنّما بسبب الخواء الذي أصابنا من جرّاء العجز عن فهم مبادئنا وأفكارها بشكلها العلمي الصحيح.

أمام هذه المواجهات الفكرية الكبرى أرى أنّه لزاماً على علماء الاجتماع ومن أولئك المصرّين على التعامل مع أيّة مفردة فكرية دينية كانت أو سياسية أو أخلاقية أو سلوكية أن يتعايشوا مع الفكر على أنّه معرفة تتطور باستمرار وتكبر كما يكبر الجسم الحي، مع الفرق أنّ الفكر لا حدود له إلّا السّماء أمّا البيولوجيا فهي تابعة إلى قانون المادّة والمادّة التي يجب أن تتخلّف عن حدود العقل بدرجات لأنّها لا يمكن أن تسبقه أبداً... وعندما تضعف الرؤيا وتغيب التّشخيصات الدقيقة يبدو للبعض العكس إذ يرى عملقة المادة وضآلة العقل، وهنا تقع الطّامة الكبرى في مسيرة الصّراع الفكري ما بين هذا وذاك.

إنّ مفردات كتابي هذا بدأت بالظهور بعد مخاضات مررت بها في مسيرة حياتي، إذ كانت بواكير حياتي قد انطلقت في واقع محافظ ثم تحوّلت الظروف المعقدة لكي ترميني في عالم الصّراع الفكري والسياسي والاجتماعي خلال فترات ما بين أواسط الستينيات إلى نهاية السبعينيات من القرن الماضي مروراً بمحطّات من المعاناة الفكرية التي تختلط فيها المفاهيم التي قدّمت لنا في زمن ما ثم شاءت الأقدار أن أنتقل من صراع إلى صراع ومن محطّة إلى محطّة أعيش تجارب الآخرين وأتنبه لردود أفعال الشّعوب وأقترب من منظري سياسيي ذلك البلد وأتطارح مع الصحفيين والمؤلفين والفلاسفة وصنّاع القرار وأنا في كل ذلك أسير ضمن هدف ليس لي أوضح منه أبداً، ذلك الهدف هو صنع الإنسان الذي يدرك علاقة الأرض بالسّماء ويفهمها على حقيقتها وتفاصيلها بدون الغوص في هذا الطّريق والقفز على ربوة ذلك الطريق.

وأدركت جيداً بأنّ العقل الإنساني الذي قيل ما قيل عنه في الأحاديث القدسية وغيرها مبرمج لحدٍّ ما باتجاه بوصلة الإقتراب من (مبادئ الفكر) التي عبرت عنها (الفطرة) (Innate) أو (DOS computer) أو (Windows Program) وهو ما يتجلّى في ذهني الصغير عظمة قوة السّماء ودقّة صنعها بحيث صرت أتعامل مع الإنسان من منظار الإنسانية الكبرى ومنظور الإتّحاد في الفطرة.

وهكذا تتطوّر الأفكار تدريجياً وتقرّبني أكثر فأكثر من مفاهيم العمل

والتكنولوجيا والعلم، فكنت أحياناً أكتب أشياءً ثم أعود فأغيّرها أو أنقلب أحياناً على مفهوم لم أدركه جيداً آنذاك، حيث وجدت أنّه لمن الحكمة أن أقدّم كلّ تلك الأفكار إلى القارئ لأنّها حقيقية واقعية لتكون مادّة خصبة لنموذج عقل إنساني عاش مخاض الوصول إلى أوليات عطاء السّماء وكما ذكرت مثل (الفطرة والعقل الإنساني والنفس والرّوح) وأعتقد أنّني بهذه المسيرة لم أكن موفّقاً ما فيه الكفاية كي أقدّم الفكرة كما يجب أن تكون، إذ كنت أطمح أن أجد في قلمي وفكري من القدرة عل نقل تلك المفاهيم كما تعيش في ذهني وبما تنجسم في مشاعري والتي ليس بالضّرورة أن يتمكّن الإنسان من ذلك دوماً، ولو كان ذلك ممكناً دوماً لكان النّاس اليوم أمّةً واحدةً، وربّما لتغيّر وجه العالم ولصار لنا في الأرض الأفكار المثالية لجمهورية أفلاطون، ولكنّني والحمد لله وضعت كل جهدي بما أتمكّن وربّما ساعدتني الظّروف الاجتماعية والسياسية على قول الشيء أو عدمه في الوقت الذي أنشر كتابي هذا لمن هم من سنخيّة الأفكار التي أعيشها وفي ظروف بلداننا العربية والإسلامية...

ولقد كان لمحطّات تجاربي الكبرى الأثر العظيم في إعادة تشكيل نظرتي إلى فلسفة علاقة (الأرض بالسّماء) وخصوصاً فترات السجن السياسي التي عشتها في الشّرق والغرب والتي في الواقع أغنتني بما أتمكّن من أن أقوله للبعض (لا تخبروا به أعداءكم) أو (أتمناها لكل واحد) في هذه المناسبة أو بتلك (راجع كتابنا أيام اعتقالي في السجون الأمريكية)..

وفي الختام أسأل من الله الموفّقية وتجنب الزّلل إنّه أرحم الراحمين بعباده.

صلاح جواد شُبّر

المستشار في وزارة الصحة العراقية

حزيران عام 2014

salah.shubber@yahoo.com

الدعاية والإعلام

محاولة لفهم الخلفيات

لدى المواطن العربي القناعة بأنّ الإعلام هو جهاز مهمّ من أجهزة (الحكومة أو الدّولة) التي يجب أن يتلقى التوجيهات والأوامر منها، وأن تسيطر تلك الحكومة على حركته، فالمواطن العربي لا يستطيع أن يتفهّم فكرة استقلالية الإعلام، فالدّولة في عالمنا العربي هي الموجّهة والرّاعية لهذا المجال الفكري، والعاملون في مجال الإعلام هم موظفون يعملون لدى الدولة، ومن يعتقد غير ذلك فإنّه يعيش خيالاتٍ ليس لها واقع على الأرض.

في بلادنا العربية يوجد وزارة (للإعلام)، وفي بعض الأحيان تسمّى وزارة (الإعلام والثقافة) وغالباً ما تكون مؤسّسة كبيرة تخصص الدولة لها ميزانية عالية، ويرتبط بها مؤسسات أخرى ومراكز بحوث متعدّدة هدفها واحد وهو تقديم الصورة الحسنة لنظام ذلك البلد إلى العالم (تسويق الدولة بمساوئها إلى الناس)، ونجد دولاً عربيةً قد تبالغ بتحسين صورتها إلى حدّ التزلّف بينما تتّخذ دولاً أخرى جانب العقلانية في تسويق وجه النّظام إلى مواطنيه، وقد يكون لبنان من أفضل الدول التي تميل إلى الليبرالية في تعاطيها مع الإعلام مع وجود وزارة للإعلام ضمن تركيبتها[1].

ففي عالم الدّيمقراطيات يمثّل الإعلام سلطة من سلطات مراقبة الحكومة وفضح أيّ سوء استعمال للسّلطة أو القوة، وغالباً ما تبالغ أجهزة الإعلام في تضخيم حدث ما أو قضية قامت بها الحكومة، فيما لا تبالغ أو تتأثّر كثيراً

(1) كل الدول العربية لها وزارات دعاية وأعلام، بينما لا توجد دولة ديمقراطية غربية تملك ما يشبه ذلك.

فيما لو صدر أي شيء من قبل المعارضة الرّسمية في البرلمان والتي تقف للحكومة بالمرصاد في كلّ أعمالها وتصرفاتها.

إنّ (الإعلامي أو الصّحفي) في عالم الغرب هو الشّخص الذي يسجّل ما يرى فقط دون أن يُحلّل أو يُضيف رأياً أو فكرة[1] أمّا الشخصية المسؤولة عن دراسة المشهد وتحليله وإعطائه البعد الفكري والسياسي فهو (المحلّل السياسي) والذي غالباً ما يكون تخصّصه مختلفاً تماماً عن الصّحفي[2] وإن ظهر ولأيّ سبب أنّ ذلك (الصحفي) كان منحازاً لجهة أو طرف ما ولم يكن دقيقاً وموضوعياً في نقل ما شاهده فإنّ الحدث أو التقرير الصحفي سوف يهمل، ويمكن أن يفصل ذلك الصحفي من العمل وعندئذ سوف يجد صعوبة كبيرة في إيجاد عمل آخر في مؤسسة أخرى.

إنّ المؤسسات الأمريكية الضّخمة مثل (CBC) و(CNN) و(NBC) و(Fox News) وغيرها العديد من المؤسّسات ما هي إلّا عبارة عن شركات أهلية خاصة (Business) و هي تابعة لنظام الضرائب باعتبارها مؤسّسة هدفها الرئيسي هو تحقيق الأرباح[3] وإذا لم تحقّق الربح المنشود والمتوقّع سنوياً فإنّها تعلن إفلاسها وتغلق قنواتها[4] وفي تلك المؤسسات الإعلامية يتمّ تعيين الموظفين

(1) What is Political Discourse Analysis? Teun A. van Dijk Universiteit van Amsterdam.

(2) غالباً ما يكون المحلّل السياسي أستاذاً في الجامعة وذو خبرات وقدرات بحثية، ولكن في المجال الاجتماعي كما هو موقع الأستاذ الكبير د. فؤاد عجمية الأستاذ في جامعة جون هوبكنز، وبالمناسبة نذكر بأنّ السعودية قد عملت المستحيل في طريق تسقيط هذه الشخصية العلمية التي كانت ترى بأنّ الخطر السعودي لا يقلّ عن الخطر الإسرائيلي على الإسلام. (en.wikipedia.org/wiki/Fouad_Ajami).

(2) AOL TIME WARNER INC ثاني أكبر مؤسسات الإعلام بعد (وولت دزني) في الولايات المتحدة التي حجم أعمالها يبلغ 43,6 مليار دولار عام 2006 (www.timewarner.com).

(3) من الممكن معرفة أرباح كل شركة إعلامية من الشركات العالمية من خلال مواقعها الإلكترونية لأنّ تلك المعلومات تتوجب أن تكون متاحة لكل الناس في الوصول اليها، وهنا لو قارنا ذلك بالمحطات العربية كلّها من قناة الجزيرة إلى العشرة آلاف محطة تلفزونية التي تبث إلى المنطقة العربية لوجدناها كلّها محطات خاسرة مالياً لو نظرنا لها من باب الربح =

حسب كفاءاتهم وقدراتهم على تحقيق وإنجاز عمل معين، سواء أكان ذلك العمل سياسياً أو اجتماعياً أو ترفيهياً، والمحللّون السياسيون الذين يظهرون على قنوات تلك المؤسسات هم أيضاً شخصيات درست وتخصّصت وعملت في المجال الإعلامي، والتي تلزمه أيضاً أن يقدّم عمله ضمن المعايير الحرفية والعلمية الدقيقة ممّا يضمن للمؤسّسة المزيد من المصداقية والتقدّم.

وإذا حصل العكس فإن ذلك ينعكس سلباً على المحلّل وعلى المؤسّسة أيضاً ممّا يؤثّر على الناتج والرّبح والمصداقية فينعقد مجلس الإدارة آنذاك ويتمّ التخلص من ذلك الصحفي أو ذلك المحلل من منصبه مهما علا شأنه.

إنّ الموظّفين الإعلاميين الذين يعملون ضمن تلك المؤسّسات الإعلامية يجب عليهم أن يكون ولاؤهم محصوراً لفلسفة تلك المؤسّسة بغضّ النظر عن كلّ قناعاتهم ومعتقداتهم الدينية والسياسية والاجتماعية، فذلك هو ما يُسمّى (شرف المهنة).

إن سياسة القناة الإعلامية يجب في العموم أن تكون محايدة تجاه أيّة قضية تخصّ السياسة الأمريكية وعليها تقديم الخبر فقط بكلّ استقلالية وحرفية وموضوعية بحيث تؤكّد للمشاهد الأمريكي صدق خبرها ومعلوماتها، فالصّحة في نقل الخبر والإستقلالية والدّقة في مسيرة أية مؤسّسة إعلامية هي الطريق للكسب المادي من خلال كسب الرأي العام بالدّرجة الأولى من خلال استقلالية الخبر.

ولكنّ السؤال الكبير الذي يجب على العرب إدراكه في ظل فكرة (بزنزة الإعلام) هو: من هو الطرف الثاني في عملية البيع والشراء...؟ فإذا كانت المؤسّسة الإعلامية هي التي تبيع فمن هو الذي يشتري لكي تكتمل العملية الربحية ...؟ باعتبار أنّ كلّ عملية تجارية تتطلّب طرفين بائع ومشتري.

= المادي المجرد وهذا ما يؤكد ايديولوجية تلك المحطات العربية بأجمعها وتحيزها إلى الجانب الفكري الذي تؤمن به وليس إلى الجانب الصحفي أو الخبري المستقل. (http://www.sec.gov/Archives) التي توضح الجانب المالي للمؤسسة العملاقة والتي كانت ارباحها في عام 2013 هو (27.8) بليون دولار.

إنّ الغالبية العظمى من العرب تعتقد أنّ المشتري هم النّاس الذين يشاهدون أو يسمعون الخبر، لكنّ الواقع أنّ ذلك غير صحيح، فالمشتري هم تلك المؤسّسات الكبيرة الضخمة التي تسعى إلى ترويج منتجاتها كشركة (الكوكا كولا) و(بيبسي) و(ميريل لينش) و(مايكروسوفت) وغيرها الكثير من الشركات الكبرى، فهذه المؤسّسات تشتري الإعلان والوقت المحدّد لها في تلك المحطة التلفزيونية، على أن يبدأ بث الإعلان من الساعة الخامسة عصراً وقت عودة الناس إلى البيت للراحة وحتى آخر الليل بحيث يكون هناك متّسعٌ من الوقت كي يتلقّى الفرد الدعاية التي تروّج لسلعة معينة.

ولكي تتمكّن شركة (الكوكا كولا) من بيع منتجاتها بشكل مربح عليها أن تنشر إعلانها في محطّة لها مصداقية محترمة يثق الناس بصحة خبرها، ودقة معلوماتها، واستقلاليتها في التحليل والتقييم. وهذه السمعة لتلك المحطة لا يمكن كسبها إذا لم تكن المصداقية لعملها ينطبق على مجمل حركتها السياسية والتجارية والأدبية، وإلّا فإنّ شركة ضخمة مثل (الكوكا كولا) سوف لا تزعج نفسها في اختيار هذه المؤسّسة الإعلامية بالتحديد في نشر دعايتها.

وعندما تتحوّل تلك المحطة أو المؤسسة الإعلامية إلى رمز للمصداقية السياسية فإنّ هذه المصداقية لن تقتصر على الخبر السياسي أو التحليلي فحسب، وإنما تشمل ثقة الناس بشراء المنتج الذي تعرض دعايتها على شاشاتها.

وهكذا يتطوّرعالم المال وعالم التجارة ويكون هو العامل المحرّك للحدث السياسي والخبر الإعلامي، وعلينا أن نشير إلى نقطة جوهرية أيضاً كي نتمكّن من فهم واقع الإعلام في الغرب وهو ما يفتح أمامنا مجال الإدراك في معرفة كنه التعاون معها، ذلك هو أنّ المؤسّسة الإعلامية مثل (ABC) حينما تفكر بكسب أكبر عددٍ من الشركات الإعلانية التي تعتبر المصدر الرئيسي لعائداتها عليها أن توفّر الجوّ المناسب كي يشاهد تلك المحطة أكبر عددٍ من النّاس، فإنّ عدد مشاهدي المحطة هو المعيار الرئيسي الآخر الذي

يكسبها قوّة واحتراماً بعد عامل المصداقية، فكلّما زاد عدد المشاهدين إرتفع سعر عرض الإعلان للشّركة التي تبيع المنتج[1]، وعندما تروّج المحطة الإعلامية لمنتج ما من خلال الدعاية التي قد لا تطول لأكثر من ثوان أو نصف دقيقة كدعاية لسيارة (كرايسلر) مثلاً فإنّها لا ترمي إلى بيع أكبر عدد من السيارات فحسب، بل تهدف إلى شراء الأسهم في أسواق البورصة العالمية، وهذا يعتبر الشيء الأهمّ والأعمق الذي ترمي اليه الدعاية للوصول اليه.

ولكي تزيد الشركة الإعلامية من بيع الإعلان في محطتها فإنّها بين الفينة والأخرى تتبنى برنامجا ترفيهياً مسلياً، أو تنقل مباراة في كرة السلة للمحترفين ممّا يسهل على شركات الإعلان أن تدخل إلى أذهان المشاهدين قبول منتجهم أو بضاعتهم.

وهكذا نرى أنّ الخبر السياسي والتحليل السياسي لأيّة قضية عالمية سوف لن يكون سوى عامل أقلّ من ثانوي إلى تلك المحطة الإعلامية، فهي في الواقع سوف لن تستفيد فيما لو نقلت الخبر بصيغة غير واقعية، أو بأقلّ دقّة ممّا يجب أن يُقدّم به الخبر، كما أنّه ليس من صالح المحطة أن تنقل الخبر الذي يلائم توجّهات الدولة الأمريكية في سياستها تجاه العراق مثلاً، وليس من صالحها أيضاً أن تنقله بصورة تبدو وكأنّها معارضة للسّياسة الأمريكية بلحاظ أنّ ذلك سوف يؤثّر على مصداقيتها في كسب شركات الإعلان وشركات الإنتاج لشراء وقتاً للإعلان في محطتها.

لذلك تحرص المحطة أشدّ الحرص على أن تكون مصادر الخبر دقيقة جداً وواقعية، وبعيدة عن التهريج الإعلامي، وعن المعارضة أو الموالاة السياسية.

---

(1) شهرياً تخرج الاحصائيات في عدد المشاهدين ولكل قناة تلفزيونية ولكن برنامج يعرض على القنوات التفزيونية. كمثال على ذلك ممكن معرفة عدد مشاهدي برنامج (M*A*S*H) الذي قدر ب 109 مليون في عام 1983.
(Goodbye, Farewell and Amen Ratings Analysis". M*A*S*H, Finest Kind. 10 February 2010) http://www.mash4077tv.com/articles/gfa_ratings.

ولتقريب المعنى للقارئ العزيز أستشهد بحادثة حدثت في أوائل الثمانينيات عندما استعرت أزمة الرهائن الأمريكيين في السفارة الأمريكية في طهران والتي كانت كأوّل حادثة تقع لمواطنيين خارج أمريكا، وقد أربكت تلك الحادثة وسائل الإعلام وخصوصاً محطة (ABC)، فالإعلام الأمريكي لم يكن آنذاك على علم ودراية بعمق الصراع اليهودي الإيراني، فكان يعتقد أنّ ذلك الصّراع مع إسرائيل يشبه إلى حد ما صراع سوريا أو مصر معها، وفي ذلك الوقت كانت المؤسسات اليهودية تطرح إسم (نتنياهو) كخبير في محاربة الإرهاب في الوقت الذي كان يعمل لمصلحة إسرائيل تحت غطاء الإرهاب الدولي، حيث استضافته الاذاعة لعدة مرّات خلال سنوات طويلة.

إنّ الشّعب الأمريكي شعب يشعر بحساسية من آلية تحاول استغفاله سياسياً، وتزداد تلك الحساسية إذا أدرك وجود أيادٍ خفية تعمل هنا وهناك لمصلحتها فقط خصوصاً تلك التي تقودها التجمّعات اليهودية الأمريكية.

ومحطّة اذاعة (ABC)[1] كانت ترى في (نتنياهو) محلّلاً سياسياً وشاباً حسن الطلعة ذكياً متمكّناً ولكنّها لم تكن تعلم أنّ وراء تلك الصفات وجهاً آخر تحاول الصهيونية طرحه لتحقيق عدّة أغراض أهمّها هو تسقيط هذه المحطة وإبقاءها تحت رحمة الفكر اليهودي لأنّها من القنوات التي تملك بعض الحرّية في طرح الأفكار التي لا تتلائم مع التوجّهات الصهيونية.

بعد تلك الحادثة انخفض عدد مشاهدي المحطة وخاصة لنشرات الأخبار فأوعز مسؤولو المؤسّسة السبب إلى وفاة أحد المذيعين الرئيسيين المعروفين (Frank Reynold) والذي كان محبوباً من قبل الكثيرين وانخفضت مبيعات المحطة حينها إلى درجة كبيرة ممّا حدا برئيس المؤسسة إلى التفكير في إعلان إفلاسها، ولكنّ قبل ذلك أوعزت المحطة إلى إحدى مؤسسات استطلاع الرأي

(1) لم تكن محطة (CNN) في ذلك الوقت قد ظهرت كقوّة إعلامية مؤثّرة، بسبب تخصصها المحصور فقط في نشر الأخبار وهذا الأمر لم يعتاد عليه المجتمع الأمريكي في ذلك الوقت (http://en.wikipedia.org/wiki/CNN).

العام لإجراء إستفتاء لمعرفة ما حصل من عزوف المواطن الأمريكي عن متابعة هذه المحطة، وبعد ستة أشهر على تلك الاستفتاءات جاءت النتيجة تقول: بأنّ المشاهد الأمريكي يرى أنّ المحطة تنحاز إلى جانب الحكومة الأمريكية وإلى جانب اليهود خاصة[1] وقعت هذه النتائج على رأس تلك المحطة وقع الصاعقة فقرّرت أن تغيّر من سياستها في التعامل مع الأحداث السياسية العالمية، واستحدثت لجنة ثانية مهمتها التواصل مع الشّركات المعلنة التي كانت تتعامل معها، وعندما انتهى التقرير وقورنت الأرقام مع أرقام أعداد المشاهدين مع محطتين منافستين لها وهما ال(NBC & CBS) خلص الجميع إلى أنّ الخسائر كانت بالملايين من جرّاء ما حصل خلال فترة 1981 و1982 من التحيّز إلى جانب كيان سياسي أو اتجاه فكري.

ولو قارنّا هذه المعلومة بمعلومات الواقع العربي لوجدنا أنّ الأمر يكاد يكون مختلفاً تماماً في نظرة الشعب إلى فكرة الإستقلالية الصحفية، فالشعب الأمريكي وبدون اتّفاق ما بين أفراده فرض على المحطة تلك أن تصل إلى حدود الخسارة أولاً، وإلى تبديل سياستها ثانياً، لأنّ المفاهيم المبدئية في الخبر وفي الصّحافة ثابتة في أخلاقيات الغربيين في رفض استغلال صوتهم باتّجاة خدمة هدف سياسي أو تجاري.

في بلداننا العربية لو ألقينا نظرة على قناة (الجزيرة) على سبيل الفرض أو محطات (العربية)[2] المتعدّدة فإنّنا لا نجد القانون ذاته ينطبق على الفلسفة

(1) لم تذكر مؤسّسة الإستطلاع ذلك صراحة (Jew) بسبب معارضتها للقانون الأمريكي خصوصاً إذا استعمل كأسم، وسمتهم بدلاً من ذلك الصّراع العربي الإسرائيلي أو تنعت البعض بالقومية الاسرائيلية أو القومية اليهودية فيقولون (Jewish). انظر مصادر الكلمة في (Jewish ethnonyms) على موقع: .(http://en.wikipedia.org/wiki/Jewish_ethnonym)

(2) المحطات العربية كلها خاسرة تجارياً ولذلك لم تعلن أيٌ من تلك المؤسسات حسابها السنوي كما تعمل بقية المؤسسات الغربية، إذ أنّ كل المحطات العربية عبارة عن نزيف مالي كبير على حساب الدولة في سبيل توجيه المجتمع إلى الكراهية والبغضاء والحروب وبث روح الطائفية بطريقة من الكذب والخداع واستغفال عقول الناس في الوقت الذي لا يملك المجتمع أمام هذه المصارف الكبرى أي موقف باعتبار أنّ الأموال للدولة سواء من قطر أو من =

الإعلامية لتلك المحطّات لسبب أن تلك المحطّات هي مسيّسة بالأصل، أو أنها أيديولوجية التوجّه لتحقيق هدف ما أهمّه هو بقاء تلك الدولة التي ترعى تلك المحطة في الحكم والسيطرة على الفكر الشعبي تجاه تلك الحكومة[1].

= السعودية هي أموال بيد السلطة أي العائلة الحاكمة وليس بيد الشعب. وما لم يمتلك الشعب -ايّ شعب- صلاحية التصرف بأموال الدولة فأن المتحكمين من الرؤساء ومن الأمراء سيبقون هكذا في سياستة بث روح التفرقة والبغضاء بين الشعوب لكي تبقى مقاليد السلطة بيدها لوقت أطول.

(1) إنّ المواطن في بلادنا العربية يعتقد أنّ المراسلين الأجانب الذين يغطون أي حدث في أي بلد عربي بانّهم عملاء مجندون من قبل (CIA) وهم يتخفون تحت غطاء الصحافة والإعلام، واليوم يعتقد العراقيون هذا الإعتقاد ربما لحساسية البعض تجاه الوجود الأمريكي في العراق، ونحن لا ننفي هذا الإعتقاد وإنّه ليس بعيداً عن سياقات السياسة الأمريكية، وقد حدثت مثل هذه القضايا في دول عديدة إن كان على المستوى السياسي، أو على المستوى التجاري... مع وجود قانون يمنع أي صحفي يعمل ضمن مؤسسة ما أن يكون موظفاً لأية شركة أو مؤسسة اخرى، ويمكن للصحفي أن يعمل مع أي مؤسسة دون عقد يربطه بها، كأن يعمل على حسابه ولا يتقاضى راتباً شهرياً منها إلّا من خلال تقديمه للعمل الصحفي، وهو ما يسمّى (Free Lansing) سواء أكان هذا الفرد يعمل في مؤسسة تجارية أو سياسية أو إعلامية، وفي الوقت ذاته فإن (CIA) لا يمكن لها أن تخالف قوانين الدولة ولا يمكن لها استخدام أي صحفي يعمل ضمن مؤسسة إعلامية أخرى غير المؤسسة المخابراتية التي يجب أن تكون ولاءات ذلك الصحفي أو الشخص إلى جهة واحدة فقط. المواطن الغربي الأمريكي أو الكندي عليه أن يقدّم سنوياً كشفاً مفصلاً عن مدخوله وأن يصرح عن الجهة التي استلم منها مرفقاً بالوثائق إلى المؤسسة الضريبية، وإذا أغفل عن ذكر استلامه أي مبلغ كان فهذا معناه أنه قد أخفى وكذب على المؤسسة الضربية وهذا يُعد جريمة يعاقب عليها بالسجن كما حدث مع نائب الرئيس الأمريكي نيكسون (سبيرو اكينيو) فقد أغفل أو تغافل عن ذكر استلامه مائة ألف دولار هدية مالية من إحدى الشركات فاجبرته هيئة الرقابة على تقديمه إلى المحكمة وإصدار حكم التجريم ثم فرض على الرئيس نكسون طرده واستبداله بنائب الرئيس جيرالد فورد، فالصحفي الشريف لا يمكن أن يضع نفسه في مشكلة من هذا النوع تكون نتيجتها السجن وتدمير مستقبله المهني، وغالباً ما ينظر الأمريكي أو الكندي أو الغربي بشكل عام إلى مصلحته الشخصية أولاً، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنّ المؤسسات المخابراتية الغربية إذا أرادت أن تمارس عملية التجسس على جهة معينة أو دولة ما فإنّها تلجأ إلى وسائل خاصة معقدة وبشكل لا يعرض تلك المؤسسة إلى مواقف محرجة أمام الرأي العام، أو قوى أخرى تبحث عن أي شيء لإحراج الحكومة التي غالباً ما تكون مسؤولة عن تلك المؤسسة أو المنظمة (Carl Bernistein, The CIA and the Media).

وقد يتساءل المواطن العربي ما إذا كان الصّحفي الأمريكي يحاول أن يضلّل الرأي العام بنشره أحياناً كثيرة أكاذيب تخصّ قضية شرق أوسطية، فهل هناك مساءلة أو محاسبة فيما لو تعمّد الكذب بدافع الحقد أو الكره للعرب أو للمسلمين...؟ والجواب هو أنّه لمن الممكن أن يكون هنالك الكثير من الأكاذيب التي تنشر في الإعلام الأمريكي ليس فقط ضدّ العرب والمسلمين بل عن كلّ من يتعارض مع المصالح الأمريكية، فالخبر الجديد والغريب مرغوبٌ من قبل الطبقة العامّة من الناس، فهناك الكثير من المجلّات والجرائد في الغرب التي تضلّل الكثيرين بأكاذيبها وأخبارها الملفّقة، وهناك منشورات (Tabloid)[1] في أمريكا وكندا وهي تصدر يومياً وهي عبارة عن جريدة تهتم بأخبار الممثّلين والسياسيين والرؤساء وأصحاب الشركات وفضائحهم، والمجتمع الغربي يعلم علم اليقين بتلك الأكاذيب ولكنّه مع ذلك يهتمّ بمتابعتها وقراءتها مع أنّها تمثل 90% كذباً وإشاعات، فالشعب الأمريكي لا يهتم لمن يعلن كذبه، ولكنّه لا يغفر لمن يتستّر على كذبه.

وعلى سبيل المثال نشرت إحدى الصحف الصفراء تقريراً مصوّراً عن علاقة صدام الرئيس العراقي الأسبق بشابة أمريكية مع نشر صور لهما على شاطئ البحر وفي أوضاع على أنها صور تنشر لأوّل مرة، وقد حقّقت بالأمر فوجدت أنّ إحدى تلك الصور كانت منشورة قبلاً في كتاب (لأمير اسكندر) صدر في أوائل الثمانينيات يسرد فيه قصّة حياة صدام، فهذه الأخبار والشائعات كثيراً ما تلاقي اهتمام الأفراد في المجتمع لأنّ الفرد يستمتع بقراءة الأخبار من هنا وهناك ورؤية صور هذه وتلك...[2].

---

(1) جرائد واسعة جداً فيها أخبار سطحية مثيرة وصور صارخة؛ انظر:
(http://www.independent.co.uk)

(2) وعلى سبيل الدّعاية نجد في صحف محترمة جداً مثل (نيويورك تايمز) رسماً كاريكاتورياً لكلب إسمه (Marmaduke) والرسم عبارة عن ثلاث صور للكلب كأنّه يتحدّث مع صاحبه، ويتقاضى صاحب فكرة الكاريكاتور الهزلية (Brad Anderson) ملايين الدولارات شهرياً في الوقت الذي لو بيعت مساحة ذلك الرسم لشركة من شركات الدعاية لحصلت الجريدة على وارد ربحي أكثر بكثير ممّا تستفيده لنشرها ذلك الرسم الكاريكاتوري، وإذا ما سئل صاحب =

هكذا نجد الصحافة الغربية عبارة عن خليط عجيب غريب من الأفكار التي لا تخطر على بال إنسان، هدفها الرئيسي الرّبح المادّي فقط لا غير، وليست للأفكار والمعتقدات الشخصية أي دور في ذلك، وبالمقابل نجد صحفاً وجرائد محترمة لها وزنها يكتبها أفراد محترمون (كالنيويورك تايمز) التي تنحاز وتمثّل جانب المحافظين في أميركا و(الواشنطن بوست) التي تمثل الديمقراطيين، و(الكريسنت ساينس مونترز) التي تقترب في أفكارها من الخطّ الكاثوليكي السّياسي و(لوس انجلس تايمز) و(الهيرالد تريبيونس)، وغيرها الكثير من تلك الصّحف والجرائد التي تعجّ بها الأسواق الأمريكية والكندية.

وهنا السؤال، هل يجب على الفرد العربي المسلم أن يتحسّس أو يعادي ما تنشره تلك الصحف الغربية لأيّ تحليل سياسي يخصّ العرب والإسلام لمجرّد أنّ ذلك الخبر أو التحليل لا يتوافق مع ما نعتقده ونؤمن به...؟ والجواب البديهي، طبعاً لا، فعلى المواطن العربي أن لا يزن أخبار الغرب بميزان الأفكار والمبادئ التي نعتقدها ونفكر بها نحن في الشرق، فربما هناك ألف سبب وسبب لكتابة هكذا أخبار من هنا وهناك في هذه الصحيفة أو تلك.

وتزداد حرب الصحافة شراسة في أوقات الإنتخابات وتتحوّل الصحف والمجلّات والتلفزيون والإذاعات إلى حلبات للصّراعات الإعلامية والإخبارية تدور رحاها بين أطراف عديدة متنازعة، ولا يمكن حتى للكثير من المؤسسات السياسية ومن خلال تتبّعها أخبار السياسة أن يعرف بالتحديد حقيقة تلك الصّراعات أو من يتصارع مع من، قبل أن يتوصّل إلى حقيقة واقع الصراع القائم المتستر الذي لا يعرفه إلّا متّخذي القرارات.

فالحرب الأمريكية على العراق هي قضية مهمة وحساسة جداً في

= الجريدة، أو الناشر لذلك الرسم عنه يجيب بكل بساطة بأنّ الملايين من الشعب يحبون الفكاهة والنكتة، والناس تبحث دائماً عمّا يسليها ويرفّه عنها وهذا الكاريكاتور جزء من تلك التسلية ممّا ينعكس إيجاباً على ارتباطه بالجريدة وبالتالي على قراراتها وعلى عدد قرّائها ثم ينعكس اقتصادياً على ما تتقاضاه الجريدة من شركات الإعلان، تأريخ حياة براد نشر في كتاب:
Syndicated Comic Strips and Artists, Strickler, Dave.

المجتمع الغربي عموماً والأمريكي خصوصاً، فهي كأيّ حرب أخرى خاضتها أمريكا يهتم بها الناس بشكل أكبر من اهتمامنا نحن الشرقيون بمفردات تلك الحرب، فالحرب تشغل عقول الناس وتعكر صفو حياتهم أينما كانوا وحلّوا(1).

ففي واقع المجتمع الأمريكي نجد طرفين متصارعين خلف الكواليس في خلافات وحرب لا تنتهي في الدوائر السياسية وفي المنتديات الفكرية تلك هي الحرب بين الحزب الجمهوري والحزب الديمقراطي للفوز برئاسة البلاد ومقاعد مجلس الشيوخ أو الكونغرس ومجالس الولايات الأمريكية الواحدة والخمسين، هذه الحرب إن صحّ التعبير مستمرة باستمرار الإنتخابات وعلى كافة المستويات، وعندما شنّ الرئيس بوش الحرب على العراق لجأ الحزب الديمقراطي إلى إثارة الرأي العام الأمريكي بكل ما أوتي من قوة وقدرة كي يظهر بوش وإدارته بمظهر الفاشلين وليبين للجميع أنّ اتّخاذ قرار الحرب كان خطأً منذ البداية، وقد جنّد الحزب الديمقراطي كلّ طاقاته لإسقاط بوش وازاحته عن الرئاسة وعدم السماح له ولحزبه بالفوز بفترة رئاسية ثانية، ولجأ إلى ما يمكن أن نعتبره حيلة وكما يقول المثل العراقي (ولية جبان) بمتابعة كلّ العسكريين الذين خدموا في العراق خصوصاً على مستوى القيادات العليا وعرض عليهم مناصب وظيفية عالية ومرموقة كحاكم الولاية، أو منصب في مجلس الشيوخ، أو رؤساء في شركات كبرى هامّة مقابل أن يعلن ذلك الشخص مشاهداته ونقاط الضعف التي حصلت في العراق من قبل الجيش الأمريكي وذلك في مقالات تنشر في الصحف وبشكل مستمرّ(2) وهكذا قام

(1) فالحرب مصدر كبير للصرف المالي، ومالية الدولة غالباً ما يتمّ الحصول عليها من ضريبة المواطن (Public Money)، هذا بالإضافة إلى الواقع النفسي والطبي الذي ينعكس على العوائل وعلى الناس عموماً. الحرب العراقية كلفت أمريكا مع مستقبل تبعاتها تقريباً 2 تريليون دولار (تريليون مليون مليون).

Daniel Trotta, Iraq war costs U.S. more than $2 trillion.

(2) إنّ القانون الأمريكي يمنع أي فرد ينتمي إلى المؤسسة العسكرية من الإنتماء إلى أي حزب أمريكي ممّا يعني أن واجب الفرد العسكري هو الدفاع عن الوطن وعن مصالحه، =

الحزب الديمقراطي بشنّ حملة دقيقة ومنظمة قادها أولئك الذين شاركوا في الحرب والذين كانوا بالأمس القريب أتباعاً للرئيس بوش وشاركوه بالطّبع في اتّخاذ قرار الحرب على العراق وعلى غير العراق كما هو موقف (كولن باول) الذي كان المخطّط الأكبر للحرب على العراق وانحيازه إلى الديمقراطيين بعد مجيء (أوباما) إلى الحكم.

ولكن كيف سينعكس كل ذلك التّعقيد في الصّراع على أفراد المجتمع الأمريكي...؟ بالتّأكيد سيقف هؤلاء الذين لا يعرفون لعبة الحروب ضدّ الرئيس وسوف لن يصوّتوا له في الإنتخابات الرئاسية المقبلة، وبالتالي سيتمكّن الحزب الديمقراطي من الوصول إلى سدة الرئاسة، والأكثر من هذا أن الديمقراطيون وضعوا في مخطّطاتهم وفي أجنداتهم مهاجمة القادة العراقيين في رئاسة الجمهورية والوزراء وقاموا بمساندة قوى المعارضة للنظام العراقي الجديد وقدّم لهم كلّ التسهيلات الممكنة لتشويه خطوة الحرب التي قادها بوش، ولكن الذي لم يكن في الحسبان، ولم يعتقده الديمقراطيون هو أنّ الشعب بغالبيته البسيطة أدرك اللعبة وتمكن من أن يفهم نوعيّة الحرب التي يلجأ إليها الحزب الديمقراطي ضدّ خصمه في الحكم وقام ثانية بالتصويت للرئيس بوش الإبن لولاية جديدة.

ولكنّ هل أوقف الديمقراطيون حربهم الإعلامية على الحزب الجمهوري...؟

بالتّأكيد لا لقد ازدادت ضخامة الحملة وتنوّعت أساليبها، واستغلّوا قدر الإمكان الحرب العراقية وحولوها إلى حرب إقتصادية واجتماعية وإنسانية، وتمكّنوا بعد ذلك من الفوز بأغلبية مقاعد الكونغرس كي يعطّلوا يوماً ما قرارات الرئيس الأمريكي، وعندها يعجز ذلك الحزب المتمثل بالرّئيس من

= وكل الأوامر يستلمها من القيادة العسكرية وليس من قادة الأحزاب، ويقضي العسكري حياته في خدمة المؤسسة العسكرية حتى سن التقاعد عندها يستطيع أن يترك المؤسسة ويدخل عالم السياسة كما هو (كولن باول) في ترشيحه للرئاسة.

البقاء في البيت الأبيض بعد الإنتخابات الرئاسية في نوفمبر من سنة 2008.

وهكذا عندما يفكر الإنسان العراقي العادي في الأمر ويدرك ما يحصل من حوله ويقرأ ما تنشره الصحف الأمريكية عن وضع العراق وأحوال الحرب والإخفاقات التي حلّت فإنّه بالتّأكيد سيتأثّر بالدّعاية وقوتها وسيكون له رأي آخر.

الألم... ما أقساه...!!

نزاع العقل مع النفس

لا بدّ وأنّ كلّ واحد منا قد عانى من شيء إسمه (الألم) وهو القاعدة التي يريد الإنسان أن يصف فيها كلّ شيء في الحياة لا يحقق له السعادة فيقول: قول مؤلم، أو شعور مؤلم، أو ذكريات مؤلمة، أو جرح مؤلم، فترى أنّ هذه الكلمة تتردّد كثيراً على ألسنة الناس عندما يحل الألم بالإنسان والذي يجب عليه أن يتحرك باتجاهٍ ما، وكأن الألم حافز من الحوافز المهمة في العيش ودوام استمرار الحياة[1]، فلولا الألم لم أفكر بوجود السعادة.

ولولا الألم لم أتمكن من التمييز بين الأفكار والناس والشخصيات والأخطار وغيرها من أشكال الحياة، ولولا الألم لم يصل الطب إلى تلك الاكتشافات العظمى والتطور في عالم الصحة.

فالألم النفسي غير الألم العضوي، لأنّ الألم إذا صار في الداخل فليس من السهولة إزالته كما هو حالة الألم من النوع الاول، الألم العضوي مثلاً إذا أصبت بجرثومة ما مثل بكتريا الإلتهاب المعوي فإنّ الألم سوف يبدأ بعد أن تفرز الجراثيم سمومها التي تحفّز الأجهزة الدفاعية إلى التحرك لمنع البكتريا من الاستمرار في عملها أو الانتقال إلى مناطق احتلال أخرى مثل الدّم، وفي حالة نجاح تلك الأجهزة في عملها فإنّ الألم سيتوقّف[2].

(1) ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [البلد: 4].

(2) ولكن زوال الألم الظاهري لا يعني زوال أصل الألم، فكلّ مرض يصاب به الإنسان أو جرثومة أو عرض آخر مرضي فإن الشيفرة التركيبية لذلك المرض تبقى في داخل جسم الإنسان في خلايا خاصة تخزن فيه التركيبة الكيمياوية لهذه الجرثومة، فإذا صادف وأن عادت تلك الجرثومة وأصابت ذلك الإنسان ثانية فإن الجسم عندئذ يتحرك لافراز المادة المضادة الحيوية لقتل الجرثومة مباشرة وبدون أن يفكر أو يحلّل التركيبة الكيمياوية لتلك الجرثومة أو المسبب =

الألم النّفسي لا يختلف كثيراً عن الألم العضوي الجرثومي فيما يتعلق بهذه الظاهرة إذ يبقى في ذاكرة الخلايا المتخصّصة، ولكنّ مشكلة الألم النفسي هو أنّنا لا نعالجه، وهذا معناه أنّ المرض ومضادات المرض سوف تبقى في الجسم تدور مع دوران الدم وفي الخلايا، وعندما يأتي المرض النفسي الثاني مثل موت عزيز، موقف مؤلم، فإن آثار ذلك سوف يبقى في الجسم أيضا، وهكذا تمرّ على الإنسان في كلّ سنة ربما مائة موقف مؤلم هذه كلها تتراكم على شكل تركيبات كيماوية داخلية في داخل خلايا الإنسان المتنوعة والمختلفة المنتشرة في الجسم، ثم تضغط على أماكن الإحساس فتؤلمها، وعلى أماكن العمليات الحيوية فتوقفها أو تؤخر مسيرتها بسبب ذلك المرض النفسي والذي بعد فترة زمنية يبدأ الإنسان يعاني من الآلام النفسية التي يمر بها ليتحول إلى شبح جسم لا يتمكن من مقاومة أبسط القضايا في الحياة، ويحاول أن ينأى بنفسه عن كل ما يؤلمه، بل أحياناً يميل إلى الانتحار إذا توفرت له الفرص في ذلك، وذلك بدون أن يشعر بتعقيدات العملية الانتحارية.

فعندما يصاب الفرد بالمرض الجرثومي أو العضوي فإن الألم سوف يكون دافعاً له في مراجعة الطبيب ولولا وجود ذلك الألم فليس هنالك من حاجة من الذهاب إلى الطبيب أو إلى المستشفى أو دفع مبالغ الدواء أو الدخول في عمليات جراحية قد تؤدي بحياته، لذلك يمكن القول أن أفضل الجراثيم وأسهلها علاجاً هي الجراثيم أو الأمراض التي تسبب ألماً قوياً، وأخطر الجراثيم هي التي تسبّب ألماً أقل، وأكثرها خطورة تلك التي لا تسبب ألماً ولا يشعر الإنسان بها، فمثلاً جرثومة (الجذام) خطورتها تتأتّى من أن المريض لا يشعر بإصابته لو مثلاً جرحت رجله أو يده فالدم يسيل منه وهو لا

= العضوي، ومثلها مثل الملاكم الذي نازل ملاكماً آخراً فإنّه يحتفظ في ذهنه بأسلوب وإستراتيجية ذلك النزال وعلى ضوء ذلك يبني خطة دفاعه، وهكذا يحتفظ جسم الإنسان في ذاكرته المناعية بكل التركيبات الكيماوية لتلك الجراثيم التي هاجمت في السابق الجسم وإصابته، لذلك فإنّ علم التلقيحات (Vaccination) معظمه يبنى على هذه النقطة الجوهرية.

يعلم بأنه مجروح فلا يبادر إلى علاج ذلك الجرح مما يسبب له إصابات ثانوية متعددة.

فجرثومة (الجذام Leprosy) تهاجم المراكز العصبية النهائية في الأرجل واليد وتفقده الإحساس بالألم الناتج من أي جرح قد يصاب به الإنسان في أثناء عمله أو أثناء مشيته، فخطورة مرض الجذام تتأتّى من عدم القدرة على تحسّس الألم.

فالألم هنا رحمة، وبعدمه يتحوّل الجسم إلى عرضة للجراثيم والأمراض الموجودة في المحيط والجو.

فالجراثيم الخطرة جداً مثل (الكزاز) والفيروسات القاتلة المميتة هذه موجودة أصلاً في الغذاء الذي نأكله، والماء الذي نشربه، والهواء الذي نتنفسه، وسبب عدم إصابتنا بها هو أنّنا نعيش مع هذه الجراثيم القاتلة بحالة من حالات التوازن، فإذا نقصت مناعة الشخص بدرجة معينة تبدأ هذه الجراثيم بالهجوم حسب الوضع الصحي للإنسان، ومن خلال قاعدة الألم الذي تولده هذه الجراثيم ولم يتحرّك ويبادر للعلاج فإنّ هذه الجرثومة ستبدأ بالتكاثر بطريقة تكاد تكون خيالية وتنتج ليس ملايين بل بلايين من الجراثيم تهاجم الجسم بشراسة كبرى.

ولو افترضنا جدلاً عدم وجود مناعة بالكامل فإنّ الموت يجب أن يتحقّق خلال أقل من ساعة من الزمن لأنّها سوف تتحوّل أعدادها إلى أرقام مذهلة، هذه الجراثيم الخطرة تسمّى في عالم الطب (Opportunistic Germs) الجراثيم الإنتهازية، وكلما أدرك الإنسان لسعة الألم مبكراً كلما كانت آمال تخلّصه من المرض مبكراً أيضاً.

أمّا الألم النفسي الذي تنتجه ليس الجرثومة المايكروسكوبية، وإنّما أحداث الحياة العامة مثل موت إنسان عزيز أو تعاسة إنسان، فقر، موت، مرض، مشاكل عائلية، تحطيم مبدأ فكري من المباديء التي يؤمن بها الإنسان، أحداث سياسية، أحداث تعسفية... الخ هذه كلّها عبارة عن ما يقابل

الجراثيم التي تصيب الإنسان في مثالنا السابق، ولكنّها جراثيم نفسية تعمل تماماً كعمل الجراثيم العضوية مع أنّ الفارق هو أنّ هذه الجرثومة لا تحمل صفات الحياة بل تحمل صفات الروح، فهي تولّد أيضاً إستجابات داخلية كيمياوية.

فمثلاً عندما يموت عزيز أو أب، اخ، صديق، قائد، مفكر، فإنّ الشعور بالألم النفسي لدينا يكون عبارة عن شعور مختلط قاسٍ نحير دائماً في إدراك مصدره وحجمه وشكله ومكانه، نتحرك أثناء وجود ذلك الألم بحركات غير متّزنة ونتكلم بكلمات غير معقولة وننام أو تستيقظ أو نأكل أو نجوع بشكل غير متزن، وقد نُعبّر عن ذلك الألم أحياناً بالبكاء وأحياناً بالضّحك وأحياناً بالعنف وأحياناً بالإنطوائية حسب الوضع العام للشخص الذي تحسّس الألم.

فالشّعوب العربية عموماً تلطم على وجهها ورأسها وصدرها معتقدين في اللّاشعور أنّها ستخرج ذلك الألم من هاتين المنطقتين العقل والقلب، أمّا الغربيون فإنّهم وبعد تعرّضهم لأيّ من تلك الحوادث المؤلمة التي ذكرناها يتوجهون بعد الإنتهاء من مراسيم الدفن الى عيادة طبيب... ولكن أيّ طبيب...؟؟... المعالج النفسي (Psychatrist)،... فهو الوحيد القادر على تحديد نوعية الدّاء ومكانه ومن ثمّ التخلّص منه[1].

إنّ منطق التعامل مع الألم -أي ألم- يجب أن تسوده العقلانية والحضارية، فعندما يعاني شعب ما حالة من حالات الظلم الجماعي والإضّطهاد الجماعي فإنّ ذلك المجتمع يجب أن يتعلّم إلى أين يذهب...؟

(1) تفاعل الإنسان مع المرض أو الألم ومسبباته هو أمر حضاري يتصرّف تجاهه الإنسان إنطلاقا من خلفيته الفكرية والحضارية، فالمتحضر غالباً ما يترك أمر العلاج إلى المتخصص في هذا النوع من الالم، بينما يرى الغير من الشعوب غير المتحضرة بأن الطريق لازالة الألم هو فلسفة أخرى غالباً مايضعها في اطار الجانب ما وراء الطبيعة وخصوصاً في حالة الأمراض النفسية.

Faith or Delusion? At the Crossroads of Religion and Psychosis". Journal of Psychiatric Practice. Pierre, Joseph M. (2001).

هوية الطبيب، وكيف يعالج المرض...؟ وهل العلاج آنيّ أو زمني...؟ وكيف يتمّ تناول جرعات العلاج...؟ فالظلم الاجتماعي والظلم الذي تسلطه الدولة على المواطن من جرّاء إهمال شخصيته ووطنيته يتحوّل مباشرة إلى ألم داخلي نفسي يتعايش مع المواطن بشكل يختلف من فرد إلى آخر إلى أن يصل إلى درجات متفاوته من عملية محاربة ورفض ذلك الألم، ولا يعتقد القارئ بأنّني أتكلّم عن الألم النظري بل إنني لازلت أتكلّم عن الألم العضوي الذي تشترك فيه الإفرازات البايولوجية والكيمياوية داخل جسم الإنسان.

المجتمعات المتحضرة والمثقفة تعلمت أن تتصرف مع الألم بطريقة تسودها العقلانية والإنسانية، ذلك ينطبق ليس فقط على مثال المرض العضوي والجرثومي بل على أمثلة الأمراض النفسية والاجتماعية التي تعصف بإنسان ذلك المجتمع[1]... فالألم هنا يتحول إلى خيال بل إلى شيء غير موجود.

كلّنا يعلم لحظات الألم التي تجتاحنا بعد فترة من فترات الإنفعال، فإذا واجهك خصم، سارق، قاتل، معتدٍ وقاومته فإنّ حجم القوة التي تمتلكها آنذاك أكثر ربما بخمسة مرات من قوتك العادية، فإذا كنت تعجز عن رفع حجر بوزن خمسين كيلو غرام ففي ذلك الوقت تتجذر قوتك لرفع ذلك الحجر وكأنّه خمسة كيلو غرامات وليس خمسين... لماذا؟

لأنّ الألم الذي سلّطه ذلك المعتدي عليك في سلب أموالك أو شخصيتك أو مبادئك قد تحول إلى قوة دفاع، ولا أعني قوة الدفاع هنا من الناحية المبدئية المجردة، وإنّما أعني من الجانب البيولوجي والذي انعكس على التركيبات الكيمياوية الداخلية والتفاعلات الحيوية بحيث اكتسب

(1) اغتيل ابن قائد إحدى الثورات بطريقة غامضة ويعتقد أنها عملية اغتيال سياسي، فلم يذرف الأب دمعة واحدة على ولده مع أن كل الذين حوله كان في منتهى الألم. فألم موت الإبن عند هذا الإنسان حوله في داخل عقله الواسع إلى فلسفة (الفقد) و(الموت) ومثله كمثل الأبطال العظام في التأريخ الإنساني في صراعهم مع الألم... ألم الطغيان... فقد تروي الشواهد أن أصحاب المسيح عندما رماهم آنذاك حاكم روما إلى بركة السباع لتأكلهم وجدهم يتصارعون أيهم يسبق صاحبه إلى أنياب الأسود.

العضلات التي يجب أن تتحرّك بقوة تعادل قوة أربعة رجال بسبب الضخّ الهائل للأدرينالين ولبقية الهرمونات المسؤولة عن تغيير المحتوى الداخلي للشخص، والتي غالباً ما يتغيب العقل الواعي عن إدراك سرعة التفاعلات الجارية في تلك اللحظة.

ولهذا فإنّ الإنسان عندئذ يفتقد قدرة إدراك النتائج المترتبة على عمله هذا في أن يكتسب أربعة اضعاف قوته في موقف الدّفاع والهجوم.

وقد يكون الألم أحياناً قضية عكسية لما ذكرناه آنفاً، حيث يعمل على إضعاف الإنسان داخلياً وإشعاره بعدم القدرة على الاستمرار في تحمل الألم، وأنّ ذلك سيؤدّي به إلى الموت أو الفناء، أو أن المقاومة سوف لا تؤدّي إلّا إلى ما هو أسوأ، ولذلك يستسلم للظروف تماماً ويتحول إلى كائن ضعيف تملأ جوانبه الإنهزامية من كل مكان، ولا يتمكن من المقاومة[1]، ولذلك قد يجد الإنسان أن هنالك فظائع ترتكب في تلك المجتمعات التي تعيش في ظل ألم السلطة والإرهاب وهي ظاهرة معروفة حيث تصبح الآلام عنصراً هداماً لشخصية الإنسان.

وهنالك معادلة لا بدّ من الإشارة إليها، وهي أنّ الألم قد يقفز خلف الإرادة الإنسانية، ويسيطر عليها من خلال سيطرته على تفاعلات الدّماغ ويبقى تحت سيطرة العقل، العقل بدوره يسيّر الدماغ في كيفية أو نوعية الإفرازات التي يجب أن يفرزها، فاللّاعب القوي هنا في هذه المعادلة هو العقل، أي

---

(1) وأهم من استعمل ذلك في علوم الشعوب هو (بافلوف) (ت 1936 م) العالم الروسي العبقري، والذي تمكن من خلال تجاربه العلمية أن يبرهن على أن الألم عند الشعوب إذا كان بشكل مستمر فإن عامل الضعف هو المرشّح الأول قبل عامل الانتفاض والقوة، كما أثبت هذا الرجل أيضاً بأن عدم الاستمرارية في تسليط جرعات الألم على الشعب سوف لا يؤدي وظيفته في الإستحكام عليه والسيطرة على حركته، بل قد يحول الألم هذا الشعب بأكمله إلى قطعان من السهولة قيادتها وتوجيهها حسب ما يراد لها. للاطلاع على تجارب العالم الروسي المبدع وتجاربه التي صارت أداة مهمة بيد الحكومات في كيفية قيادة شعوبها. يمكن مراجعة: (http://en.wikipedia.org/wiki/Ivan_Pavlov).

الجانب الواعي من دماغ الإنسان، وهو الأساس الذي يبنى عليه نتائج المعادلة، فعندما يفهم الإنسان كلّ الظروف المحيطة بالألم لماذا حدث؟ اسبابه؟ عواقبه؟ ابعاده؟ عندها يتمكن من أن يُحوّل ذلك الألم إلى قدرة إيجابية، وكلما غابت المعلومات عن طبيعة الألم وأسبابه كلما ضعفت إرادة الإنسان على المقاومة.

في الأسواق اليوم عدد ضخم من مسكّنات الألم (Pain killer) تعطى للإنسان الذي يحتاجها حسب نوعية الألم، فآلام الراس مثلاً تختلف في مسكّناتها عن آلام المعدة، والرّجل والجهاز الهضمي تعمل كلّ تلك المسكنات على خداع الدماغ وإخباره بعدم وجود حالة غير طبيعية في ذلك المكان الذي يصدر منه الألم، وبذلك يتوقّف الدماغ عن إرسال إشارات إلى أجهزة الدفاع الجسمية في إرسال الجنود إلى منطقة الخلل وتحمل نتائج المعركة الحامية التي تنشب ما بين الطرفين والذي ناتجه هو الألم.

فالألم في واقعه عبارة عن مجرد شعور قد تكون أسبابه حاضرة، ولكنّنا لا نشعر به، أو قد تكون غير موجودة، ولكنّنا نشعر به، فالكثير من الناس يستشعر ألماً ليس له أسباب موضوعية، وإنّما هو مجرد شعور خيالي أكثر ممّا هو شعور واقعي، كما أن هنالك ألماً حقيقياً واقعياً بأسبابه البيالوجية ولكنّ الشعور له من القدرة والعنفوان ما يمكنه من عدم اظهاره[1].

فقنوات الألم معروفة تمر من خلال الجهاز العصبي المركزي وهو المنطقة التي تتحكم في الإرسال من خلال هذه القناة أو تلك، أحياناً يعجز الدماغ عن تفسير الألم لماذا...؟ لأن تلك القنوات مغلقة، إما مغلقة بحادث

(1) فقد تحكى قصّة حدثت في القرن الأول الهجري عندما دخل سهم في رجل الأحنف بن قيس (ت 67 هج) وهو أحد عقلاء العرب فدعا طبيباً لإخراجه بينما هو جالس بمجلسه الذي امتلا بالأدباء والشعراء كان الاحنف أثناء عملية إخراج السهم يتحدث معهم ويجاذبهم أطراف الحديث من شعر ونكات وعلوم حتى انتهى الطبيب من إخراج السهم، فالتفت إلى الأحنف ليسأله فيما إذا كان يشعر بالألم فأجابه: إنّني والله شعرت كأن السماء سقطت على رأسي، ولكنّها العزة، عزة النفس أن أنطق بكلمة (آه) .

بيولوجي أو حادث نفسي، عندئذ يتوقف الألم من أن يجد طريقه نحو المشاعر.

فعندما تتولد لدى الإنسان القدرة على التلاعب بمشاعره، وترييضها كما تُريض أي عضلة من عضلاته، أو أي عادة من عادته، فإنه يساعد على إغلاق منافذ سريان الألم، وقد استفادت من هذه الخاصية التدريبية حركات ومنظمات وأحياناً أجهزة استخباراتية عالمية أملاً في منع عناصرها من السقوط أمام ضغط الألم إذا وُضعوا تحت ظروف تعذيبية لإنتزاع الإعترافات منهم، ولكنّ المشكلة التي تبرز من جراء هذا النوع من الرياضات على تحمل الألم هو حدوث بدايات مرض انفصام الشخصية لدى ذلك الشخص(1).

وقد لوحظ أيضاً بأنّ الألم قد ينتهي أحياناً إلى طريق مسدود عندما يقاوم الشخص المعتقل ذلك الألم تدريجياً فإنّه وبمرور الوقت تنخفض نسبة التّأثير بصورة مُطّردة ويلجأ المحققون إلى أساليب أخرى لا تتعلق بالألم الفسيولوجي، وإنّما الألم النفسي.

إنّ أصحاب العقائد والمتمسّكين بمبادئهم (مهما كانت) أثبتوا بأنّهم أقدر الكائنات على ترويض مشاعرهم على تحمّل الألم، فقد عجزت الولايات المتحدة في حرب فيتنام وبالتعاون مع الفيتناميين الجنوبيين في انتزاع الإعترافات من القساوسة البوذيين (المونك)، من الذين كانوا يُعتبرون الجهة الروحية لحالة الصّراع وإدامته مع الولايات المتحدة.

---

(1) فقد لوحظ أنّ الصينيين الذين كانوا يقاومون أجهزة التعذيب والإستخبارات الصينية في زمن الثورة الثقافية أيام ماوتسي تونغ غالباً ما يواجهون مرض انفصام الشخصية فيما بعد خروجهم من المعتقل خصوصاً أولئك الذين كانت لهم قدرات على تحمل آلام التعذيب، كما يروي ذلك صلاح نصر في كتابه الحرب النفسية، كذلك شوهدت هذه الحالة في الواقع العراقي مع الذين خرجوا من سجون صدام التعذيبية من الذين قاوموا الإنهيار والإعتراف وهي ملاحظة ليست مسجلة لدى الدوائر العلمية أو البحثية ولكنها تجمعت من شواهد متفرقة. (الحرب النفسية أو معركة الكلمة والمعتقد لصلاح نصر، الجزء الأوّل، دار القاهرة للطباعة والنشر، القاهرة 1967).

فالحرب الفيتنامية لم تكن عبارة عن مبادىء شيوعية ورأسمالية كما وصلتنا أخبارها، وإنّما هي حرب امتزجت فيها الوطنية والمبادىء الدّينية بالمشاعر القومية وغيرها ممّا كان الفيتناميون يؤمنون به، وكانت العقائد البوذية التي تدعو إلى ترويض الألم المسلّط على الجسد أمام سموّ الرّوح هي إحدى أهمّ العقائد التي أشعلت لدى الفيتناميين قدرة القتال والصراع مع فرنسا أولاً، أو مع الولايات المتحدة أخيراً، وقد وجدت في إحدى كتب التراث حوادث كثيرة في توضيح هذه النقطة الهامّة من عملية الصّراع مع الألم سواء كان النفسي أو الجسدي[1].

---

(1) فقد جاء في القرآن الكريم زوجة فرعون آسيا بنت مزاحم التي آمنت بدين النبي موسى في الوقت الذي كانت الأمة المصرية ترى في فرعون هو الإله، وبذلك وأمام غضب الزوج الفرعون قرّر أن يعذب زوجته حتى الموت، وخصوصاً تعذيب الجلد لأن الفراعنة كانوا يعتقدون بأنّ الروح موجودة في الجلد، فقام بتقطيع جلدها إرباً إرباً، وكان مما يُروى أن المرأة كانت تبتسم أمام حفلات التعذيب الجماعية الرهيبة، ومعنى ذلك أنها قد تمكنت من أن تسدّ وصول قنوات الألم إلى الشعور، وبذلك صار الشعور مفصولاً بايولوجياً عن الجسد، وكان هنالك شخصان شخص بشعور، وشخص بمادة بايولوجية، وقد لاحظت هذه الحالة التي شرحتها تواً مع بعض المرضى الذين أصيبوا بحوادث إطلاق نار في الولايات المتحدة الأمريكية التي يجب على الطبيب أن يعالج حالة نزف الدم ونفاذه قبل حالة السيطرة على الألم الذي يملأ كيان الجسم المصاب، وجدت أن بعض أولئك المرضى الذين يروون لي قصتهم بعد الشفاء إنّهم وأثناء إجراء عملية نزف الدم فإنّه (الشخص المصاب) كان جالساً وهو ينظر إلى شخص آخر جالس في داخله يقوم الأطباء بعلاجه، وعندما سألتهم متى حدث ذلك كانوا يجيبون إنّها تحدث عند اشتداد الألم في الوقت الذي يعجز الدماغ عن التفسير أو السيطرة عليه، وقد قرأت أيضاً في تاريخ الثورات التي انبثقت إبّان الحكمين الاموي والعباسي، كيف أن الحكام آنذاك كانوا ذوو قدرة واسعة على تفهم معنى الثوار ونفسياتهم ومن ثم وضع خطة لكسر وتحطيم مشاعرهم بأساليب غاية في التقدم آنذاك وربما يستعملها البعض في هذا الزمن إذا كان له أن يطلع على واقع الحكام الذين سبقوه، وكانت من إحدى تلك الحوادث التي يرويها الطبري في أن المهدي العباسي (ت 169 هج) قتل أحد أبناء الثوار وهو صاحب ثورة (فخ) (ت 169 هج) ثمّ قطع رأسه وأرسل برأسه إلى أبيه الذي كان يقبع في السجن، وعندما جاءه الرسول وهو يصلي في السجن فأخبره السجّانون بانّهم جاءوا برأس ابنه الشاب (كان ذلك الشاب يسمى أحمر العينين لجماله وبياض بشرته) لم يقطع الأب صلاته، وإنّما شعر بالألم، ولكنّ الألم تحول إلى قطع متناثرة من حجر صلب، فأجاب الرسول وقال له: دعني أكمل صلاتي ثمّ اتناول رأس ولدي، هذا الألم لم يكن بعيداً =

فلقد كان من أهمّ ما أثار الرأي العام العالمي ضدّ الولايات المتحدة الأمريكية في الحرب الفيتنامية هي حرق علماء البوذيين أنفسهم في ساحة عامّة من ساحات العاصمة هانوي في عام 1963 حيث يروي صحفي أمريكي (Malcolm Browne) كان قد سطّر تلك الملحمة من ملاحم قدرات الإنسان في السيطرة على ألم الجسد ...[1].

وقد هزّت هذه الصورة الرأي العام العالمي وحطّمت كبرياء أمريكا

= عما في داخله من إفرازات بيولوجية وكيمياوية، وإنّما صار حالة سائلة يمكن أن يطردها الجسم بفعل قدرة العقل، وهكذا أنهى صلاته ثم تناول الرأس وقبله، وقال مقالة مطولة مذكورة في كتاب (ابن شهراشوب) أهمها فقرة تخصنا هنا، قال للرسول: إذهب إلى المنصور وقل له: (لقد انقضى من عذابنا يوم، وانقضى من سعادتك يوم، وسنصل إلى رب حكيم حتى يقضي فيما بيننا) انظر إلى دقة العقل، وكأن المتكلم ليس هو الذي جيء برأس إبنه أمامه في هذه اللحظة، بل كأنه صار إنساناً آخراً إذ وجّه الألم النفسي إلى مناطق أخرى في الجسم حتى تمكن من أن يقدم هذا الإبداع في الأداء، لكنّ الأداء هنا ليس كما ذكرنا مسبقاً في تضاعف قوة العضلة إلى أربع مرات، بل قدرة العقل وقدرة الحزم، وهي ناتج من جرآء ضغط الألم النفسي الذي ليس بالضرورة أن يتحول إلى حالة سلبية، بل إلى الحالة الايجابية، وهي دائماً ما ترافق أولئك الذين مرّنوا عقولهم في السيطرة على (ألم) أو (لذة) الجسد.

(1) يقول... جاء هذا الرجل وكان عمره 55 سنة وحوله مجموعة من رجال الدين البوذيين (Monks) يحيطون به ثم جلس في ساحة من ساحات العاصمة ثم صب الزيت على رأسه ووجهه وجسمه وملابسه حتى تبللت كلها بالبنزين، يقول هذا الصحفي الأمريكي: بانّه -أي الصحفي- شعر آنذاك بقشعريرة سرت في كلّ جسمه وبدأ جسمه يفرز عرقاً غزيراً، كما شعر أيضاً بأنّ عضلات الفم أصبحت عاجزةً عن إمساك اللعاب الذي في فمه كما صارت عضلات العين كذلك، أراد كما يقول هو: الفرار وعدم التصوير ولكن كيف وهو في سبق صحفي كبير بعد لحظات ستصل هذه الصورة إلى كلّ جرائد العالم وتلفزيوناتها، ممّا دعاه إلى البقاء والإستمرار في التصوير، كان رجل الدين الفيتنامي صلباً وهو بكامل شعوره وأحاسيسه حيث التفت إلى تلاميذه يطلب منه أن يتأكّد من وصول البنزين إلى ظهره، ثم أغمض الرجل عينيه وأحرق نفسه فاشتعلت النار بلحظة واحدة وأكلت رأسه وجسمه وظهره وتساقط لحم وجهه وجسمه وطلابه حوله مفتخرين بذلك، تعالت النيران إلى عنان السماء حيث تحوّل هذا الرجل إلى رماد خلال أقل من خمسة دقائق... نسأل ونقول: أليس هنالك ألم في أحاسيس هذا الرجل...؟ بالتّأكيد هنالك ألم ضخم وكبير، ولكن لماذا لم يجنب نفسه هذا الألم؟...لأنّ الألم صار تحت سيطرة العقل، وهنا تذوب الاحاسيس أمام عشقه لما يؤمن به، لأنّ سعادة الإيمان أقوى من نفس الألم... كامل القصة تجدها على موقع: (thought catalog): (http://thoughtcatalog.com).

ووجدت نفسها أنّها أمام معركة صعبة أن تتجاوزها، فالألم إذن لم يعد هو الرّادع الذي يوقف الإنسان أمام غاياته، فهنالك إذن لذّة كبرى إذا وضعت إلى جانب الألم، يموت الألم أمامها وتموت حسابات الجسم البيولوجية، وهكذا هي قصّة البطل الاسطورة مفجّر ثورات الرّبيع العربي (طارق الطيب محمد بوعزيزي مواليد 29 مارس 1982)[1] الذي أفقده الكبرياء حجم الألم، فلم يشعر هنالك من طريق لقتل ذلك الكبرياء إلّا لهب الحريق.

(1) (http://en.wikipedia.org/wiki/Mohamed_Bouazizi).

مشكلة الفهم الخاطئ للإنسان

مرض نقص المناعة المكتسبة

(Acquired Immune Disease Syndrome)

لعلّ كلّ واحد منّا سمع بهذا الاسم أو قرأ عنه أو أثار انتباهه ورغب في أن يطّلع أكثر عليه وعلى طريقه تجنبه، وخصوصاً أبناء شعوبنا العربية الذين لم يعرفوا ماهية هذا العنوان إلّا في فترات متأخّرة من عقد الثمانينيات بينما كانت بدايات المرض قد ظهرت في السبعينيات وكانت آنذاك مشكلة كبرى للمسؤولين الصّحيين.

المرض هو عبارة عن حالة تنخفض بها مناعة الإنسان إلى درجة تجعله بحالة من حالات عدم القدرة على تحمّل الإصابة بالأمراض الأخرى البسيطة مثل الأنفلونزا وغيرها، والمسبّب للمرض هو (فيروس) يعمل على مهاجمة الخلايا المناعية أو الجهاز المناعي فيشلّه عن قدرته على مقاومة الأمراض، ينتقل هذا الفيروس عن طريق سوائل الجسم فقط إلى الجزء المخاطي لعضو الشخص المستلم، وكحالة (لا هوائية)، معناه أنّ الفيروس سوف يموت إذا تعرّض إلى الهواء، إذن الانتقال يكون إمّا عن طريق المشيمة، الأم إلى ابنها، أو عن طريق نقل الدّم كما يجري في المستشفيات، أو الاتصال الجنسي من خلال سائل الرجل، والطّريقة الأخيرة هي اليوم من أكثر الوسائل شيوعاً في العالم الغربي. أمّا في عالمنا العربي فلا أستطيع إلّا أن ألتزم الصّمت لأنّ عالمنا العربي يفتقد إلى الإحصائيات الطّبية وإلى معرفة أسباب المرض، فليس لدينا جهاز إحصائي في كلّ دولنا العربية يّستطيع أن يقدّم لنا عدد المصابين ونوعية الإصابة وهذا لا ينطبق فقط على مرضى (الإيدز) وإنّما على كلّ الأمراض التي تصيب الإنسان والحيوان، وهذه ظاهرة أخرى خطرة من ظواهر التأخّر الحضاري والصّحي والسياسي والاجتماعي، وربّما السبب الرئيسي في ذلك هو الوضع الاجتماعي لمفهوم الجنس في الأعراف الاجتماعية المعقدة.

في منطقتنا العربية ليس هنالك من إحصائيات طبية عن عدد أو انتشار أو ضحايا مرض (الإيدز) مهما تبجّحت الحكومات العربية، ومهما تفاخرت بامتلاكها جهاز إحصائي لمتابعة المرض، ولي في ذلك شواهد ثابتة لا تقبل النقض.

إنّ طريقة الانتقال الجنسي هي من أهم الطرق التي يبحث بها العلماء علماء الطّب وعلماء النفس، وخصوصاً الطريقة الشاذة في النقل أي بين مثليي الجّنس حيث تنتقل الإصابة من ذكر إلى ذكر[1]، ولهذا ارتبطت قضية مرض (الإيدز) بأولئك الشاذين جنسياً، الذين اعتادوا على هذه الطريقة لإشباع شهواتهم من خلال العلاقة بين نفس الجنس، وأعني في ذلك الذّكور لأنّ الشّذوذ الجنسي بين الإناث لا يؤدّي إلى الحالة المرضية المذكورة التي أشرنا إليها، وإنّما الانتقال إلى الأنثى يتأتّى من خلال العلاقة مع رجلٍ مصاب.

وهنالك الآن المنظّمات الاجتماعية والصّحية في أمريكا وكندا تتبنّى موضوع (الإيدز) كموضوعٍ أساسيّ في مهمّاتهم، وكلّنا يتذكّر المظاهرة الضّخمة المليونية التي انطلقت في واشنطن في الثمانينيات وكانت تطالب الحكومة الأمريكية بإيجاد حل لأولئك الشاذين جنسياً من الذكور عندما كانت العلاجات آنذاك عاجزة عن تحقيق العلاج.

في أواسط الثمانينيات بدأت تبرز إلى السّوق علاجات (الإيدز) مثل (3TC، Crixivan, Diltiaz) وأدوية أخرى غالية الثمن تكلّف الحبّة الواحدة ربّما أكثر من عشرة دولارات، هذه العلاجات لم يثبت أنّها تقضي على المرض، وإنّما تخفف حالة انتشار الفيروس في أنحاء الجسم أي حصر المرض في الحالة التي هو عليها في تلك اللحظة.

وقد نشطت الشركات المنتجة للأدوية لإنتاج أنواع غالية جداً تكلّف

(1) يحظّر القانون في الغرب استعمال كلمة الشاذ جنسيا كإشارة إلى مثيلي الجنس ويعتبرونها نوعاً من الهجوم عليهم، لذلك فالقانون قد يعاقب الإنسان الذي يستعمل كلمة (شاذ) وبدلاً من ذلك فإنهم يستعملون كلمة (Gay).

الدولة مبالغ طائلة، كما نشطت وفي نفس الوقت المنظّمات الإباحية الجنسية، وخصوصاً في داخل التجمعات الشاذة وذلك لتحطيم المجتمع وتحويله إلى أداة بيد تلك الشهوة، وهذه المنظّمات تعمل تحت عناوين متعدّدة وكثيرة أهمّها هو الحرّية الشخصية، وحرية المواطن في اختيار نوع الممارسة الجنسية التي يراها.

إنّ الجهات الصّحية في الحكومات الغربية غالباً ما تكون ضعيفة أمام موجات تلك المنظمات الكبيرة الضخمة وما عليها إلّا أن تلملم ما تركته آثار تلك المؤسسات المدعومة، ولقد كان الحدث الخطير الذي اخترعته عقول الشّر وعقول الإباحية في الغرب أمريكا وكندا، وبإسم حماية الأطفال من (الإيدز) أن قرّرت وزارة الصحة الكندية وضع الأغطية الخاصة التي يستعملها الرجل عند الجماع في المدارس الثانوية، وذلك بحجة أنّ ذلك سيقلّل من انتشار المرض ما بين الطلّاب والطالبات، وفي نفس الوقت هو إثارة جنسية للجميع تُسهل وتشجع على الجنس في كلّ الأمكنة، هذه الخطوة كانت مثيرة للإهتمام وخصوصاً في أعمار المراهقة لدى الطلّاب والطالبات من الذين استهوتهم الحالة العارمة للعلاقة الجنسية وبأجواء الإثارة المتنوعة في كلّ الأمكنة.

في بداية الثمانينيات تحوّلت (تورونتو) إلى أكبر مدينة للشّاذين جنسياً في أمريكا الشمالية بعد مدينة (سان فرانسيسكو) الأمريكية، وكنت وبحكم عملي أتابع الأدوية التي تعطى لهم، ومدى التقدّم بصحّتهم والوضع الاجتماعي لهؤلاء، بالإضافة إلى الجوانب النفسية وطريقة تفكيرهم، وماهي الدّوافع والمسبّبات في أن يترك الإنسان الجنس الأنثوي اللّطيف وينحدر إلى هذه الرغبة الشّاذة.

وبعد مدّة من الزّمن وجدت أن البناية الطبية التي تعمل فيها مؤسّستنا الصّحية قد شهدت مجموعة من الأطبّاء والأخصّائيين الذين ينتمون إلى هذه الطائفة، ولم أكن في البداية أصدق ما سمعته، لأنّ الشذوذ الجنسي لدينا

نحن الشرقيون مرتبط في أذهاننا بتلك الطبقات الدونية من المجتمع من الذين لا تشملهم ثقافة التراث والأخلاق، وقد قرّرت أن أقوم بزيارة أحد أولئك الأطبّاء من الشّاذين ومن الذين يهتمّون بعلاج مرضى (الإيدز) فوجدته شخصاً لطيفاً مهذباً بمظهر جذاب، كما وجدت أنّ تخصّصه من التخصّصات الجيدة في علم الطب، وهكذا مع بقية طبيبين آخرين كانت لهم عيادات في نفس البناية، فعرفت أنّ الغربيين يعتبرون قضية الشذوذ الجنسي عبارة عن قضية شخصية لا غير، وقد حاولت جاهداً بسبب اهتمامي بالجانب الاجتماعي للشعوب أن أتفهّم الأسباب التي تكمن وراء اللّجوء إلى عادة الشذوذ الجنسي في المجتمع الغربي مع توفّر العنصر الآخر أعني العنصر الأنثوي لإشباع حاجة الرّجل[1].

ولكنّني وجدت بعد أن اطّلعت على آراء المريدين لهذه العادة واطّلعت أيضاً على معارضيها، وجدت أنّ هؤلاء الشاذين لم يكونوا بالأصل من ذوي الرغبات الفطرية نحو الذكر، وإنّما بدأت هذه الظاهرة كمحاولة، ثم استحسان، ثم عادة ثم تأصيل، ومثلها كمثل الدخان، والخمر، وبقية الأمور التي ينظر إليها الشّخص من الخارج بنظرة سوداوية ولكنّه عندما يمارسها أو يقترب منها فتتحوّل له إلى إلفة ثمّ تتحوّل تلك الإلفة إلى عادة ثم تتأصّل العادة فتكون ظاهرة مدمنة.

وقد أُجرِيت بحوث طبية كثيرة في عالم الغرب لمعرفة أسباب لجوء الشخص إلى مثيله في عالم الجنس، فوجدوا أنّ هنالك في الدماغ غدة من الغدد يصغر حجمها عند الغالبية العظمى من الشاذين جنسياً، بينما لا تتوفّر هذه الصفة في الأشخاص الطبيعيين.

(1) وعندما كنت اسألهم عن سبب اتّخاذ هذه القضية طريقاً لهم لإشباع ذلك الجانب كان البعض يقول أننّي ألفتها ولذلك احببتها،و البعض يقول انّني ولدت هكذا وفي داخل نفسي الرغبة للجنس المثيل، والبعض الآخر كان يقول أنّ التعامل مع الذكور أسهل من التعامل مع الإناث.

والشاذون جنسياً يحاولون وبشتّى الأساليب أن يثبتوا أنّ الشذوذ الجنسي ظاهرة طبيعية ولدت معهم وليس هنالك من ذنب لهذا الشعور، فهم مجبرون غير مخيّرين ويؤكدون هذا الأمر فيقولون أنّ جميع الحيوانات تمارس الشذوذ الجنسي (هذا غير صحيح علمياً).

نعم بعضهم، ولكنّ ليس بدافع الجنس، وإنّما بدافع الإعتداء أو بدافع آخر. أمّا الواقع الفعلي لتفسير الشذوذ الجنسي هو العادة التي يألفها الإنسان فتتحوّل إلى واقع شأنها كشأن أي عادة أخرى يمارسها الإنسان فتتحول إلى جزء من حياته.

تسير أمراض (الإيدز) بصورة متوازية مع انتشار حالة الشذوذ الجنسي في المجتمع، فمن المفارقات التقي أحياناً مع أفراد أقوياء الجسم مفتولي العضلات ولكنّني وبعد شهرين أو ثلاث تجدهم قد تحوّلوا إلى أجسام نحيلة، وبعدها تراهم يُقادون من قبل أصدقائهم لأنّهم فقدوا بصرهم أو أنّهم لا يقوون على شيء، وهكذا تمر الشهور فتسمع بهم وقد ماتوا وحيدين في بيوتهم، تصلنا معلومات الموت لأنّنا كمؤسّسة صحية يتعالج بها أولئك المصابين ويستلزم من القانون أن نعلم بموتهم، غالباً بعد موتهم نلتقي بآبائهم أو أمّهاتهم الذين جاؤوا من مناطق متفرقة لحضور حفلة دفن ولدهم، وبعضهم كان متزوجاً وله أولاد.

أحدهم بالمناسبة وبطريق الصدفة كان من أوائل الصحفيين الذين ساندوا القضية العراقية في فترة النّضال السلبي، إسمه زهير كشميري وكان صحفياً بارعاً في إحدى أكبر الصحف الكندية وأهمها (Globe & mail) وقد نشر مقالين عن أحد رموز المعارضة العراقية[1] ولكنّني عندما التقيت به لم أكن أعرف شكله كما أعرف قلمه ومقالاته، فقدّم نفسه لي، ثم أخرج جريدة كبيرة معروفة

(1) د. حسين الشهرستاني مستشار رئيس الوزراء لشؤون الطاقة الذي كان قد تخرج من جامعة تورنتو كندا، حيث كانت تربطه بذلك الصحفي علاقة جيدة، وبعد كتابة تلك المقالات حدث وان الصحيفة قرّرت أن تفتح لها مكتباً بالعراق قبل حرب الخليج الثانية واختارته ممثلاً =

تصدرها جمعيات الشّاذين جنسياً[1].

وأيضاً في مؤتمر من المؤتمرات الطبية الذي أقيمت في ولاية تقع في أقصى

= لها في بغداد، وعندما ذهب هذا الأخ إلى بغداد رحب به الرئيس العراقي السابق صدام ونقله من المطار إلى السجن مباشرة حيث عذبه عذاباً شديداً ثم رمى به على الحدود شُبه ميت، ولكن الحياة كُتبت له ثانية ورجع إلى كندا فأقام دعوى قضائية على الصحيفة التي يعمل بها لعدم مساندته له أثناء الاعتقال في سجون صدام، ولكنّ الدعوة سُويت فيما بينهما وانتهى النزاع.

(1) إسمها (Now) كان هذا الاخ يجلس على رأس مجلس الإدارة فيها، وهو منصب رفيع وكبير، وقد عرفت فيما بعد أنّ هذا الصحفي الكبير بعدما خرج من السجن في العراق كان صدام قد دمّر فيه الجانب النفسي والشخصي فأمر حراس السّجن أن يمارسوا معه العملية الجنسية، وليس ذلك فقط بل أن يُحطّم كبرياءه وقلمه، وقدرته على الصحافة والكتابة وأن يمسح شخصيته الأصيلة ويحوله إلى كيان فارغ، وعندما رجع إلى كندا كان هيكل شخصية... لم يكن هو ذلك الكاتب البارع، والصحفي المشهور في كندا بل أصبح شخصاً مسلوب الإرادة ومختل العقل بعض الشيء، فطلق زوجته وترك بناته الثلاث ثمّ التجأ إلى أولئك الشاذين جنسياً ليكون عنصرا منهم يمارس ممارساتهم ويعمل ضمن سلوكهم الصحفي، وعند اجتماعي معه ذكرته بإحدى المقالات التي كتبها في أوآخر الثمانينيات حيث كنت أجمع تلك المقالات في ملف ضخم في مكتبتي، أخذه ذلك الصحفي وبدأ بقراءة مقاله حرفاً حرفاً وكأنّه لم يكن هو كاتبه، أو أنّها المرّة الأولى في حياته يقرأ مقالا كهذا، ثم سألني: هل كنت تتابع مقالاتي آنذاك؟

أجبته: بالإيجاب...

ثم طأطأ رأسه قليلاً وكان بالمناسبة يرتدي ملبساً غريباً قريباً من أولئك المتسكّعين أو المتشردين أو المرضى، وأنا انظر إليه، ثم رفع رأسه قائلاً:

لقد فقدت زوجتي وبناتي الثلاث.

سألته لماذا...؟ لم أكن لحدّ هذه اللحظة أعلم بأنّه أصبح شاذاً جنسياً.

قال لي: لا تبدو ذكياً يا صديقي

ابتسمت: وقلت لم أكن يوماً ما أبداً

قال: ألم تقرأ اسمي كرئيس لصحيفة (Now) (الخاصة بالشاذين)

قلت: عفواً يا سيد كشميري سأكون من الآن ذكياً أكثر

كنت آنذاك أبحث بعد حرب الخليج الثانية عن قلم كقلم هذه الشخصية الصحفية الكبيرة كي ينقل إلى الأمم الأمريكية والكندية معاناة العراق ووضعه في تلك الفترة الحرجة، وكنت أرى فيه الصحفي المكافح ذو الإلتزام العالي، وكنت حريصا أن أستثمر هذا القلم لخدمة العراق لأنّه يملك معلومات ضخمة وكبيرة عن بلدي.

افترقنا لأنّه أصبح الآن شخصاً آخراً ذي اهتمامات لا تتعلّق بما أنا فيه.

الغرب في كندا (بريتش كولومبيا) على المحيط الهاديء كنّا نناقش مشروع تقنين الأدوية الخاصة بمرض الإيدز، والتي كانت آنذاك قد نزلت إلى السوق حديثاً، وقد صادف أن التقينا بشخصيات بعضها حكومية وبعضها من مؤسسات صحية واجتماعية، وكان أحد ممثّلي البرلمان الكندي شاباً لطيفاً طيب الحضور حسن الأخلاق إسمه (Svede Robinson)[1] ممثّل في البرلمان الكندي عن منطقة (برنابي) في مقاطعة (بريتش كولومبيا)، كان هذا الشاب متحمساً جداً لجعل تلك الأدوية متوفرة لدى الصيدليات لمرضى (الإيدز) مجاناً، أمّا رأيي أنا فكان أنّ فكرة إعطاء الأدوية الغالية الثّمن يجب أن تنحصر في عيادات أو صيدليات خاصة لمنع أيّ نوع من أنواع المتاجرة السوداء وغيرها، وهذا ما يوفّر على الدّولة مبالغ طائلة، وبعد مداولات كثيرة لم نتوصل إلى حلّ بشأن ذلك الأمر، وطُلب منا أن نقدم تقريرنا الذي يشمل الجانب الطبّي بينما تقدّم المنظمات السياسية والاجتماعية تقريرها السياسي أو الاجتماعي بشأن ذلك الدواء.

وبعد مرور سنة على ذلك الاجتماع صرّح (سفيد روبنسون) من على منصة البرلمان الكندي إذ اعترف أمام أعضاء البرلمان والحكومة الكندية بأنّه (شاذ جنسياً) وأنّه يساند حقوق تلك الطائفة، في وقتها عندما كنّا في الاجتماع الطبي لم أكن لأعرف فيما إذا كان (سفيد) من الشّاذين أم لا...؟ ولكن وبمجرّد أن تجرّأ في البرلمان بهويته تحوّلت قضية الشذوذ عندئذ إلى قضية اجتماعية متفشّية في المجتمع الكندي، بعد أن كانت متخفيّة شأنها شأن أي قضية اجتماعية خاصة[2].

بدأت مجلات الشاذين جنسياً، وبدأت صحافتهم ومظاهراتهم تملأ الشوارع الكندية حتى حصلوا على حق التمييز من قبل البرلمان الكندي، وذلك معناه عدم قانونية رفض الشاذين جنسياً في الوظائف أو المعاملات أو أي علاقة أخرى مع المواطنين أو الدولة.

(1) (http://en.wikipedia.org/wiki/Svend_Robinson).

(2) Brenda Cossman. Lesbians, Gay Men, and The Canadian Charter of Rights and Freedoms: Osgoode Hall Law Journal,VOL. 40, NOS. 3 & 4. 1982.

في سنة 1990 واثناء احتجاز الرهائن الفرنسيين في العراق من قبل الرئيس الأسبق شكّل سفيد روبنسون وفداً من أعضاء البرلمان وذهب إلى صدام يسترحمه لإطلاق أولئك الرهائن(1).

الشيء الذي جذب انتباهي هو أنّ السيد روبنسون مع أنّه شخصية معروفة منظمة لها قدرات مالية كبيرة ضبطته الشرطة وهو متلبّس بسرقة قطعة تجارية لا أتذكر ما هي ربما قطعة ذهب لا يتجاوز سعرها 50 دولار وعلى أثر تلك الحادثة قُدّم إلى المحكمة، وفي المحكمة انفجر بالبكاء وكأنّه طفل صغير أخذت منه اللعبة، وبعدها خسر مستقبله السياسي وتحوّل إلى شخص أصابته أمراض التي تصيب هذه الطبقة من الناس.

والذي أريد أن أتوصّل إليه في هذا المثال هو أنّ الأشخاص الذين سلكوا طريق الشذوذ الجنسي لا بدّ وأن تجد هنالك خللاً في تفكير تلك الطبقة من النّاس(2)، لذلك فأنا أعتقد أنّ الشذوذ في الجنس هو نتيجة شذوذ في العقل ليس بالضرورة أن يكون من قبيل الجنون الذي نعرفه في تصرّفات المجانين، وإنّما هو سلوك سببه حالة مرضية في الجهاز العصبي يترجمها أولئك باللّجوء إلى هذه الظاهرة المرضية القاتلة.

(1) وبعد الإنتفاضة الشعبية التي حدثت في العراق إبّان الحرب وبعد أن أعاد صدام قدراته في ضرب المقاومة في الجنوب والشمال كان للجالية العراقية في كندا أن تتحرّك للضغط على الحكومة في التدخل لإيقاف المذابح التي تقوم بها الحكومة العراقية ضدّ مواطنيها، وكان أن صادف وأنّ وفد الجالية العراقية أن التقى بهذا الشاذ (سفيد) فتذكّرني وتذكّرته فعاتبته على سفرته إلى العراق، وقلت له أنّ ذلك كان يجب أن يكون بعد أن تستشير الجالية العراقية في كندا لأنّنا على علم بطبيعة النظام العراقي، إعتذر الرجل عن خطوته تلك، وقال: بأنّه تفاجأ كثيراً لما شاهده من مذابح وقتل وهدر لحريات العراقي، كان الرّجل متفاعلاً مع وفد الجالية، وكان من ضمن أعضاء البرلمان الذين رفعوا مذكّرة سريعة للتدخل الكندي لإيقاف المذابح، فقلت له: ياسيد روبنسون مواقفك هذه لا تشبه تلك..؟ فأجابني بأنّني سياسي، ويجب أن تعرف أنّ ليس هنالك من ممنوعات في عالم السياسة على مستوى العلاقات، قلت له أنا أخالفك، ثم انتهت اللقاءات بيننا.

(2) Sexual Orientation and Homosexuality. American Psychological Association Lesbian, Gay, Bisexual, and Transgender Concerns Office.

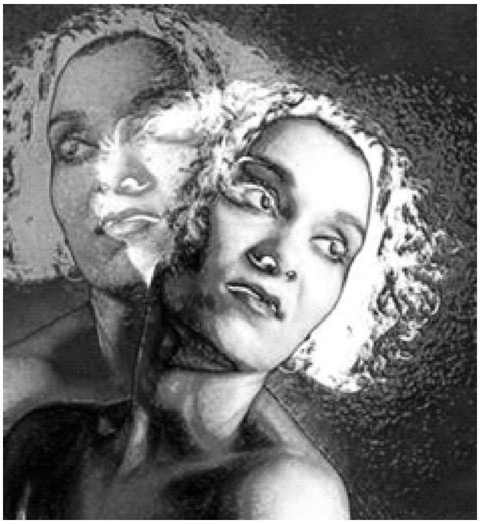

الشيزوفرينيا...

مرض انفصام الشخصية

القاتل الخفيّ

الظلم حالة من حالات المرض النفسي الذي يطغى على تفكير الإنسان المريض الذي يرمي في ممارسة عملية الظلم الحصول على النشوة فيما يتعلق بارتخاء لأعصابه والشعور بوجوده الجسماني، وصفة الظلم هي من أسوء الصفات التي يبتلي بها الإنسان في حياته اليومية، فهنالك من هو ظالم لنفسه، وهنالك من هو ظالم لغيره فكلا الظلمان يُعبّران عن حالة من حالات الأمراض التي تنتاب الإنسان في حياته، وأثناء نموّه، وهي من الحالات التي يفقد الإنسان فيها السيطرة عليها لأنها تصدر من ذاتٍ منفصلة عن الذات التي يعرفها الإنسان التي يتعامل معها يومياً، ولذلك فإنّ معظم أولئك الظالمين الذين أذاقوا شعوبهم وعوائلهم ويلات ظلمهم مصابين بانفصامٍ في شخصياتهم، فالشخصية التي تَظلم غير الشخصية الأخرى التي يحملها الإنسان في داخله، والصّراع دائماً يكون بين شخصية الخير وشخصية الشّر في نفس الجسد وهذا ما يسميه الغربيون (دكتور جيكل ومستر هايد)، تتحوّل حالة الإنفصام في الشّخصية إلى حالة عدائية وذلك عندما تتفاقم درجة المرض[1].

---

(1) والفصام هو مرض دماغي مزمن (عضوي) يصيب عدداً من وظائف العقل وهو مجموعة من الإستجابات الذهنية تتميز باضّطراب أساسي في العلاقات الواقعية وتكوين المفهوم، واضطرابات وجدانية وسلوكية وعقلية بدرجات متفاوتة، كما تتميز بميل قوي للبعد عن الواقع وعدم التناغم الإنفعالي، والإضطرابات في مجرى التفكير والسلوك الإرتدادي، ويميل إلى التدهور في بعض الحالات، أمّا الأعراض فهي تنقسم إلى: أولاً: اضطراب التفكير: حيث يفقد المريض القدرة على التفكير بشكل واضح ومنطقي ومترابط. كما يؤدي إلى اقتناعه بأفكار غير صحيحة اقتناعاً تاماً، وقد يحمل المريض قبل العلاج معتقدات غريبة متنوعة مثل تحكّم كائن من الفضاء بأفعالهِ وتحركاته أو أن الآخرين يستطيعون قراءة أفكاره وزرع أفكار جديدة في عقلهِ أو تحدث الشيخ في التلفاز عنهُ شخصياً وغير ذلك، أو انّه يحمل صكاً من =

فالغضب الذي يصبّه الإنسان على الآخرين في الظلم ما هو إلّا نوعٌ من الثأر ضد (شيء ما)، ذلك الشيء هو الذي سبّب هذه الحالة من المرض التي يشعر بها الإنسان، ولكنّه يخشى التصريح بها خصوصاً إذا كان ذلك الشخص في مواقع اجتماعية، ومواقع تخصّصية عرضة إلى نظر الآخرين.

وكلّما ازداد المرض تأصّلاً كلّما تعمّقت حالة التّخفي التي يحاول ذلك الشخص إستعمالها، وكلّما ازدادت محاولات إيجاد أساليب لإخفاء الشخصية الحقيقية كلّما ازداد المرض، فهي دعوة مستمرة متصل أقسامها أحداهما بالأخرى ما لم يتمكّن الإنسان من كسر إحدى تلك الحلقات فإنّ الدورة تستمر في زيادة المرض النفسي الخطير.

إنّ المرضى المصابين بانفصام الشخصية تتولّد لديهم قدرات كبيرة على إضفاء صور مختلفة على شخصيتهم الحقيقية محاولين في ذلك أن لا يطّلع الآخرون عليها، وقد يبقى المريض يمر في أطوار إنفصام الشخصية ولكن بأوجه مختلفة من أوجه الشخصيات التي اكتسبها لمدة طويلة ثم يبني حول

= صكوك الغفران، أو أنه مكلف من شخصيات قديسية في عمل شيء ما.ثانياً: إضطراب المشاعر: أو عدم تناسب التفاعل الوجداني مع الناس حيث يقل تفاعله مع الآخرين عاطفياً، كأن يكون بليداً غير مهتماً وقد يشمل ذلك اللامبالاة، كأن يذكر لك موت والده بكل هدوء ودون أي انفعال، أو تصبح مشاعره غير متناسبة مع الموقف الحالي كأن يضحك عند سماع خبر محزن أو يحزن في مواقف سارة، بما يسمى بالتبلد الوجداني. ثالثاً: ضعف الإدراك: حيث يبدأ المريض بسماع أصوات أو رؤية أشياء غير موجودة على أرض الواقع، وهي ليست أفكار في البال وإنّما سماع حقيقي، كأن يسمع من يتحدث إليه معلقاً على أفكاره وافعاله أو متهجماً عليه أو موجهاً له الأوامر أو غير ذلك، وقد يكون المتحدث شخصاً واحداً أو مجموعة من الأشخاص يتحدثون فيما بينهم عن المريض، وهذا ما يفسر ملاحظة الآخرين لحديث المريض وحده إذ هو -في الواقع- يتحدث إلى هذه الأصوات، كما يمكن أن يرى أشياء مختلفة وغير حقيقية. رابعاً: تباين السلوك: حيث يقوم المريض بسلوكيات غريبة مثل اتخاذ أوضاع غريبة أو تغيير تعابير وجهه بشكل دائم أو القيام بحركة لا معنى لها بشكل متكرر أو السلبية الكاملة وبشكل متواصل كالقيام بكل ما يؤمر به وكأنّه بلا إرادة. خامساً: اللغة والكلام: أكدت بعض الدراسات الحديثة أن مرضى الفصام يعانون من صور مختلفة من اضطرابات اللغة أو الكلام، حيث يمكن معرفتهم بمجرد سماع أقوالهم فيظهر إضطراب واضح في بناء الجملة الكلامية ومدلولات الألفاظ (http://ar.wikipedia.org).

تلك الشخصية ما يمكن لها أن تنمو في ذلك المحيط، فإذا تقمص مريض انفصام الشخصية صفة العالم وأراد أن يظهر للآخرين أنّ شخصيته الحقيقية هي شخصية العالم فإنّه يبرع في أن يكون عالماً حقاً، حيث تبرز له قدرات علمية جديدة في فنّ ذلك العلم، بحيث تقوده تلك القدرات إلى الإتقان الكبير في هذا الأمر.

وصاحب مرض انفصام الشخصية يبرع فقط في تلك الأمور التي تخفي شخصيته الحقيقية، لا في الأشياء الأخرى، ولذلك يعتقد بعض علماء النفس أن مريض انفصام الشخصية غالباً ما يكون ذكياً، هذا القول هو ربما يقال بالعكس، أنّ الذكي جدّاً معرضُ لمرض الإنفصام بالشخصية، ولكن ليس كلّ الاذكياء يصابون بالمرض هذا، ولكنّ مرضى الإنفصام بالشخصية عندما تظهر قدراتهم العقلية فإنّها تظهر في جوانب تغطية صور شخصياتهم الحقيقية.

في إحدى الدول العربية كان النظام يبحث عن أناس يمارسون التعذيب ضد السجناء السياسيين لانتزاع الإعترافات منهم، وكانت المشكلة أنّ معظم أولئك الذين يعملون بهذه المهنة فإنّهم وخلال أقل من ستة أشهر إمّا يهربون أو يتحوّلون إلى وحوش حقيقية يقدمون على قتل الشخص الذي يعتقلونه لأتفه الأسباب، وكأن هدف الإعتقال هو التعذيب والقتل وليس انتزاع الإعترافات. وصار من الصّعب أحياناً أن يجدوا أناسا يعملون في سلك التعذيب[1]، فكلّ عمل يمارسه الإنسان في الحياة، وكلّ قول وكلّ تفكير يفكّر به تُخزن تلك

(1) كان أحد الهاربين من سلك التعذيب وهو عريف أمن قد التقيته خارج العراق وطلبت منه أن يشرح لي شيئاً عن تلك القضية، قال لي أنه قبل ذلك التاريخ لم يكن ليتجرأ على قتل ذبابة، ثم عُرض عليه العمل بالمخابرات براتب مغرٍ، وكانت أول تجربة له هو استعمال المثقب الكهربائي لثقب قدم أحد المعتقلين السياسيين، يقول هو: لقد ثقبت رجله وعلى أثرها هوى الرجل ثم مات فيما بعد، ثم يستمر هذا الرجل بالقول بأنه أصبح شرساً بشكل لا مثيل له، وحش كاسر ذو قلب خالي من الرحمة، وعندما سألته كيف حدث ذلك... ؟ قال لي إنه أراد إثبات عكس شخصيته الاصلية في عدم القدرة على قتل الذبابة، فلذلك مارس الفظائع خلال عمله في سلك التعذيب، وقد أصيب بعد ثلاث سنوات على عمله بمرض انفصام الشخصية الحاد فهجر النوم بشكل كامل ممّا أثّر على صحّته العامة، فأخرجوه من =

كلّها في ذاكرة عميقة في الجزء الخلفي من حجيرات الدّماغ، وتُصنّف في ملفات حسب طبيعة ذلك القول أو العمل أو التفكير، وعندما يتجاوز الإنسان حدود المألوف من شخصيته في القول أو العمل أو التفكير فإنّ ذلك هو البداية الأولى لمرض الإنفصام، خصوصاً إذا كان ذلك العمل أو القول أو التفكر ممّا تأباه طبيعة النفس البشرية كالإعتداء والقتل والحقد على الآخرين ثم الكلام الفاحش، كل تلك الاشياء عوامل تفتح شخصية الإنسان على الإنفصام إذ تتغير بيولوجية ذلك الشخص بشكل متناسب مع القدره العملية التي يجب أن يتحلّى بها...

ماذا يعني ذلك... ؟.

كلّنا يعلم أنّنا أحياناً إذا صدرت منّا سيئة تجاه شخص ما، ونحن لا نقاوم أية كلمة تخرج من أفواهنا، وإنّما تكون قد خرجت إمّا تحت تأثير غضب أو عصبية أو فرح فإنّ تلك الكلمة وفي أثناء الليل تمنعني من تناول عشائي أو فطوري أو أنّها تحرمني من النوم... هذا هو الموقف البيولوجي الذي أتحدّث عنه الذي غالباً ما يحدث قبل ظاهرة الإنفصام في الشخصية. أو بعبارة أخرى أن أفكار وأعمال وأقوال الإنسان هي موجودات حسية تتجمع في أوعية الدماغ، فإذا حدث وإن وقع في تلك الأوعية شيء ليس من ذلك الصنف فإنّ الجسم سيستجيب لهذه العملية بردود فعل بيولوجية.

وتزداد حالات الإنفصام للشخصية في المواقف الصعبة وخصوصاً الحروب التي تنتج بالجملة أفراد حاملي مرض الشيزوفرينيا (Schizophrenic) بدرجات مختلفة، وليست الحرب فقط هي المنتج لأولئك الأشخاص المرضى، بل أنّ المواقف الصعبة بأجمعها تنتج حالات مختلفة ومتباينة من حاملي ذلك المرض، من تلك الظروف التي تأتي بالدرجة الثانية في الانتاج هي حالة الظّلم أو الخوف التي يعيشها المجتمع خصوصاً في ظروف تلك

= أجهزة التعذيب ثم هرب من هناك بمساعدة أبيه وهو الآن في وضع صحي يُرثى له، تجده وكأنّه طفل لا شخصية له يبكي لأتفه الأسباب ويعتقد أنّ الجميع يريد قتله.

الدول الدكتاتورية التي تصبح حياة وروح الإنسان على كفّ عفريت، وهو ظرف مناسب جداً لزيادة أمراض إنفصام الشخصية كلّما تعمقت حالات الدكتاتورية وحالات الظّلم قسوة كلما ازدادت أعداد المرضى وتعقّدت علاجاتها.

وهنا نلاحظ بأنّ القانون الأمريكي يُلزم الجندي الأمريكي أن يراجع الطبيب النفسي في كلّ إجازة يحصل عليها، وعندها ينظر الطبيب فيما إن كان صالحاً له أن يعاود الإلتحاق بكتيبته القتالية أم لا، وقد سمع كلّنا (بلعبة القتل)[1].

وفي كندا عندما ارسلت الدّولة كتيبة لحفظ السّلام في الصومال تحت إمرة الأمم المتّحدة، قام الجنود الكنديين بالقبض على شاب صومالي عندما حاول ذلك الشاب اقتحام المعسكر لسبب ما، فقبضوا عليه ثم مارسوا معه أفظع أنواع التعذيب والتي كان أولئك الجنود الكنديين الخمسة يصوّرون المشهد في تعذيب ذلك الشاب الذي لفظ أنفاسه الأخيرة من جرآء حفلة التعذيب تلك[2].

وعندما تتعمّق حالات الإنفصام بالشخصية وتكثر في مجتمع ما بسبب ظروف الظلم والقهر التي تمارسها السلطة على مواطنيها تتحوّل الحالة إلى

(1) التي كان يمارسها الجنود الأمريكان في فيتنام عندما يضعون رصاصة واحدة في مسدسهم ذي الطلقات التي تُحشى من خلال البكرة الداخلية والتي ينتقل المسدس من يد إلى يد ليطلق بها سيّء الحظ ذلك تلك الإطلاقة إذا كانت في محل الإصابة. ورأينا أيضاً فضائح وأنواع المذابح التي مارسها الطرفان في الحرب الفيتنامية أحدهم بالآخر، كذلك الأمر في حروب السلفادور وحروب البلقان وراوندا والحرب مع إيران وفي العراق ما بعد التحرير، وغيرها مما يندى له جبين الإنسانية جمعاء.

(2) وقد قدم أولئك الجنود الخمسة إلى محكمة فيدرالية كندية، وعُرضت الصور التي التقطوها بأنفسهم، وتبيّن خلال التحقيق أنّ هؤلاء الجنود كانوا في وضع مزرٍ من حالات إنفصام الشخصية، وهو ما دفعهم إلى ارتكاب تلك القضية التي أقامت كندا ولم تقعدها، وأثّرت على سمعتها كدولة راعية للسّلام من خلال قواتها المدربة والمؤهلة للقيام بدور الرّاعي للسلام، وكانت نتيجة الأحكام التي أصدرتها المحكمة الفدرالية السجن للبعض، وطرد البعض الآخر من الخدمة.

وضع عادي لا يشعر بها الآخرون، لأنّ المريض لا يمكنه إدراك مرض الآخرين، وتتحوّل إلى جزء من حياة ذلك الشعب تأكل وتنام معه وتُمارس الفضائع من القتل والظلم والقهر وكأنّها أشياء عادية في حياة الناس، وفي هذه الحالة وفي جوّ الشحن النفسي تزداد قسوة القلوب، وتقلّ رحمة البشر أحدهما على الآخر، فالجار لا يعرف جاره، والصديق لا يرى في صديقه إلّا عدوه، والأب لا يرى في إبنه إلّا عدواً له، وهكذا تتعمق حالة الظلم والشر والطغيان فيما بين عوام الناس، وتتحول بدلاً من أن يكون الحاكم أو الدولة هي التي تقوم بها إلى أن يقوم بها عوام الناس فيما بينهم، وهكذا تتفكك الأسر، وينقسم المجتمع، ويتحول المواطنون إلى أناس ولكنّ بدون قلوب، وإن ملكوا قلوباً فانها ستكون من حجر، فتزداد الجرائم وتكثر السرقات، وتكثر حالات الإغتصاب والمشاكل العائلية، ويقل إنتاج المجتمع ثم يغيب العلم وتتأصل حالات البلطجية والشقاوات ثم تنتشر العصابات، عصابات القتل والسرقة والإعتداء وما إلى ذلك من مشاكل تعصف بالمجتمع وتحوّله إلى مجتمع ممزّق، وكلّما ازدادت تلك الحالات إستجاب لها العقل الإنساني بزيادة أعداد المرضى من ذوي الشخصية المنفصمة، كما تزداد قساوة أولئك المرضى تعقيداً شيئاً فشيئاً.

فإن كان ذلك المريض بانفصام الشّخصية بدرجة معينة من حالة المرض مثلاً الدرجة المنخفضة الأولى فإذا صادف أن ازدادت حالات الظلم والقتل والسّرقة، فإنّ ذلك المريض ينتقل أوتوماتيكياً إلى درجة أكثر تعقيداً هي الدّرجة الثانية، وإذا ازدادت تلك الظاهرة أكثر ظلماً ودكتاتورية فسينتقل نفس المريض إلى الدرجة الثالثة، وعندها سيصبح قاتلاً محترفاً، أو ظالماً متمرّساً أضاف رقماً آخر إلى أرقام أولئك الآلاف من المصابين بالمرض الذين يمارسون طغيانهم وظلمهم على الناس من خلال ذلك المرض النفسي.

لقد فتحت الحكومة الكندية معهداً نفسياً خاصاً لأولئك الذين وصلوا إلى الأرض الكندية كلاجئين عندما اكتشفت إدارة الهجرة أنّ المجتمع الكندي يعاني من مشاكل من تصرفات أولئك اللّاجئين خصوصاً القادمين من الدول

الموضوعة تحت قائمة الدول التي يُمارس التعذيب في سجونها، وكان العراق يحتلّ ربّما المرتبة الأولى أو الثانية في سلسلة الدول التي تمارس القهر ضدّ مواطنيها[1].

لقد كان المجتمع الأوروبّي الذي عاش فترات القرون الوسطى يعاني من أمراض انفصام الشّخصية بشكل لا مثيل له بسبب ظروف القهر والظلم والتّعذيب التي كانت الكنيسة تمارسها ضدّ المواطنين الأوروبيين، حيث كانت صور القتل الجماعي والتعذيب والتي كان الحكام يمارسونها في العلن على مرأى الناس في ساحات خاصّة صمّمها الحكام لذلك، فكانت تلك الصور كافيةً لأن يتحوّل كلّ أولئك الذين شاهدوا حرق إنسان أو قتل إنسان أو أن يحضروا مشهد جثة معلقة في الهواء، أن يصابوا بدرجة ما بمرض الشيزوفرينيا، وهو أيضاً ما كان يمارسه الأتراك عندما احتلّوا الدول العربية ويمارسه الحكام المسلمون أنفسهم في زمن الدولة الأموية والدولة العباسية والتي كان الغرض الرئيسي من تلك الخطوة هو بث روح الخوف والرعب في نفوس المجتمع الذي قد يفكّر يوماً بأن ينتفض على حكامه في الوقت الذي يطمح أولئك الحكام إلى الإستفاده من حالات الأمراض النفسية التي تنتجها تلك الأجواء إلى ممارسة الظلم أحدهم ضد الآخر وهو ما يحطّم مسيرة المجتمع وقدراته ويصير السفّاح بطلاً، والقاتل شجاعاً، والسارق مقداماً وهكذا.

(1) كان ذلك المعهد النفسي بادرة جيدة من قبل الحكومة الكندية لمعالجة كل أولئك الذين عاشوا ظروفاً من القهر سواء أكان ذلك القهر موجهاً لهم مباشرة، أو بصورة غير مباشرة، وبعد عمل ذلك المعهد لمدة أكثر من سنتين قدم تقاريره إلى وزارة الصحة ووزارة الهجرة الكندية، فتبين من خلال ذلك أن كلّ الذين تعرضوا إلى التعذيب مباشرة من قبل سلطات بلدانهم مصابون بمرض نفسي معين، أمّا أولئك الذين لم يتعرّضوا إلى تعذيب مباشر كعوائل واقرباء ذلك اللاجيء وأبنائه حتى أولئك الذين وُلدوا فيما بعد فإنهم مصابون بأمراض أخرى نفسية. أما مواطنو الدول الدكتاتورية والذين لم يمارس معهم التعذيب ووصلوا إلى كندا إمّا كلاجئين أو مهاجرين فإنّهم مصابون بنوع من العدوانية ضدّ الآخرين والبعض منهم لا زالوا مصابين بأمراض إنفصام الشخصية. Canadian Centre for Victims of Torture (CCVT).

وكلّنا قد شاهد في تأريخه مظاهر من هذا القبيل، وكيف أقدم العراق في بداية السبعينيات إلى استعراضات لجثث تمّ إعدامها وهي معلقه من رقابها في ساحات البلاد في الوقت الذي فرض على كلّ المدارس والنقابات والموظّفين التظاهر إبتهاجاً بالمنظر وكأنّ لسان السلطة تقول أن من يفكر في المعارضة فليس أمامه إلّا هذا المصير[1].

وجاءت أيضاً الحرب العراقية الإيرانية (1980-1988) وقد ذكر النّاجون منها كيف كان الجنود يحرقون جثث الأسرى بالجملة والتّمثيل بالقسم الآخر منهم[2].

وعندما تغيّر النظام وسقط في سنة 2003 ظهرت في العراق فظائع لم يتعودها العالم، ولم يتوقّعها الكثير من العراقيين من الذين لم يفهموا دورة مرض (الشيزوفرينيا) في الشعوب والمجتمعات، فانطلق أولئك المرضى الذين خلقهم والنظام خلال ثلاث عقود من الزّمن وهيّأتهم أحداث الظلم والعنف والشدّة إلى ساحات العراق ليمارسوا أعمالاً اجرامية هي بالنسبة إليهم عادية لأنّها أصبحت جزءاً من شخصياتهم، ولم يتوقّعها الكثير من العراقيين من

(1) وما أشبه اليوم بالبارحة في تعليق جثث الناس في الساحات العامة وفي مداخل الجسور فلقد علقوا جثة (زيد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب ت 122 هج) إمام الزيدية في اليمن شهراً كاملاً ثم أنزلوه واحرقوه أمام كل الناس بعدها أخذوا رماد حرقه فوزّع الحاكم إلى اقطار العالم الإسلامي آنذاك قسماً منه في المغرب وقسماً في مصر، وقسماً في الهند، وأمر عمّاله أن يذروا ذلك الرماد في البحار، وعندما قبض المنصور على ثوار حادثة (فخ) نودي في الصلاة جماعة فحضر الناس بأجمعهم في وسط بغداد ثم بدأ يأخذ رجلاً رجلاً، وكان بينهم ثلاثة أطفال حيث وضع في رقبة كل منهم عموداً محمياً من الحديد، وكان يأمر الناس أن يقترب كل منهم فيطعن في جسد أولئك الأطفال ويأخذ قطعة اللحم ويفصلها عن جسدهم (راجع كتاب التعذيب في العالم الإسلامي للاستاذ هادي العلوي، وكتاب مقاتل الطالبيين).

(2) أصدر النظام وقتها أمراً في (التعامل مع الأسرى موقعياً أو ميدانياً) كما أسماه، وحسب ما يتطلبه الموقف وقد أحرق الكثير من الناس من الجانب الثاني من الشيوخ ومن الشباب لأنّ المعركة بالواقع كانت تقودها أفواج الحرس الثوري الذي يضمّ عوام الشعب الإيراني.

الذين لم يعلموا دورة مرض (الشيزوفرينيا) في الشعوب والمجتمعات[1]، فلئن كان المجتمع العالمي والعراقي قد استغرب تلك الظاهرة المقزّزة فإنّ المتخصّصين في طبّ العلاج النفسي (الشيزوفرينيا) لن يستغربوا من ذلك لأنّها حالة عادية في تفكير ذلك الحجم الهائل من المرضى الذين ولّدتهم حالات القهر في بلد يتميّز بالبساطة والطيبة والسّماحة، وهكذا يتحوّل أولئك المرضى إلى خطر كبير على كيان المجتمع، وجودهم في داخل مؤسسات الدولة خطر جسيم على الدولة، بل يجب وبشكل فوري أن تبادر المؤسسات المعنية إلى تقديم خطه علاجية وطنية بعيدة المدى، وأن تهتم الحكومة العراقية بفتح معاهد متخصّصة لعلاج أولئك الأشخاص، فهم ليس بالضرورة أن يكونوا مذنبين، إنّهم نتاج لحالة مرضية صنعها النّظام السّابق، وما علينا إلّا أن نشخّص ثم نعالج مرضهم بالطّرق العلمية والطرق الطبية التي وضعها المتخصّصون، وأن نستفيد من الدول التي مرّت بظروف مشابهة لظروفنا كأقطار أمريكا الجنوبية وبعض الأقطار الآسيوية وكذلك دول الاتحاد السوفيتي المنحلّ ولكنّ أهمها كانت أفريقيا الجنوبية[2]. وأخيراً ظهرت قمة الوحشية

(1) فقد نستغرب أن نجد أنّ هنالك أناس متخصصين في ذبح الناس من المعارضين لهم سياسياً أو أنّهم أصحاب مبادئ دينية أو عقائدية تفرق بنسبة قليلة عمّا يؤمنون به، أليس ذلك غريباً...؟ فكلّ مجموعة لديها شخص خاص يتفنن في قطع رقاب الآخرين من بني البشر.

(2) وعندما جلست أمام التلفاز لأحضر مقابلة لمجموعة من الذين ألقي القبض عليهم من أولئك المرضى النفسيين من الذين مارسوا فضائح القتل والذبح، كنت أتمنىّ أن يكون في تلك المقابلة شخص متخصص في مرض الشيزوفرينيا كي يبين للناس بأن هذا الشخص الذي قال أنه قتل أو ذبح ثلاثين إنساناً، هذا الشخص هو ليس المتكلم، إنما المتكلم هو الشخص الآخر الذي يعيش في ظله أو في داخله، هو الشخص المنفصم (Schizic) هنا. وعندما تلتقي مع هؤلاء المرضى تجد المتكلم هو ليس ذات الشخص، وإنما هما إثنان أحدهما هو ذلك الذي يذرف الدمع هو (الأصل) (دكتور جيكل) هو العراقي، هو إبن الفرات ودجلة هو عباس وحسين وعمر... و... و... و... أما اليد التي ذبحت هي يد (مستر هايد) الشخصية الشريرة الثانية التي أنتجتها ظروف القهر والظلم والدكتاتورية والتشريد والتجويع والحروب. إنّهما شخصين متناقضين أحدهما يذرف الدمع (حقيقة) والآخر سفاح مجرم إرهابي (حقيقة أيضاً) وكلّ منهم في صراع مع الآخر لأنّه يتهمه بأنّه سرق شخصيته.

المرضية النفسية الإنسانية في معارك سوريا ووحشيتها المفرطة في أكل أكباد الناس والتسلي باللعب برؤوسهم المقطوعة.

وهنا يجب على المتخصّصين المهتمّين في شؤون علم النفس الجمعي وأمراض انفصام الشّخصية أن يعيدوا شخصية عباس وحسين وعمر وجبر إلى قالبها الذي خلقت فيه، وأن نبثّ في ذلك القسم من الشّخصية روح الإستقرار وعدم الخوف ونطمئنه بأنّ الروح الشرّيرة روح (مستر هايد) لا تحتاجها في حياتك لتدافع عن نفسك وعن عائلتك، وعن أفكارك.

ثم نقدّم له مجموعة من الأدوية الطبية التي يحتاجها في العلاج، ثم نفتح له آفاق الحياة، آفاق الخير حتى يتمكّن من أن يستوعب أنّه لم يعد يحتاج إلى الشّر الذي ولّدته ظروف القهر وظروف الدكتاتورية والظلم.

فليس هنالك من عيب بأن يصاب الإنسان بمرض ما سواء أكان ذلك المرض جرثومي أو عضوي أو نفسي، فالمرض حالة غير مرغوبة وهو ليس من قبيل إختيار الإنسان أن يكون مريضاً، أو أنّه سعى نحو مرضه ليحصل على جرثومة المرض أو أسباب المرض.

في الغرب وفي العالم المتقدّم تبذل اليوم المؤسسات الصحية أموالاً طائلةً جداً لمعالجة حالات الشيزوفرينيا التي بدأت تعصف ببعض المجتمعات الأمريكية والكندية والتي تظهر في أوقات الأزمات مثل الحالة الإقتصادية السيئة، التشتّت العائلي، غياب الأمان، الحروب... الخ، وترى تلك الدول أنّ التكلفة الضّخمة لعلاج حالات انفصام الشخصية هي أقل بكثير مقارنة بما يسبّبه المرض نفسه إذا تُرك بدون علاج، فالدولة في الغرب تنظر من الناحية الإقتصادية والاجتماعية والطبية إلى المجتع كأنّه كيان موحد، فإذا أصيب فرد ما بمرض إنفصام الشخصية فإنّه سوف يؤثّر على اقتصاد الدّولة لأنّه سيترك عمله وستتحمّل الدّولة نفقات معيشته، كذلك يهدّد أمان المجتمع واستقراره، فضلاً عن نفقات الشرطة والمؤسّسات الحكومية الأخرى، وسيؤثّر أيضاً بالتالي على إنتاج المجتمع بما هو عام، فقد يكون من المحتمل أن ذلك

المصاب بانفصام الشخصية له من القدرات أن يقدّم إلى المجتمع إنجازاً علمياً أو إبداعاً فنياً، وعليه فإنّ الدّولة تبادر بشكل فعّال لعلاج ذلك المريض كي تحافظ على كيان المجتمع بما هو عام.

وعلينا أن نعلم بأنّ المجتمعات بأجمعها قابلة للإصابة بمرض الفصام ولا يستثنى من ذلك أيّ فرد من الأفراد من الإصابة بذلك المرض الخطير، فإذا توفّرت الظروف التي ذكرناها آنفاً من القهر والظلم وعدم الأمان والقتل فإن المرض يجد طريقه ما بين الناس ويتمكن من البعض منهم وخصوصاً الطيبون من الأفراد من الذين يعيشون حالات العفوية في تصرفاتهم وعملهم، مع أنّ العلماء لا يرون من سبب واضح للإصابة بمرض الفصام. فهي آليات مركّبة، تشمل عوامل عديدة، بعض الأعراض قد تحدث بسبب تغير في التركيب الفيزيائى للمخّ، والبعض الآخر يحدث بسبب اختلال توازن المواد الكيميائية في المخّ، والأدوية المستخدمة في العلاج تؤثّر علي وظائف المخ، وتهدف الي تغيير توازن المواد الكيميائية. هناك دلائل قويّة تشير إلى اضّطراب بعض النواقل العصبية وخاصّة مادة (الدوبامين) في الفواصل بين الخلايا العصبية في مناطق معينة في الدماغ والمسؤولة عن تشكيل المعتقدات والعواطف وإدراكنا لما حولنا. كما رصد العلماء تغيرات في تركيب الدماغ في هذه المناطق لبعض المصابين بالمرض ويعزون سبب المرض بايولوجياً إلى الإضطراب في مادّة (دوبامين).

ويجب على الآباء وعلى المعلّمين والأساتذة في المبادرة إلى تشجيع الناس في حالات الألم أو في الحالات غير الطبيعية من ظروف وقساوة الحياة أن يكونوا على مساس بالأطبّاء المتخصّصين من الذين لهم خبرة في معالجة أمراض النفس عموماً وأمراض انفصام الشخصية خصوصاً، وعلينا أن نعلم بأنّ الكثير من الأمراض النفسية التي تعصف بالمجتمعات قد أجريت على ميكانيكيتها الكثير من البحوث التي استغرقت عشرات السنين وقد تمّ التوصّل إلى علاجات ممتازة ومهمّة وهي متوفرة في الأسواق والتي يمكن للأطبّاء أن يصفوها لمن يعاني من هذه الحالات مع أنّ شوط العلاج ليس من

السهل تحديده ومعرفة طريقه في الوقت الذي يستغرقه أو أشكال التغيرات التي قد تطرأ على المصاب.

في ذات الوقت يجب أن نشير إلى أنّ الأمراض المستعصية المعقّدة مثل الشيزوفرينيا وغيره من الأمراض الاجتماعية فإنّ الحلّ أو العلاج لا يمكن له أن يقتصر على الجانب الكيمياوي فحسب، وإنّما هنالك طرق مهمّة أخرى للعلاج إلى جانب العلاج الكيمياوي وهو العلاج الرّوحي والفكري والاجتماعي والتي تدخل فيه العائلة والمجتمع والمحيطين بالإنسان فيه كعامل مهمّ ومساعد في العلاج.

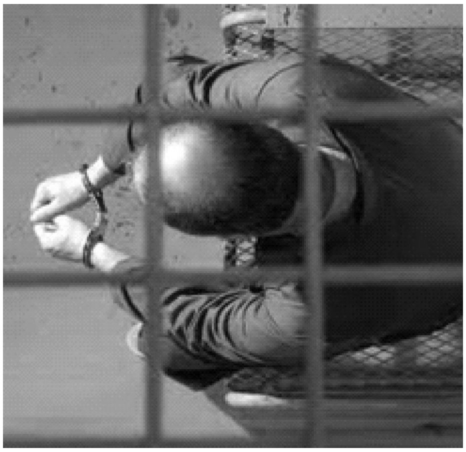

في السّجون الكندية

المخفي في هذه الدّولة

واخيراً وبعد ثماني سنوات من بدء الحرب العراقية - الإيرانية[1] توقّفت العمليّات العسكرية بين الطّرفين بعد أن تكبّد البلدان العراق وإيران ملايين الضحايا والمعوقين والمشرّدين، وكانت هذه الحرب من أشدّ الحروب في التاريخ العالمي قسوة.

كان إيقاف الحرب مفاجئة كبيرة بالنسبة للقوى العراقية المناوئة للنّظام العراقي، والتي كانت تعتقد مسبقاً بأنّ الحرب هذه لن تتوقّف إلّا بسقوط قيادة النظام البعثي، وهذا اعتقاد يكاد أن يكون راسخاً في عقول الكثيرين من فصائل المقاومة التي كانت تقاتل إمّا مع الحرس الثوري أو في كتائب خاصّة.

وقد أدّى توقّف الحرب إلى تغيير في الواقعية الأرضية للمهاجرين والمعارضين والمقاومين العراقيين، إذ إنّ السّبب الرئيسي لتواجدهم على الأراضي الإيرانية هو القتال ضدّ النظام العراقي، وما أن انتهت الحرب حتى فكّر الكثير من العراقيين هناك بمغادرة إيران والتوجّه إلى أقطار وبلدان أخرى ما دام سبب بقائهم هناك قد انتفى.

---

(1) حرب الخليج الأولى أو الحرب العراقية الإيرانية، أطلق عليها من قبل الحكومة العراقية آنذاك إسم قادسية صدام بينما عرفت في إيران باسم الدفاع المقدّس (بالفارسية: دفاع مقدس)، هي حرب نشبت بين العراق وإيران من سبتمبر 1980 حتى أغسطس 1988، خلفت الحرب نحو مليون قتيل، وخسائر مالية بلغت 400 مليار دولار، دامت الحرب ثماني سنوات لتكون بذلك أطول نزاع عسكري في القرن العشرين، وواحده من أكثر الصراعات العسكرية دموية، أثرت الحرب على المعادلات السياسية لمنطقة الشرق الأوسط، وكان لنتائجها بالغ الأثر في العوامل التي أدت إلى حرب الخليج الثانية والثالثة
The longest war: The Iran-Iraq military conflict Dilip Hiro.1989.

وفي تلك الفترة من عام 1988 بدأت أفواج من اللّاجئين العراقيين تصل إلى كندا وإلى بلاد أوروبيّة عديدة بحثاً عن هوية أجنبية وجواز سفر غربي يحدّد حياتهم وشخصياتهم بعد أن أوقف النظام العراقي منح أيّة هوية تثبت انتماءهم العربي والعراقي بالتحديد، وقد سبّب ذلك مشكلة كبيرة للكثير من العراقيين الذين كانوا في المنفى وخصوصاً في إيران التي كانت متشدّدة في هذا الخصوص أي منح الجنسية أو الإقامة للعراقيين لأسباب داخلية خاصّة بها.

وكانت كندا من الدول التي استقبلت أعداداً كبيرةً من العراقيين وقد وصلوا إليها بطرق متعدّدة بعضها كان غاية في الخطورة والمجازفة، إذ كان القانون الكندي آنذاك ينصّ على اعتقال كلّ شخص يدخل بدون أوراق ثبوتية إلى حين إتمام جلسة خاصة أمام قاضي الهجرة، وهذا قد يحتاج إلى وقت طويل قد يدوم لشهر أو أكثر في بعض الأحيان إلى أن يتمّ إطلاق سراحهم[1]، وفي الواقع كان الإعتقال يتمّ في غرفة في فندق حوّلته دائرة الهجرة إلى ما يشبه مكاناً للإحتجاز، أو يمكن أن يتمّ احتجاز الشباب فيما يشبه السّجن أو مكان خاصّ بالمهاجرين، وهنا السّجن لا يشبه السّجون العادية.

وكان من الأمور المهمّة والضرورية آنذاك إخراج أولئك العراقيين من ذلك المكان، ومهما كانت طبيعة ذلك المكان، فالعراقيون قد ذاقوا الويلات في السّجون والمعتقلات وكفاهم من كلّ ذلك في بلاد كانوا يأملون منها الإحترام والرّحمة وردّ الاعتبار، فلم يكن هنالك من سبب أن يواجهوا كلّ ذلك في بلدان العالم الحرّ ككندا.

قمت بالاتّصال بمحامٍ متخصّص بأمور الهجرة يدعى (Gregory James) كي يكون محامي الدفاع عنهم ومساعدتهم للحصول على حق العيش في

(1) معظم اللاجئين العراقيين يصلون إلى كندا مستعملين جوازات سفر مزورة لأقطار أخرى، وعندما يصلون إلى كندا يقومون بإتلاف تلك الجوازات ورميها في حمام الطائرة للتخلّص من المتابعة القانونية.

كندا...[1] ومع الوقت تحولت علاقتي مع المحامي إلى علاقة صداقة لما كان يتمتع به من خلق رفيع والتزام وتعاطف مع قضايا الإنسان المضّطهد مهما كانت جنسيته أو انتماؤه أو تركيبته السياسية، فكان هذا الشاب أول من دافع عن اللّاجئين العراقيين في كندا آنذاك بشكل جعل أمور اللّجوء للعراقيين سهلةً ومتاحةً للجميع، وتحتلّ هذه الشخصية اليوم مركزاً مرموقاً في وزارة الهجرة بعد أن انتدبته الحكومة ليكون رئيساً لمجلس قبول اللّجوء في وزارة الهجرة الكندية.

وفي يوم 17/ 1/ 1991 اتصل بي المحامي في مكتبي قائلاً لي:

- أين أنت الآن؟

- أنا في المكتب، أجبته باستغراب

- سألني سريعاً هل تستطيع أن تمرّ إلى مكتبي الآن

- سألته قلقاً ما الأمر...؟ هل هناك شيئاً خطيراً...؟

- قال لا ولكنّ حاول أن تكون هنا بأسرع وقت ممكن

سأحاول لا تقلق، أجبته وأنا أفكّر بالأسوأ الآتي

تركت مكتبي سريعاً وانطلقت بسيارتي إلى حيث يقع مكتبه وكان لا يبعد عن مكتبي كثيراً، كنت طيلة الطريق أفكّر قلقاً بكلّ ما كان يجري في العراق وخاصّة وأنّ الرئيس بوش الأب قد أعطى أوامره بضرب العراق بغية إخراج صدام من الكويت، في الوقت الذي كانت التهديدات على أوجّها بين رأس

---

(1) وكان اختيار المحامي من الأمور المهمة جداً لأنه يجب عليه أن يتفهم التركيبة المعقدة للعراقيين وخصوصاً أن الكثير منهم يصل إلى كندا من أقطار كسوريا ولبنان وإيران وهم يحملون بعضاً من أوراقهم الثبوتية التي لا تؤكد عراقيتهم، وإن إثبات هوية الانتماء كعراقي مهم ولن يحصل ذلك بدون أن يمتلك المحامي خلفيّة مسبّقة عن التركيبة العراقية وطريقة تعامل النظام مع المعارضين، لأن العراق هو ربما البلد الوحيد الذي يحرم مواطنيه المعارضين لنظامه من أوراقه الرسمية، وهذا أمر لا يمكن لأي بلد كان أن يتقبله في أي زمان أو مكان.

النظام العراقي الذي هدّد الغرب بضربه في عقر داره من خلال خلاياه المنتشرة في كلّ مكان وخاصة في أميركا الشمالية، وكان الوضع بالنسبة لي صعباً جداً[1].

وصلت بعد فترة لمكتب المحامي... دخلت مكتبه سلمت عليه وسألته:

- ما الأمر سيد جيمس؟

- لا تقلق قال... ثم أضاف: لو سمحت نادني بإسمي الأول (غريغ)

- ابتسمت وقلت: أوكي كما تريد غريغ، قل لي ما الأمر؟

طأطأ رأسه على طاولة قريبة، وجلست أمامه، وقدّم لي فنجان قهوة ثم قال:

- تعرف أحداً إسمه كذا (ذكر لي إسمه)...؟

- سألته عراقيّ يعيش هنا...؟

- قال نعم، ولكنّه لا يعيش هنا

- قلت أنا أعرف الكثير من العراقيين هنا بالوجه، والكثيرون منهم يعرفونني، وأنا لا أعرفهم إلّا أن أراهم

- نظر إلي قائلاً: ولكنه يقول أنه يعرفك، ومعه رقم هاتفك..

- ممكن أن يعرفني، ولكن ما الأمر..؟؟

- ثم قال: وصل قبل أربع ساعات إلى مطار تورنتو شاب يحمل جواز

---

(1) وقد كنت من العراقيين الذين رفضت دائرة الهجرة الكندية وجودي في كندا والعيش على أراضيها، وكانت إقامتي في كندا مع عائلتي مؤقتة بسبب عدم قبول أي دولة أخرى في العالم دخولي أراضيها، فكان أن بقيت في كندا لأسباب إنسانية بحتة وبشكل مؤقت فقط، ولا أملك أي ورقة تدل على قبول لجوئي لكندا (In Admissable) وكنت أعتقد بأنّ المحامي جيمس قد تلقّى أمراً من السلطات لطردي من كندا إلى بلد آخر بالإتفاق مع الحكومة الكندية، ولكنّ ذلك الشعور لم يكن يمثل لي شخصياً إحساساً بالخوف أو التردد أو الضعف.

سفر خليجي وزوجته معه، شكّت به سلطات المطار وعرضوه للتفتيش والتحقيق فوجدوا معه دفتراً صغيراً فيه إسمك، ورقم تلفونك، ووجدوا معه شيئاً خطيراً أيضاً.

رشفت القهوة بعد أن توقّف غريغ عن الكلام لدقائق ثم نظرت إليه وقلت له: أرجو أن تكلّمني بكل صراحة، ولكن هل لي بدقائق أذهب بها إلى الحمام؟

خرجت سريعاً إلى الحمام والأفكار تتملّكني، ورأسي يؤلمني من كلّ شيء... كنت أفكر في فكرة القبض عليّ في أية لحظة أو ترحيلي فأبواق الحرب مشرّعة والحرب الإعلامية بين الغرب ونظام صدام على أشدّها، ولكن من هو (صلاح شبّر) كي أكون في قائمة المطلوبين أو في دائرة التّرحيل والقبض عليه؟ من هو أنا...؟ أنا معارضٌ لنظام ظالم مضطهد لشعبه، في الوقت الذي وتحت غطاء تلك الإنسانية تقوم كندا بتسليم غير المرغوب بهم من السياسيين -خصوصاً- إلى جهات تمارس بحقهم الإضطهاد أو السّجن، أو ما إلى ذلك كما حدث مع محمود محمد عيسى[1] ذلك الشاب الذي قاد عملية الهجوم على طائرة (ألعال) الإسرائيلية في أثينا عام 1968 وكذلك مع الكثير من الشخصيات المعارضة للتوجّهات الصهيونية واتّهامهم بمعاداة السّامية، لذلك فقد يكون هنالك وفي لحظات الضّرب الأمريكي على العراق وقبل ساعات من ذلك قد يكون هناك طبخة تعدّها المخابرات الأمريكية وبالتعاون مع المخابرات الكندية في التخلّص مني.

وبعد هذه السّفرة الصغيرة في تفكيري رجعت إلى المكتب واعتذرت من

---

(1) رحلت كندا في 26 اغسطس 2013 الفلسطيني محمود محمد عيسى أحد المتهمين بالإعتداء على طائرة العال الإسرائيلية في العاصمة اليونانية أثينا عام 1968 بعد 26 عاماً (بقي فيها في كندا) من معارضته لقرار الطرد كان صدر بحقه من قبل أحد المحاكم الكندية طوال السنوات الماضية، وتمّ ترحيل محمود عيسى الذي يبلغ السبعين من عمره إلى لبنان على متن طائرة خاصّة مستأجرة من قبل وكالة خدمات الحدود الكندية رافقه فيها طاقم طبي نظراً لحالته الصحية غير المستقرة (http://ar.wikipedia.org/wiki).

المحامي عن التأخير وطلبت منه أن يُكمل الموضوع، قال لي وهو ينظر إليّ بتساؤل: إنّ الموضوع لا يهمك (Sal) هكذا كان يناديني...

أجبته قلقاً: لا أبداً، ولكنّ الموضوع أصبح مستهلكاً بحيث مللت من الإعادة والتكرار ولذلك فإنّني مستعدّ لكلّ ما سيحصل، وإذا ما قرّرت الحكومة الكندية ترحيلي فإنّني سأغادر هذا البلد طوعياً.

تعجّب المحامي من كلامي ثم قال: تمهّل، تمهّل الأمر ليس كما تتصوّر.

فقلت: إذن ما الأمر، ارجوك أوضح لي كلامك

قلت لك ما حصل مع الشاب في تورنتو وأثناء تفتيشه تبيّن للمخابرات الكندية وجود إسمك ورقم تلفونك معه، فاتّصلت المخابرات بي كي أخبرك بالأمر وأعرف منك ما العلاقة التي تربطك بذلك الشاب وستظهر وزيرة الهجرة الكندية (باربرا مكدوكال) على شاشة التلفزيون لإعلان الخبر والذي مفاده أنّهم وأثناء التفتيش وجدوا إسمك وعنوانك وكلمة (سرّ) لينقلها لك يحملها وقائمة مكتوبة تحوي على أسماء نوعيات من الأسلحة.

وفي مثل هذه الحالة بدأت أستيقظ من حلم المؤامرة إلى واقع الحقيقة وقلت للمحامي: وما تحليلك أنت سيدي...؟

- أعتقد أنّ الأمر مهمّ وخطير جداً.

- وهل تعتقد أن ما ذكرته المخابرات كلّه صحيح...؟ سألت:

- نعم، بدون أدنى شكّ، فبمثل هذه الحالات لا يمكن أن يصدر عن المخابرات معلومات أو أخبار غير صحيحة أو غير دقيقة.

سكتت لبرهة، وقلت في نفسي أنّه يجب أن أتريث قليلاً قبل أن أذكر أو أقول أي شيء، ويجب أن أطلع على تفاصيل كثيرة، مع أنّني متأكّد أنّ صدام لا يمكنه أن يستدرج رجالات المعارضة العراقية في الخارج للقيام بأعمال إرهابية، أو إلصاق التّهم بهم، إذن يجب أن أفكّر بدقّة ورويّة في كلّ ما جرى

وسيجري، ثم قلت للمحامي: وماذا برأيك سوف يحصل؟ ما رأيك بكلّ ذلك...؟

نظر إليّ مبتسماً وقال: المحكمة الأولى ستبدأ بعد ساعتين من الآن، وسيكون هناك قاضٍ مختصٍ بأمور الهجرة، وقد انتدبوني قانونياً كي أكون محامي الدفاع عن ذلك الشاب، ويجب أن أكون في قاعة خاصّة في المطار ستعقد فيها الجلسة، وسوف نرى ما سيحصل مع ذلك الشاب.

في هذا الوقت أعلن على شاشات التلفزيون أنّ وزيرة الهجرة الكندية (باربرا مكدوكال) عقدت مؤتمراً صحفياً وذكرت فيه أنّ السّلطات الكندية ألقت القبض على شخص عراقي يحمل جواز سفر خليجي آتياً من تايوان للقيام بأعمال إرهابية وتخريبية في كندا، وأنّ السلطات على وشك أن تحكم عليه بالتّرحيل إلى بلاده وتسليمه للسلطات العراقية هناك، وقد اتّصلت السّلطات الكندية بالسّفارة العراقية الّتي أبدت استعدادها لتسلّم الشاب العراقي وترحيله إلى العراق.

إبتسم المحامي ونظر اليّ وقال: أرأيت هذا هو الموقف الرّسمي الكندي، وعلى ضوء ذلك أردت أن أحدثّك كي نضع خطة.

الآن يجب أن أذهب لحضور جلسة المحكمة والإستماع إلى قرارها والإستماع للشاب أيضاً مع أنّ قرار كهذا لا يمكن معارضته إلّا بشقّ الأنفس، ولكن قبل الحديث عن المواجهات القانونية يجب علينا أن نتأكّد أنّ هذا الشاب هو بالفعل معارض للنظام، وأنّه قادم إلى كندا طلباً للّجوء السياسي هرباً من ظلم صدّام ونظامه، وليس للسّبب الذي ذكروه في المؤتمر الصحفي، وإذا تأكّدنا بالفعل من ذلك فيجب علينا أن نفعل المستحيل كي لا يُرحّل إلى العراق ويُسلم للنّظام ولا ندري كيف سيكون مصيره آنذاك، ثمّ أكمل المحامي وعرض خطّته قائلاً: إنّ الأمر المهم الآن أن أقابل الشاب العراقي، وأنت يجب أن تساعدني كمترجم لي وتحاول أن تفهم منه سبب مجيئه ولماذا تمّ القبض عليه، وما الذي يفعله هنا... ؟ وأضاف: حاول أن تعرف أكثر عن

هويته، آمل أن تكون توقّعاتنا كما هي، وأن يكون آتيا بالفعل لطلب اللّجوء وعلى ضوء الذي سنعرفه وسنقوم برسم خطة أخرى كي نساعد ذلك الشاب في لجوئه إلى هنا هو وزوجته الشّابة وتخليصهما من مقصلة صدّام، سكت قليلاً ثم سألني ما رأيك أنت...؟

أجبته: رائع... كلّ شيء سوف يكون جيداً بإذن الله، الأمر الآن أصبح أكثر إلحاحاً وهو إنقاذ حياة هذا الشاب وزوجته الحامل، فحياة إنسان الآن أصبحت على المحكّ ونظام صدام سيكون شاكراً لله إذا ما سلّم اليه شاب معارض وإرهابي -اذا صح ذلك- لذلك علينا التحرّك بسرعة.

سألته إن كان يرغب بتحشيد الجالية العراقية غداً بشبابها وشيبها للتّظاهر أمام مبنى البرلمان لإنقاذ ذلك الشاب من الموت المحتّم في العراق... ؟ قال لا ليس الآن.

خرجت والمحامي من المكتب وتوجّهنا إلى المطار الذي يبعد 45 دقيقة عن مركز المدينة حيث ستعقد المحكمة في إحدى القاعات هناك.

طلب المحامي مقابلة موكّله وأنا كنت المترجم بالطبع، لم يكن لدينا إلّا 10 دقائق لأنّ الجميع من قاضٍ ومدّعٍ ومخابرات ومحامين قد وصلوا إلى القاعة المخصّصة للمحكمة.

أدخل رجال الأمن الشاب العراقي إلى غرفة صغيرة كنت والمحامي بانتظاره، جلس أمامنا.. كان يبدو شاباً يافعاً أسمر اللّون تكلّمت معه قليلاً، كان من بغداد من منطقة (الكريعات) في ال25 من عمره، كان يبدو بسيطاً وملابسه مرتّبة بسيطة، ومعه زوجته التي كانت حاملاً في شهرها السّابع أو الثامن على ما ظهرت عليه.

نظرت إليه بتعاطف وقلت له: هل تعرفني...؟ أجابني مبتسماً: نعم أنت صلاح شبر، وقد أرسلني إليك فلان وفلان، ذكر لي أسماء أصدقاء لي في المعارضة.

سألته:

– وما قصّة الأسلحة التي ذكرت في محضر الاتّهام..؟

– كنت أقاتل مع المعارضة العراقية ضدّ النّظام في قاطع الوسط، وبعد انتهاء الحرب بقيت عندي بعض قطع الأسلحة فقرّرت أن أبيعها كي أسافر إلى كندا، نصحني أحدهم ببيعها في شمال العراق، وهكذا ذهبت إلى الشمال وعرضت الأسلحة على عدّة أشخاص وأعطوني أسعاراً جيدة فيها فسجّلتها في هذا الدفتر لكي لا أنسى أسعارها عندما أرجع إليهم مع قطع السلاح، وبالصّدفة بقي الدفتر معي الذي فيه تلفونات معارفي فوجدوه معي هنا فاعتقلوني.

وسألته عن بعض أطراف المعارضة ومعرفته بهم، وكان الشاب ملتزماً دينياً، وله توجّهات مشابهة للعديد من الشباب المعارض الملتزم.

ثمّ سألته عن (كلمة السّر) فقال بأنّه عندما أراد الوصول إلى هنا أخبره أحد الأصدقاء بأن يتّصل بي ويذكر الكلمة التي من المفترض أنّني أعرضها أمامك لكي تعرفني أنت، هكذا تعلّمنا في فترة الحرب العراقية الإيرانية.

طمأنته، وطلبت منه أن يبقى هادئاً، وقلت له: أنّه لا يمكن لأحد أن يطردك هكذا بهذه السهولة، والأمر معقّد بعض الشيء والجوّ السّياسي متشنّج إلى أقصى الحدود، وضرب العراق سيبدأ بين لحظة وأخرى، وزوجتك ستكون في رعايتي مثل ابنتي لا تقلق عليها، وكلّ ما أطلبه منك أن تلتزم الصمت، ولا تتكلّم مع أحد إلّا مع هذا المحامي، ووعدته صادقاً أن أفعل كلّ ما في وسعي لمساعدته للتّخلص من هذه المشكلة.

شرحت للمحامي حديثي مع الموقوف وكان إسمه (علاء) وكما توقّعنا فهو إنسان جيد معارض وملتزم، فأصبح الآن كلّ اهتمامنا أن نمنع السّلطات من ترحيله إلى العراق.

في هذه الأثناء بدأت المحكمة فسلّمت على علاء والمحامي وانتظرت

خارجاً... فالمحكمة لها مترجمها الخاص، وأنا بقيت خارج القاعة أنتظر القرار.

في هذا الوقت كانت شاشات التلفزيون تعرض مؤتمراً صحفياً لوزير الدفاع الأمريكي يعلن فيه بدء الحملات العسكرية على العراق.

طال انتظاري خارج القاعة، وبعد حوالي السّاعتين خرج المحامي وأخبرني أن الخطّة نجحت، واقتنع القاضي أنّ ترحيل الشاب إلى العراق يعني موته المحتّم، وبعد أن قدّم مرافعته وبعض الأدّلة على أقواله اقتنع بضرورة إعطاء علاء فرصة في كندا، ولذلك فقد رفض طلب المدعي العام الكندي ترحيله إلى العراق في هذه اللّحظة، وقضى بأن يقدّم إلى محكمة أعلى من محكمة الهجرة للبحث بقضيته، وأرسل الشاب إلى سجن خاص بحراسة مشدّدة وبترتيبات أمنية قصوى.

تركت قاعة المطار وانتقلت إلى السجن الفندقي الذي من المفترض أن تقيم فيه الزوجة الشابة، وكان هناك حرس على المدخل تكلمت معهم قليلاً ثم رأيت الزوجة وطمأنتها ورجعت إلى البيت وقد أصبحت الساعة 12 ليلاً تقريباً، وصلت البيت وأدرت التلفزيون وسمعت أخبار العراق، وكانت القنابل تشعل سماء بغداد بقوة، فبدأت الأفكار تأخذني إلى البعيد، إلى مدينتي وبيتي وأهلي وأقاربي كلّهم هناك، يتكبدون أعباء حرب فرضت عليهم، لم أنم تلك الليلة، كنت أشاهد التلفزيون وأسمع الأخبار من خلال راديو صغير أحمله معي دائماً.

في اليوم التالي وإذا بأخبار العراق تلفّ العالم، وأخبار اعتقال ذلك الشاب علاء تملأ الصحف والمجلات، وذكرت الأخبار تلك المذكرة التي أصدرتها وللمرّة الأولى بحق أحد الأشخاص الذين طلبوا اللّجوء[1].

---

(1) للمزيد عن الوثيقة التي اصدرتها الحكومة الكندية ووزيرة الهجرة راجع الكثير من المصادر الغربية مادة (Security Certificate) في: (http://en.wikipedia.org/wiki/Security_certificate) وراجع فقرة (Joseph&Sarah Smith) وهو الاسم الذي أطلق على علاء وزوجته لكي يبقى سراً وهو العرف القانوني في مثل هذه المحاكم.

دقّ جرس التلفون أثناء تناولي لطعام الفطور، وكان المحامي كريغ على الخط ينتظرني في مكتبه بأسرع وقت ممكن، وبالفعل لبست ثيابي بسرعة وانطلقت في طريقي، وصلت المكتب وكانت علامات الغضب ظاهرة على وجهه سلمت عليه وسألته: ما الأمر مستر جيمس..؟

- أجابني بحزن: الأمر ليس على ما يرام، الأمر معقّد جداً وخصوصاً بعد قرار وزيرة الهجرة الكندية .

- قلت له ما رأيك هل يجب أن نحرّك الجالية العراقية وبقيّة الجاليات من أجل هذه القضية...؟

- أجابني سريعاً: ليس الآن، ما زال عندنا وقت ..إنتظر

- فقلت: إذن ماذا تعتقد يجب أن نفعله...؟

- أجابني: الآن الأمر أصبح مقسوماً إلى قسمين الأوّل متعلق بالهجرة، والثاني بالإرهاب، ولكلي القسمين سياقات قانونية معقّدة ثم قال: أنا محامي هجرة، أمّا التهمة الثانية فيجب أن نوكل محامٍ آخر مختص بأمور الإرهاب

تنهّدت عميقاً، ثم قال لي المحامي: المشكلة الآن في تكاليف المحامي الباهظة لهكذا قضية في كندا، ولكنّ المشكلة الأهمّ أنّه يجب أن نجد محام يكون ملماً بأمور العراق وشؤونه وظروفه الصعبة، بالإضافة إلى قبوله التوكيل.

- اقترحت على مستر جيمس أن نتّصل بمحام أعرفه متخصّص بالأمور السياسية، ولكنّه اقترح أن نتّصل بالمحامي المعروف كليتون روبي (Clayton Ruby)[1].

(1) وهو من أهم وأشهر محاميي أميركا الشمالية، وهو وجه متميز ومن أشهر قضاة العالم وله مقالات عديدة وأسبوعية في (تورونتو ستارز) وهو يهودي، وقد لمع إسمه في العالم عندما وقف في وجه السلطات الكندية وتمكن من ردّ قرار الطّرد الآني وتسليم (محمود محمد عيسى) إلى السلطات الإسرائيلية، وهو الذي قاد عملية الهجوم على طائرة العال الإسرائيلية في أثينا حوالي سنة 1968 وبعد العملية اختفى وغيّر هويته وشكله وجاء إلى كندا للعيش فيها بالاسم المستعار، وبعد 20 سنة تمكنت المخابرات الإسرائيلية من اقتفاء أثره والقبض عليه في كندا =

وعندما ذكر المحامي إسم كليتون روبي قلت له سريعاً: لا أعتقد أنّه سيوافق على استلام قضيتنا وإذا وافق فإنّه سيطلب مبالغ كبيرة جداً.

- قال لي بهدوء: لنعرض الأمر عليه وننتظر ردّه، لهذا طلبت منك أن تأتي الآن فالأمور تتسارع والحرب دقّت أبواب بغداد ولا ندري ماذا سيحصل بين البلدين بعد هذه القضية.

- إتّصل بالسيد روبي الآن، وخذ منه موعداً مستعجلاً وعرّفه بنفسك وعن وضعك هنا بين الجالية العراقية.

اتصلت بمكتب المحامي كليتون روبي من مكتب المحامي السيد جيمس ردّت عليّ سكرتيرته، وقالت إنّه في اجتماع، أعطيتها إسمي وبعض المعلومات عن سبب اتصالي، واقترحت أن أعاود الاتصال بعد ربع ساعة.

وبالفعل عاودت الاتصال، وقالت لي السكرتيرة أنّ السيد روبي سمعني على التلفون عنده وهو ينتظرنا بعد نصف ساعة في مكتبه.

شعرت بشيء من الأمل، وابتسمت لمستر جيمس الذي بادرني بابتسامة أيضاً، ثم قلت له: الأفضل أن ننطلق الآن فأمامنا يوم طويل يا سيدي الكريم.

وصلنا قبل موعدنا بدقائق دخلنا مكتب المحامي كليتون مباشرة، كان مكتبه كبيراً ومرتباً بشكل متقن، سلمنا عليه وصافحته بقوة[1].

= وقدم للمحكمة، هناك صدر بحقه حكم بالترحيل إلى إسرائيل لمحاكمته، وهنا وقف المحامي كليتون في وجه هذا القرار وحاربه قانونياً وتمكن من ابقاء محمد عيسى في كندا في محاكمة هزت العالم والأوساط القانونية وهزّت إسرائيل بوجه الخصوص، وبقي هنالك إلى حين عام 2013 عندما حان موعد التقديم على الجنسية الكندية وهنالك لم يكن أمام السيد عيسى وبعد مرور تلك المدة الطويلة واسقاط التّهم الاسرائيلية عنه لم يكن هنالك من داعٍ في أن يعيد طلب اللجوء السياسي فتم ترحيله إلى لبنان بعد ان حمته كندا لأكثر من أربعين عاماً.
(http://en.wikipedia.org/wiki/Clayton_Ruby).

(1) وإذا بكلب أسود ضخم يقف إلى جنب الكرسي الكبير الذي كان يجلس عليه المحامي تراجعت قليلاً إلى الوراء وانتابني شيء من التعجّب أن نجد في مكتب محامٍ كبير كلباً بهذا الحجم، شعر السيد روبي بما أحسسته وقال لي: أعرف رأيكم انتم المسلمون بوجود الكلاب =

نظر مستر روبي اليّ نظرة غريبة كان يتأملني وكأنّه يعرفني أو رآني في مكان ما، ابتسمت قائلاً: ما بك ياسيد روبي...؟ هل تعرفني.

أجاب مبتسماً: نعم فقد رأيتك على التلفزيون في المظاهرة التي ضجت بها تورونتو واستمعت إلى تصريحاتك ورأيك في الحرب القائمة الآن في العراق.

نعم قلت بهدوء إنّ الحرب أصبحت مفروضة علينا، ولم تعد خياراً لأحد، أنا معك أنّ الحروب مسألة خاطئة ولكن في بعض الأحيان تصبح حلاً وهدفاً.

قال لي: أنتم في العراق الحرب لكم خيار وهدف وحل... نعم، يجب أن تتخلّصوا من الظلم والإضّطهاد والديكتاتورية...

أجبته شاكراً: نعم واليوم جئناك لنكلّمك في قضية الشاب العراقي الذي ألقي القبض عليه بالأمس وأصبحت قضيته الشّغل الشاغل لنا.

وبدأ المحامي غريغ يشرح له ظروف الإعتقال وحيثيات القضية وحقيقة قائمة الأسلحة التي وجدت معه وطلب منه أن يكون محامي الدّفاع عن الشاب وزوجته في تهمة الإرهاب.

اطرق الرّجل هنيهة ثم قال: أعطوني بعض الوقت كي أفكّر في كلّ ذلك، قال محامي الهجرة: لكنّ الوقت يداهمنا والأمور تتسارع ولم نكن في وضع يسمح لنا بالإنتظار أبداً، ثم قلت بسرعة: إنّ الجالية العراقية مؤمنة ببراءة هذا الشاب ونريد من حضرتك أن تهتمّ بقضيته وزوجته.

= في البيوت أو المكاتب، لكن لا تخف سأخرجه في الحال، صاح على أحدهم فأخرج الكلب، وجلسنا قبالته لنبدأ بعرض ما جئنا من أجله، لكنه قال قبل البدء: إنّها كلبة عمياء ولم أجد أحداً يهتم بها فربيتها صغيرة واهتممت بها إلى الآن وهي لطيفة جداً لا تؤذي أحداً. لم أعرف كيف اجيبه ولكنه في النهاية جعلني أحس بنبل ما في شخصيته وتعاطف كبير مع الضعفاء والمحتاجين، إذن فلماذا لا يساعدنا لننقذ إنساناً محتاجاً وهو يعطف على حيوان مسكين فتأمّلت خيراً به.

نظر إلينا وسألني 3 أسئلة: سألني عن عمر الشاب وزوجته وبعض المعلومات الشخصية عنهما، ومن الذي سيدفع تكاليف القضية، ثم نظر إليّ وسألني: ما دورك الشخصي في القضية...؟

أجبته على كلّ اسئلته، وقلت له أنا ممثّل للجالية العراقية في تورونتو فإنّه من واجبي أن أقف مع قضية هذا الشاب من الناحية الإنسانية والوطنية مع إنّني لا أمتّ له بأيّة صلة قربى.

ثم سألني: هل له اقارب في تورنتو...؟ وهل يرغبون بالتّدخل بالموضوع...؟

- حسب معرفتي له خال في مونتريال، وسواء تدخّل بالموضوع أو لا، فإنّني أنا الذي سوف يقف إلى جانب ذلك الشاب .

- ثم سألني: من الذي سيتكفّل بالمصاريف التي سوف تصل ربما إلى 50 أو 60 ألف دولار...؟

- أجبته وبدون تردّد: أنا سيدي سوف أتكفّل بكلّ شيء وبمساعدة الجالية طبعاً.

- هزّ برأسه موافقاً، فشعرت حينها أنّني أنا الذي أنقذت من الترحيل والقتل وليس الشاب علاء.

واتّفقنا أن يعقد السيد روبي في صباح اليوم التالي مؤتمراً صحفياً يعلن فيه قراره بالدّفاع عن الشاب العراقي.

خرجت سريعاً واتّصلت بأفراد من الجالية العراقية للاجتماع وعرض حيثيات القضية معهم، ثم اتّصلت بخال الشاب أيضاً في مونتريال وكان مستعداً لمساعدتنا بأيّة طريقة كانت.

في اليوم التالي اجتمعنا جميعاً في مكتب المحامي كلايتون بحضور عدد كبير من مراسلي الصحف والتلفزيون والإذاعة فالكلّ كان متشوقاً لمعرفة الأخبار ولسماع الإعلان المنتظر، ولأنّ الحرب على بغداد كانت قد دخلت

يومها الثاني والكلّ كان متشوقاً لسماع ما يحصل[1].

رفعت القضية إلى المحاكم المحافظاتية فجاء الردّ بالرّفض لأنّ ذلك ليس من اختصاصها، فرفعت في هذه الحالة إلى المحكمة الفدرالية العليا وحدّد الوقت بعد أسبوعين للنّظر بهذه القضية أمام المحكمة والتي ستحكم بشأن نفاذ قرار وزيرة الهجرة بالطّرد الآني، أو رفض تنفيذه فتتحوّل القضية في أن يكون المدعي مدعياً عليه.

جاء اليوم الموعود بعد أسبوعين وعقدت جلسة المحاكمة[2].

(1) جلسنا جميعا لبدء المؤتمر وكان في مقدّمة الحضورالمحامي جيمس والشيخ المرحوم عبد المجيد الصّيمري وأفراد كثيرة من الجالية العراقية والعربية، وكنت أوّل المتحدّثين بإسم الجالية العراقية شارحاً بإيجاز للصّحافة ظروف اعتقال الشاب العراقي وهو ما زال مشتبهاً به بتهمة الإرهاب، مع ذكر ظروف الحرب على العراق ودعوتنا إلى إيقاف الحرب بأسرع وقت ممكن، ودعوتنا إلى كندا في عدم الإنجرار وراء مخطّطات الولايات المتّحدة، ثم دعوتنا إلى كلّ أحرار العالم والجاليات العربية والإسلامية في العالم كافّة بالوقوف إلى جانبنا، شكرت الجميع على حسن تفهّمهم واستماعهم ثم تركت الكلام للسّيد روبي كي يعلن ما لديه، أعلن إنّه سيكون محامي الدفاع عن الشاب العراقي مهما كلّف الأمر وأنّ قرار وزيرة الهجرة الكندية كان متسرعاً ومخطئاً وبأنّ الحكومة الكندية كانت متشدّدة ومتسرّعة جداً في القاء القبض على الشاب واتّخاذ القرار التعسفي بترحيله إلى العراق، وقد أكّد أنّه سيرفع القضية إلى المحاكم العليا وستصبح شغله الشّاغل حتّى يظهر حق ذلك الشاب في حياة هادئة في بلد ككندا ينادي بالحرّيات والسّلام والمساواة بين بني البشر، وذكر أيضاً أنّ سمعة كندا كدولة كبرى على المحكّ وسوف يرى العالم كلّه نتيجة ما أصدرته وزيرة الهجرة الكندية سابقاً، قرار السلطة التنفيذية في ترحيل الشاب العراقي علاء ليس بالضّرورة أن يتمّ تطبيقه مع أنّ القرار كان قراراً صادراً من جهات كبرى ثلاث وزارات، الهجرة، والأمن، والخارجية، ولكنّه لا يمكن له أن يتحوّل إلى قرار ما لم تقرّه المحكمة الكبرى، هذا في حالة مواجهة القرار من قبلنا، أمّا لو تركت الأمور بدون المواجهة القضائية فإنّه يجب على الحكومة تسليمه إلى العراق.

(2) غصّت القاعة بالحاضرين وخاصّة الصحافيين، وجلس في جانب منها مدعو عام الحكومة ودائرة الهجرة، ومن وزارة الأمن القومي والمخابرات، أمّا في الجانب الآخر جلس رئيس المحامين السيد روبي وأحد مساعديه، وإلى جانبه مستر جيمس، ومقابل طاولة القضاة جلست هيئة الإدّعاء، أما أنا والعديد من أفراد الجالية جلسنا فيما وراءهم في الصف الأوّل، وما هي إلّا لحظات وجيء بالشاب العراقي علاء مكبلاً ومحاطا بثلاث حرّاس من الامن القومي (RCMP) وعندما دخل وقع نظره عليّ فأومأ برأسه يحييني، وأنا ابتسمت له وحييته بدوري =

بعد لحظات من الضجة والأحاديث هنا وهناك دخل قاضي المحكمة فسكت الجميع، وبدأت المحاكمة بمرافعة للمدَعين العامّين (Prosecutors) التابعين لوزارة الأمن القومي فذكروا بأنّه أثناء تفتيش الشاب (لم يذكروا إسمه الحقيقي خوفاً عليه من انتقام البعض وسمّوه كما ذكرت Joseph Smith) وجدوا في جيبه قائمة بأسلحة كان ينوي إلى قتل عدداً من الكنديين، واستمرّ المدعي الحكومي بتقديم تفاصيل مرتّبة بشكل أقرب إلى الحقيقة.

ثم جاء دور مدّعي عام وزارة الهجرة، وعرض على المحكمة رأي الوزارة في عدم قبولها أيّ شخص كان لديه جُرم بأن يدخل أراضيها وخصوصاً الإرهابيين، ثم اضاف بأنّهم متأكّدون أنّ المدَّعى عليه له علاقة بخليّة إرهابية ترتبط بشخص إسمه صلاح شبّر وممّا يثبت ذلك أنّ الشاب كان يحمل رقم تلفون المدعو السيد شبّر وهذا الأخيرله تأريخ حافل في أميركا، وأنّه مطرود منها وكان يخطّط في أميركا لعملية انقلاب ضدّ نظام صدّام بطرق غيرشرعية، كما أظهرت التحقيقات التي حصلنا عليها من الجانب الأمريكي أنّ السيد شبّر موضوع على اللّائحة السّوداء في الولايات المتّحدة، وهو ينتمي إلى حزب إرهابي يهاجم المصالح الأمريكية والفرنسية والبريطانية في العالم وهو (حزب الدّعوة) وهذا الحزب مسؤول عن محاولة اغتيال عدد من الشخصيات والقادة منهم أمير الكويت، وأنّ السيد شبّر ومنذ أن خرج مطروداً من الولايات المتحدة قد تمّ أيضاً رفض معاملة لجوئه لكندا، وأكمل واسترسل بحديثه قائلاً: يبدو لنا بأنّ السيد شبّر شخص معارض لنظام صدّام حسين، وأنّه في نفس الوقت غير متعاون مع السلطات الكندية كما كان أيضاً مع السّلطات الأمريكية، وأنّنا لا نتردّد أن نقول بأنّ الماضي السياسي للسيد

= ووضعت يدي على قلبي في إشارة أن يبقى قوياً ولا يخاف إلّا من الله عز وجل، وأنّ الأمور ستسير على خير ما يرام. جلس الشاب إلى جانب محاميه وحضر معه مترجم كي ينقل تفاصيل النقاش والمحاكمة للطرفين، أمّا الصحافيون فقد منعوا بالتأكيد من إدخال كاميراتهم واكتفوا فقط باقلامهم ودفاترهم كي يدونوا كلّ ما يحدث، وحضر أيضاً رسّامون متخصّصون كي يرسموا صورة المحكمة لتنشر في الصحف من خلال ريشتهم.

شبّر لا يمنعه أبداً من مساندة العمليات الإرهابية في الغرب، مع أنّنا لا نملك دليلاً على كل ذلك ولسنا متأكدّين من أنّه يعمل ضدّ نظام بلده، كما أنّ المخابرات الكندية لم تسجل أية مخالفة للسيد شبّر خلال الخمس سنوات التي قضاها في كندا، ولكنّنا كعناصر مخابرات نعتقد بما يسمّى (الخلايا النائمة) للإرهاب، ونعتقد بأنّ الشاب المتّهم جاء إلى كندا كي يحاول أن يتسلّل إلى الولايات المتحدة لضرب وتخريب المصالح الأمريكية بأيّة طريقة ممكنة.

في أثناء القاء مرافعته كنت أراقب القاضي وكان معظم الوقت يدوّن أمامه مقتطفات من المرافعة، وكنت بين الفينة والأخرى انظر إلى السيد روبي والسيد جيمس وهما يصغيان إلى كلّ ما يقال.

اما الشّاب المتهم علاء فكان ينظر إليّ وكأنّه يسألني ما الذي سيحصل...؟ كنت أبتسم له وأغمض عيني كأنّني أطمئنه بأنّ كلّ ما يقال مجرّد أقاويل وليست براهين، وأخفّف عنه خوفه من الآتي في بلاد الغربة الصّعبة[1]، وبعد ثلاث ساعات رفعت الجلسة للإستراحة، وبعد ذلك يأتي دور الدّفاع في الكلام.

دخلنا القاعة مجدداً وتقدم السيد روبي لبدء دفاعه وكان هادئاً، وتكلّم كثيراً بحيثيات القضية، ومن جملة ما ذكره: إنّ وجود قائمة بأسلحة مع موكّلي لا يعني أبداً لا قانونياً ولا لغوياً أنّه يملك تلك الأسلحة أو يتاجر بها أو حتى يستعملها.

أمّا فيما يخصّ السيد شبر فمن الواضح إنّه وطيلة الخمس سنوات التي قضاها هنا لم يأتِ بأية مخالفة أو خطوة تدلّ على انتمائه لشبكة إرهابية على حد قول المدعي العام، فهو رجل متعلم يحمل شهادة جامعية عالية، لديه هنا

(1) والمضحك في الأمر أنّ السيد روبي ملَ من الجلوس الطويل وافترش الأرض واضعاً رجلاً على أخرى وهو يقرأ في أوراقه ويقلّبها بين يديه ويتابع سير المحكمة وهو نائم على الأرض وكأنّه متأكّد أنّه في نهاية الأمر سيفوز في دفاعه عن هذا الشاب البسيط.

عائلة ويعمل بالتجارة ويقدّم كلّ مساعدة للجالية العراقية أو لأي فرد يحتاجها، ويقدّم يد العون لكلّ قادم جديد من العراق للعيش هنا في كندا بأمان وكرامة فقدوها في بلادهم.

ثمّ أضاف: والأهمّ من كلّ ذلك فهل يعقل أو نصدّق أنّ رجل إرهابي يقدم على أي عملية انتحارية أو عمل تخريبي يفكّر أن يصطحب معه زوجته الحامل في شهرها الثامن بطفلهما الأول، هل يعقل ذلك سيدي القاضي...؟

ثمّ توجّه إلى المدّعين العامّين (و هذا هو المهم) وقال: إنّ كلّ معلوماتكم التي ذكرتموها مصدرها واحد، وأتحدّاكم أن تقولوا غير ذلك، مصدرها السفارة العراقية التي استنفذت كلّ ما لديها كي تستلم هذا الشاب منكم، والله يعلم إلى أين سوف ترسله بعد ذلك...؟

وللأسف فقد تعاونتم وبصورة مخجلة مع المخابرات العراقية التي كانت متشوقة فقط كي تسلموها شخصاً من المحتمل أن يكون بريئاً.

ثم وجّه كلامه للصحافيين ودعاهم أن لا يثقوا بكلام المخابرات والحكومة الكندية دون التأكّد منها، ولا يمكن أن نستمع لجهة واحدة فقط، ثم أضاف: أنّ لكلّ إنسان الحقّ في إبداء رأيه والدّفاع عنه وتقديم الإثباتات والبراهين على كلّ ما يقول، والحكومة والمخابرات لم تقدّم أية براهين وأدلة على صحة ما لديها، فكلّ كلامها عن السيد شبّر والشاب محض كلام وادّعاءات كاذبة مستقاة من السّفارة العراقية ومخابراتها، وليس من جهة محايدة موثوقة، والدّليل على ذلك أنّ السيد شبّر ما زال يعيش هنا يعمل ويشتري ويبيع ويخرج للنادي ويعيش حياة طبيعية ولا تستطيع الحكومة أو أي جهة طرده ولكنّها تستطيع أن تضعه في دائرة مراقبتها وتحت مجهرها -إذا صحّ التعبير- وأكمل قائلاً: وفيما يخصّ تلك المعلومات عن (حزب الدّعوة) فهي معلومات معروفة لم يضيفوا أي جديد لها ويا ليتهم استقوا معلوماتهم من المخابرات الأمريكية التي لم تشر إلى ما ذكرتموه الآن في تحقيقاتها.

إنّ كندا يا سيدي القاضي هي بلد الحريات والمساواة واستيعاب

الطّاقات، ويجب علينا كدولة كبرى أن نتعامل مع الجميع ضمن حدود قانون احترام حقوق الإنسان أيّ إنسان كان، وكان من الأجدر أن تجتمع الحكومة مع أفراد المعارضة العراقية في الخارج، وفي كندا للتعاون والتباحث في كيفية إنقاذ بلادهم من ظلم حاكمها والعودة إلى وطنهم كي يعيشوا بكرامة وسلام وأمان، والكلّ يعرف مدى ظلم صدّام حسين لشعبه واضّطهاده لهم، وخوف الشعب منه، ولكنّ الدول أغمضت عينيها عن كلّ جرائمه وأدارت ظهرها للمعارضة الحقّة.

والسيد شبّر الذي ذكرتم إسمه اليوم موجود معنا في هذه القاعة، وقد عرفته معارضاً عتيداً لنظام صدّام مشاكساً وعنيداً في الدّفاع عن حقوقه هنا، وقبل ذلك في الولايات المتحدة، وعن حقوق الجالية العراقية في هذا البلد، وعرفته إنساناً مثقّفاً يعمل هنا من أجل خيره وخير المجتمع الكندي الذي يعيش فيه.

ثم توجّه إلى الصحفيين ثانية وسألهم: هل سمعتم يوماً (بحزب الدّعوة)...؟ هل سمعتم أنّه حزب إرهابي...؟ إنّ الجهة المقاومة لظلم صدّام حسين لا يمكن أن نصفها بالإرهابيين. هذا الحزب سيفعل كلّ ما في وسعه كي يتخلّص من ذلك النظام الذي يعرف كل العالم أنّه ظالم لشعبه، ولكنّهم يغمضون أعينهم عمّا يفعله بالنّاس في العراق ويصمّون آذانهم عن الأخبار الفظيعة التي تأتي من هناك أيضاً، ولكنّه في نهاية الأمر حكم جائر لا يعرف الإنسانية ولا الرّحمة... واستمرّ السيد روبي بالكلام باسلوبه الدقيق والمقنع والكلّ يستمع باهتمام.

نظرت إلى القاضي الذي كان يستمع جيداً لكلام المحامي، ثم أعلن بعد ساعتين من الزمن انتهاء الجلسة ويمكن أن يكون قد أخذ فيها القرار المناسب.

قادوا الشاب العراقي علاء إلى السجن مخفوراً بعد أن أشرت له بيدي بأنّ الأمور جيدة جداً وليس هنالك من سبب للقلق.

اقتربت من السيد روبي ولساني يعجز عن شكره، ولم أعرف ماذا أقول

أو أفعل أمام هذا الإنسان الرّائع، شعرت بنفسي ولا إرادياً بأنّني أعانقه بشدّة والدّموع تنهمر من عيني من شدّة الفرح والسرور بما سمعت وبما فعل هذا الرجل العظيم.

صافحني بقوة واتّجهنا إلى السيارة فسألته: كيف ترى الأمر سيدي الكريم...؟

- لا أشك أبداً في رأي القاضي الصائب، إنتظر وسوف نرى..

- و هل تعتقد أن الحكومة وإدارة الهجرة ستستأنفان القضية وتنقص من فرص ربحنا القضية...؟

- أبداً... لا يجروؤن على ذلك فهم الآن بدون دلائل ويشعرون بالضّعف.

- ومتى تعتقد سيصدر الحكم النهائي؟

- أجابني بهدوء: ربّما بعد أسبوع أو 10 أيام

- و هل ستستعد ثانية للدّفاع في حالة الإستئناف من قبلهم...؟

- قلت لك لن يفعلوا ذلك ثق بي، والحكومة الآن محرجة وستدفع ثمن قرارها الأخير.

ودّعته لركوب السيارة، وكم شكرت الله أنّه بعث إلينا بهذا الرجل المحب للخير والدّفاع عن الحقّ والمظلومين.

بعد ثمانية أيام كنت في مكتبي عندما اتّصل بي مدير السجن وطلب مني الحضور لزيارة الشاب علاء بعد أن كان ممنوعاً على أيّ أحد زيارته... وصلت السجن وأدخلوني لمقابلته بعد تفتيشي تفتيشاً دقيقاً، وكان جالساً في زنزانة صغيرة لا يتجاوز طولها وعرضها المتران مع حراسة على مدار 24 ساعة من قبل عناصر مخابرات خاصة، جلست معه وطمأنته بأنّ الأمور تسير على خير، والحكم صادر لا محالة، وندعو الله أن يكون بالفوز، نظر إليّ

بتعجب، ثم سألني عن أحوال زوجته الحامل فأخبرته أنّها بصحة جيدة وزوجتي تهتم بها وهي الآن موجودة فيما يشبه (الموتيل)، ولكن مراقب من قبل حرّاس وعناصر شرطة ومخابرات، وقد طلبت من طبيبة السجن -إذا جاز التعبير- أن تهتم بها وبحملها.

غادرت السجن، بعد فترة قصيرة عدت إلى البيت متعباً، كنت بحاجة إلى الراحة وإلى النوم، ولكن قبل كل ذلك اتصل بي السيد روبي وطلب مني المجيء إلى مكتبه غداً عصراً، استغربت الأمر قليلاً، ولكنّني توسّمت خيراً وقلت في نفسي يجب أن أرتاح الآن فغداً سيكون نهاراً متعباً وشاقاً على ما يبدو.

وفي عصر اليوم التالي توجّهت لمقابلة المحامي السيد روبي، دخلت المكتب فاستقبلني، وطلب من السكرتيرة أن لا تحوّل له أية مكالمة، وأوّل ما سألني: هل أنت من مدينة النّجف...؟

- قلت: نعم، وما دخل هذا بقضيتنا...؟ واستغربت من السؤال

- قال: سأشرح لك فيما بعد، ثم سأل وقال: والشاب علاء الذي في السجن من أية مدينة هو...؟

- قلت بشيء من الخجل: من بغداد.

- ثم أكمل أسئلته قائلاً: وقلت أنّك لا تعرفه من قبل، ولم تقابله أبداً قبل ذلك. وأنّ معرفتك به من خلال اشتراككم فقط في إسقاط النظام... ؟

- أجبته: نعم هذا صحيح.

سكت قليلاً ثم قال: بالأمس، اتصل بي وزير عراقي هارب إلى كندا، وقبل أن يكمل جملته سألته سريعاً: ما اسمه...؟

قال مستغرباً: وهل تعرف وزراء سابقين هاربين إلى كندا يعيشون هنا...؟

أجبته نعم أعرف واحداً منهم، واسمه جواد هاشم وهو كان وزير التخطيط، ولكنّني لم ألتقِ به أبداً[1].

نظر إلي ثم قال: اتصل بي شخص وعرّفني بنفسه على أنه وزير عراقي سابق، ودعاني للعشاء في أحد مطاعم تورنتو، لبيت الدعوة والتقيت به وجلسنا نتحدث في قضية الشاب المحتجز علاء وسألني: هل الشاب الذي تدافع عنه من جنوب العراق...؟ فاستغربت سؤاله هذا وأجبته: لا أعلم من أي جهة هو...؟ ولا يهمّني أن أعرف... ؟ ثم استمرّ السيد روبي في حديثه قائلاً: ثم سألني: ومن وكلك بالدفاع عنه...؟، قلت له بسرعة: السيد شبّر، تعجّب الدكتور جواد هاشم ردّي وقال: أها، السيد شبّر..؟ إذن الشاب المعتقل شيعي...؟ تعجبت من سؤاله أكثر وأجبته: لا يهمني يا سيدي أن يكون شيعياً أو سنياً أو مسيحياً، المهم إنّني أعرف أنه مضطهد ومظلوم شأنه شأن الكثير من الشيعة أو السنة أو المسيحيين في العراق. ثم استمرّ السيد روبي في حديثه لي وسائلاً إياي: هل أنّ الشاب شيعياً..؟ مجرد سؤال...؟ قلت له إنّني أكره أن أتحدث بالانتماء المذهبي لأنّها قضية حساسة... وقد يمكن لي أن أقول لك بأنّه مسلم أولاً، وعراقي ثانياً، وشيعي ثالثاً.

واستمرّ المحامي السيد روبي قائلاً بأنّ الوزير السابق جواد هاشم طلب مني أن أنقل لك يا سيد شبّر رجاءه في أن يتحمّل هو تكاليف المحامي بدلاً منك لأنّ المتهم معارض شيعي.

وقبل أن أجيبه صعقت من الموضوع وتحسست بشيء من الإحساس الذي ينتاب الإنسان في ساعات المحنة، وشعرت بأنّ الله أبداً لا يترك المظلومين. وأنّه سبحانه عز وجل ممكن أن يسخّر من هو بعيد عن أصل القضية في مد يد المساعدة .

(1) الدكتور جواد هاشم أول وزير للتخطيط في حكومة البعث في عام 1968 ولد في محافظة كربلاء ثم اختلف مع قادة البعث بسبب انتمائه المذهبي كما يقول هو في مذكراته ثم طلب اللّجوء السياسي في كندا في كتابه الموسوم (مذكرات وزير عراقي مع البكر وصدام، ذكريات في السياسة العراقية: 1967- 2000 عن دار الساقي لندن).

فأجابه السيد روبي: سيدي لقد وكلني بذلك السيد شبّر، وهو الذي سيدفع كلّ التكاليف، ولا يمكنني أن أقبل منك ذلك في تحملك للتكاليف بدلاً عن موكلي، قال لي، أي للسيد روبي: إذن قال إن أمكن الاتصال بالسيد شبّر وأعرض عليه ما قلت...؟ قلت له إتصل به أنت سيدي الكريم وأخبره بما لديك، قال لي أفضل أن تتصل أنت به، ولكنّني لم أتصل بك لإنّني تحسست شيئاً ما خلف الموضوع، وأنّه ليس من قبيل المتعارف في أن أقول لك هذا الأمر وقرّرت أن أفاتحك بالموضوع شفوياً، وها أنذا أنقل لك فقط رأي الدكتور الوزير العراقي...

أجبته على الفور: بالتأكيد لا، لا أقبل أبداً بذلك، أنا وعدتك سيدي بالأمر، وإن أراد السيد جواد هاشم أن يساعد المعارضة فأتمنّى أن يكون ذلك بقلبه وروحه ومساندته ولكن ليس بماله، إعتذر له بالنيابة عني، وأنا متأكّد ممّا أقول ومقتنع به، وأنا في نفس الوقت ممتن له كثيراً على موقفه النبيل، وهذا إن دلّ على شيء، فإنّه يدلّ على وطنيته، ونبل أخلاقه، أرجو أن تنقل له سلامي وتحياتي، وقل له أيضاً (إنّ الأمانات تُؤدّى من أبوابها).

وفي اليوم التالي نشرت الصحف الكندية مقابلة أجراها أحد الصحفيين مع المحامي كلايتون وأشار فيها إلى الوضع القانوني المحرج للحكومة الكندية ووصفها بمثل يقال في كندا (a shoes gum)... أي (علكة في الحذاء) وكيف العلكة تلتصق بالحذاء ولا يمكن إزالتها أو التخلص منها، وكذلك الأمر بالنسبة للحكومة في ورطتها أمام القانون.

وبعد يومين من المقابلة أصدرت المحكمة الفدرالية العليا قرارها بعدم شرعية موقف وزيرة الهجرة، وأنّه يّحقّ للشاب العراقي علاء تقديم طلب اللّجوء السياسي في كندا شأنه كشأن بقية العراقيين اللّاجئين، وأمرت بإطلاق سراحه فوراً، إذ لا دليل على كلّ التّهم المنسوبة إليه.

وفي الساعة الثانية عشر ظهراً خرج الشّاب منتصراً مع زوجته وتوجه إلى بيت أحد الأخوة العراقيين في تورنتو، إتّفقت وإيّاه على أن نلتقي غداً للذّهاب إلى مكتب السيد روبي.

وصلنا في الصباح إلى مكتب المحامي حيث سينعقد مؤتمراً صحفياً لشرح قرار المحكمة العادل، دخلنا المكتب وأسرع الشاب وزوجته لشكر السيد روبي وكانا مسرورين كثيراً، ثم بدأ المؤتمر الصحفي بكلمتي التي تناولت فيها ملابسات القضية وكيف أنّ الظلم والإضطهاد لم ولن يدوما، وكيف أنّ الظلم الذي وقع على الشاب وزوجته قد انتصر على الباطل في نهاية الأمر، وأننّا شعب يحب الحياة والعلم والحضارة، وعلى الحكومة الكندية أن تستفيد من طاقاتنا ومهاراتنا واحترام حقوقنا وعدم فرض الإعتقال على أحد قبل التأكّد من كلّ الدلائل ضدّه، ثمّ تحدّث السيد روبي عن أهمية الوجه الحضاري لكندا وقوانينها.

وبعد انتهاء المؤتمر جلسنا نتحدّث مع السيد روبي عن القرار الذي يجب مناقشته وهل يجب علينا رفع دعوى قضائية ضد الحكومة الكندية لاستعادة حقّ ذلك الشاب وزوجته وللتعويض عن الذى تسبّبت به قراراتها التعسفية...؟ وخاصّة وأنّ زوجة السيد روبي كانت حاضرة معنا وهي محامية أيضاً متخصّصة بحقوق المرأة وحقوق الإنسان، وقد كانت مهتمة كثيراً بالشاب وزوجته ووعدتهما أن تقف إلى جانبهما في المستقبل. وفي اليوم التالي نشرت الصحف المؤتمر مع صورة للشاب وزوجته يمسكان بيدي بعضهما مع تعليق يقول: إلى الحرية والعائلة.

وبعد كلّ ذلك، وبعد أن انتهت القضية وحقّقنا ولو جزءاً بسيطاً من الفوز قرّرت أن أسأل السيد روبي سؤالاً لطالما ساورني وهو لماذا يجازف رجل ذو شخصية مهمّة بقضية صعبة ومعقّدة ومع شاب اتّهم بأعمال تمسّ بأمن دولة...؟ وكيف يجازف بمستقبل عريق في هذه القضية في الدّفاع عن شاب من الممكن جداً أن يكون في الحقيقة من الإرهابيين المخرّبين...؟ وهل كانت المسألة مسألة مال...؟ اللهم إلّا إن كان ومنذ البداية متأكّداً من فوزه بالقضية ومن براءة ومظلومية ذلك الشاب.

سألته كل ما دار في رأسي فأجابني وبسرعة وهو يبتسم: الأمر بسيط يا سيدي الكريم فأنا ومنذ البداية وعندما سألتك عن حمل زوجة الشاب عرفت

وأيقنت وتأكّدت من براءته وعرفت حينها أنّه ليس إرهابياً، لأنّ الإرهابي إذا أراد أن يفجّر نفسه أو يفجّر عبوة أو أي شيء يفكّر مائة مرة قبل أن يصطحب معه زوجة حاملاً في شهرها الأخير، فالطفل طفله والطفل عزيز على والديه... أليس كذلك سيد شبر...؟ وأنا أيقنت ببراءته، وأنا كمحامٍ من واجبي أن أدافع عن المظلومين والأبرياء بغضّ النظر إلى مسألة المال والأَتعاب.

ابتسمت وأعجبني ردّه الذّكي وخرجنا كلّنا من مكتب السيد روبي بعد أن شكرناه جزيل الشكر...

خرجنا ونحن نملك إيمانا قوياً وصلباً بأنّ الحقّ حقٌّ في هذه الحياة وأنّ الله لا يتخلى أبداً عن المظلومين، والحقّ لا يُستردّ إلّا بقوة الإيمان والعمل الجاد والإرادة الصلبة.

ودعت صديقي العراقي وزوجته وهما لا يزالان إلى يومنا هذا يعيشان في مدينة مونتريال في كندا ويُكنّى الآن بـ "أبو مصطفى"، وله ثلاثة أولاد يستنشق أجواء الحرية والمساواة والعدالة.

المبادئ وعلاقتها بالعقل

ما هي المبادئ...؟ وهل في الحياة مبدأ أم مجموعة مبادئ...؟ وهل أن المبادئ مشتركة بين بني البشر...؟ وهل أنّ المبدأ في بغداد هو نفسه في شنغهاي أو لوساكا...؟ أم أنّ هناك مبادئ أخرى لكلّ شعب من الشعوب...؟ ومن يضع هذه المبادئ...؟ الأديان...؟ الإنسان...؟أم من...؟

لم يطرح هذا السؤال أو هذه الاسئلة على عقول المجتمع الإنساني، ولم يتحوّل إلى قضية ملحّة إلّا بعد أن تقاربت الأمم ودخلت الشعوب عصر الإنترنيت، وتحوّلت الأفكار المتباعدة إلى أفكار متقاربة تؤثر أحدهما على الأخرى سلباً كان أو إيجاباً، وبعد أن بدأت شعوب الأرض تكتشف بأنّ هنالك شعوباً أخرى غيرها تعيش على هذه الكرة الأرضية أيضاً، وأنّها تملك إهتمامات متشابهة لاهتماماتها.

فالبعض من سكان الأرض أو من الشعوب وقبل الإنفتاح الكبير على عالم التكنولوجيا الاتصالية والمعلوماتية كانت لا تعتقد ربما بوجودها في أماكن أخرى من العالم، وذلك لأنّ معرفتها وفهمها لثقافات غيرها من الشعوب كانت محدودة وضيقة، وما لم تتوفّر المعرفة والثقافة الواسعتان فإنّ العقل البشري سيحاط بسحابة من الأوهام والظّلمات التي لا تنتهي.

وعندما ضاق العالم وتحوّل إلى قرية صغيرة أصبح البشر يعيشون هاجس التعامل فيما بينهم، كيف يتحابّون...؟ كيف يتكلّمون...؟ كيف يعيشون...؟ وكيف يكوّنون مشاعرهم تجاه بعضهم البعض الآخر، فحاجات الأمم والمجتمعات بدأت بالتوسع في وجود الكمبيوتر والإنترنيت الذين تحوّلا إلى حاجة ضرورية في البيت والمدرسة والمكاتب والشّركات، وأصبح الموبايل

حاجة ملحّة يتطلّبها كلّ فرد من أفراد العائلة الصغير والكبير، وأصبحت السيارة ضرورية في كلّ المجتمعات فضلاً عن حاجات أساسية أخرى في البيت كالتّلفزيون والبرّاد والغسالة والفرن والمايكرويف... إلخ إنّ هذا الانفتاح التكنولوجي دفع أمم الأرض للبحث عن مصادر التبادل في مجال التكنولوجيا الكبير فالصانع للموبايل والميكرويف أو أي سلعة صناعية أخرى يبحث دائماً عن أسواق واسعة لمنتجاته، والمشتري لتلك السلع أيضاً يبحث عن أرخص الأسعار، وأفضل النوعيات كي يستوردها، ولكي تتمّ عملية المنفعة والإفادة لكلي الطرفين، وكان لا بدّ أن يطّلع كل منهما على الآخر إن كان من الناحية الاجتماعية أو الاقتصادية، وحتى الدّينية، حتى صار علم معرفة الشعوب ودراسة تطورات حياتها وتقدمّها من العلوم المهمّة التي تُدرّس في الجامعات الغربية فضلاً عن دراسة علم الجغرافيا والتاريخ ومادة (العلاقات العامة) (Public Relations) كجزء مهمّ في تركيبة أي شركة أو مؤسسة أو حكومة أو وزارة تريد أن تتعامل مع المجتمع وتتعايش معه.

وهكذا يطرح السؤال الكبير كيف لي أن أتعامل مع هذا الشّعب أو ذلك الشّعب...؟ وأن أتعرف على متطلّباته...؟ وما هو مناسب له ولحياته...؟ وكيف لي أن أنتج مايكرويفاً مثلاً يتناسب مع ذوق الشّعب المصري...؟ وما هي المبادئ التي يجب أن أبني عليها مشروع الإنتاج والتسويق...؟ وهل أنّ مبادئ التسويق لنفس المنتج تتشابه مع مبادئ التسويق في فرنسا أو في العراق أو في أي بلد آخر...؟ وهل يمكن للكتيب الذي يرافق كلّ منتج كالمايكرويف مثلاً أن يحتوي في وصفاته وصفة تتضمن لحم الخنزير ويسوّق في الدول العربية الإسلامية...؟ أم أنّ هذه المجتمعات كالمجتمع العراقي أو المصري أو السعودي ستقف موقف المعارض والرافض لهكذا منتجات أن تُسوّق عنده، لأنّ المبدأ والقانون الإسلامي والعربي يحرّم لحم الخنزير...؟ أو ربّما بعض الدول العربية ستغضّ الطرف باعتبارها من القضايا المُسلّم بها في عالم الغرب حيث تصنّع هكذا أجهزة متطورة...؟

إنّ المبدأ كما نستطيع أن نُعبّر عنه باللّغة الاصطلاحية بالقانون ولكنّه

قانون لم يسنّه فرد، وإنّما وضعته أمم اتّفقت على مصداقيته وضرورة الالتزام به، ولو قرّبنا الأمر أكثر لوجدنا أنّ المبدأ الذي تتّفق عليه أمم الأرض هو الذي لا يصطدم مع فطرة الإنسان، فإذا اصطدم أو تعارض مع فطرة الإنسان فإنّه لا يُعدّ مبدأً من مبادئ أمم الأرض.

والبعض يرى أنّ المبدأ هو شيء نسبيّ تختلف فيما بينها الأجناس البشرية على احترامه أو عدم احترامه والالتزام به.

نشرت الأمم المتحدة في يناير من عام 2009 إحصائية خاصّة بمعتنقي الأديان الرئيسية، وقد جاءت على النحو التالي الإسلام، المسيحية، الكونفوشية، الهندوسية، واليهودية... وهنا أذكر الأديان لا الأفكار لأنّنا لا يمكن لنا أن نحصر ونحدّد تفرّعات الأديان، وحتّى عددها، ومثل الدّين كمثل اللّغة، فاللّغة العربية مثلاً لغة لها تفرّعات ولهجات كثيرة لا يمكن عدّها.

إنّ الأديان السماوية قد سنت مباد‌ءها العشرة أو مباد‌ءها العامّة في أصول أدبياتها منها: لا تقتل، ولا تزني ولا تسرق لا تكذب... إلخ

فصار عدم الكذب مبدأً، وعدم القتل مبدأ، وعدم السّرقة مبدأ وهكذا إلى أن تحوّلت هذه المبادئ عموماً إلى أساس تعترف به تقريباً كلّ شعوب العالم ومن هذه المبادئ العامة سنّت الدول الكبرى قوانينها على هذا الأساس، فالقتل جريمة سواء أكان في العراق أم في لوساكا أم في لوس انجلوس، كذلك الأمر بالنسبة للكذب والسرقة والزّنا، وكلّ هذا هو من المبادئ التي تعترف بها أمم الأرض المتحضّرة على حدّ سواء ولم أصادف أو أجد أحداً ومن خلال تعايشي ومعرفتي بعدد كبير من الناس في بلاد كثيرة ومن أجناس وأديان مختلفة من كان يعتبر أنّ الكذب فضيلة أو السرقة شطارة أو القتل شجاعة هذا على مستوى المبادئ التي سنّتها الأديان أو وضعتها القوانين الوضعية.

فقد وضعت أجهزة التشريع في كلتي الجهتين مواداً قانونية لمن يرتكب جريمة القتل أو السرقة أو الغشّ أو الخداع، ولو أردنا أن نجيب عن السؤال

الذي بدأنا به حديثنا في وجود المبدأ أو عدمه لأجبنا وبكلّ قناعة أنّ المبدأ موجود... ولسبب بسيط هو أن المبادئ العامّة للبشر تولد وتنشأ في الفطرة الإنسانية، بمعنى آخر لا يمكن للنّار أنّ تتضور دون انبعاث الحرارة، ومبدأ الثلج هو البرودة، فلا يمكن ولو للحظة أن تنفصل النار عن الحرارة ولا الثلج عن البرودة لأنّها أمور بديهية طبيعية ومنطقية، فالمبادئ العامة التي اتفق بنو البشر عليها هي التي تولد مع الإنسان في فطرته وسجيّته، وهي ليست ما يكتسبه من المجتمع، فالطفل مثلاً يولد وفي فطرته الرضاعة من أمه، ويولد وعنده أيضاً حبّه لأمه ولكلّ ما فيها.

فالبشرية بأجمعها سواء أكانت من الشعوب التي تعترف وتؤمن برسل السماء الدينية، أم تلك التي تتبع القانون الوضعي يؤمنون ويعترفون بفطرية المبادئ الإنسانية... فإذن أين تكمن مشكلة اختلاف المبادئ...؟

إذا تجاوزنا النقطة الأولى فإنّنا سنكون أمام اختلاف كبير في تفسير قانون القتل، وقانون الغشّ، وقانون الزّنا، وقانون السرقة، وكلّ قانون يمتّ بصلة أو يتعلّق بمفهوم المحرّمات الفطرية التي يرفضها إنسان اليوم.

إنّ معظم شعوب الأرض تعترف بأنّ القتل جريمة ولكنّها تضع نقاطاً أمام هذا الإعتراف، وتقول أنّ القتل جريمة إلّا إذا دعت الحاجة اليه...

وهكذا تنشب الحروب الدامية التي تؤدّي إلى قتل الملايين من البشر بحجّة ال (إذا) هذه، والشرف جريمة أيضاً إلّا إذا، والغش جريمة إلّا إذا، هذه ال(الا إذا) هي التي تحتاج إلى بحث عميق تبحثه الأمم المتحضّرة التي تنادي بالإنسانية والسّلام حتى لا تبقى ال(إلّا إذا) هذه عرضة لتفسيرات أولئك المنتفعين بها والتي تدفعهم إلى قتل الملايين بذريعتها. فمثلما قتل الملايين من البشر في الحرب العالمية الأولى، ثمّ الثانية وأبيدت شعوب في قنبلتي (ناغازاكي وهيروشيما)[1] بعد أن اجتهد واضع تلك القوانين في تفسير تلك الـ (إلّا إذا).

---

(1) هو هجوم نووي شنته الولايات المتحدة ضدّ الإمبراطورية اليابانية في نهاية الحرب =

فقد وجد حاكم من الحكام الديكتاتوريين بأنّ له الحق في إبادة وإعدام عوائل بأكملها من أطفال وشيوخ ونساء لأنّه سنّ قانوناً بالقتل ضدّ من يعارضه وضدّ الذين يقفون في وجه ظلمه وبطشه.

فالقتل القانوني الذي سنّته دولٌ كثيرة أصبح الآن قانوناً يميل إلى صالح إلغاء عقوبة الإعدام للقاتل، ففي الولايات المتّحدة الأمريكية وفي معظم الولايات هنالك تياران أو رأيان مختلفان منذ ما لا يقلّ عن مائة سنة أحدهما مع تطبيق قانون الإعدام، والآخر مع إلغائه، فإذا ما سنّت أو أصدرت إحدى الولايات قانون الإعدام مع تصويت وموافقة مجلس الشيوخ والبرلمان فيها فإنّ المعارضين لذلك القانون سرعان ما يعدّون العدّة وعلى مدى سنوات طويلة لإلغاء تلك العقوبة، وهذا ما حدث في ولايات كثيرة مثل نيويورك وبنسلفانيا، وما زالت المعركة مستمرّة في ولايات أخرى[1].

= العالمية الثانية في أغسطس 1945، بقصف مدينتي هيروشيما وناجازاكي باستخدام قنابل نووية بسبب رفض تنفيذ إعلان مؤتمر (بوتسدام)، وكان نصه أن تستسلم اليابان إستسلاماً كاملاً بدون أي شروط، إلّا أن رئيس الوزراء الياباني (سوزوكي) رفض هذا التقرير وتجاهل المُهلة التي حدَّدها إعلان بوتسدام، بموجب الأمر التنفيذي الذي أصدره الرئيس هاري ترومان، قامت الولايات المتحدة بإطلاق السلاح النووي الذي سمته (الولد الصغير) على مدينة هيروشيما يوم الاثنين 27 شعبان عام 1364 هـ / الموافق 6 أغسطس عام 1945 ثم تلاها إطلاق قنبلة (الرجل البدين) على مدينة ناجازاكي في التاسع من شهر أغسطس، وكانت هذه الهجمات هي الوحيدة التي تمت باستخدام الأسلحة النووية في تاريخ الحرب، قتلت القنابل ما يصل إلى 140,000 شخص في هيروشيما، و80,000 في ناغازاكي، كما مات ما يقرب من نصف هذا الرقم في نفس اليوم الذي تمت فيه التفجيرات، ومن بين هؤلاء، مات 15-20 ألف متأثرين بالجروح أو بسبب آثار الحروق، والصدمات، والحروق الإشعاعية، يضاعفها الأمراض، وسوء التغذية و التسمم الإشعاعي، و منذ ذلك الحين، توفي عدد كبير بسبب سرطان الدم نتيجة التعرض للإشعاعات المنبثقة من القنابل، وكانت معظم الوفيات من المدنيين في المدينتين. راجع مادة الهجوم النووي على هيروشيما وناغازاكي في: (www.ar.wikipedia.org/wiki)

(1) أكثر من 60% من سكان العالم يعيشون في دول تطبق هذه العقوبة حيث أن الأربعة دول الأكثر سكاناً وهي الصين والهند و الولايات المتحدة و إندونيسيا. في عام 2007 تم إعدام 800 شخص في 23 دولة بحيث تحتفظ كل من إيران والمملكة العربية السعودية وباكستان والعراق والولايات المتحدة بنصيب الأسد في هذه العمليات. وقد نفذت كل من السعودية واليمن عقوبة الإعدام على أفراد من أجل جرائم ارتكبوها وهم أحداث مخالفة للقانون =

أمّا في العراق اليوم وبعد التغيير الكبير الذي حدث في أبريل 2003 فإنّ واضعي ومقرّري القوانين يميلون إلى إلغاء عقوبة الإعدام لأنّ البلد وعلى مدى سنوات طويلة عانى الكثير من القتل والإعدام من قبل النفوس المريضة التي مارست أبشع أنواع القتل وأعدمت وبشكل عشوائي عوائل بأكملها، ولا ننسى إبادة قرى كثيرة بالأسلحة الكيماوية والمذابح التي حدثت إبان الحكم السابق مثل مذابح حلبجة ومذابح الأهوار ومذابح الانتفاضة في 1991 الشّعبانية.

لقد عاش المجتمع العراقي خلال القرن الماضي أبشع المآسي الدموية في المنطقه عموماً، فليس من السهولة أن تلغي عقوبة الاعدام بجرّة قلم وفي مجتمع يحوي الآلاف ممّن تدربوا على أيدي أعتى المجرمين والذين أصبحوا بعد ذلك قتلة محترفين هدفهم قتل الأرواح البريئة لمجرّد معارضتهم لنظامهم، ولكنّ وبالرغم من وجود أولئك المؤيدين لقرار الإعدام بتلك الكثرة اليوم فقد أصبح عدد المعارضين للقانون أكثر من ذي قبل بسبب الوعي الثقافي والحضاري الذي بدأ ينتشر بين أفراد المجتمع بعد سنة 2003 وبأنّه في النهاية لا يصحّ إلّا الصحيح والله هو الذي يقبض الأرواح جميعا وهو الحاكم العدل.

وهذا ما ينطبق على موضوع الـ (إلّا إذا الإعدام) وإلّا إذا الكذب، وإلّا إذا الغش، وإلّا إذا القتل، وهكذا إلى ما لانهاية، فليس من المنطق أن يسمح لشركة غربية كبرى أو عربية حتى أن تنتج أسلحة دمار شامل أو أسلحة كيماوية أو ذرية أو عنقودية فتاكة بحجة أنها قضية خاصة بها أو بأمنها، فحادثة (Union Carbide) في الهند وحادثة (تشيرنوبيل) في روسيا وحروب الخليج في 1991 وحرب العراق الأولى والثانية، كلها خير دلائل على ما ذكر، وما نرفضه لحياتنا وحياة أولادنا راجع أشهر مذابح التاريخ الحديث على[1]،

= الدولي، هنالك 18 ولاية أمريكية ألغت عقوبة الإعدام. راجع مادة إعدام www.ar.wikipedia.org/wiki.

(1) http://en.wikipedia.org/wiki/List_of_events_named_massacres.

وبالمناسبة هذه المذابح هي التي سمح للصحفيين والمطلعين بتوثيقها، أما تلك التي لم توثق فإنها أكبر بكثير مما هو معروف.

وهنا السؤال... فما العمل إذن...؟ وما الحلّ لهكذا قوانين...؟ كما يقول المثل الغربي (سؤال المليون دولار)...؟ إنّ الحلّ الأنسب والأفضل هو أن تتحول أمم الأرض إلى وحدة قوية تشترك في الحضارة والصّناعة والزّراعة والاقتصاد والحياة الاجتماعية، وتكون خاضعة إلى ما يسمّى بالقانون الدولي والمجتمع الدولي، والذي يجب عليه أن يتعامل مع تلك الأمم كأمّة واحدة، موحّدة، فقانون البيئة مثلاً ومقرّرات مؤتمر (كيوتو) في اليابان لجميع الناس في كلّ الدّول، وألزمت الجميع في اتّباع أخلاقيات البيئة، فتغيّرت السياسة أو الهيكلية الداخلية لعدد كبير من المصانع كي تحافظ على النظافة البيئية للعالم، فإذا كان قانون البيئة الذي وضعته مقرّرات (كيوتو) قانوناً عالمياً ولا مناص منه فلمّا لا تتّخذ القضايا الأخلاقية والفكربة المنحى نفسه الذي اتخذته قوانين البيئة...؟

ولكي نسترسل ونكون واقعيين ونجاري هذه الأفكار على أهميتها يجب على أمم الأرض ودول العالم أن تكون عبارة عن حكومات ضمن حكومة واحدة عالمية يقودها أرفع وأنزه وأفضل شخصية أو شخصيات العالم من الذين يضعون القوانين ويتحكّمون بمصائر الأفراد إذا صحّ التعبير، فالعالم اليوم يميل إلى العقلانية والإستقرار، وإلى الإبتعاد قدر المستطاع عن الحروب والنزاعات، ومع إنّنا نجد أنّ حروباً كثيرة تدور في بلاد عديدة، ومع ذلك فإنّ عقل الإنسان اليوم من مفكرين وروؤساء وسياسيين في العالم المتقدّم قد توصل إلى ضرورة تبنّي فكرة أنّ الكرة الارضية يجب أن تعيش بسلام بكل أممها وشعوبها سواء أكانوا في أفريقيا أو أميركا أو حتّى في القطب الشمالي.

وهنا تبرز فكرة الحكومة العالمية التي ربما تدعو إليها كلّ الأفكار بل كلّ الأديان في أدبياتها والتي تتبناها وترى بأنّ الوحدة العالمية لأمم الأرض قضية حتمية، بل يقولون بطبيعة تلك الحتمية، فالمسيحية واليهودية والإسلام كلّهم يشتركون في الإيمان بهذه الفكرة، بل أيضاً تدعو إليها النظرية الشيوعية

بمفرداتها البورليتارية، وترى أن النهاية للعالم هي أن يسود العدل بقيادة البروليتاريا العمالية كما يقول بذلك (ماركس) في رأس المال، أمّا المسلمون فإنّهم متفقون كلّهم على عالمية المستقبل للحكومة في الفكرة (المهدوية) التي يتفّق كلّ طوائف المسلمين عليها مع الإختلاف في التفاصيل، الأمر كذلك أمر متفق عليه في مسيرة الرأسمالية الغربية التي ترى بأنّ نهاية التاريخ هو القوّة الديمقراطية وهو ما كتب بها صاحب كتاب (الإنسان الأخير ونهاية التاريخ)(1) الذي يؤكّد هذه الفكرة بطريقة أو بأخرى، وأيضاً ممّا هو يسير بنفس الاتّجاه برزت بعد سقوط الإتّحاد السوفيتي أفكار (العولمة) التي تؤكد نفس المفهوم في ضرورة العالمية في الحكومة القادمة للبشر، فالمؤتمرات العالمية كمؤتمر البيئة والمياه ومؤتمر الإقتصاد، ومؤتمر البنوك كلّها تصب بهذا الاتّجاه الذي يدعو أمم الأرض من التحرّر من فكرة المساحة الصغيرة إلى فكرة التوسّع على العالم وعلى الحقّ والديمقراطية.

إنّني إذ أرى بأنّ العالم قد بدأ فعلاً بالإقتراب بعضه من البعض الآخر في التفهم وفي الإنسانية، وفي أشكال القانون، فإنّ النصف الثاني من القرن الحالي قد يشهد تحقّق فكرة الحكومة العالمية الكبرى التي يرنو إليها الجميع مع اختلافهم في تشكيلها وتفاصيلها، فالأمم المتقدمة اليوم تدعو إلى عدل وإلى مساواة وإلى حرية في كلّ شيء في الحياة بغضّ النظر عن المكان الجغرافي لأمم الأرض، لأنّ الشعور الواقعي لتلك الأمم ترى بأنّ المساحة الجغرافية ما هي إلّا عائق كبير في سبيل تقدّم ذلك البلد لأنّ الطاقات الإنسانية والطاقات البشرية التي تزخر بها أمم الأرض لهي أكبر من أن تحدّها الحدود، في ذات الوقت تدعو تلك الأمم المتقدّمة إلى تشخيص مشاكل التفكير بتلك الأفكار الخيّرة والتي تكمن معظمها في فكرة الديكتاتوريات التي تسيطر على مساحة كبرى من أرجاء الأرض، والتي تحاول وبشتّى الطّرق أن تُحوّل الفكرة التوحيدية لأمم الأرض إلى فكرة السيطرة أي سيطرة القوي على الضعيف.

(1) فرانسيس فوكاياما، نهاية التأريخ والإنسان الأخير، عن مركز الانماء القومي 1993.

إنّه ليس من قبيل السيطرة والإمبريالية كما يقال في أن يسيطر على مقدّرات الأمم وعقول العلم والإدارة وعقول القضاء وعقول الإنسان غير المتحيز... بل إنّه من غير العدل أن لا يكون لتلك القدرات الإنسانية من محل في مسيرة المجتمع العالمي، وأن يحلّ محلّها قوى السياسة وقوى الإنتفاع الشّخصي... فدول العالم المتقدم تعاني من جشع السياسي الذي يريد فرض سيطرته وفرض إرادته أمام الغالبية الكبرى من الشعب الذي يريد أن ينطلق نحو الخير ومساعدة شعوب الأرض الأخرى الفقيرة...

ففي أحداث الربيع العربي الأخيرة كان لنا لقاء مع إحدى كبرى الشخصيات الغربية ومن صانعي السياسة ولكن من بابها الخلفي وهؤلاء غالباً ما يكونوا ذوي نفوس رفيعة وقدرات إنسانية عالية لأنها تملك خبرات مع شعوب الأرض في مجالات الأخوّة والعدالة.. كنت قد تحاججت معه حول أحداث النظر بالعين الواحدة لدول الرّبيع العربي وذكرت له الدولة اليتيمة التي لم يتمّ مساندتها من قبل القدرة الأمريكية الضّاربة، وعاتبته بأن تقف دولته موقف المتفرّج على عمليات القتل اليومية لمجتمع مصغّر عار من كلّ شيء إلّا من قوّة مواطنيه... أجابني بأنّ المشكلة الكبرى في ذلك ليس إلى سياسة الدّولة وإنّما إلى سياسة السياسيين أنفسهم من الذين تقاسموا المنافع مع حكام تلك الدولة... وأكّد لي بأنّ الدولة أية دولة في العالم يجب أن تنفصل إرادتها عن إرادة الأفراد، وهذا ما يجب التفكير به بعقلية المبادئ العالمية التي تُبنى من خلال مؤسّسات قوى الأمم لا من خلال مؤسّسات القوة ومؤسسات المنافع الشخصية.

وعلى أمم الأرض أن تجد طريقها لترسيخ مبادئ لازمة وثابتة، وأن تطلع أحداها على الأخرى وأن تقرأ تاريخ كلاً منها وتتفهّم مشاكلها، والتي على ضوئها تبدأ البشرية أن تتفهم حقائق واسعة منها:

- إنّ السلام العالمي لن يحلّ على شعوب الأرض إلّا إذا شعرت به كلّ أمّة على أرضها أولاً وتمنت أن يعم السّلام أينما كان.

- إنّ الإرهاب والحروب والدّمار إن حلّ في أي أرض وفي أي قطر من أقطار الأرض سوف يأتي يوم ويحلّ في بلدي ومدينتي ..
- إنّ الرخاء والبذخ الاجتماعي والإقتصادي شأنه كشأن الأمراض المعدية السارية تنتقل من بلد إلى آخر ولا توقفهما أية جيوش أو حدود...
- إنّ الإنسان أخ للإنسان أينما كان وأياً كان لونه أو دينه أو عرقه وليس هناك أفضلية لأحدهم على الآخر إلّا بمقدار حبه وخدمته لأخيه الإنسان.
- إنّ التكريم لبني البشر هو تكريم لما أؤمن به أنا سواء أكنت مسلماً، مسيحياً، يهودياً، هندوسياً أو لأيّ دين أو ملّة انتميت ...

المحكمة الأمريكية العليا

إن المحكمة الأمريكية العليا أو (The Supreme Court)، هي أعلى هيئة قضائية في الولايات المتحدة ، تؤدي إلى القضاء الاتحادي، وتتكوّن من رئيس المحكمة العليا للولايات المتحدة وثمانية قضاة معاونين، الذين يعينهم رئيس الجمهورية، ويؤكّدهم بـ (مشورة وموافقة) (تصويت بالأغلبية مجلس الشيوخ)، بعد تعيينهم، يأخذ القضاة مناصبهم لمدى الحياة، بخدمة السلوك الحسن، التي لا تنتهي إلا عند الوفاة[1] أو الاستقالة، أو التقاعد أو الإدانة، تعقد المحكمة في واشنطن العاصمة في مبنى المحكمة العليا في الولايات المتحدة، المحكمة العليا هي في المقام الأول محكمة استئناف[2].

ويمثّل الرئيس الأمريكي أمام تلك المحكمة العليا بُعيد انتخابه كي يؤدّي اليمين الرئاسي (كما يمثل رئيس الوزراء البريطاني والأسترالي والكندي والنيوزيلندي أمام الملكة اليزابيث الثانية)، ورئيس تلك المحكمة غالباً ما يكون الأكبر سناً.

ولكي تتجّنب الجهات القضائية أي احتمال رشوة أو إغراء هؤلاء القضاة

---

(1) توفي (ويليام رينكويست) في عام 2005 رئيس المحكمة العليا الأمريكية عن عمر يناهز الثمانين عاماً، وكان الرئيس ريتشارد نيكسون قد عين رينكويست في المحكمة العليا عام 1972 ثم عين رئيساً لها عام 1986 من قبل الرئيس رونالد ريجان (Encyclopedia Britannica). مادة المحكمة العليا.

(2) في كل دول العالم هنالك ما هو مشابه لما موجود في الولايات المتحدة الأمريكية ولكن مع الإختلاف في الاليات ففي العراق هنالك محكمة الاستئناف العليا التي يرأسها مدحت المحمود وفي إيران هنالك مجلس القضاء الاعلى الذي كان العراقي السيد محمود الهاشمي يرأسه، في مصر وبريطانيا وكل الدول الأوروبية كذلك.

بالمال أو بأيّ شيء آخر فإن القاضي أو العضو لا يتقاضى راتباً محدداً وإنما يأخذ من خزينة الدولة المال الذي يحتاجه له ولعائلته، وغالباً ما يكون القاضي منهم من ذوي المستويات الرفيعة إن كان من الناحية الأخلاقية أو من الناحية الشخصية، وتاريخ حياتهم غالباً ما يكون نظيفاً ونزيهاً ولذلك لم يظهر يوماً في تاريخ تلك المحكمة أي فساد أو استغلال من قبل أي قاضي أو عضو من الأعضاء في مجتمع لا يخلو من الفساد والاستغلال.

ولا تنظر المحكمة الأمريكية العليا في قضايا الخلافات إلّا بعد أن تعجز كلّ المحاكم الأخرى كالمحاكم المحلية والمحاكم المدنية ومحاكم الولاية عن إيجاد الحلّ المناسب لأيّ نزاع فتمر بعد هذا التسلسل إلى أن تصل إلى المحكمة العليا كي تجد الحلّ الأنسب. ومن صلاحيات المحكمة الأمريكية العليا النظر في قرارات محاكم الاستئناف الفيدرالية، وفي بعض الحالات في قرارات محاكم الولايات، وفي الأحكام الصادرة عن المحاكم العليا في الولايات، وكذلك في المعاهدات.

ويلعب القضاة التسعة في المحكمة العليا والذين يعيّنون مدى الحياة دوراً محورياً داخل المجتمع الأمريكي.

والسّؤال الذي يطرح نفسه، من وكيف يعين الحاكم في المحكمة العليا؟

إنّ حاكم أو رئيس تلك المحكمة يعين بطريقة معقّدة جداً، ولكن لها من الأهمية ما لا يسمح لأي كان أن يفكّر بوجود تلاعب أو تزوير أو محسوبيات لهذا المنصب.

إنّ مجلس الشيوخ يعين ثلاثة من أعضاء المحكمة والبرلمان يعين ثلاثة آخرين، واثنان يُعيّنون بالتصويت ويتمّ اختيارهم من الولايات، أمّا الرئيس الأمريكي لا يمكن له أن يُعيّن العضو الذي يريده، بل يقترح إسماً معيناً لشخص واحد فقط، وعندها يقدم ذلك الشخص برنامجه أو سيرة حياته العملية والشخصية، كذلك مواقفه وميوله السياسية (التوازن في القوى الرئيسية) أمام هيئة يعيّنها الكونغرس الأمريكي، والتي تبدأ بمساءلة الشخص الذي

اختاره الرئيس... فإذا ظهر بعد تلك المساءلة التي تمتد أحياناً لمدة شهر أو أكثر بأنّ هنالك في تاريخ وحياة ذلك الشخص ما يبين انحيازه يوماً ما لفكرة ما، وبدون دليل قانوني، أو إنّه اتّخذ موقفاً انفعالياً لسبب أو لآخر أو أنّه تصرف بطريقة غير إنسانية في إصدار حكم ما فإنّ كلّ ذلك سيكون سبباً لرفضه عضواً في تلك المحكمة من قبل هيئة المساءلة (Inquiry).

ففي أوآخر الثمانينيات استقال أحد القضاة (لويس باول)، وفي مثل تلك الحالات يجب على الرئيس الأمريكي أن يرشّح إسماً لخلافة القاضي المستقيل، فرشح شخصية من الشخصيات اللّامعة في عالم القضاء وهو السيد (روبرت بورك Robert Bork)[1]، شكَّل على أثرها الكونغرس هيئة أو لجنة لمساءلته تتكوّن من تسعة أعضاء يرأسهم (جو بايدن نائب أوباما الحالي) دامت الجلسات يومها أكثر من ثلاثة أشهر[2].

وكان على الرئيس ريغان أن يدعم مرشحه بصورة يتمكّن فيها من إقناع الهيئة بأنّه هو الشخص المناسب لهكذا منصب، ولكنّ الرياح سارت بعكس ما أرادها الرئيس فقد استمرت جلسات المساءلة وكان على اللجنة أن تبحث في

(1) الرئيس نكسون وفي أعقاب فضيحة (ووتركيت) وفي أثناء المحاكمات عيَّن الكونغرس المدعي الخاص بالتحقيق في الفضيحة وأول شيء عمله ذلك المدّعي واسمه (كوكس) الطلب من نكسون الحضور إلى المحكمة الخاصة، وقد أغاض ذلك الرئيس نكسون سكرتيره القانوني المدعي (ريشاردسون) أن يطرد كوكس من الوظيفة فرفض المدعي العام، فأقاله، وكذلك أمر نائبه الذي جاء بعده وهو (روكلشوص) فرفض أيضاً فأقاله أيضاً إلى أن جاء اخيراً بـ (بورك) هذا وطرد المدعي العام الأول (كوكس) فثبته الرئيس في وظيفته، حصل ذلك في ليلة واحدة 20 اوكتوبر 1973 وسميت عندئذ (ليلة المذبحة)، وكان نيكسون من ذلك يرمي إلى حماية نفسه من فضيحة التجسس هذه. وعليه كان أمام الحزب الجمهوري أن يعيد الفضل لـ (بورك) بسبب مواقفه المؤيدة للرئيس الجمهوري، من خلال تعيينه كقاضٍ في المحكمة العليا. كل ذلك تجده في الموسوعة العلمية ويكيبيديا تحت مادّة (فضيحة ووتركيت) www.ar.wikipedia.org/wiki.

(2) في أثناء المساءلة ليس أمام اللجنة أن تتدخل في مواقف بورك السياسية ورأيه في موضوع فضيحة ووترغيت ولكنّ اللجنة حاولت أن تنصب له أكثر من مصيدة لإبعاده عن منصب القضاء.

كل الأمور التي يمكن أن تؤثر على أي قرار تتخذه... وأثناء مساءلته كان السيد بورك متحدثاً بارعاً ومحاججاً عنيداً يستند في آرائه على حجج عقلية وقانونية ويدافع عن معتقداته التي يؤمن بها بكل جرأة ولياقة إلى أن وصلت لجنة المساءلة إلى موضوع (الإجهاض)، فالسيد بورك كان مؤيداً للإجهاض كما اكتشفت اللجنة، ولكنّ المشكلة لم تكن تكمن هنا في ذلك[1].

وخلال مساءلة السيد بورك تمت مناقشته في مسألة الإجهاض، ولم تعترض اللجنة على إيمانه أو عدمه، فهذه قضية عقائدية شخصية، ولكنّها لا تستطيع قبولها من شخصية رفيعة المستوى تجلس على قمة هرم القضاء الأمريكي، فهذه الشخصيات مهمّة جداً وبيدها مستقبل ومصير البلاد فعليها أن تكون محايدة في كلّ الأمور، مستقلة تماماً في القضايا الحساسة كمثل هذه القضية، وحتىّ لو كان لها رأيها الخاص فلا يجب عليها أن تجاهر به علناً، بل عليها أن تقف موقف الحياد منها .

وهكذا وبعد أشهر من المساءلات انتهت إلى خسارة السيد بورك في يوم الثامن من أوكتوبر 1987 منصب القاضي في المحكمة العليا ممّا اضطّر الرئيس ريغان إلى ترشيح شخصية أخرى لهذا المنصب...

أين النقطة التي كانت السبب في الرّفض...؟ كان السّبب أنّ المرشّح السيد بورك كان في السابق قد أعلن موقفه الواضح من عملية الإجهاض، ولكنّه لم يوضح موقفه ذلك أثناء المسائلة مع أنّ اللجنة التي كانت تسائله لم

---

(1) فالذين كانوا مع حرية الإختيار لم يكونوا يدعون إلى الإجهاض ولا يشجعون عليه، إنّما يقولون أن الإنسان في المجتمع الديمقراطي له الحق في أن يكون له ولد أو لا، فهم في الواقع يدافعون عن حق يرونه مشروعاً للإنسان، وليس بالضرورة أن ينظروا إلى الإجهاض كعملية يراد بها قتل جنين فقط، أما الذين هم ضدّ (الإجهاض) ومع حق الحياة (Pro life) فهم من المتزمتين والمتشددين وربما المتطرفين في دفاعهم عن حرمة عملية الإجهاض بكل أسبابها، وهم غالباً ما يكونون من الجنس اللطيف -كما يقال- أي من الإناث، وقد يكونون أيضاً من الأغنياء والمترفين في المجتمع الأمريكي أو الغربي بشكل عام ومن الكاثوليك المتدينين.

تعترض على آرائه ولكنّها اعترضت على عدم توضيح آرائه، بالتّأكيد هي نقطة جوهرية ومهمّة.

إنّ قوة المحكمة العليا تتأتّى من موقعها الخاص الذي سنّته لها القوانين الأمريكية والذي يتميز بعدم حصر القوّة بجهة واحدة، وإنّما يتمّ توزيع مراكز القوى كي تتمكن من العمل فيما بينها، وهو ما يدفع تلك القوى إلى تفهّم حجمها وقدرتها ممّا يضطرها أن تجد وسيلة من وسائل الحوار والتعاون مع القوة الأخرى لا معاداتها، لأنّ المعاداة في المنطوق السياسي يعني الإنتحار أو عدم العمل أو التقدّم.

فالسّلطات القوية تحتاج إحداها الأخرى ولا يمكن لقوّة في الولايات الأمريكية المتحدة أن تمارس أو تطبق قوتها بمعزل عن القوى الأخرى.

إنّ المحكمة العليا هي هيئة مستقلة تماماً وليس من قوة من القوى الأخرى التحكم بها أو بقراراتها وموقعها في النظام الأمريكي كموقع ملكة بريطانيا أو ملك (إسبانيا) مثلاً، شخصية تجلس على العرش دون صلاحيات، فالملكة لها الحقّ في قضيتين تهمّان الدولة إحداها الطلب في تشكيل الحكومة من رئيس الوزراء، وثانيها حلّ البرلمان لأنّ السلطة التشريعية المتمثلة بالبرلمان لا يمكن حلّها إلّا بقرار من سلطة عليا، وهي الملك أو الملكة، وعندما غاب نظام الرمز (الملك أو الملكة) في النظام الأمريكي وصلت الأمور إلى طريق مسدود في كيفية تصريف الأمور القضائية والدولية فيما لو انقسم البرلمان الـ 50% معارض و50% مؤيد لقضية ما، أو أن يدخل الرئيس الأمريكي الذي يمثل السلطة التنفيذية في صراع مع السلطة التشريعية، البرلمان، أو مع السلطة القضائية مجلس الشيوخ فهذه السلطات الثلاث لا تملك صلاحية على الأخرى، قد تتعاون فيما بينها ولكن إذا ارتأى الكونغرس أو الرئيس قراراً ما يراه في مصلحة أمن الدولة يكون هو في موقع من يتّخذ القرار الأخير، ولكن ماذا إذا لم يتمكن الرئيس من إقناع البرلمان على التصديق أو الأخذ بقراره...؟ ماذا عليه أن يفعل...؟

أمام الرئيس خياران: الخيار الأول أن يحصل على موافقة حزبه في البرلمان بنسبة معينة ثم يتّخذ قراره كما حدث في قرار الحرب الأمريكية على العراق في سنة 2003 عندما لم يصوّت البرلمان على قرار الرئيس للدّخول في الحرب، وعليه اتّخذ الرئيس القرار وتحمل نتائج تلك الحرب التي ستنعكس عليه وعلى حزبه الذي يمثل الأغلبية في البرلمان وهذا سيؤثّر بطبيعة الحال على الإنتخابات الرئاسية القادمة.

والخيار الثاني أن يقدم الرئيس شكواه مسنودة بالشواهد القانونية، وهذا يكاد أن يكون مستحيلاً لأنّ القضايا القانونية شيء والقضايا السياسية شيء آخر، وعندئذ لن تنظر المحكمة العليا بطلب الرئيس وستحيله ثانية إلى الكونغرس الذي سينقسم أيضاً فيما بينه قسم مع الرئيس وحزبه، وقسم آخر معارض وهم الديمقراطيون والذين كانوا يمثلون آنذاك النصف ناقص واحد، ولذلك فإنّ الرئيس بوش اتخذ قراره بدخول الحرب وبدون أن يحصل على تصريح كامل من الكونغرس وهذا سوف يجعله يتحمل تبعات الحرب مما سيؤثر على حياته السياسية فيما بعد.

تأريخيا، إنّ الولايات المتّحدة الأمريكية دولة قامت على عاتق المهاجرين الأوروبيين الذين أتوا من أوروبا هرباً من السلطة الدينية التي كانت تتمثل بالكنيسة والتي كانت تحكم بقوانين تضعها باسم السّماء والله. والملك آنذاك لم يكن إلّا رمزاً من رموز الكنيسة التي جعلها الله الوصي على الوطن، وعليه أن يفعل ما تمليه عليه السلطة الدينية التي تحولت إلى ديكتاتورية باسم الدين، وهؤلاء المهاجرون عندما حلوا في الأرض الأمريكية وجدوا أنّ الخطوة الأولى المهمة التي يجب اتخاذها هي إقرار حكم عادل من خلال فصل السلطة الدينية (الثابتة القوانين) عن السلطة السياسية (المتغيرة القوانين)، وأنّ الجوانب الدينية يجب أن تترك للكنيسة ولرجال الدين فيها ولهم الحق في إصدار أيّ قرار يرونه مناسباً لأولئك الذين يعتقدون أو يؤمنون بسلطة الدين أو الكنيسة أو اللاهوت من المتدينين.

امّا أولئك الذين لا يؤمنون بسلطة الكنيسة فكان عليهم أن يضعوا دستوراً ملزماً تحدّد فيه الحقوق والواجبات التي على الأفراد اتّباعها، ولكي لا يقع هذا الدستور فريسة للديكتاتورية والفردية كان يجب أن توزّع السّلطات والقوى ما بين الهيئات المختلفة والتي كثرت وتعددت لأنّ احتمالات الإستفراد بالسلطة والديكتاتورية قضية يبدع بها الإنسان أيّما إبداع، مع أنّ النظام الديكتاتوري ومنظريه لا يقولون بخلوّه من السّمات الديكتاتورية أحياناً، ويعترفون بأنّ النظام الديمقراطي عرضة على الدوام إلى استفحال الفكر الديكتاتوري وحلوله محل الفكر اللّيبرالي الديمقراطي، وعلى هذا الأساس يجب أن تكون هنالك عملية يسمونها (التّخفيف) (Dilution) للكثير من العمليات الدّيمقراطية وذلك بتوزيع مراكز القوى بين عدد من الجهات لكي تكون تلك القوى ضمانة لعدم سيطرة القوى الديكتاتورية على مقدّرات الأمور، وهكذا وخلال أكثر من (120سنة) وكلّما نشأت هيئة جديدة تحدّد صلاحياتها ثم تنقل بعض من صلاحياتها إلى هيئة أخرى وهكذا إلى أن وصل الدستور الأمريكي إلى ما وصل اليه اليوم من توزيع مراكز القوى أو تخفيف قوة الكل.

وعندما انتهوا من تضعيف أو تخفيف قوة الكلّ وجدوا أنّه لمن المنطقي أن تكون هناك سلطة عليا تملك مفاتيح الحكم وتمثّل التوازن ما بين القوى المتعدّدة ولكن ليس بالمنطوق السياسي أو المنطوق النفعي أو المنطوق الديني فكانت المحكمة الأمريكية العليا.

المسلمون السود في أمريكا

في الولايات المتحدة الأمريكية هنالك مجموعة من المسلمين الذين هم من المتحولين إلى الإسلام يسمّون أنفسهم بأسماء كثيرة منها (البلاليين) نسبة إلى (بلال الحبشي) ومنهم الحبشيين نسبة إلى (الحبشة) ومنهم المسلمون السود الأمريكان، وغيرها، هؤلاء عبارة عن طائفة دخلت إلى الإسلام حديثاً[1] .

إنّ أول تحوّل للأمريكيين إلى الإسلام حدث تقريباً في بدايات القرن الماضي على يد إحدى المنظمات الكبرى المعروفة والتي لازالت تعمل إلى اليوم وهي منظمة (أمّة الإسلام) وقد تأسّست عام 1903م علي يد (والاس اليجا محمد) (ت 1975) وقد جذبت العديد من السود للانضمام إليها بالرغم

---

(1) دخل في القرن السادس عشر الميلادية أول مسلم هو (ايستفانكو أوف اذامورا) وهو عبد مسلم بربري من شمال إفريقيا جاء كمستكشف لمنطقتي أريزونا ونيو مكسيكو ومبعوثاً من قبل أسبانيا تحت راية المستكشف (الفريدز دي فاكا) 1539م، ولكن ما يقال بعيد عن ذلك حيث أنه لم يعلن إسلامه هروباً من ملاحقه محاكم التفتيش الإسبانية بعد خروج عرب الاندلس منها، في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي استوطن مجموعة من المغاربة في جنوب كاليفورنيا كنوع من التبادل الدبولوماسي، وفي عام 1778 م أعلن سلطان المغرب الاعتراف الكامل بالولايات المتحدة الأمريكية وذلك لأنّ سلطنة مراكش مطلة على المحيط الاطلسي، والمغاربة كانوا عنصراً فعالاً في الاستكشافات الإسبانية، في عام 1796 وقع (جون آدمز) على معاهده مفادها أن الولايات المتحدة الأمريكية ليس لديها اتجاهات عدائية للدين الإسلامي، في عام 1893 كان (الكسندر راسيل ويب) الوحيد الذي مثل الإسلام في البرلمان الأول لأديان العالم. بدأت هجرة المسلمين للولايات المتحدة الأمريكية منذ عام 1840 م وكانت من البلاد التي تخضع لحكم الخلافه العثمانية، في عام 1906 م قام المسلمون البوسنيون في شيكاغوا بإنشاء جماعة الهجرة للمسلمين في الولايات المتحدة الأمريكية وأقاموا مدرسة تقام ليوم الأحد تحت إشراف الشيخ كمال ادفينش. كل ذلك تجده على موقع ويكيبيديا تحت مادة (الإسلام في الولايات المتحدة): (http://ar.wikipedia.org/wiki).

أنها اتخذت اتجاه آخر لا يتّفق مع الفكر الإسلامي ولا مع أهدافه وذلك في اعتبار الجنس الأبيض هو جنس الشيطان وذلك كرد فعل طبيعي للظروف التي تعيشها أمريكا خلال موجة الاضطهاد البيضاء للسود طيلة عدة قرون.

وقد استعار اليجا محمد مبادئ أمّة الإسلام الثلاث من أفكار (نوبل درو علي) وهي الله هو الرب، الرجل الأبيض هو الشيطان. بعد وفاة اليجا محمد تولّى إبنه (وارث الدين محمد) زمام الأمور وقام بإلغاء بعض مبادئ الجماعة ومنها أن (اليجا) كان رسولاً، وأنّ الرّجل الأبيض ليس شيطاناً، وإنّما إنسان عابد، وقام بتغير إسم المنظمة من "أمّة الإسلام" إلى "المجتمع العالمي للإسلام في الغرب"، ثم تم تغييره مرة أخرى إلى "المجتمع الأمريكي للإسلام".

وفي عام 1976 قُدّر عدد أعضائها بـ 70 ألف عضو، وبسبب ما قام به وارث الدّين محمد من إصلاحات في المنظمة حدث انشقاق حيث قام (لويس فارقان) بإنشاء منظمّة تحمل نفس الإسم الأوّل (أمّة الإسلام) بنفس المبادئ الثلاث (و لكن بصورة متخفّية) وبالرّغم من أنّ عدد أعضائها الآن لا يزيد عن 20 ألف إلّا أنّها ذات تأثير كبير في المجتمع الأسود في الولايات المتّحدة الأمريكية، حيث إنّها نظّمت مسيرة المليون رجل عام 1994 وكانت أكبر مسيرة منظمة في واشنطن وهي أيضاً كانت تقوم بدعم التعليم الأكاديمي والثّقافي والاستقلال الاقتصادي والمسؤوليات الاجتماعية، وقد وجّهت لأمّة الإسلام الحالية نقداً لمعادتها للبيض والمسيحية والسّامية وصُنِفت كجماعة تدعو للكراهية.

وقد اعتقد السّود منذ القدم والذين جيء بهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية كعبيد أُجراء سرقوهم أو شحنوهم كما تشحن البضاعة من إفريقيا[1]

(1) إنّ أول شيء ذكر عن دخول الإسلام للولايات المتحده الأمريكية أنّ العبيد المسلمون يشكلون حوالي 10%-20% من عدد العبيد الذي تم نقلهم في عهد الإسبان والبرتغاليين والإنجليز والفرنسيين والهولنديين، وكان قد بدأ إستيراد العبيد في القرن السادس عشر =

بأنّ عليهم أن يتحرّروا من حالة العبودية التي ترسّخت في نفوس الكثير منهم، وخلال عقود من الزمن، فالعبودية وإن كانت حالة اجتماعية ولكنّها حالة نفسية تسير مع الإنسان وتترعرع معه وتنتقل من جيل إلى جيل أحياناً بشعور وأحياناً بلا شعور، ولذلك فإنّ أيّ حلّ لمشكلة العبودية يتطلّب وقتاً طويلاً كي يتمكّن من اقتلاعها من نفوس أولئك الذين صاروا عبيداً[1].

فالمجتمع يعتبر العبد ما هو إلّا طبقة أخرى مختلفة شأنه كشأن أي قطعة أثاث أو أي شيء رخيص -إن أحسنّا التعبير-، بل أحياناً تذهب البعض من الحضارات القديمة كالحضارة الهندية والرومانية والإغريق وكذلك بعض المفاهيم العربية قبل الإسلام بأقاويل قد نأنف عن ذكرها في مقالنا عن وضع هذا الإنسان الذي ولدته أمه ملوناً بأنّه بعيد عن صفات الإنسان، وعندما توارثت تلك الحالة ما بين الشعوب وتأصّلت في أجيالهم تحوّل أولئك الأشخاص إلى طبقة مميّزة عن الآخرين، فالبعض من القبائل العربية ومن القدماء إذا أرادوا فعل منكر ما في أي قضية في الحياة فإنّهم يرسلون عبيدهم لفعله، لأنّ العبد ومن خلال التأريخ الطويل للعبودية صار يفتقد للقيم ويفتقد لأخلاق المجتمع التي تمنع أحياناً عن أداء شيء ما يستنكره المجتمع.

= الميلادي، وإن كان نصف العبيد قد جاءوا من مناطق بها على الأقل أقلية مسلمة متأثرة بالآلاف، ومن أشهر أمثلة العبيد المسلمين (أيوب سليمان ديالوا) وهناك أيضاً (عمر بن سعيد) الذي تم إحضاره من السنغال في القرن التاسع عشر لترجمته عدة كتب هامة عن الإسلام منها "الطريق للصلاة"، وبعض الآيات القرآنية، النصر رقم 110، وهناك (بلال بن محمد بن علي) الذي وصل لجزيرة لسبيلو خلال عام 1803، وخلال العبودية أصبح القائد والإمام لمجتمع المسلمين الذي يقدر في ذلك الوقت بثمانين شخص، وله ما يسمّى (بمستند بن علي) يتكون من 13 صفحة عن الرسالة الإسلامية. 59% من المسلمين لديهم شهادة جامعية، واحد من كل ثلاثه مسلمين لديه دخل أكثر من 75 ألف دولار أمريكي سنوياً. تلك المعلومات تجدها في كتب كثيرة كتبت عن مسيرة الإسلام في أمريكا معظمها منصفة وواقعية. ومن الممكن معرفة معظمها في تصفحك للموقع (Islam in the united states):

http://en.wikipedia.org.

(1) لا بأس بمراجعة الكتاب القيّم (الجذور) للكاتب اليكس هايلي الذي ترجم الى العربية من قبل سعيد محمد عبد المنعم، مكتبة مدبولي، مصر.

فالعرب مثلاً كانت ترى عدم الرجولة في أن تقاتل شخصاً وهو غافل عنك أو أن تأتيه من الخلف، ويعتبرون ذلك جبناً، كما كانوا يترفّعون عن قتال من سقط سيفه مثلاً، أو أن أحد المقاتلين رفع يده استسلاماً، أو أنّه استرحم المقاتل الآخر في حالات الضّعف، هذه كلها أخلاق كان العرب الأوائل قبل الإسلام وبعده ملتزمين بها، فكانوا إذا أرادوا أن يتجاوزوا كلّ تلك الأعراف فإنّهم يرسلون عبيدهم لفعله كما حدث في قضية (وحشي) مع الشهيد حمزة بن عبد المطلب عندما طعنه بحربة في غفلة منه، فلو أنيط هذا العمل بشخص آخر حُر الإختيار لما فعله لأنّه وإن كان قد حقق المطلوب في قتل ذلك الإنسان، ولكنّه يبقى محط تعيير العرب والقبائل، ومحط احتقار حتّى الأصدقاء، لأنّه تجاوز مبدأ من مبادئ الرجولة التي تعوّد العرب أن لا يفعلوها[1].

كذلك يرفض العرب منازلة العبد في القتال، مع أنّ القتال ساقط عن عاتق العبيد، وبعد ظهور الإسلام أعطى هذا الدين الجديد أهمية كبرى لحلّ هذه المشكلة التي لا تتفق مع المبادئ والتي أنزلها الله في المساواة بين الناس، فعمل على التخلص منها بأساليب متنوعة كثيرة يذكرها الفقهاء والكتاب الإسلاميون في أدبياتهم، وهكذا تمكّن الإسلام من القضاء على هذه الظاهرة بعد قرون من ظهورها.

ويعتقد المسلمون السود في الولايات المتحدة بأنّ أصولهم الإفريقية[2]

---

(1) كانت واقعة كربلاء في سنة 61 هجرية تمثل صورة واقعية لانحطاط خلق العربي فيما يخصّ أعراف الحرب عندما قتلوا الأطفال والنساء واستباحوا الخيام، ولذلك فإنّ الكثير من المعتدين في واقعة كربلاء عندما رجعوا تركتهم زوجاتهم بسبب العار الذي لحقهم في قتل حفيد الرسول وبتلك الصورة البشعة (انظر كتاب ثورة الحسين للشيخ محمد مهدي شمس الدين).

(2) تعداد المسلمين في الولايات المتحدة غير محدّد ولكنّها تتراوح بين7-9 مليون طبقاً لجامعه نيويورك إلي2-3 مليون طبقاً لمجلس العلاقات الأمريكية الإسلامية، ويشكل الجنوب آسيويين والقادمين من الهند وباكستان وأفغانستان وبنغلاديش 33% من تعداد مسلمي الولايات المتحدة، والأمريكيين الأفارقة 30% والعرب 25%، الأفارقة 3,4% الأوروبيين و2,1% البيض و1,6% الكاربيين و1,2% الأتراك و7% الإيرانيين و6% الإتنيين، وإنّ حوالى ربع المسلمين هم من =

تعود إلى أجدادهم المسلمين الذين عاشوا في القارّة الإفريقية، وبنوها وأسّسوا لحياتهم هناك وقد قام الغربيون فيما بعد في القرن السادس عشر بسرقتهم من هناك والإتيان بهم إلى أمريكا[1].

وقد اتّخذ المسلمون السود في الولايات المتحدة في البداية موقفاً عنصرياً في حركتهم، وهو ردّ فعل كما ذكرت لما يتعرّض له الشعب الأسود في أمريكا... فمبادئ (وارث) وسلفه (اليجا) كان يقرّ أشياء معاكسة تماماً لما كان البيض يعاملون به السود، من تلك المبادئ هو أنّ الشيطان لونه أبيض، وأنّ البيض هم أولاد الشّر لذلك يجب على الأسود أن يتخلّص من هؤلاء البيض، كما كان يقول أيضاً بأنّ الشكل الذي خلق الله به الأسود من قلة كثافة الشعر في الرأس واتساع الأنف وشكل العينين هي صفات مساعدة له في

= تحوّلوا للإسلام و67% من المتحولين للإسلام بروتستانت، و10% رومان كاثوليك و15 % للملحدين، وأنّ أكبر مناطق المسلمين في الولايات المتحدة هي واشنطن وبوسطن وهيوستن ثم جنوب كاليفورنيا. (المصدر السابق على الوكيبيديا).

(1) المشكلة التي تواجه السود الأمريكان والتي غالباً ما يصرّحون بها هو النسيج الاجتماعي للمجتمع الأسود الذي ورث العقلية العبودية على مدى السنين التي مرت عليه في ظروف الذلّ والقهر، ومع أن هذا الرأي ليس هو محل اتفاق بين المحللين الاجتماعيين في العالم، بل يرى البعض أن الإنسان وليد بيئته، وأن الوراثة التي يحملها العبد لا تختلف عن الوراثة التي يحملها الأبيض من الناس، وأنّ الصفات لا تورث، وإنّما الذي يورث هو بعض الصفات المكتسبة التي تنتقل بين الأصلاب، أمّا الواقع فإنّه لا يستبعد انتقال كلا الأمرين إلى الأبناء، فالصفات الخلقية أو الصفة السلوكية. فقد وجدوها تنتقل أيضاً من الآباء إلى الأبناء، ولذلك أقر البعض بسيادة عنصر من الناس على عنصر آخر وهي النظرية العنصرية أو نظرية الأعراق، فالبعض يرى أن العنصر الآري مثلاً هو الذي يملك النقاوة في الصفات العالية والذكاء والسيادة، ولكن هذه النظرة مع أن الأديان بأجمعها ترفض مضمونها، فإن القانون العصري الحضاري يقف منها موقفاً متحفظاً، بل رافضاً لما فيه من نظرة عنصرية لتفضيل عنصر على آخر من الجنس البشري، في الوقت الذي أقرت بذلك المنظمات الدولية ومبادئ حقوق الإنسان والأمم المتحدة بأن الإنسان أخ الإنسان وليس هنالك من تمييز بين عنصر وآخر وجنس وآخر، وكما نتذكر بأنّ الأمم المتحدة قد اعتبرت في السبعينيات الصهيونية العالمية نوعاً من أنواع العنصرية لأنّها تفضل عنصر بشري - بنو إسرائيل- على بقية الأجناس البشرية.

وصول الهواء إلى الجسم بدرجة أكثر ممّا عند البيض ذوي الأنوف القصيرة والمناخر الضيقة، كذلك كانت تعاليم (اليجا) تؤكد على أنّ سعة الفم كصفة من صفات الصّدق وحسن الكلمة.

وقد غلّف (اليجا) آراءه تلك بالغلاف الديني، وقال بأنّ هذه المبادئ هي ليست من عنده، وإنما هي مبادئ الإسلام الذي لم ينته بنبوة محمد (ص) بل استمر في الولايات المتحدة بأن تكون إرادة الله أن يساعد أمة الغرب المسلمين بأن يبعث لهم نبي هو (اليجا) كما بعث إلى الشرق النبي محمد (ص) (أو مايشبه هذا المعنى) وكانت هذه الأفكار آنذاك وفي سنوات الستينيات من القرن الماضي عبارة عن أفكار يطرب لها المواطن الأمريكي الأسود، ويستأنس بها باعتبارها أفكار تناغي عواطفه وتناغي أفكاره في ظروف اضطهاده والوضع السياسي والاجتماعي الذي يعيشه آنذاك.

وقد توجّهت حركة المسلمين السود في عملها إلى السّجون وتمكنّت من أن تُحوّل الكثير من المجرمين السود القابعين في تلك السجون إلى مسلمين بعضهم تحسن إسلامه وبعضهم بقى على كما عليه على ما نما عليه طوال مراحل حياته مع غلاف خارجي هشّ إسمه الإسلام(1).

وهكذا شكل (اليجا محمد) جهازاً ضخماً ومن (عصابة)(2) كبرى مسلّحة لها سطوة في الولايات حيث ينتشر فيها المسلمون السود وذلك بحجّة الدّفاع

(1) هذه الأفكار من الفصل ما بين العمل الإجرامي وبين الدين أفكار قد تساعد في نموها حالة الحرية المنفلتة للمجتمع الأمريكي الذي يعتقد خصوصاً السود بأنّ الطاعة هي للقانون وليست لنداء الذات الدينية، هذا بالإضافة إلى أنّ الدولة فتحت عقيدة الحرية أمام الإنسان بشكل مخالف للفطرة ومخالف لنزعات الإنسان في ميله إلى الباطل، إذ يرى الكثير من الأمريكان بأن الفرد الأمريكي حر بكلّ شي، والحرية وإن استخدمها الإنسان بشكل سيء فانها لا بد وأن يُدرك يوماً قيمة تلك الحرية في انتقاء المُثل الصحيحة التي تخدم غايات الإنسان في الوطنية، وعلى ضوء هذا المفهوم سمحت القوانين الأمريكية باقتناء السلاح وسمحت أيضاً ببيع الخمور وتناول المخدرات وتشكيل التجمعات المسلحة والعصابات على شرط عدم المساس بأمن المواطنين الآخرين.

(2) لا يعرف بالضبط عدد المليشيات المسلحة في أمريكا، فليس هنالك من قانون لتنظيمها =

عن المواطن الأسود، كذلك تمكن من أن يبني مؤسسات تجارية وعقارية كبيرة وأن يشتري ذمم الكثير من الناس لخدمة هدفه الذي اختلطت فيه الكثير من التشعبات والأهواء والأغراض السياسية والاجتماعية والشخصية، وقد كان المجتمع الأسود في أمريكا في ظروف يعاني فيها من حالات اجتماعية ونفسية معقدة، أهمها هو الخوف من المجهول، الخوف من القتل، والخوف من المستقبل، والخوف من أن تتمكن الدولة ومن خلفها العصابات المتشدّدة البيضاء من تحويل السود ثانية إلى عبيد وأُجراء يعملون في المزارع وفي المراعي[1].

وهكذا تتحوّل المفاهيم في زمن الخوف والجوع إلى أشياء معكوسة فإنّ الخير يتحوّل إلى شرّ، والشرّ يتحوّل إلى خير، ويتحول الحقّ إلى باطل والباطل إلى حقّ، ثم تبدو للناس أمور يعتقد أنّهم يرونها رأي العين مع أنّها لا وجود لها أصلاً.

في حركة السود المسلمين الأمريكان كان الوضع لا يختلف كثيراً عما شرحناه آنفاً، فالوضع الاجتماعي لحالة الخوف والحرمان التي كان يعيشها

= وهي مباحة ما دامت تلتزم بقوانين حمل السلاح، ولكن المعروف هو أن هناك ما لا يقل عن 84 بندقية أو مسدساً لكل 100 شخص في أمريكا، وهذه النسبة أعلى بكثير عن تلك الموجودة في أي دولة أخرى في العالم برمته، والبلد التي أتت بعدها في هذا الصدد هي اليمن يوجد بها ما لا يزيد عن 50 سلاحاً لكل 100 شخص، أما بلدان الإتحاد الأوروبي فهي تمتلك عدداً ضئيلاً نسبياً ألا وهو 17 بندقية لكل 100 شخصاً. لمعرفة المزيد:
http://en.wikipedia.org/wiki/Militia_(United_States).

(1) والإنسان عموماً وفي حالات الخوف والرعب وعندما يواجه مواقف ضاغطة على النفس فإنّ عقله ومشاعره سوف ترى الأمور بمنظار آخر، فمثلاً عندما يجوع الإنسان فإنّه يرى الشيء الذي كانت تأباه نفسه وتعزف عنه تجده من أطيب الاطعمة إلى النفس، فالحرمان عنصر فعال في تحويل مبادئ الإنسان وتغيير آرائه نحو أي جهة يراد لها أن تكون، فقد أثبت العلامة الكبير(بافلوف) في تجاربه العلمية على الكلاب بأنّ الحرمان الذي يتعرض له الكلب بسبب امتناع تقديم الطعام له يحوله إلى حيوان ذليل جداً لا يتمكن من أن يقاوم عندما يضرب أو يهاجم من قبل الآخرين، حتى وإن كانت له تلك القوة والقدرة العقلية والجسمية على ذلك، فهنالك عنصران هامّان في هذا الإتّجاه يقومان بعمل السحر تجاه الشعوب وهما الحرمان والخوف، فيهما تتمكن الجهة المسيطرة من أن تلوي عنق المجتمع بأكمله وتوجهه نحو كسر شخصيته وكبريائه فضلاً عن انتزاع المبادئ من شخصيته.

المجتمع الأسود كان إحدى أهم العوامل التي دفعت جماهير السود للالتفاف حول منظّمة (اليجا محمد) الذي استقطب أعداداً كبيرة منهم وضمهم إلى منظمته معتقداً أنه يحمي وجودهم ويحمي عوائلهم من سطوة الحكومة البيضاء، ولا بدّ لنا ونحن في هذا الصدد أن نؤكد على أن إشاعة حالة الرعب التي سادت بين مجتمعات السود في طول الولايات المتحدة وعرضها لم تكن بالضرورة من صنع الدولة ومؤسسات الحكومة ومنظّمات البيض فحسب، بل أنّ قادة المنظمات والعصابات السوداء قد اهتمّت في إذكاء لهب حالة الخوف والرعب ما بين السود أنفسهم لأنّ ذلك سيساعد في انضمام الجماهير السوداء والإلتفاف حول منظماتهم وهذا ما تقوم به دائماً الحكومات الدكتاتورية أو غير الديكتاتورية في أوقات ازدياد حركات المعارضة للنظام لسبب في أن تلك الحالة تساعد على زيادة أعداد المنتمين إليها والإلتجاء لحمايتها[1].

وهكذا ومن خلال هذه الظاهرة تمكّن (اليجا محمد) من أن يبني لنفسه مؤسسات كبرى بعضها ذو طابع ديني وسميّ (الجامع) الذي يمارس فيه العبادة (معبد) كذلك أسس أجنحة أخرى تحمل معاني الحماية للسّود بالإضافة إلى مؤسسات اجتماعية لجمع المال وتوظيفها في بناء المؤسسة الأم، في ذلك الوقت وعندما اشتدت أزمة الصراع العنصري تمكّن (اليجا محمد) من كسب أسماء ضخمة أمثال كيث إليسون، أندريه كارسن، ثاقف علي، مالكوم أكس، سراج وهاج، جيرماين جاكسون، حمزة يوسف، داف شابيلي، كريم عبد

(1) ولقد حدث في أواسط السبعينيات في العراق كما يشبه الحالة التي نتحدث عنها في الولايات المتحدة حيث اخترع النظام آنذاك ما يسمى بعصابة (أبو طبر) العصابة التي كانت تقتل وتذبح وتروع المجتمع البغدادي بحالة من الوحشية وباستعمال أساليب غاية في الدقة وفي التنفيذ، وكان النظام آنذاك يعد العدة لعملية كبيرة وضخمة للإجهاض على قوى المعارضة المنتشرة في بغداد، فالذي حدث من جراء ذلك هو أن المجتمع البغدادي وعندما شعر بأن الخطر يهدده التجأ إلى الحكومة والمنظمات الحزبية لإنقاذ نفسه من خطر عصابة (أبو طبر) في الوقت الذي فرضت الحكومة حظراً للتجول ودخلت بيتاً بيتاً للتفتيش باحثة عن قوى المعارضة التي انتشرت فيما بين المجتمع العراقي. راجع مادة (أبو طبر) في موقع ويكيبيديا: (www.ar.wikipedia.org).

الجبار، رشيد والاس، شاكيل أونيل، محمد علي كلاي، مايك تايسون، آيس كيوب، ت-باين و لوب فياسكو وخصوصاً فيما بين الرياضيين منهم الملاكم العالمي (محمد علي) الذي غير إسمه من (كاسيوس كلاي) إلى (محمد علي كلاي) والذي أصبح من ألمع الأسماء الداعية إلى السير خلف (اليجا محمد) بل صار انتماء كلاي محفزاً كبيراً لانتماء السود ودخولهم إلى الإسلام بحيث صارت الدعوة إلى الإسلام ما بين تجمعات المسلمين السود سهلة يقوم بها أي شخصية سواء كانت تمتلك المؤهلات الدعوتية أم لا[1].

وقد تحوّلت قضية التحول نحو الإسلام عند السود إلى قضية شبيهة بالإنتماء إلى جمعية اجتماعية لا قيمة لها إلّا الاسم وبعض الأعمال الخيرية التي تقوم بها، نعم هنالك قسم من أولئك السود سلكوا طريقاً طبيعياً في التحول نحو الدين الجديد وذلك بأن تعلّموا الإسلام من منطلقه الأصلي مثل الوحدانية وجانب العقل لدى الإسلام ثمّ القيادة ومعناها، وكانت هذه المجموعة وإن كانت قليلة جداً ولكنها تعتبر الآن فاعلة في الوسط الأمريكي منهم لاعب كرة السلة البطل المشهور (كريم عبد الجبار)[2].

---

(1) فقد صادف وأن التقيت بمجموعة من السود الأمريكيين في حفل أقيم في مدينة من مدن الجنوب الأمريكية، وكان الحفل رداً على معركة حدثت بين الشرطة الأمريكية وعصابات من السود وقتل على أثرها عشرة شبان سود فاتّهمت منظمات السود الأمريكية الشرطة بالعنصرية فقادوا مظاهرات كثيرة تندد بهذا العمل العنصري، وفي ذلك الاجتماع دعينا إلى حضوره وكان العدد حوالي سبعين شخصية رجالاً ونساء، وقد عبرت عن هذا الرأي في الاجتماع ولكن بشكل هادئ وبعيد عن الاستفزاز، بعدها اقترب مني خمسة شبان كان طلبهم المزيد من الآراء الإسلامية حول هذه القضية ثم بدأوا استعدادهم للدخول في الإسلام فقلت لهم لماذا لم تدخلوا إلى الإسلام أولاً ثم نناقش مفاهيمه، وفعلاً دخلوا الإسلام وذلك بإعلان الشهادتين، ولكن المشكلة التي واجهتني معهم إنني بذلت جهداً ضخماً وكبيراً لمساعدتهم في الإقلاع عن الممارسات غير الإسلامية المعارضة للتعاليم.

(2) وأتذكّر أن هذا البطل كان قد زار العراق في أوائل السبعينيات وقد وجه له سؤال عن (محمد علي كلاي) فقال أن المجموعة التي ينتمي إليها إسلامهم غير صحيح، عندها وفي ذلك الوقت أثار هذا التقييم حفيظتنا نحن الشباب المتأثّرون بالملاكم العالمي كلاي وبدوره في نشر الإسلام، ولكن يبدو أن البطل عبد الجبار كان له رأي آخر.

وفي حدود التستينيات برز في قيادة أليجا محمد الرجل الأسود المعروف (Malcolm X) (ت 1965) الذي تولّى الكثير من مناصب العمل الذي يقوم به أليجا محمد وصار رجلاً لامعاً في الوسط الأمريكي عموماً لدقة أدائه وحسن خطابه والتزامه المبدئي في الفكرة التي ينتمى إليها، وقد قُدّر لهذا الرجل المثقف أن يعود من رحلة الحج بعد أن اطّلع على تلك الشعيرة الكبرى وأثرها في إذكاء الجانب الإنساني لدى المسلم، وسنحت له الفرصة أن يكتشف أن الحج والعبادات الأخرى هي أمور أساسية في الإسلام، وأن المسلم تزداد حاجته إلى فهم دينه من خلال تلك الشعائر، وأثناء رحلته إلى مكّة تم له اللقاء مع الكثير من الشخصيات الإسلامية غير العربية وخصوصاً من الفرنسيين ذوي الأصول الجزائرية، كما اطّلع على حال البلدان الإسلامية وخصوصاً مصر، وقد كانت تلك السفرة إنعطافا كبيراً له في تفهمه الإسلام وعمق دوره في حياة البشرية، فقد وجد أن الحجاج الذين جاءوا إلى الكعبة هم من ألوان البشر أجمعين الأصفر، الأبيض، الأحمر، الأسود ..الخ ولم يجد هنالك "شيطانا أبيض" كما ترسّخت هذه الفكرة في رأسه على يد أليجا محمد، وكانت هذه الآراء بمثابة القنبلة التي فجّرها مالكوم اكس تحت البناء الذي أنشأه (اليجا محمد) ممّا دفعه إلى طرده من مؤسسته[1].

بعدها بمدّة قليلة سمع العالم قصّة اغتيال مالكوم اكس بستة عشر رصاصة في عام 1965 في ظروف غامضة لم تعرف مكنوناتها لحدّ الآن، ولكنّ أصابع الإتهام لم تغفل عن اليجا محمد أو مجموعته التي تعتبر الجهة الأقوى المنفذة.

(1) في ضوء هذا تنامت الفرقة بين مالكوم، والأب الروحي عندما اتضح أن إليجا محمد ضاجع ستة من سكرتيراته القُصّر وحملت السكرتيرات حملاً غير شرعي، وأصبح إليجا أباً لثمانية أبناء غير شرعيين، ورغم كلّ هذا إلّا أن مالكوم حاول أن يجد له العذر، وقد أمر إليجا محمد مالكوم بعدم التحدث بالمؤتمرات العامة بعدما وصف مالكوم حادثة اغتيال الرئيس كندي وصفاً لاذعاً، خصوصاً أن الرئيس الراحل كان محبوباً من قبل السود لتعاطفه معهم، ونتيجة عصيان مالكوم للأوامر واتساع الهوة بينه وبين الأمة، قام مالكوم على تأسيس منظمة منشقة عن أمة الإسلام وأسماها (مؤسسة المسجد الإسلامي) في عام 1964.
(http://en.wikipedia.org/wiki/Malcolm_X).

وفي كنف أليجا محمد نشأ الابن "و الاس" أو "وارث الدين" كشخصية اجتهدت في نقل الأفكار الدينية التي كان والده يدعو إليها من مرحلة الصراع مع البيض إلى مرحلة المحافظة على الإسلام والجالية السوداء، فكان أول ماعمله هو السفر إلى الأزهر وتعلّم الإسلام الصحيح من جديد وكانت تلك نقطة تحوّل كبرى في مسيرة هذه المجموعة في الولايات المتحدة الأمريكية.

ولكنّ وارث الدين محمد لم يكن يمتلك نفس التوجّهات التي كان والده يتمتع بها، بل توجه إلى الجانب الديني فقط وترك أمر السياسة وغيرها إلى الآخرين من قادة السود التي بدأت تظهر على الساحه الأمريكية مثل لويس فرقان الرجل صاحب الشخصية السحرية والخطيب المفوه صاحب تشكيل مؤسسة (أمّة الإسلام) حيث تربّع هذا الرجل على عرش الجالية السوداء للمسلمين في الولايات المتحدة، بينما بقي وارث الدين يمثّل (الوجه الديني) أو (الوجه الدّعوتي) للمجموعة.

وقد امتلك لويس فرقان القرار الأساسي والقرار الاجتماعي لما يتمتّع به من قدرات وصلات كبيرة في أوساط المتنفّذين السياسيين، وقد حاول هذا الرجل فرقان أن يجرّب قوته من خلال التحرش باليهود الأمريكيين الذين حاولوا مراراً محاربة منظمة أمّة الإسلام، وبعد المواجهات التي بدأت ما بين الطرفين في أعقاب الثورة الإسلامية في إيران وإقدام بعض قادة اليهود بمهاجمة السود واتهامهم بوقوفهم إلى جانب إيران ومساندتها سياسياً، ورداً على اتهامات اليهود رد فرقان على ذلك باتهام اليهود بأنّهم هم الذين كانوا السبب في عبوديتهم وإذلالهم، ممّا أدى بلويس فرقان أن يسمّي الأسماء بمسمياتها ويكشف الكثير من أعمال اليهود ضدّ الولايات المتحدة، في القول بأنّهم شعب غريب على واقع أمريكا، وقد كانت هذه التصريحات بمثابة إعلان الحرب ما بين الجاليتين التي كانت و ما زالت مستمرة لمائة سنة الماضية[1].

---

(1) قاد لويس فرقان في الثمانينيات أكبر مسيرة في تاريخ أمريكا وذلك أمام البيت الأبيض =

فالسود عموماً يعتبرون أنّ اليهود هم المسؤولون عن عبوديتهم، وأنّهم الجهة التي ساعدت على إذلالهم ووصولهم إلى ماهم عليه اليوم، ولذلك فإنّ الجانبين اليهودي والأسود لا يمكن لهم أن يتعايشا بأيّ شكل من الأشكال، فاليهود ينظرون إلى الجالية السوداء بأنّها جالية قوية ومسلحة ولها القدرة العضلية والفعلية على ضرب اليهود داخل المجتمع الأمريكي، فيما يرى السّود أنّ اليهود هم غرباء على هذا المجتمع وأنّ احتكارهم للمال ولوسائل الحياة كان أحد أهمّ الأسباب لزرع الكراهية ما بينهم وبين بقية أفراد المجتمع، وأنّ اليهود الأمريكيين يخطّطون للسّيطرة على أمريكا وتحويلها إلى بلد عنصري كما كان قبلاً.

هذه الحساسية ما بين اليهود والسود لم تقتصر على المسلمين منهم بل شملت معظم قطاعات المجتمع الأمريكي ولكن بنسب متفاوتة ولكنّها تزداد عند السّود عموماً مسلميهم ومسيحيّهم، ولذلك فإنّ اليهود في الولايات المتحدة خصوصاً وفي العالم عموماً يرون في الأفق البعيد أنّ هنالك من يخطط لعملية إزاحتهم من الوسط الأمريكي لعدم انسجام كيانهم مع ذلك الواقع باعتبارهم غرباء كما يسمّيهم السود، وكما يسميهم البعض من الأمريكيين الأصليين.

فالسّود يسمّون أنفسهم (Afro-American) الأمريكان من أصل أفريقي فهم لا يتردّدون في الاعتراف بأصولهم الإفريقية، بل ويفتخرون بمشاركتهم في بناء الولايات المتحدة في زمن ما، عندما زرعوا الأرض كي يأكل المواطن الأمريكي، أمّا اليهود فإنّهم لا يعترفون بأصلهم (الأجنبي) وإنّهم حينما جاءوا

= بمليونية لم تشهد مثلها العاصمة الأمريكية منذ أن أوجدت، وكان ذلك بسبب أن أحداث الثورة الإسلامية في إيران قد تركت بصمات عميقة على تفكير المسلمين في استعادة مواقعهم وهكذا برزت إلى السطح معارك ضارية إعلامية وكلامية ما بين أمريكا واليهود من جهة وبين فرقان من جهة أخرى، وقد شوهت صورته بشكل كبير إلى الدرجة التي رفض أوباما في رئاسته الأولى ان يتقبل مساندة فرقان له في حملته الانتخابية، وقد أقدم فرقان على ارتكاب أخطاء كبيرة ربما بسبب قصور فهمه للسياسة مثل زيارته إلى معمر القذافي وغيرها من الأمور التي تركت أثراً بليغاً في مسيرة عمله. كل ذلك تجده تحت مادة (Louis Farrakhan) (http://. en.wikipedia.org/wiki/Louis_Farrakhan).

إلى أمريكا جاءوا من خلال فرض سيادتهم على الآخرين، جاءوا عن طريق المال والإعلام والمعاملات الربوية، والفرق ما بين تأريخ الطّائفتين كبير فيما يخصّ الأصول والنّوايا.

وينشط السود المسلمين في السّجون الأمريكية[1] في مجال الدّعوة، فالكثير ممن اعتنق الإسلام من السود كان بسبب إرساليات الدّعوة التي كان يقوم بها (إليجا محمد) فيما بين السود الأمريكان، فالقوانين الأمريكية الخاصّة بالسجون تسمح لكل داعية من دعاة الدين أن يذهب إلى السجون للتبشير بذلك الدين حيث يأتي دعاة الأديان إلى السّجن أسبوعياً ثمّ ينادى على السجناء بأجمعهم من له الرغبة في حضور قداس مسيحيين، هندوسي، مسلم... الخ، وهناك يبدأ السجين مسيرته نحو الإسلام حيت يتعلّم بعض التعاليم البسيطة عن مفاهيم إسلامية عامة أهمّها هو دور مؤذن الرسول (ص) بلال ودرجته في الإسلام ثمّ موقع الرسول (ص) كذلك تعطي للبعض منهم نسخاً من القرآن باللغة الانكليزية...[2].

(1) المسلمون في السجون عددهم حوالى 350 ألف سجين ويشكلون نسبه 17%-20% من عدد السجناء معظمهم أفارقة أمريكيين حيث إن 80 % من المساجين الذين يبحثون عن ملاذ لحياتهم وهو ما يوفر لهم جواً خصباً في التحول إلى الإسلام.

(2) وقد التقيت أحد أولئك السود في داخل السجن وكان هذا من المجرمين المتمرّسين كما فهمت منه فيما بعد بأنه قام بجرائم لا يمكن لي أن أذكرها هنا، وعندما بدأت معه في مفاهيم الإسلام العامة وخصوصاً مبدأ المساواة بين البشر، وبعد أن اعتنق الإسلام كنت أشاهد وجه هذا الشاب الأسود المكفهر في نظري وكأنّه إنسان آخر، فكانت عيناه هادئتين وأصبح كأنه يشبهنا في قسمات وجوهنا !!!، كما شاهدت في وجهه نوعاً من الهالة المضيئة تحيط بسواد وجهه لا أدري هل تلك هي هالة الإيمان...؟ وقد وجدت فيه أخاً قريباً وعزيزاً، وكنت أجده طول الوقت في صمت دائم، وكان يفكر في شيء ما خارج السجن، وكنت أسأله عن ماذا يتعثر تفكيره به...؟ وكان يسرح تفكيره ثم يقول لا شيء لا شيء .. وكنت أعتقد أحياناً أنّه ربما يعاني من مشكله النطق بالحكم القضائي الذي أصدر ضده بـ 28 سنه فكان يجيب بالنفي، وفي ليلة من ليالي رمضان من عام 1985 وكنت أعاني حينها من ألم في معدتي لم أحتمل أن أطيقه حيث صممت أن لا أظهر ذلك الألم له ذهبت إلى زنزانتي في لحظات حرجه جداً من الألم أكلت كامل جسمي، في تلك الليلة وقبل إغلاق عنبر السجناء، وإذا أنا بهذا الشاب قد وصل باب زنزانتي وكان يريد أن يقول شيئاً ما، قلت له: وقد سميته (علي) لأنّ إسمه الأصلي =

وعندما ننظر إلى الواقع الآن فإنّ المبدأ الذي سارت عليه الدّولة الأمريكية في التعامل مع مشكلة السود هو رفع روح التميز العنصري، مع أنّ أحداث الواقع الاجتماعي يختلف شيئاً ما عمّا هو مطبّق في القانون الأمريكي، فالتمييز العنصري يعتبر الآن في عرف القانون جريمة يحاسب الشخص عليها لو مارسها عملاً أو لفظاً، فقد كان البيض ينعتون السود بألفاظ قبيحة وخصوصاً كلمة (Niger) وهي كلمة تختلف عن كلمة (Nigro) وتعني عنصر السود كما هو العنصر الآري والعنصر السامي، ولكنّ الكلمة الأولى تعني تحقير الرجل الأسود بما هو مشابه لبعض التحقيرات في لغتنا العربية، وقد يستعمل السود هذه الكلمة أحدهم ضد الآخر مثل كلمة (عربي) (بسكون وضم وتخفيف) ...[1].

= (Allen) ما الذي جاء بك إلى هنا في هذا الوقت...؟ إذهب قبل أن تُغلق الأبواب، وقبل أن تواجه مشكلة المخالفة مع سلطات السجن...؟ قال لي وكانت هناك دمعة في عينيه حاولت أن أعرف الأمر منه فأمامنا عشرة دقائق على غلق العنابر، لم يجبني، كان متسمراً أمامي ولا ينطق ببنت شفة، ولا أعلم ما حدث له، وأنا في ذات الوقت أعاني من ألم شديد من جراء هيجان القرحة المعدية المؤلمة، قال لي وسألني: هل كنت قديساً ...Saina؟ وسكت، قلت له ماذا تقصد...؟ هل جاءك من يريد أن يحولك عن الإسلام ثانية من القساوسة كما كنت أعتقد...؟ أو ربما ارتد هذا الرجل عن الإسلام لحادثة شاهدها أو لسبب أو لآخر...؟، قال لي: ماذا... ؟ هززته هزاً من كتفيه، وأنا أصرخ في وجهه وأصيح به: أريد أن أتحقق الأمر، قال لي: أنت سيطلق سراحك، وأنا سابقى هنا 28 سنة، ثم أضاف: وهل يمكن أن يفصل الرضيع عن أمه..؟ أنا لازلت رضيعاً وأريدك إلى جنبي، ثم أنتحب وبدأ وكأنه طفل فقد أمه، ربتُّ على كتفيه وقلت له: اذهب إلى زنزانتك وسنلتقي غداً إنشاء الله، وفي اليوم الثاني التقيت به وسألته على غرابة الموقف الذي حصل بالأمس، قال لي أن زميله في الزنزانة قد أعلن إسلامه أيضاً وقد حولته عملية إسلام زميله إلى أن يفقد قدرته في السيطرة على نفسه فلذلك جاء بانفعال كبير في مشهد يعجز معه في التعبير عما يختلج ما في داخله من تفاعلات، وكان ذلك اليوم الذي غادرت فيه السجن يوماً مشهوداً على أولئك المتحولين إلى الإسلام حيث كان مشهد مؤثراً جداً على نفسي لم احتمل أبداً أن أسيطر على مشاعري، بعدها غابت أخبار (علي) عني ولا أدري ماذا حل به وهو يقضي فترة محكوميته الطويلة في سجون فلوريدا، ولا أدري كيف أهتدي له بعد هذه السنين العجاف.

(1) ونتذكر كيف كان محمد علي كلاي وهو يلاكم القط الأسود (و يليامز) الذي رفض أن يسمي محمد علي كلاي بالاسم الإسلامي بل أصر أن يناديه باسم (كاسيوس) مما أثار حفيظة البطل العالمي، وعندما بدأ النزال لم يُرَ في حياته من الوحشية كما كان في ذلك النزال، =

وقد حرم القانون الأمريكي الآن استعمال كلمة (Niger) وعندما يُراد أن يُذكر في حادثه ما ويُشار بها بالتلميح يقال (N- word)، وقد حاول أيضاً الرؤساء الأمريكان في حملاتهم الإنتخابية، وفي انتخابات الولايات أن يساندوا حملاتهم تلك برمز من رموز الإبتعاد عن العنصرية وذلك بأن يكون الأسود إلى جانب الأبيض في الكثير من المناسبات فقد كان (جوردن) أحد أهم معاوني الرئيس الأمريكي، وأقربهم إلى نفسه، كما كان القس (جيسي جاكسون) أحد أهم الرموز الأمريكية التي نزلت إلى حلبة الصراح السياسي والتي قربتهم إلى البيت الأبيض، كذلك برز الآن السياسي (اوباما) الذي صار الرئيس الأول والرئيس الثاني في تأريخ الولايات المتحدة من الأصول السوداء، وهذا إن دلّ على شيء فإنّه يدل على اتساع أفق المواطن الأمريكي وترفعه عن كل ما يتعلق بالعنصرية وميله إلى الصفات المشتركة بين بني البشر.

لقد صمّمت الدولة أن ترفع من مستوى السود الأمريكان لأنّها أدركت أن الحالات الاجتماعية والأمراض السياسية لا يمكن لها أن تُحل إلّا برفع مستوى الشعب وأفراده من الجانبين الثقافية والاقتصادية، ولذلك فقد أقرّت مقاعد مخصصة إلى السود في معظم الجامعات الأمريكية المتقدمة وخصوصاً كليات الطب والتي يتنافس عليها المتقدمون بشكل لا يسمح فيها إلّا لأصحاب المعدلات العالية والأذكياء والمتقدمين من البيض، ولذلك فإنّ المقعد للطالب الأسود مستثنى من المنافسة مع البيض، بل المنافسة مع السود فقط، وكذلك الحال في المراكز الوطنية والحكومية التي تديرها الدولة، كذلك

= حيث ترك ضحيته يتعذب بـ 12 جولة في الوقت الذي قال المحللون بأن كان يمكن لكلاي أن ينهي النزال في الجولة الخامسة، وعندما كان كلاي يلكمه يقول له تكلم يا (Niger) ما هو إسمي...؟ وكان الملاكم الخصم يرد عليه متحدياً وهو مستسلم للأسوأ: أنت كاسيوس وليس محمد علي، وهكذا استمر محمد علي يضرب خصمه ويصيح به تكلم (Niger) حتى أنهى ذلك النزال والذي كان من أشرس النزالات دموية ووحشية ومختلف عما عرف عن كلاي من روح أريحية في حلبات الملاكمة.

منحت الدولة حقوق خاصة لكل المراكز الثقافية التابعة إلى اللون الأسود، ثم أن زوال التمييز الثقافي والعلمي والصحي والاجتماعي لهو الكفيل الأساسي بإزالة روح العنصرية ما بين الأمريكيين.

وما ينطق على السود الأمريكيين ينطبق على المسلمين منهم، وهم شريحة مصغّرة من المجموع الكلّي للسود، ولكنّ الفرق أنّ المسلم الأسود يشعر بانتمائه الفكري ويفتخر به ويدافع عنه، فالإسلام بالنسبة إلى القسم الكبير منهم يعتبر تحدياً كبيراً لوجودهم في ذلك المجتمع، في محيط يعتبر فيه الإسلام أقلّ عدداً من الديانات الرئيسة الأخرى كالمسيحية واليهودية، كما أنّهم يشعرون أحياناً بأنّ التمييز الذي يصيبهم فإنّه يتأتّى من عاملي اللون والدين، ولكنّ الملفت للنظر أن السود يتميّزون بصفات تؤهّلهم لاحتلال مراكز خاصّة ومهمة في الحياة الأمريكية مثل الرياضة وخصوصاً كرة السلة والعاب القوى التي كانت بالسابق محتكرة للسود ولكنّها تنوّعت في السنوات الأخيرة، كما كانت رياضة الهوكي على الجليد حكراً للعنصر الأبيض، وليس ذلك فقط، بل أن الملاكمة كانت هي الأخرى تحت سيطرة السود الملوّنين، وتضم تلك الرياضات الثلاث شخصيات عملاقة من المسلمين الذين تربّعوا على عرش هذه اللعبة لفترة طويلة من الزمن مثل كريم عبد الجبار، وحكيم علي جوان، وشكيب أونيل، وغيرهم من الأسماء الأخرى اللّامعة، ولكن ممّا لا ريب فيه أن محمد علي كلاي كان من ألمع الشخصيات التي فتحت باب الإسلام على الملونين السود والذي كان بالنسبة لهم ملهماً عظيماً اقتدى به الكثير من رواد الأديان فضلاً عن السود من خلال أدائه الرائع واخلاقه وقوة شخصيته وايمانه بالإسلام الذي لم تظهر هنالك شوائب أو تناقضات رافقت حياته العملية مما يقدح بالتزامه الإسلامي.

فالحكومة الأمريكية بدأت تدرك خلال العقود الثلاثة الماضية أهمّية إشاعة مفاهيم الدين ما بين طبقات المجتمع، ونحن نشير إلى تلك النقطة ونقول بحزن أن هنالك أسماء كثيرة التجأت إلى الإسلام من السود الأمريكيين من الذين يحملون ماضياً إجرامياً مثل مالكولم أكس وتايسون (ت 2013) الملاكم العالمي الشهير وأسماء أخرى معروفة لا مجال هنا لذكرها[1].

(1) دخل تايسون السجن بتهمة اغتصاب فتاة سوداء، وهي كانت قضية قيل أنها ملفّقة للانتقام من النجم الأسود، وفي السجن أعلن اعتناقه الإسلام وسمى نفسه عمر عبد العزيز، ثم بعد ذلك تم تغييره لمالك تايسون. ويذكره محبي الملاكمة أثناء ظهوره الأول على حلبة الملاكمة بعد خروجه من السجن وقد رفع أتباعه الأعلام البيضاء ويكبرون تكبيرات الإسلام. وتعد تلك الخطوة في نظر بعض المتابعين، مجرد مناورة لتحسين صورته أمام الأمريكيين وخاصة (الأمريكيين الأفارقة) بعد إدانته في قضية الاغتصاب. توفى تايسون يوم 4 آب 2013 بمرض السرطان.

إن لم تكن الحياة كما أريد
فليكن الموت كما أريد

في الرابع عشر من أكتوبر من عام 1993 وضع فلّاح كندي يدعى (روبرت لاتيمار (Robert William "Bob" Latimer (born, 1953) ابنته (تريسي) البالغة من العمر ثلاثة عشرة سنة داخل سيارته الكبيرة ثم أقفل عليها كل الأبواب وأدار المحرك ثم أغلق باب المرآب ثم حول الغاز المنبعث من محرك السيارة على قمرة السيارة وأغلق الزجاج وترك تريسي ابنته الحبيبة تلفظ أنفاسها الأخيرة وتموت خنقاً جراء استنشاقها غاز ثاني أوكسيد الكربون المنبعث من المحرك، وهذا في الوقت الذي كانت عائلتها قد ذهبت إلى الصلاة في الكنيسة في ذلك اليوم من أيّام الآحاد في تلك المقاطعة الباردة في الغرب الكندي.

خرج الأب لاتيمار من المرآب بعد أن تأكّد أنّ ابنته قد أسلمت الرّوح، وتوجّه بكلّ برودة أعصاب كي يسلّم نفسه إلى أقرب مركز للشّرطة في ولاية (ألبرتا) الكندية حيث يعيش مع عائلته هنالك.

عندما انتشر خبر تلك الجريمة المروّعة في أرجاء كندا ضجت ولاية ألبرتا بكل من فيها وكأن القيامة قد قامت ولم تقعد من هول ما حصل، واهتزّت كندا برمّتها، وتحوّل الصقيع الذي يلفّ هذه الأرض الشاسعة من الكرة الأرضية إلى نار ملتهبة بسبب ما أقدم عليه ذلك الأب من خطوة لم يعتادها الناس، ولم يتفهمّوا دوافعها، ولم يتفهم المجتمع دوافع إقدام أب على الاعتراف بما اقترفت يداه. إحتلّت القضية صفحات الجرائد ومحطّات التلفزيون، وتحوّلت إلى حديث الساعة بين الناس الذين صدمتهم الجريمة وجعلتهم يحتارون ويتساءلون عن سببها، لماذا أقدم ذلك الأب على فعلته

هذه...؟ ما سبب تلك الجريمة البشعة...؟ من هي تلك الفتاة الضحية...؟ ولماذا قتلت ببشاعة وقسوة بالغة كقسوة وألم الخنق بالغاز...؟ أسئلة كثيرة تناقلها الناس فيما بينهم علّهم يجدون الإجابات الشافية.

(تريسي) طفلة ولدت بمرض وراثي أعراضه عدم نمو عضلات الإنسان بشكل طبيعي (Cerebral palsy)، أو بمعنى أصحّ ضمور العضلات وبقائها لينة طرية ممّا يصيب جسم الإنسان بتشوه وتقوّس ظاهر في الظهر فيصبح جسم المريض كقطعة إسفنج لا تقوى على عمل أي شيء في الحياة. ويصاحب هذا المرض آلاماً مبرحةً تلازم المريض طيلة حياته من جرآء ضغط الجهاز العضلي على أماكن الإحساس حيث تتحوّل إلى آلام مبرحة لا يحتملها الجسم، والأشدّ من ذلك هو أنّ المصاب لا يمكن له أن يُعبّر عن آلامه إلّا بالبكاء والأنين، وأحياناً كثيرة بالصّراخ مع صعوبة ذلك لأنّ البكاء والحركة تصاحبهما آلاماً شديدةً أثناء القيام بها.

وقد حاول الأب لاتيمار ومنذ ولادة تريسي أن يجد لها العلاج المناسب لذلك المرض اللّعين الذي حار الطّب فيه، أو أن يعينها على تحمّل آلامها بطريقة أو بأخرى، وقد صرف أموالاً كثيرة على الأدوية المسكّنة والعلاجات الفيزيائية علّه يساعد تريسي على الشفاء ممّا كانت تعانيه، وقد عجز الأطباء عن إيجاد علاج لمرض تريسي بالرّغم من الجهود التي كانوا يبذلونها لمحاربة ذلك المرض المستعصي، وكان على المرضى الذين يولدون بهذا المرض أن يتحمّلوا سنوات طويلة من الآلام المبرحة والعيش على الأدوية المُسكِّنة طيلة حياتهم إلى أن يتوفّاهم الله.

كانت تريسي تعيش على تلك المسكنات إلى أن وصل بها الحال إلى حالة حيث لم يعد جسمها النحيل يستجيب لها ولم تعد تلك الأدوية تنفع في التخفيف من آلامها...

وبناءً على رأي الأطباء، نقلت تريسي إلى البيت، وكانت العائلة والأقارب والجيران يعتنون بها ويرأفون بحالها ويهتمون بصحتها غاية

الإهتمام، حتى أنّهم أحياناً كانوا يأخذونها إلى السوق والحدائق العامة، أو لزيارة أحد الأقرباء وفي المساء يجلسون معها أمام التلفزيون يتحدّثون ويضحكون مع بعضهم البعض، يعتنون بنظافتها ولباسها، ولكن في النهاية كان الألم يزداد يوماً بعد يوم، ووحدها تريسي هي التي كانت تشعر به، كانت دائماً تبكي وصوت الألم يخرج بصعوبة من حنجرتها، كانت تكتم صيحاتها في كثير من الأوقات وفي أحيان كثيرة كانت الصيحات تخرج حشرجات ممزوجةً بالدموع. بعدها كانت تريسي تغيب عن الوعي تماماً، عندها يتحول البيت إلى خلّية عمل، يخرج الأب السيارة من المرآب، تعطي الوالدة تريسي الأدوية المسكّنة وتحدّثها كأنّها تريد إبقاءها على قيد الحياة، يحملها العم ويضعها في السيارة بسرعة البرق، وتنقل تريسي إلى المستشفى الذي يبعد بضعة أميال عن البيت وتبقى فيه إلى أن تتحسّن حالتها قليلاً، ثم تعود إلى البيت وإلى الآلام والأوجاع.

كانت تحس بما يحصل معها لأنّ عقلها كان كعقل أيّ طفل آخر، كانت تشعر وترى وتتحسّس ما حولها، وأحياناً كانت تفهم كلّ كان ما يقال من حولها، كانت تدمع عيناها عندما ترى إخوانها وأخواتها وجيرانها يلعبون من حولها وهي لا حول لها ولا قوّة، فهي عاجزة عن فعل أي شيء سوى تحريك عينيها بمن حولها، والبكاء كلّما أحست بعجزها وقلة حيلتها، فالدّموع كانت تعبيرها عن كل ما تعاني من عجز ومرض وألم. ومع كلّ هذا فأبواها لم يضجرا أو يملّا من واقع ابنتهم ولم يترددا يوماً في علاجها والسّفر بها إلى أي مكان يساعدها على الشفاء، فحبّهم لتريسي كان يفوق حبهم لإخوتها الآخرين، كان حباً مختلفاً بعيداً عن التذمّر والضّجر. ولذلك كان الألم يعتصر قلبيهما، وهما يقفان عاجزين عن تخفيف الآلام عن فلذة كبدهما وهي تتعذب وتتلوّى من الألم أمام أعين الجميع دون أن يتمكن أحد من مساعدتها أو تخفيف آلامها، وأن الألم الذي يعتصر قلب الأم والأب وهما في هذه الحالة يفوق كل ألم آخر في الحياة ولا يعرفه إلّا من عاشه مع من هم من فلذات أكبادهم[1].

(1) (http://en.wikipedia.org/wiki/Robert_Latimer).

وفي طرف آخر من أطراف كندا، في مدينة (تورنتو) كبرى مدن أمريكا الشمالية وعاصمة مقاطعة أونتاريو كانت تعيش إمرأة في الأربعينيات تدعى (سوو رودريغز)[1] وكانت تعاني منذ ولادتها أيضاً من نفس المرض الذي كانت تعانيه تريسي (lou gehrig's disease) وقد تفاجأ الأطباء كيف أنّها عاشت كل تلك السنوات مع ذلك المرض وتلك الآلام. كانت تجلس على كرسيها لا تحرّك ساكناً، تدير رأسها في بعض الأحيان وتحرّك يديها بصعوبة بالغة وتفتح عينيها وتغلقها إذا ما أرادت شيئاً ما. فهي كانت عاجزة عن الكلام تحاول بصعوبة كبيرة أن تفسّر ما تريده من أحد أقربائها أن يقوم به ككتابة أو رسم صور وكلمات على ورقة كبيرة، وهذا ما كان يساعدها على طلب ما تريده. كانت تبدو إمرأة قوية قاومت مرضها وآلامها مدة أربعين عاماً، واشتركت بمساعدة أهلها في جمعيات طبية كثيرة ومؤسّسات كندية وأمريكية تُعنى بالبحوث الطبية الخاصّة بمرضها ومساعدة تلك المؤسّسات البحثية لجمع الأموال لإجراء البحوث الخاصة لمعرفة واكتشاف رقم (الجين) (gene) الذي يسبّب ويتحكّم بذلك المرض، وأين يمكن أن يكون وفي أي كروموسوم من كروموسومات الإنسان الـ 32 والتي كانت تبدو وكأنها في ملايين الجينات... وكان ذلك كمن يبحث عن إبرة في حقل ضخم وواسع من القش...؟[2]، وطالت السنوات ولم يتمّ معرفة حقيقة ذلك المرض، ولكنّ البحوث استمرّت وما زالت، وبميزانية فاقت البلايين من الدولارات من أجل تحديد الجين الذي يتحكم بذلك المرض (Muscle Distrophes).

وكانت "سو رودريغز" تلك المرأة المكافحة البطلة تقود حملة التبرّعات تلك وتقدّم الأموال إلى مراكز البحوث كي تستمرّ بمسعاها الطبي والخيري

(1) (http://en.wikipedia.org/wiki/Sue_Rodriguez).

(2) فالكروموسوم الواحد من ال 16 زوج الموجودة في الخلايا الإنسانية تضم الملايين من الجينات التي تتحكم بكل خلية من خلايا جسم الإنسان وتتحكم بصفات الخلايا كلون الشعر والطول ونوعية الدم ولون العينين ونوعية الأنسجة وما لانهاية مما أعطاه الله للإنسان من صفات جينية طبيعية لا يستطيع الطب أحياناً من معرفة مكنوناتها.

وهي كانت تعلم انّها لن تستفيد هي وفي حياتها من تلك البحوث ولم يكن لها أمل بالشفاء، وإنما كانت تسعى من أجل مستقبل المصابين الذين يولدون وهم مصابون[1].

ومرت السنوات وتوصّل خلالها العلماء والباحثون إلى أنّ البحث عن العلاج للمرض المصابة به سو رودريغز وغيرها من المصابين بذلك المرض يحتاج ما لا يقل عن 30 سنة وربما أكثر، وهذا ما دفع تلك المريضة للتوقّف عن مصارعة الحياة والمرض وإنهاء حياتها بالطريقة التى تناسبها والتي تراها واقعية.

كان لا بد لها أن تُنهي معاناتها وتضع حدا لآلامها، فهي لم يعد بإمكانها الانتظار 30 سنة مع وجعها وألمها، وقد أصبحت الآن في الاربعين من عمرها، فلماذا عليها أن تنتظر وتتعذب أكثر ممّا تعذبت في طيلة الفترة المنصرمة...؟ لماذا عليها أن تُعذب مَن حولها أيضاً من عائلتها وصديقاتها...؟ فهي لم تعد تحتمل سنوات أخرى طويلة من الألم وقد أعطاها الأطباء مدة ثلاثة سنوات على أكبر تقدير للحياة، عاشت هذه الثلاث سنوات ولم تمت، وما زالت تتعذّب وتتألّم فما العمل...؟ أسئلة كثيرة كانت تمرّ في ذهن رودريغز ولم تجد سوى الموت طريقاً لراحتها وراحة من حولها، ولكنّ السؤال الكبير، كيف السبيل للإنتحار وهي لا تستطيع حراكاً...؟ كيف السبيل إلى الموت وهي عاجزة عن فعل كلّ شيء...؟ وإذا عرف أحدهم بعزمها على الانتحار عندها

---

(1) إن المستشفيات والمراكز الطبية والصيدليات في الولايات المتحدة هي نوع من العمل التجاري لا تملكه الدولة فالمستشفى هي شركة مساهمة تجارية غير ربحية، ولذلك فإن تكاليف العلاج هناك باهظة، وعليه فإن مراكز البحوث في حاجة دائمة للدعم المادي، وإلّا فسوف تضطر إلى إيقاف أبحاثها الخاصة بالأمراض المستعصية، إن المستشفيات تحصل على أرباحها من علاج المرضى في نهاية الامر، أما مراكز البحوث فهي لا تملك سوى المساعدات التي تأتيها من الناس ومن جمع التبرعات وبيع إنتاجها فيما بعد إلى شركات الادوية، أما في كندا فواقع الطب يختلف نوعاً ما، فالعلاج في المستشفيات مؤمن لكل مواطن يعيش على الأراضي الكندية، وتقوم الحكومة بتقديم المساعدات لمراكز البحوث وتؤمن المؤسسات الخيرية باقي النفقات مما يضمن لها الاستمرار في أبحاثها العلمية القيمة.

سوف تنقل إلى أحد المراكز أو المصحّات للمعالجة لأنّ الانتحار في القانون الكندي يعتبر جريمة الإنسان بحق نفسه، وعليه أن يعالج من روح الإنتقام من نفسه وحياته.

وهنا رفعت رودريغز في سبتمبر من عام 1993 أمر إنهاء حياتها إلى المحكمة المحلية في مدينة تورونتو، ولم تصدر المحكمة قرارها الفوري باعتبار أنّ الانتحار وقتل النفس قضية خطيرة جداً وغير مسموح بها وسوف تفتح أبواباً كثيرة لاختيار أي إنسان لنفسه قدر موته أو حياته، ولذلك رفض طلبها كلياً... ولكنها لم تهدأ ولم تستسلم لقرار المحكمة المحافظاتية وقرّرت التقدّم خطوة أخرى برفع قضيتها إلى المحكمة الكندية العليا (The Supreme Court Of Canada) وبعد مناقشات طويلة وسنين من المداولات جاءت قرارات المحكمة العليا بأنّ قتل النفس هو قتل في نهاية الأمر، والقتل جريمة ومحرّم في القانون والدّين، وإن كان حتّى لأسباب رحيمة والمعروفة بـ"الموت الرحيم" أو (Euthanasia)[1].

وجاء القرار الذي أصدرته تلك المحكمة بنسبة خمسة أعضاء كانوا ضدّ الموت الرحيم مقابل أربعة، وكانت نسبة غريبة بل كبيرة بعض الشيء لصالح الموت الرحيم.

وقع قرار المحكمة وقع الصاعقة على رأس رودريغز ويئست من محاولاتها في التخلص من تلك الحياة التعيسة وإكمال ما تبقّى من تلك الحياة بكلّ عذاباتها ومعاناتها.

وفي تلك الأثناء وفي مكان آخر في الولايات المتحدة الأمريكية كان يعيش طبيب يدعى (جاك كيفوركيان) أو "دكتور الموت" كما كانوا يسمّونه، كان ذلك الطبيب يعتقد بأنّه من الرّحمة والعدل أن يساعد المريض الذي يعجز الطب عن إيجاد علاج لمرضه في التخلص من حياته بطريقة خالية من الألم،

(1) (http://en.wikipedia.org/wiki/Euthanasia).

وقد أجرى ذلك الطبيب عمليات موت رحيم للكثيرين من الذين لا أمل لهم بالشفاء ولا أمل لهم في هذه الحياة، فكان يريحهم من عذاباتهم وهم مستلقون على سرير في غرفة صغيرة بوجود أفراد عائلاتهم.

ويعتبر الموت الرحيم أو كما يسميه البعض القتل الرحيم من القضايا الجدلية الحساسة التي طرحت نقاشات حادة على مختلف الأصعدة الطبية والدينية والأخلاقية وذلك لتطرّقها لقرار مصيري الحياة والموت[1].

ومع كل تلك الحالات فالقتل يعتبر قتلاً بغضّ النظر عن طريقته أو شكله، عقوبته 14 سنة سجن، وقد تمّ في نهاية الأمر إلقاء القبض على ذلك الطبيب بعد اعترافه بإنهاء حياة مئة وعشرة أشخاص من الذين لا أمل لهم في هذه الحياة[2].

وعندما حضر الطبيب كيفوركيان إلى قاعة المحكمة لم تتمكّن المحكمة من إثبات نية القتل، ولم يكن هنالك من مدّعٍ للقضية، بل أنّ الدولة استعملت حقها العام في دعوته إلى المحكمة، ولكن كل ذلك لم يكن كافياً للإدانة أو التجريم وهذا ما أدّى إلى إطلاق سراحه، ولكنّ الدكتور كيفوركيان لم يكن مجرماً بنظر الكثيرين، فهو لم يكن لديه نيّة القتل، أو الإنتقام أو الثأر بل كان يساعد أناساً يتعذبون بعد أن يئسوا من حياتهم، وهذا ما دفعه لفعل ما فعل، ولم يكن يشعر بالندم أبداً كما جاء في شهادته.

(1) فيفسر الموت الرحيم طبياً وبرأي الدكتور كيفوركيان على أنه حالة إنهاء حياة المريض الميؤوس من شفائه بناء على موافقته وموافقة القائمين على تمريضه وتصريف شؤونه وذلك بواسطة أساليب طبية غير مؤلمة، وقد يأخذ عدة أشكال: القتل المباشر كإعطاء المريض جرعة قاتلة من دواء وذلك يتم إما بناءاً على طلب ملح من المريض الراغب في الموت كما حدث مع رودريغز، أو بناءاً على تقرير خاص من الطبيب المعالج إذا كان المريض غير واع مع أخذ موافقة أهله طبعاً، أما القتل الغير مباشر يتم بإعطاء المريض جرعات خفيفة من دواء قاتل على فترة طويلة حتى يفارق المريض الحياة.

(2) أما جانب العلم الجنائي فإنّه لا يعترف بمصطلح القاتل ما لم يكن هنالك ما يعرف بـ (نية القتل) أو سبق الإصرار، وهو الجانب المهم والأساسي لقرار الاتهام بالقتل، وبعدمه فلا يمكن إطلاق مصطلح القاتل في حالة خلو العملية من وجود نية القتل المسبقة السيئة.

أرسلت السيدة رودريغز برسالة إلى الجهات القضائية الكندية[1]، ولكنّ المحكمة العليا ليست جهازاً عاماً يمكن أن يستلم رسائل ويجيب عليها، إنّها نظام دستوري قضائي يتعامل فقط باللغة الدستورية العليا.

وبعد مدة قصيرة من إرسالها لتلك الرسالة، لم تتلقَ أي جواب قرّرت رودريغز أن تسافر مع أهلها وأحبّائها إلى ديترويت في الولايات المتحدة، إلى عيادة ذلك الطبيب، تخالجها وكلّ من معها الدّموع والابتسامات. قابلت الدكتور كيفوركيان الذي استقبلها بابتسامة رقيقة، ثم أخذ بيدها الصغيرة وشدّ عليها ثم قبّلها واعتذر منها قائلاً: أعذريني لأنني سأكون أنا من ينهي حياتك، ولكنّك سوف تشعرين بالراحة والهدوء بعد وقت قصير، وبعد أن تكوني إلى جنب الرّب الرحيم في أعالي السماوات، ثمّ شكرها على ثقتها به وحماسها للوصول إلى ما تريده.

ثم طبع قبلة أخرى على خدّها وتركها تودّع أهلها ومحبّيها بهدوء وراحة وكان هنالك أيضاً النائب في البرلمان الكندي الذي تكلمنا عنه في حلقة (الإيدز) السيد (سفيد روبنسون) لأنه ينحدر من نفس المقاطعة التي جاءت منها سوو، وهي (برتش كولومبيا).

---

(1) وجاء فيها (بما معناه وليس حرفياً) لقد رفضتم مساعدتي للتخلص من آلامي وأوجاعي التي لا تعرفون طبعاً قساوتها وأثرها عليّ وذلك باعتقادكم أن اختياري لطريقة موتي وإنهاء حياتي محكوم بالفشل، وعليه فقد حكمتم بعدم قانونية إنهاء حياتي طوعاً مني، وأن طرق الموت ستصعب عليّ، ويجب أن أتحمل ما أنا فيه شئت أم أبيت وفأنا لم أكن أطالبكم أن تقروا هذا القانون لي فقط، فأنا سوف أموت عاجلاً أم آجلاً، ولكنني أردته قانوناً سارياً لكل المرضى الذين يعانون أمراضاً مستعصية عجز الطب عن إيجاد علاجاً لها، فما ذنب أولئك كي يتحملوا كل تلك العذابات... ؟ لقد عشت قسماً من حياتي أكافح الألم وأتحمل الأوجاع، وقضيت فترة طويلة وأنا أتابع البحوث العلمية والطبية عسى أن يجدوا العلاج المناسب لي، وأنا الآن أعيش كي أكافح وأصل إلى ما أريده لإنهاء حياتي التي قضيتها في الآلام والعذاب، أكافح كي أصل إلى موت رحيم لي ولغيري، هذه سوف تكون معركتي التالية وسوف أنتصر على القانون وعلى الحياة، أن كل ما أريد أن أجده هو الحل المناسب للذين يعانون من مرض القصور العضلي التشوهي... (Muscle distrophes)... اسمحوا لنا بمساعدة طبية وإنسانية تريحنا من عذابنا وتسمح لنا بموت مريح هادئ في بيوتنا بين أحبائنا وأهلنا.

قبلت رودريغز الجميع وهي تبتسم وهم يشدّون على يديها ويبكون ربما فرحاً أكثر ممّا هو حزناً، بالرّغم من أن فراقها سيكون صعباً بالتأكيد.

رافقها الدكتور إلى غرفة صغيرة، وضعها على سرير أبيض ثم تقدم وطلب منها ثانية أن تسامحه، قائلاً: سامحيني ولكن هذا واجبي تجاهك وسألها: هل أنت مستعدة...؟ أطبقت عينيها كمن تقول نعم أنا مستعدة وسعيدة أيضاً، شكراً لك، ثم حقن في وريدها حقنة الموت وتركها تودع من حولها بنظرات رقيقة وابتسامة صغيرة وهم ينظرون إليها والدموع تسيل من أعينهم ثم أسدلت جفنيها، وما هي إلّا ثوان قليلة حتى تحوّل ذلك الجسم النحيل إلى قطعة باردة بلا حراك، فارقته الروح وانتقلت إلى العالم الآخر الذي طالما حلمت به تلك المرأة المكافحة.

كانت مشاعر الحزن والفرح تبدو على وجوه الأهل والأقارب، الحزن لفراق سوو، والفرح لأنّها تخلّصت من ألمها وحصلت على ما أرادت وذلك في يوم 12 فبراير 1994.

طبع الجميع القبلات على جبين الجسد المسجّى، ثم خرجوا كي يهيئوا أنفسهم لجنازتها، أما الدكتور كيفوركيان فقد كان ينتظر اللّحظة التي سيلقى القبض عليه.

نقلت رودريغز إلى المدينة التي أحبتها كي تدفن فيها وقد ماتت أيضاً بالطريقة التي احبتها وأرادتها فحضر تشييعها كلّ الناس الذين عرفوها وسمعوا عنها وشعر المجتمع الكندي بأنّه خسر بطلة من أبطاله.

ولنعد بعد تلك المأساة إلى ولاية (ألبرتا) الكندية حيث ترقد تريسي تلك الطفلة الصغيرة التي قتلها والدها بثاني اوكسيد الكربون في سيارته داخل كاراج منزله، ربما لا أحد يستطيع أن يعرف لماذا أقدم ذلك الوالد على قتل طفلته...؟ أراد أن يضع حداً لمعاناتها وألمها، لقد أراد لها موت الرّحمة على طريقته، ذلك الموت الذي لا يمكن أن نجده في مجتمعاتنا ولا أدبياتنا أو ديننا، فالموت والحياة بيد الخالق وحده، ولا يحقّ للآخرين أبداً من البشر أن

يتحكّموا بحياة أيّ إنسان مهما كان متألماً أو مريضاً. لكنّ الواقع في الغرب يختلف عمّا هو عليه عندنا في عالمنا العربي.

ومع أنّ الأمراض المستعصية ممكن أن توجد في بلادنا ولكن لا يمكن لأيّ كان أن يحدد حياة الإنسان مهما علا شأنه وقدرته، فالله هو الشافي والمداوي وهو الذي يقبض الروح في أي وقت يشاء، كلّ ما علينا فعله هو إيجاد العلاج المناسب لأي مرض كان.

إنّ مستشفيات الغرب والمؤسسات التي تهتم بحياة الإنسان تقدّم كلّ ما لديها من تقدم طبي وعلاجات جديدة تساعد البشر على إكمال حياتهم بشكل صحيح وسليم، وما الموت الرحيم إلّا قناعات ذاتية لنفوس ربّما تمكنت منها المأساة إلى التفكير بأن تستعين بالموت على الحياة[1].

وبالعودة إلى ذلك الفلّاح الأب (القاتل) وبعد أن وضع حداً لحياة ابنته تريسي إتصل برجال الشرطة وأخبرهم بما فعل وانتظرهم بكلّ هدوء حتى يأتوا ويلقوا القبض عليه. عند انتشار خبر تلك الحادثة اهتزت مقاطعة ألبرتا من هول ما جرى، ألقي القبض على لاتيمار وقُدّم للمحاكمة بجرم قتل ابنته،

(1) وفي سيناريو آخر في كندا في مدينة تورنتو كان لي صديق يعيش هناك مع زوجته وابنه الذي كان مصاباً بنفس مرض تريسي، ولد ذلك الطفل في العراق ثم هاجر الوالد إلى كندا أملاً بأن يجد علاجاً مناسباً لابنه هناك، ولكنه فوجئ بعدم وجود علاج جذري لذلك المرض، وأن البحوث ما زالت جارية للتوصل إلى العلاج المناسب، حاول مساعدة ابنه بشتى الطرق وظل لسنوات طيلة يعتنى به إلى أن توقفت رئتيه عن التنفس، فسارع الأطباء إلى وضعه على جهاز رئوي خاص يعمل عمل الرئتين وظل الولد -الذي أصبح شاباً - على تلك الحالة لمدة خمس سنوات إلى أن تدهورت صحته وأسلم الروح عن عمر 25 سنة قضاها في المعاناة والعذاب والآلام، آلمني موت ذلك الشاب لقد عرفته صغيراً ورأيته ينمو على كرسيه وهو يعاني الألم والعذاب، ولكنه عاش تلك السنوات الطويلة مع عائلته التي أحبته واهتمت به إلى أبعد الحدود، وفكرت لو أن ذلك الشاب بقي في بلده العربي لما كان لاقى ذلك الاهتمام الكافي، ولما كان تلقى العلاج، ولما كان عاش كل تلك السنوات مع عائلته وأحبائه لأنه -و للأسف- أن الكثير من الناس الذين يعانون من أمراض كثيرة يموتون بشكل يفوق كل تصور لأنهم لا يجدون العناية الكافية والعلاج اللازم في مستشفيات كثيرة، أو لأنه أحياناً كثيرة لا يملكون ثمن علاجهم فيموتون على أبواب المستشفيات وهم لا حول لهم ولا قوة.

وبعد مرافعات ومحاكمة طويلة أعلنت هيئة المحلفين براءته لأنّه في الأصل لم يكن لديه نية القتل لمجرد القتل، أو نية السّوء لابنته، بل كان دافعه أن يريحها من عذاباتها وآلامها، ولكنّ المحكمة العليا وبعد إطلاق سراحه أمرت باعتقاله ثانية لكي يمثل أمام هيئة محلّفين أخرى وأن تلتزم المحكمة دور الإدّعاء على لاتيمار بدلاً من المحكمة الخاصة بالمقاطعة، وبعد جلسات طويلة بين أخذ وردّ أمرت المحكمة بتجريم لاتيمار بتهمة القتل من الدّرجة الثانية، وحكمت عليه بالسجن من 10 إلى 25 سنة مع إمكانية العفو عنه لاحقاً.

خاض لاتيمار حرباً طويلة مع المحكمة ولجأ إلى الصّحافة وإلى وسائل الإعلام، وراح يشرح كلّ العذاب الذي كانت تعانيه تريسي ودوافعه التي كانت الأساس لما قام به، ثم رفع قضيته مرة أخرى للتمييز في المحكمة الفدرالية، وبعد دراسة القضية أمرت باطلاق سراح لاتيمار ووقف تنفيذ الحكم الصادر بحقه، لحين البت بالقضية من قبل المحكمة الكندية العليا التي كانت قد قررت عدم السماح بممارسة القتل الرحيم في قضية رودريغز سابقاً وما زالت تلك القضية بين مد وجزر إلى يومنا هذا.

بعد القاء القبض على الدكتور كيفوركيان وتوجيه اليه تهمة القتل غير المتعمّد من الدرجة الثانية حكم عليه بـ 25 سنة سجن أمضى منها ثماني سنوات، وأفرج عنه بعد ذلك بسبب حسن سلوكه واستقامته داخل السجن. وذلك بعد حشد كبير من التظاهرات المؤيّدة له دعت إلى إطلاق سراحه وهكذا كان، وقبل أن يخرج من سجنه طالبته الحكومة أن يكتب تعهداً خطياً بعدم ممارسة القتل الرحيم تحت أي ظرف من الظروف ولأيّ إنسان مهما بلغت شدة آلامه وأوجاعه، وتم تنفيذ ما طلبته الحكومة الأمريكية، وأفرج عنه وخرج إلى الحرية وأصبح شخصية معروفة ومدافعة عنيدة عن حقوق الإنسان في اختيار ما يريد ومتى يشاء حتى ولو كان اختيار قرار موته أو حياته.

أمّا لاتيمار فهو ما زال إلى الآن في حرب مع المحكمة الكندية العليا

التي تحاول أن تصدر حكمها ثانية بمعاقبته على ما فعل بغضّ النّظر عن كلّ الدوافع والأسباب وما زال هو يدافع عن حقوق كلّ إنسان مريض وعاجز عن تحمّل آلامه واوجاعه[1].

(1) الغريب في الأمر هو الاستطلاع الذي أجرته الصحف الصادرة في الولاية التي يسكن بها الفلاح القاتل حول أحقيته في القتل، فكان الجواب هو أن 92% من الذين شملهم الاستطلاع كانوا من المؤيدين إلى إقدام لاتيمار على قتل ابنته... الحكومات في جميع أنحاء العالم لديها تشريع يسمح بالقتل الرحيم الطوعي ولكن بصفة عامة في العالم لا تزال جريمة قتل جنائية. فقط في هولندا وبلجيكا تم تشريع القتل الرحيم، مع أن العملية لا تزال تعتبر قتلاً على الرغم من أن مرتكبها (الطبيب) لا تتم ملاحقته قضائياً ولا يعاقب طالما أنه إستوفى بعض الاستثناءات القانونية المعينة.

درس بليغ على سياسيينا الانتفاع به
في ظرف الفهم الخاطئ للسياسة

في سنة 1995 وفي مقاطعة (كيبك) الكندية التي يتكلّم سكّانها اللّغة الفرنسية، وصل إلى رئاسة الوزراء رجل فرنسي متطرّف (بالمعنى المتعارف) كما كنا ندعوه، إسمه (باريزوا) وكان هذا الرجل فرنسي التفكير والعقلية، وكان يحلم (بكيبك) مستقلّة عن كندا، دعا باريزوا سكّان المقاطعة إلى استفتاء عام يستطيع من خلاله طلب الانفصال عن كندا وهو حقّ قانوني لسكان أي مقاطعة أو إقليم يرغب الانفصال عن البلد الأم -إذا صحّ التعبير- وكان حزب المحافظين الـ(Tori) برئاسة رئيس الوزراء (براين مالروني) هو الذي يمسك بزمام الحكومة الفدرالية في العاصمة. وافق ماروني من حيث المبدأ على طلب سكان كيبك القانوني ممّا أدّى إلى اعتراض بعض أعضاء حزبه لأنّ ذلك معناه السّماح لغير مقاطعات كندا فيما بعد بالانفصال أيضاً.

والمشكلة التي تعيشها كندا، أنّها بلد واسع الأرجاء مختلف الطّباع والقوميات، وهو أمر يفتح الشهية للكثير من السياسيين الطامحين في التلويح بسوط الانفصال عن البلد الأم لسبب أو لآخر، في الوقت الذي لا تجد هنالك من سبب للولاء الكندي كلّه، بل الولاء أولاً للمقاطعة أو القومية، فمن النّادر أن تجد مواطنا كندياً من كيبك في زيارة لمقاطعة (ساسكاشوان) والعكس صحيح، إذاً فروح الانفصال قائمة ولها ما يبرّرها لأنّ الجامع المشترك للشعب الكندي غير متوفر إلّا بالأقل القليل.

وأمام تلك الظاهرة الخطيرة انقسم حزب رئيس الوزراء إلى هيئتين هيئة كبرى يقودها السياسي المحافظ (Preston Manning) الذي كوّن حزباً جديداً سمّاه حزب التجديد (Reform) والهيئة الأخرى يقودها رئيس الوزراء (براين

مالروني)[1]. وكان "ماننغ" وحزبه يملكون فلسفة مختلفة عن فلسفة رئيسهم ماروني، فكان الثاني يرى أنّه يجب على الحكومة الفدرالية الكندية أن تُحكم قبضتها على كلّ المقاطعات كي تمنع صيحات الانفصال، أو الاستقلال من أن تعلوَ مثلما حصل في كيبك وفي مقاطعات الهنود الحمر في الشّمال الكندي. أمّا مالروني فإنّه كان يرى أن خيار الانفصال عن كندا من قبل المقاطعات ما هو إلّا مناورة مهلهلة ينادي بها السياسيون الآخرون من باب التخويف والتضعيف لكندا أمام قدراتها التي بدأت تظهر فيما بين دول العالم، كما كان يرى أيضاً بأنّ صيحات الانفصال هي أمر وقتي ليس إلّا، ولن تحدث أبداً لأنّ النسيج الكندي مع أنّه غير متشكل بصورة محبوكة، ولكنّ المواطن الكندي يميل إلى الدّعة والرّاحة والاستمتاع بقدرات كندا كبلد عملاق أكثر ممّا ينظر إليها الآخرون في الجارة الجنوبية، فليس هنالك من عاقل في كندا يفكّر في أن ينفصل عن جسم ثاني أكبر قطر وثامن أغنى دولة في العالم.

أسّس ماننغ حزب (الريفورم) وانفصل عن الحزب الأم المحافظ، وتمكّن خلال فترة قصيرة من الفوز على خصمه في الإنتخابات الفدرالية بعد أن أنزل بمالورني وحزبه خسارة كبيرة لم يشهد لها تأريخ كندا من مثيل، وبسبب تغيّر المعادلة الحزبية في كندا صعد الخصم الأقوى الذي كان يتناوب مع حزب المحافظين إلى السلطة بقيادة (جان كريتيان)[2] إلى رئاسة الحكومة وتشكيل وزارة فدرالية جديدة.

---

(1) رئيس وزراء كندا لعشر سنين من عام 1984 وإلى عام 1993 حيث استقال من منصبه بعد أن انخفضت شعبيته بشكل لا مثيل لها في التاريخ الكندي، وخسر الحزب الذي كان يقوده وهو حزب المحافظين المسمى Tori وكانت خسارته تأريخية لن ينساه الكنديون أبداً، إذ كان يتمتع ب 151 مقعداً في البرلمان خسرها كلّها أمام الحزب الفائز الأحرار ليبقي له فقط مقعدين، وهي خسارة لم يُرَ مثلها في التأريخ السياسي الكندي.

(2) رئيس وزراء لكندا لعشرة سنوات من 1993 إلى عام 2003 لثلاثة دورات انتخابية ثم بعدها وفي منتصف رئاسته الثالثة استقال من منصبه بعد أن وصل إلى المرحلة التي لم يتمكن من مقاومة التغيير الذي حدث في كندا، وهو فرنسي اللغة ولكنه متشدد تجاه الانفصال عن =

صارماننغ زعيماً للمعارضة، أي الرقم الثاني بعد عدد أعضاء البرلمان الليبراليين الذين شكّلوا الحكومة، أما باريزوا في كيبك فإنّه لم يحصل إلّا على 50% من أصوات السكان في مقاطعته الفرنسية وهذه نسبة غير قانونية لإمكانية الانفصال عن كندا، مع أنّ الغالبية الكبرى من سكان تلك المقاطعة هم فرنسيو اللّغة والتّفكير والهوى، إذ كانوا يعتقدون بأنّ كيبك ستكون بعد الانفصال من القوى الكبرى في الشمال الأمريكي، وتكون الدولة الرابعة بعد أمريكا، كندا، المكسيك ثمّ كيبك، بالتّأكيد كانت نتيجة الإستفتاء ضربة قاصمة لباريزوا الذي لم يكن يتوقّعها أبداً، بل كان يتوقع أن الفرنسيين في مقاطعته سيصوتون لصالح الانفصال بنسبة ربما 90%. في الوقت الذي أثار الفرنسيون المتشدّدون الرأي العام الكيبكي في أن كندا الانكليزية تتهيأ لابتلاع الثقافة الفرنسية في كيبك[1] وهي الورقة التي لعب بها باريزوا والتي على أنغامها كان في اعتقاده بأنّ الانفصال قضية حتمية، وأنه سيكون الرئيس الأعلى للدّولة الجديدة التي إسمها (دولة كيبك)، ولكن جاءت الرياح بما لا تشتهي السفن، ممّا اضطّره للإستقالة فوراً من رئاسة وزراء كيبك وحاكمها، وترك العمل السياسي مع مرارة لا توصف لم يظهر بعدها أبداً، بل اندثر كما تندثر الأفكار القديمة.

تزعّم ماننغ حزبه -حزب التجديد (Reforme) الذي ضمّ العديد من الشخصيات السياسية المحافظة الذين كانوا ينتمون إلى أصول غربية عريقة كغيرهم من المحافظين في كلّ مكان، وهي الطبقة من الكنديين التي كانت

= كندا، مواقفه من العرب والمسلمين معتدلة مع أن الليبرال عموماً حزب يسير مع مصالحه أكثر مما هم المحافظين الذين يميلون إلى الفكرة الغربية.

(1) تأريخياً تتكاثر الأفكار المتطرفة في العالم متى ما سمح بها في ذلك، فمتى ما ذرت الفكرة التعصبية قرنيها في زاوية من زوايا الدولة إلّا وتجد هنالك رد فعل مقابل بتطرف من جهة أخرى، وهنا نرى بأن موقف مالروني كان موقفاً متزناً جداً، وهنا وفي غياب الرأي السديد ظهر إلى الوجود مقابل المتشددين الكيبكيين الوطنيين، المحافظين الانكلوساكسونيين المتمثل بحزب الريفورم. وهذا لا تجده في كندا فحسب، بل أنه في العراق يظهر بأجلى صوره في تركيبة الاحزاب الطائفية خصوصاً تلك التي تمتلك موقعاً من السلطة التنفيذية.

تعتقد ولا زالت بأنّ كندا هي إرث إنكليزي أنكلوساكسوني، وعليهم أن يحافظوا على ذلك الشعور وأن يحافظوا على الدّولة الكبرى في مستقبل أمريكا الشمالية[1] هؤلاء السياسيين المحافظين هم أوّل من وصل إلى كندا من المهاجرين من اسكوتلندا وبريطانيا وأيرلندا ومن الذين هاجروا في القرن السابع عشر إلى كندا، أو ممّن ولدوا فيها منذ زمن بعيد.

ويعتبر هؤلاء كندا أرضاً غربية، أمّا حزب التوري المحافظ الأساسي فإنّه تحوّل إلى كتلة صغيرة جداً لا تضمّ سوى القليل من الشخصيات المحافظة التي كانت تشكل الحزب القديم، في الوقت الذي ضمّ الحزب المحافظ الجديد (الريفورم) تحت جناحيه الأوروبيّين[2].

وبعدما تمكّن مانغ من خصمه القريب مالروني صار أمامه خيار منع السّطوة الصّاعدة المتمثّلة بالحزب الليبرالي في الوقت الذي ارتفعت فيه أعداد المهاجرين، ذلك الخيار كان منع الحزب الليبرالي الذي لا يملك سياسة واضحة في الحكم وآراؤه متغيّرة وغير حكيمة ولا تملك فلسفة في تنفيذها، ولذلك كان عليه أن يكون جبهة قوية لمنعه من الوصول إلى رئاسة الحكومة للمرّة الثالثة، وكان مانغ رجلاً قوي الشخصية عقلاني التفكير، مؤمن بكندا كنموذج رائع للتعايش مع قدر من الحرية في نظام تميل فيه إلى كفة الوسطية ما بين الرأسمالية والاشتراكية، بالاضافة إلى تقديم خدمات كبرى للمواطن مثل الإستشفاء الطبّي وقانون الشيخوخة والضّمان الاجتماعي والتعليم بكافة مستوياته كحقّ من حقوق كلّ مواطن يعيش في كندا...[3].

(1) هذه الأفكار ربما نجدها في الكثير من طموحات السياسيين بل في التجمعات التي تحمل نظرية تأريخية أو أيديولوجية كما هي أفكار صربيا الكبرى وسوريا الكبرى والشام الكبرى وإسرائيل الكبرى وما إلى ذلك من مقولات خيالية يتغنى بها البعض من الناس ومن السياسيين

(2) المتشددون الذين يسكنون غالباً في غرب كندا في المقاطعات الباردة والغنية مثل البرتا وساسكاشوان وكالكيري وبرتش كولومبيا وهؤلاء المتشددين يرون في أن كندا يجب أن تبقى إنكليزية، وأن تكون جزءً من القدرة البريطانية الأوروبية.

(3) فكلّ الخدمات الصحية هي خدمات مقدمة من قبل الدولة لكلّ الأفراد أينما كانوا =

فكندا من البلدان المعروفة بتعدّد الأعراق وتنوّع الجنسيات والقوميات واختلاف طبيعة السكان، وهي من الأقطار المشهود لها بقدرتها على أن تقدّم نموذجاً رائعاً لكيفية التعايش ما بين الأفراد المختلفة والأديان المتفرّقة والأعراف والتقاليد المتعدّدة والكثيرة.

وعلى أكتاف المهاجرين وصل الحزب اللّيبرالي إلى سدّة الحكم بسبب كثرة المهاجرين والأقليات الأخرى كالأقلّية الإيطالية والألبانية والعراقية والهندية[1]... وكان على مانغ أن يضمّ من بقي في الحزب المحافظ ال(Tori) إلى حزبه ال (Reform) وأن يؤسّس حزباً واحداً وبإسم جديد لكي يقف أمام الخصم المبدئي العنيد الذي يعتبر المناقض لفلسفة المحافظين ذلك هو الحزب الليبرالي الذي صعد بصورة كبيرة. ولم يعد مانغ الآن يعيش هموم صراعه مع المحافظين (لنقل عنهم المنحرفين) من أمثال مالروني وغيره، فالخطر الآن أكبر من أن تكون الحرب داخل الطبقة المحافظة، وإنّما الوقت قد حان للوقوف أمام عملقة الحزب الليبرالي الذي فاز بثلاث رئاسات متتالية وربّما سيستمر في الفوز بالرّابعة إذا ما بقي المحافظون منقسمين (Reform) و(Tori)

= وعلى المواطن في المقابل أن يدفع ما عليه من ضرائب ويقوم بواجباته، وبنظرة إلى الدستور الكندي نرى أن ذلك الدستور يشير إلى تقديم الخدمة الصحية لكل فرد كندي يعيش ضمن مجموعة سكانية مكونة من 200 فرد بنفس كفاءة الخدمات الصحية والاجتماعية والتعليمية التي تقدم إلى أي فرد في العاصمة أو في أي مدينة كبرى كتورنتو أو مونتريال، مما يعني أن الدولة توفر لقرى نائية في المحيط المتجمد الشمالي والتي يسكنها الهنود الحمر كل مستلزمات الحياة المهمة مع وجود عراقيل كثيرة تقف أحياناً في وجه وصول تلك المواد الحياتية بسبب قساوة الطقس وهبوب العواصف الثلجية طيلة فصل الشتاء الطويل، ولكن كل ذلك لم يمنع الدولة من أن تقوم بواجبها تجاه كل مواطنيها أينما وجدوا داخل البلد ومهما كانت الصعوبات والظروف.

(1) كلها كانت تميل إلى ذلك الحزب وتفضل أن تصوت له على أن تصوت للمحافظين الذين هم عموماً من الكنديين والغربيين من الاصول الانكليزية والاسكتلندية والايرلندية وغيرهم من ذوي الجذور الاوروبية، أما الليبراليون فهم خليط من السود والهنود والعرب والشعوب الأوروبية الشرقية كالبرتغال والألبان والكوسوف واليونان، وأديان كثيرة تميل إلى الليبراليين كالمسيحية المتحررة والإسلام والكونفوشية، مع أنّ المحافظين في الواقع يتشابهون مع المسلمين في نظرتهم الرافضة للكثير من الأعراف الدينية المشتركة كالإجهاض والزواج المثلي والعديد مما تعد ثوابتاً أخلاقية دينية واجتماعية.

فإنّ ذلك هو ما سيخلق أرضية كبرى للخصم العقائدي في أن يحتل الساحة الكندية التي وبمرور الوقت يزداد فيها أعداد المهاجرين بنسبة ربما 5% سنوياً، وهي نسبه كبرى مقارنة بعدد نفوس كندا 31 مليون نسمة، وهنا نرى بأنّ هذا السياسي الحكيم قد عضّ على جراحه وشمّر عن ساعديه أمام مسؤولية تأريخية في منازلة الخصم الأصلي والعزوف عن الصراع (الطائفي) كما نسمّيه نحن إلى الصراع الأساسي ذلك هو خصم الفكرة وليس خصم المصالح.

ولكي يختبرماننغ مريديه وقادته الذين غالباً كانوا قد انحازوا إلى صفّه في تكوين حزب الريفورم هو المسار الفاسد لقادة الحزب الأصلي من المحافظين القدماء ومن مجموعة مالروني، فكيف يمكنه الآن أن يقول لهم بأنّ عليهم أن يمدّوا أيديهم ثانية إلى خصم الأمس ويفتح جبهة أخرى مع الخصم القوي الذي يحكم البلاد وهو حزب الليبرال...؟ ولكن السياسي الواثق من نفسه ومن قدراته غالباً ما يتحلّى بالمبدئية وبالصراحة وعدم التردّد، ولذلك قرّر أن يخوض تجربة مع أصدقائه في الريفورم لكي تكون أولى خطواته في انتقاله إلى المرحلة التي يخطّط لها في ذهنه وهي إيقاف الخصم المبدئي، وهم الأحرار من الاستمرار في الفوز برئاسة الوزراء.

وكانت أولى خطواته هو الطلب من أعضاء البرلمان المنتمين إلى حزبه في رفض الزيادة السنوية التي كانت الدولة تدفعها إليهم وهي 20% على مرتباتهم الشهرية، وطالبوا الدولة إعادتها إلى خزينتها، لم يعترض على اقتراحه أيٌ من نوّاب الحزب كما سانده فيها الأحزاب الصغيرة، وتمكّن من أن يلغي الزيادة في الراتب ويعيدها إلى الخزينة.

أمّا الخطوة الثانية المهمة في سلسلة رسم سياسة الصراع الفكري والتهيئة للمعركة الكبرى هي ضمّ الأعضاء المشتتّين من أعضاء حزب التوري السابقين من هنا وهناك، ومن الّذين تركوا العمل الحزبي والسياسي بسبب الصّراع الداخلي ما بين الجناحين المتصارعين، واستطاع بمساع حثيثة أن يحقّق ما أراد.

ولكن عندما حقّق ما أراده وتربّع على عرش أكبر حزب كندي بعد توحيد كل الأجنحة فيه وحوله إلى كيان صلب قوي وقفماننغ- وهنا فلسفة الموضوع- في مؤتمر توحيد حزب المحافظين وأعلن موقفه الشهير في ذلك الوقت، والذي كان درساً كبيراً لكلّ وطني شريف داخل وخارج كندا وقال بما معناه: أنا اليوم قد وحّدت وأسّست حزباً قوياً، وقد أصبحت رئيساً بفضل العديد منكم في هذا التجمّع، إنني واليوم لن أضمن انتخابي مرة أخرى للقيام بأعباء المرحلة القادمة مرحلة الفوز بالحكم بدلاً من الحزب العتيد والخصم اللّدود الحزب الليبرالي، لذلك فإنّني لست مطمئناً من قدرتي على قيادة الحزب الموحد الحالي نحو الهدف الأكبر، فعليه فإنني أطالب بانتخابات مبكّرة داخل الحزب لكي تنتخب من هو أفضل مني إن ارتأيتم ذلك، وكذلك صعود قيادة شبابية ينتخب على ضوئها رئيس جديد قوي وقادر له قدرات وطاقات الشباب كي يستطيع قيادة هذا الحزب الجديد. وقد كانت خطوته هذه بمثابة الانتحار لماننك في الوقت الذي كان الجميع يعتقد أن سبب توحيد الحزب هو لتحقيق حلمه الشخصي، ولكي يوسّع من قاعدة سيطرته على الحياة السياسية الكندية، أمّا الآن فإنّه قد فاجأ الجميع بقوله: إنه لا يعتقد بأنّه الأفضل لقيادة الحزب الموحد، فإن كان هو الآن رجل التوحيد، فليس بالضرورة أن يكون الرجل الذي سيستلم الحكم في كلّ كندا...

وبعد أن اتُّخذَت جميع الإجراءات قدّم ماننغ استقالته من رئاسة الحزب الموحّد وقد استعاد إسمه السابق (المحافظون) وألغي اسم حزب (الريفورم) ودعا الحزب إلى انتخاب الرئيس الجديد، وكان ماننغ أحد المرشّحين أيضاً لهذا المنصب، وعندما انتهت عملية الفرز وكما توقّع ماننغ انتُخب شخص آخر وهو الذي يشغل الآن منصب رئيس الوزراء الكندي ويدعى هاربر، وكان قد هيّأ له ماننغ حزباً جديداً يملك الطاقات والقدرات التي تخوله أن يقدم الكثير من أجل بلاده، وتمكّن بفضل عقله المبدئي أن يتناسى الـ (أنا) ويعمل على تحقيق حلمه الكبير، وحلم كل المحافظين في المجموعة الأوروبية في وصول حزب المحافظين إلى سدّة الحكم بعد أن أُبعِد عنها لأكثر من 13 سنة.

كان موقفماننغ رائعاً، فبعد أن نظّم حزبه وأوصله إلى برّ الأمان لم يتخلَ عنه، بل أراد أن يفسح المجال أمام غيره من القادة والعاملين أيضاً كي يكملوا ما بدأه هو وبكلّ طيبة خاطر تنحّى عن رئاسة الحزب لشخص كفوء قادر على المضي قدماً به والحفاظ على مبادئه وسياسته، وهذا فعلاً ما نفتقده بل لا نجده أبداً في مجتمعاتنا العربية.

فنحن عندما يتمسّك أحدنا بكرسي ما تتغيّر النُظم والقوانين ويتحوّل ذلك الكرسي إلى إرث وملك عائلي لا يحقّ لأحد آخر أن يعتليه أو يطالب به، وقد قال أحدهم لولده وهو يوبّخه على ما صدر منه حول الحكم والديمقراطية، قال له: لو نازعتني أنت يا بني على هذا الملك لأخذت الذي فيه عينيك -يقصد رأسه-، ونحن نقول لذلك الملك الجبّار: أيّها الملك إنّ المُلك لعقيم ولكنّ العقل أوسع من ذلك العقم الأعمى ومن تلك الأفكار السّوداء التي تتعارض مع الذّات الإنسانية.

وهكذا بقي ماننغ رمزاً وطنياً يفتخر به الجميع سواء أكان مواطناً كندياً أم سياسياً مبدئياً.

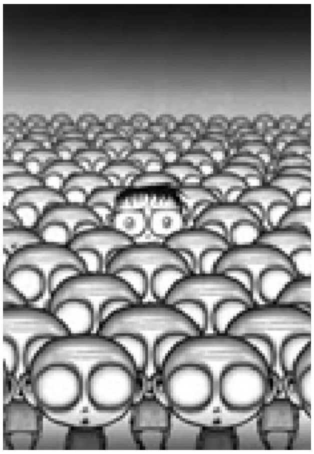

دمقرطة شعب، أو قوّة الفرد

بعيداً عن أصل الكلمة (الديمقراطية) وبعيداً عن جذورها وكيفية استعمالها، تبرز الديمقراطية ظاهرة حضارية تقترب في حركتها من حركة الإنسان، وتدخل في حياته اليومية، وتكاد تكون في قاموس فكرته وفطرته في الوقت الذي لا يستطيع فهمها بسهولة أو تفهّم ماهيتها، مع أنّه يستعملها في محطّات كلامية من وقت لآخر مع سوء استعمالها أحياناً كثيرة أيضاً، فالجميع ينادون بالديمقراطية ويطالبون الغير أن يسيروا في ركابها، والكلّ يعرف الديمقراطية بالطريقة التي يفهمها هو حتّى وصل بنا الأمر إلى التدقيق في معرفة معنى الديمقراطية الحقيقية، وإلى تفسير مكنوناتها ودلالاتها أكثر وأكثر كي تصبح في متناول الكثيرين من المطالبين بها دون معرفتها حق المعرفة.

إنّ البلاد العربية بمعظمها تدّعي أنّها مهد الديمقراطية، وأن ديمقراطيتها هذه طغت في ممارساتها الإنسانية على ديمقراطيات الدّول الغربية المتقدّمة، أمّا الواقع فإنّ الدول العربية لا تمثّل إلّا نموذجا جيداً للدول غير الديمقراطية. وبين يدي رصيد ضخم من الكتب والمنشورات لأدباء ومثقّفين من القرن الماضي كان لهم هذا المفهوم للدّيمقراطية المزيفة -إذا صحّ القول- وإنّه لمن المؤسف أن يعيش هؤلاء في هذه الحالة من التزييف الفكري والتزوير الثقافي أمام ظاهرة إنسانية بحاجة أن يتطلّع إليها الجميع.

إنّ فكرة الديمقراطية تتلخّص في أنّ الفرد في المجتمع سواء أكان إنساناً عادياً بسيطاً عاملاً أو جاهلاً، رئيس دولة أو موظّفاً صغيراً هم الذين من المفترض أن يصنعوا واقع النّظام لبلدهم، فليس هناك أفضلية لشخص على آخر في حقّه بوضع صيغة القانون والنظام. فالفرد هو الذي ينتخب أي مرشّح يريد، وهو الذي يوصله إلى الكرسي الذي يتصارع عليه مع الغير، الفرد هو

الذي يؤسّس الحزب الذي يحقّق طموحاته ومطالبه ولولا ذلك الفرد لما وصل مرشّح إلى أيّ منصب، ولا أسس حزب في أي مكان كان، والمرشح أو الحزب أو أي زعيم لا يمكن له أن يصل إلى ما يريده دون أصوات العاملين البسطاء أو الموظفين الصغار أو الشيوخ والشباب أو ربّات البيوت وسيدات المجتمع، فكلّ هؤلاء هم الأدوات التي يحتاجها ذلك الزعيم كي يصبح زعيماً، وذلك المرشح كي يصبح نائباً أو رئيساً لكي يحقق آمالهم ويدافع عن حقوقهم تلك هي الديمقراطية في البلاد الحرّة القوية.

إنّ المجتمعات كلّها سواء أكانت غربية أو عربية تحتاج إلى أمور أساسية في حياتها العملية، كالطّبابة والتعليم والخدمات الحياتية، وهذه كلّها لا تُقدّم على طبق من فضّة -اذا صحّ التعبير- وإنّما تؤخذ بالمطالبة والإلحاح من قبل الشعب، فالمرشّح الذي يصل إلى كرسيه المرجو يكون مُلزماً بتقديم تلك الخدمات إلى الناس، وإذا لم تفرض عليه الشعوب إعطاءها تلك الحقوق فعلى المرشّح أن ينقل تلك المطالب إلى من هو أقوى وأقدر على تحقيقها لا أن يرميها في أدراج مكتبه بمجرّد عدم قدرته على تحقيقها.

إنّ الرجل العادي يملك قوة وقدرة لا يستهان بهما، فهو أيضاً سّيد في مؤسّسته، مدير في شركته، ربّ عمل في معمله، وتلك القوة هي التي تفرض نفسها في صناعة قرار الدولة وشكل الحكومة الديمقراطية، وعندما يشعر الأفراد أنّهم متساوون في الموقع وفي التأثير فإنّ ذلك سوف ينعكس إيجابياً على العلاقات مع النظام، ولا نجد حينها معارضة مسلّحة أو عنف من جهات تعمل إرهابياً أو تسليحياً ضدّ النظام.

وتجد أنّ مفهوم المعارضة التي يبدأ الناس باستيعابها هي المعارضة التي تعمل في البرلمان، معارضة لفلسفة الحكومة في فهم تقديم الخدمات إلى الشعب، وهذه المعارضة ليست ضدّ النظام، وإنّما ضدّ أفكار الحاكمين في نسيان حاجات الأفراد من الشعب، وعلى الحكومة أمام هذا الواقع أن تؤدي دوراً أكبر في تلبية حاجات الناخبين وتحقيق ما يصبو إليه الشعب من مطالب، بمعنى آخر إنّ الخدمات التي تُقدّم من قبل الدولة لأيّ مجموعة أو

جالية هي مجموعة أصوات الناخبين والتي صوتت لصالح مرشّحها الذي عليه أن يقدّم تلك الخدمات كواجب عليه بسبب ترشيحه لمنصب ما في ممثلي الشعب.

ففي الدول المتقدّمة والحضارية يتحوّل صوت الفرد إلى قوة، فعندما تتّحد الأصوات في صوت واحد قوي، فإنّ تلك القوة كفيلة في أن تغير الكثير من مسيرة الدولة من الخدمات والتشريعات وغيرها، فالقوّة تأتي من أصوات الناخبين، والأصوات تأتي من شكيمة واتّحاد الأفراد لتحقيق أهدافهم التي يأملون في يوم من الأيام إلى تحقيقها مع هذا المرشح أو ذاك. ولا تبرز قوّة مجموعة دينية كانت أو عرقية أو قومية ما لم تتّحد فيما بينها لقول كلمة واحدة لهذا المرشّح أو ذاك، لأنّها سوف تدلي له بأصواتها كلّها إذا ما قدّم لهم المساعدة في بناء مدرسة أو مستشفى أو دور أيتام وما إلى ما هنالك من أمور تهمّ الناس والمجتمع ككلّ، وخاصة في مجتمعات الجاليات العربية التي حصلت على جنسيات البلد الذي عاشت فيه[1].

والمرشّح الإنتخابي في بلداننا العربية يختلف عن ذلك الغربي لأنّ الديمقراطية التي يفهمها الغربي لا تمتّ بصلة إلى مفهومها ومعناها لدى المرشّح العربي أو أي مواطن كان، وهنا يأتي السؤال، هل فعلاً تتعارض هذه الديمقراطية مع الإسلام والدين...؟ أو أنّ مقولات الكثير من العرب الآن

(1) مثل الجالية العراقية في كندا التي اشترطت في إحدى السنوات على مرشحها أن يرفع إلى الحكومة الفدرالية مذكرة تقضي بالغاء الديون المستحقة على العراق من جرآء حرب الخليج، مع علم الجالية بأن تحقيق مطلبها هذا هو مشروع فقط، وقد لا يمكن له أن يرى النور، ولكن طرح هذا المشروع في مجالس السياسيين وفي البرلمان هو قوه تضاف إلى الوطنية العراقية، وقوة تضاف أيضاً إلى الجالية العراقية في كندا، وقد تم ذلك على المستوى الفدرالي لأن القضية هي قضية فدرالية، وفعلاً تم ذلك من خلال العلاقات، ومن خلال الوصول إلى النواب الفدراليين في البرلمان الكندي، كل ذلك يصب في تحقيق المطالب العادلة للناس على أساس الديمقراطية التي لا تتم إلّا من خلال مصالح مشتركة ومترابطة بين الناس وبين المرشحين ممّا يشكل وحدة وأساس مشترك بين كافة أبناء الشعب الواحد من جهة وبين المرشحين من جهة اخرى.

وخصوصاً الدول الخليجية التي ما انفكّت تتقوّل بما تنادي به دوماً في أنّ الدّيمقراطية لباس لا يليق بنا نحن العرب، أو انّها بدعة من بدع الكفّار والصهيونية كما يردّد الآخرون، فيقولون باستحالة التطبيق في ظروف بلدان لم تمتلك أساساً للكثير من المفاهيم الأولية التي تسبق العملية الديمقراطية مثل مفهوم الإيثار ومفهوم الحرّيات ومفهوم الدولة وغيرها من أساسيات بناء المجتمعات.

إنّ التغيير الكبير الذي حصل في العراق في سنة 2003 وانفتاح المجتمع العراقي - ولو بشكل ضئيل - على العالم الغربي أدّى إلى ظهور الخوف المستتر لدى الكثير من المتنفّذين في سلطات الحكم العربي سواء أكانوا اقتصاديين أو دينيين أو سياسيين أو اجتماعيين أو غيرها من مجالات الإنتفاع التي يكسبها الأفراد من هيكلية الدولة، وهذا ما أدّى إلى تعالي أصوات قائلة بعدم مشروعية الدّيمقراطية كنظام، وذلك من معارضته لنظام التشريع الإسلامي باعتبار أنّ الإسلام لا يعترف بمشرّع إلّا الله عزّ وجلّ، وأنّه والقرآن الكريم هو مصدر التشريع، وهذا ما يقف عنده الإسلاميون في مواجهة العلمانيين.

وعندما حاول أولئك الطيببون من المنتفعين ومن المتدينين إيقاف تأثير زحف الشعوب العربية بالحالة الدّيمقراطية التي أقيمت فعلاً في العراق مع أنّها لا زالت عرجاء، ولكنّها على أية حال هي تجربة ديمقراطية فعلية لها دستورها وقانونها وممارستها، وهي الآن في كفاح مرير مع إرث الماضي المعقّد وعلى كل الأصعدة، كانت محاولاتهم تلك ما هي إلّا فتح باب آخر من أوجه الصّراع مع الطبيعة أو مع السنن الكونية، والتي على ضوئها أدركت الجماهير العربية بأنّ الرّد الواقعي على تلك المحاولات هو الربيع العربي أو ربما أرى في تسميته الربيع ظلماً له بدلاً من الخريف العربي، وهكذا كانت الانتفاضة عارمة كبيرة غيّرت معادلات وحسابات تركيبة أمم الأرض وليس أمم المنطقة فحسب، نقول ذلك بلحاظ المفهوم العام للعولمة وللتركيبة التي تفهمها دول الغرب أساساً.

وعودة إلى التفعيلة السابقة أقول هل هذا هو الواقع في أنّ الأنظمة الديمقراطية تقف في الطرف الآخر من المعادلة المعادية لمنطوق السماء، أو الدين في مسيرة الإنسان، وتحت إسم برّاق كالديمقراطية...؟، في الواقع أنّ هذا التصور بما يحويه هنالك شيء من الصحة فيه، ولكنّه ليس بالفكرة المتكاملة، فالديمقراطية في حد ذاتها ليست تشريعاً وإنما هي (طريقة) نظام أي وسيلة تمنح الناس الحق في الإختيار والحرية في إبداء الرأي، وقد أعطى الإسلام في قوانينه الشعوب حق اختيار النظام الذي يرونه مناسباً لحياتهم ومجتمعاتهم.

والشريعة الإسلامية لم تقف عائقا أبداً في وجه الديمقراطية والحرية وإبداء الرأي، فلو أراد شعب من الشعوب الإسلامية إعتماد نظام يطبق الشريعة الإسلامية فعليه أن يلجأ في اختيار الديمقراطية كمساعد له في إحقاق تطبيق الشريعة ضمن نظام يسمح بالحرية والإختيار وإبداء الرأي كالديمقراطية.

إنّ النظام الإسلامي لا يتعارض مع النظام الديمقراطي في أسسه، وإنّما من الممكن أن يكون هناك نقاط خلاف على أمور شكلية ربما لا تزعزع أي من هذين النظامين إذا ما طُبّقا تطبيقاً دقيقاً.

إنّ النّظام في الولايات المتحدة وفي أوروبا نظام علماني لا يتدخل الدين (كقانون) لا (كأخلاق) في مسيرة البلد السياسية والإقتصادية، فالدّين منفصل عن السياسة وما يتبعها، ولكن ذلك الانفصال ليس انفصالاً فطرياً، وإنّما انفصال تشريعي، بمعنى آخر إذا التقى الدين مع السّياسة في حاجة إنسانية معينة مثل الزّواج على سبيل الفرض فإنّ كلي النظامين الدين والدولة يأخذ أحدهما من الآخر ما يحتاجه لتكملة نقصه في تقديم أفضل صيغه لتحقيق المفهوم، وليس هنالك من تردّد في النظام في أن يستفيد من الدين من كلّ الجوانب الحسبية على شرط أن يكون ذلك مطلباً اجتماعياً، وليس مطلباً فردياً، فلنأخذ مثلاً على ذلك، فقد فرض على سكّان ولاية (يوتا) في الوسط

الأمريكي أن يقبلوا بقوانين سنّتها مجموعة دينية من طائفة (المورمان)[1] وأن تتحوّل تلك القوانين إلى تشريعات خاصة للولاية وخاصّة أنّ أكثرية السكّان هنالك التزمت طوعياً بتلك القوانين وطبّقتها، فقد شرّعت تلك الطائفة تعدّد الزوجات، وحرّمت شرب الخمر والقهوة والشاي. وهذه الديمقراطية الدينية إن عبّرنا عنها هكذا هي حالة لا تتعارض مع الفصل ما بين الدين والدولة، بل تمثّل تكاملاً إيجابياً للفكرة الإنسانية، طبعاً مع اختلافنا الفقهي مع المثال الذي قدّمناه.

وكمثال آخر عن الديمقراطية، لو افترضنا أنّ سكان نيويورك أو واشنطن أرادوا الانفصال عن الولايات المتحدة، وتحويل المدينة إلى دولة مستقلة لها قوانينها الخاصة بها، فإنّ الحكومة المركزية لا تحاربهم بل تنصاع لمطلبهم وتمنحهم حقّ الإستقلال والإختيار. وكذلك أية ولاية أخرى من القارة الأمريكية أو أوروبا، ولكن على شرط أن لا تكون دولة تستند على قوانين لم يصوّت عليها الناس (بغضّ النظر عن مصدرية القانون) وبغضّ النظر عن توافق تلك الأراء مع المعتقدات التي نؤمن بها.

فالديمقراطية هي عملية تلزم أي فرد في الانصياع لرأي الأكثرية المطلقة (65-75%) بغضّ النظر عن مشروعية أو عدم مشروعية ذلك الرأي أو سنده الديني أو سنده الأخلاقي، وإنّني أرى بأنّ الأديان لو أرادت أن تحقق اتباع الناس لقوانينها فعليها أن تربي وتنشئ الأفراد لذلك المجتمع على تقبّل آراءها بدون استعمال لغة التهديد أو الحرمة أو ما إلى ذلك.

(1) المورمون هي مجموعة دينية وثقافية متعلقة بالمورمونية، وهي ديانة بدأها جوزيف سميث خلال أواسط القرن التاسع عشر. ويعتبر المورمون أنفسهم جزءًا من الديانة المسيحية. التأثير الثقافي للمورمون متركز ولاية يوتا، بالولايات المتحدة، رغم أن أغلبية المورمون يعيشون خارج الولايات المتحدة وقد غرست العقيدة على مدار التاريخ الإيمان بالزواج الأبدي، والاستمرارية الأبدية، وتعدد الزوجات (رغم أن الكنيسة قد منعت تعدد الزوجات في بداية القرن العشرين). راجع مادة (Mormon) ونبيهم (جو سمث، ت 1844):
(http://en.wikipedia.org/wiki/Mormons).

أمّا وضع القانون بحدّ ذاته فإنّ الديمقراطية كنظام وأفكار لا تقاوم رأي الأكثرية فيما لو مثلاً قررت أكثرية السكان في منطقة معينة بإقامة الصلوات في المؤسّسات الحكومية أو المدارس فإنّ الديمقراطية ومن يمثلها في الدولة لن يقفوا موقف الممانعة أو التصدي، ولا تقف أبداً موقف مخالفاً لرأي السكان لأنّ معنى الديمقراطية هو السير مع رأي الأكثرية أو ما يسمّى رأي الأمة في الفقه الإسلامي.

ففي أحد أحياء نيويورك في (منهاتن) غالبية السكان ينتمون إلى الديانة اليهودية ومن المتشدّدين في الممارسات والطقوس من الصلوات وغيرها، وهذا ما يفرض عليهم أن يؤدوا صلواتهم في منتصف اليوم وفي حافلات الرّكاب العامّة (الباصات) وفق تعاليم تستوجب أن يكون هنالك فصل ما بين الرّجال عن النساء، وهذا ما يستلزم أن تكون هنالك حواجز في داخل الباص الذي ينتقلون به والتّابع إلى سلطات تلك المدينة، وأمام هذه المطالب التي هي مطالب يريدها الناس صوتت إدارة تلك المحلة على قرار السماح بأداء الصلاة للجميع في الباصات العامة مع وضع حاجز ما بين مقدمة الباص المخصصة للرجال عن المكان المخصص للنساء في المؤخرة. فالدولة هنا أو المؤسّسات الرسمية لم تقف موقف الضدّ من تلك القرارات فهي شؤون خاصة بالأفراد لا تمسّ بأمن المنطقة، وهنا يأتي دور الديمقراطية واضحاً في تنظيم التعامل بين الناس جميعاً مع عدم الوقوف أمام الأفكار الدينية الأخرى التي يؤمن بها الإنسان.

ولكنّ الواقع الذي أثار استغرابي في القوانين الديمقراطية كما هو الحال في القانون الأمريكي والكندي اللّذين أقرّا بأن قوانين الدولة الموضوعة من قبل مجلس التشريعات (الشيوخ) أو (السنت) يجب أن لا تتعارض مع معتقدات الأفراد الدينية، ومهما كانت تلك المعتقدات، فلو رأى المسلمون في ولاية ما في الولايات المتحدة، أو في مقاطعة من مقاطعات كندا بأنّ هناك مادّة من مواد قانونها تتعارض مع مادة من مواد التشريع الإسلامي فإنّ على واضعي قوانين تلك الولاية أن يعملوا لإيجاد منفذ ما لإلغاء تلك الفقرة،

أو تعديلها، أو عدم تطبيقها على أنفسهم، فمثلاً القانون الأمريكي والكندي يحرّم ويمنع تعدّد الزّوجات[1].

على سبيل الفرض لو قرّر المسلمون في دول الغرب أن يجعلوا من شهر رمضان شهراً للعبادة فقط، وأن يعتبروا هذا الشهر بمثابة عطلة رسمية لهم فلهم الحقّ في أن يرفعوا أمرهم هذا إلى الجهات المختصّة، وعلى الدولة آنذاك منحهم ذلك الحقّ من خلال التصويت إذا أريد له أن يكون قانونياً.

تعتبر الديمقراطية في الغرب من أهمّ الأنظمة خصوبة في نشر وعرض الآراء والمعتقدات العربية والإسلامية التي تدعو إلى كلّ ما هو خير وعادل بين بني البشر من الاحترام لتلك المعتقدات في تلك البلاد.

إنّ المجتمع العراقي يتطلّع اليوم إلى مستقبل تسوده الديمقراطية المقنّنة التي تستند على التشريعات التي استنبطت من حاجة الأمّة والمجتمع، ولكنّ البعض أو الأكثرية الشعبية يعتقدون بأنّ هذا النّظام لن يكون القاعدة التي يمكن الإلتزام بها واتباعها للوصول إلى الأهداف المرجوّة، إذ أنّ الشعب العراقي لم يعتاد ولا الشعوب العربية الأخرى على المعنى الحقيقي للديمقراطية كنظام لتسيير حياتهم وارتباطهم مع الدولة، بل اعتبرها البعض وسيلة من وسائل المحتلين والغزاة لإطالة فترة بقائهم في البلاد التي احتلّوها لسنوات طيلة، وإنّما العكس هو الصحيح فالديمقراطية يمكن لها أن تكون من أنجع الأنظمة لمقاومة المحتلّ ومحاربة الظالمين والقوى المستكبرة الأخرى، ولا يمكن لشعب يمارس الديمقراطية الحقيقية في حياته كلّها أن يقع تحت سلطة محتل مهما بلغت قوة ذلك المحتلّ وجبروته، ومهما امتلك من عتاد وأسلحة وأدوات قتل ودمار.

---

(1) والراغب بزواج ثان يستطيع أن يتزوج فعلياً ولكن لا يستطيع أن يسجله في القانون الحكومي وأن يستفيد كلا الطرفين من تسهيلات الزواج التي تقدمها الدولة مثل الضرائب والمساعدات وما إلى ذلك، أما من الناحية الشرعية فزواجه قائم، والدولة لا تتدخل في ذلك ما لم يتضرر شخص ما ويرفع شكواه إلى المحاكم، وهو أصل التحريم من التعدد في الزواج لأن القانون الوضعي يرى في التعدد ضرراً على البعض من الأطراف.

وإنّه لمن المؤسف أن نعيش اليوم غياباً كبيراً لمنهج الديمقراطية الحقيقية في فكر أدبائنا ومثقّفينا، لأنّ الكثيرين يتجنبون الكلام والخوض في مناقشة مبادئ الديمقراطية والتعمّق في أسسها وأفكارها، فقد تحوّل هذا المفهوم في عقول الناس إلى شعارات واهية فارغة لا قيمة ولا معنى لها، وعندما يقوم هؤلاء الداعون للديمقراطية ويطرحون شعاراتها الحقة فإنّهم يصطدمون بأفكار شعبية رافضة، لأنّ الفهم الشعبي للديمقراطية يتعامل معهم بمجموعات تسوغ الألفاظ وتبيع الكلام ولا تحقّق طموحات الشعوب، لأنّ هذا هو ما أخذوه من ذلك الماضي الذي عاشوا فيه وتشرّبوا من مفاهيمه وأنظمته الخاطئة.

تستعر اليوم حملات كثيرة معارضة لتوجّهات الشعوب تحت ذرائع كثيره أقواها ذريعة الدين الذي خلقه أولئك لأنفسهم ووضعوا قوانين ذلك الدّين بما يتناسب مع مقامهم، وهو ما يفسّر اليوم البذخ الكبير الذي يصرف على المؤسّسات الدينية الكبيرة، وخصوصاً تلك التي اتخذت من اسم السّلفية شعاراً لها، كما نلاحظ كيف تسعى الآن المنظمات الدينية المتمولة في إشاعة الفكر المقاوم للفكر الديمقراطي تحت حجج كثيرة أهمّها هو حجة معارضة الديمقراطية مع القانون والتشريع الإسلامي.

ويحسبني أنّ الحرب على الديمقراطية هي حرب خفية تنفذ تحت أسماء مختلفة أهمها هو ما تقوله دولنا العربية وحكّامنا من أنّ الديمقراطية يجب أن لا تفرض فرضاً،و أنّها ليست قضية تتناقلها الشعوب من بعضها البعض، بل هي قضية ذاتية تنطلق من المبادئ وتأريخ ومعتقدات الشعوب، وهذا ما يردّده بعض المثقفين العرب أمثال محمد عابد الجابري وأدونيس وغيرهم من القوميين والوطنيين وعدد من الكتاب من طبقات فكرية مختلفة ومن معتقدات دينية متعددة، وفي الحقيقة أن هذا ليس ببعيد عن الواقع وأنّ استعارة الأفكار من الخارج إنما هو عملية معقدة يجب أن تعالج بحكمة ودقّة، ولكن من الجهة الأخرى على الشعوب أن تعي حقيقة ما، تلك هي أن حاجات الإنسان أينما كانت تكاد أن تكون واحدة، فالعدالة مثلاً هي حاجة أساسية لكلّ بني البشر يحيا بها الفرد وتنمو بها العائلة وتثمر بها الدول، والحرية أيضاً هي

حاجة مهمة وضرورة لكلّ إنسان على وجه الأرض، وإذا فقدت تلك الحرية عند شعب من الشعوب مات عنده الإبداع والعطاء. ومن المفاهيم الأساسية أيضا، السّلام والاستقرار وهما مطلبان أساسيان لكلّ أمم الأرض وبدونهما تدخل الدول في نفق الضياع والظّلمات وتكون عرضة للظلم والطغيان..

إنّ هذه المفاهيم في العدالة والحرّية والسّلام حاجات لا تبتدع ابتداعاً، وهي ليست بالحاجات التي نستوردها -اذا صحّ التعبير- من الخارج أو من الآخرين، وإنّما هي موجودة فينا يخلقنا الله أحراراً، ونكبر ونحن متطلّعون إلى العدالة، ونحيا ونحن نحلم بالسّلام، إنّها فينا في فطرتنا وقيمنا، وقد جاءت الأديان منادية بتلك المفاهيم ذات القيمة العالية للشعوب. وإذا كانت صيحات الديمقراطية التي تدعو إليها بعض المؤسّسات ذات الاهتمام الكبير بشؤون السلام العالمي كالأمم المتحدة ومنظمة حقوق الإنسان، فإنّ ذلك ليس من قبيل استيراد أفكار الغرب والأخذ بأنظمة الآخرين، بل أنّ الأديان أكّدت على ذات المفاهيم تلك للحفاظ على الحياة البشرية في كلّ مكان، ولذلك يجب على شعوبنا العربية أن لا تتردّد في أن تأخذ من السلف السابق أو من السلف الحالي أو من شعوب العالم أو من الغربيين أو الشرقيين ومن كل الأجناس والأديان، وأن تتعلّم مفاهيم أساسية لحياتها في حقل الإنسانيات والعلوم السياسية والقانون، لأنّ التعلم واكتساب الخبرات والقدرات من السابقين يزهو بالإنسان عالياً، ويعلو بتأريخه إلى الآفاق، فلا انتقاص لحقّ أي شعب إذا ما أخذ عن الآخر السابق ما يليق بتحقيق أمنياته في حياة حرّة وشريفة، وليس من المعيب أبداً إذا ما تعلّمنا من الغير كيفية صناعة جهاز ما، أو صياغة قانون عادل لنا، أو تطبيق مفهوم اجتماعي معين، فالتعلّم والعلم قضية رئيسية في الحياة حتى وإن كانت الجهة التي نتعلم ونأخذ منها جهة معادية لنا ولأفكارنا، فنحن نستطيع أن نأخذ ما يناسبنا فقط في حياة شعوبنا ومعتقداتهم، فإذا كان الغرب قد سبقنا في تطبيق فكرة أو نظام الديمقراطية الحقة فعلى جميع الشعوب العربية الحرة أن تستفيد من تجربة ذلك الغرب، تلك التجربة التي حرمنا منها بسبب ظروف قاسية مرت على بلادنا خلال قرون

من الزّمن في مسلسل تاريخي بغيض -في أحيان كثيرة- خارج عن إرادتنا وإرادة كلّ الشعوب الحرة الأبيّة، فما الذي يقف في طريقي كي أستفيد من تلك التجارب الحرة وأجعلها نظاماً حقيقياً في بلادنا...؟

فليس من الإنصاف أن يُتهم من يطالب بالديمقراطية بأنّه غربي التفكير والهوى، أو أنّه علماني بعيد عن الدّين والمعتقد، وفي كلتي الحالتين فإنّ الديمقراطية لا تتعارض مع أي منهما، أو أن يقال أنّه تابع لغرب كافر مستعمر، تلك هي صيحات المناهضين للديمقراطية والتي هي مجال خصب لتعميق مفهوم القومية والوطنية لدى أبناء الشعب الواحد، فالدّيمقراطية هي التي تصون وتحترم الأديان جميعاً، ويمكن أن تقرب المؤمنين إلى الدين وممارساته وتقربهم من بعضهم البعض في تقبل الآخر والعيش معا بسلام ومحبة وأمان.

إنّ المستفيدين من عدم تطبيق الدّيمقراطية هم أولئك الحكام وأصحاب الامتيازات والسلطات، فالدّيمقراطية إذا ما طُبقت بطريقة صحيحة سوف تفتح المجالات الواسعة أمام أصحاب الكفاءات والقدرات سواء أكان ذلك في نطاق السياسة، أو في نطاق السلطة، وفي المجتمع ككلّ.

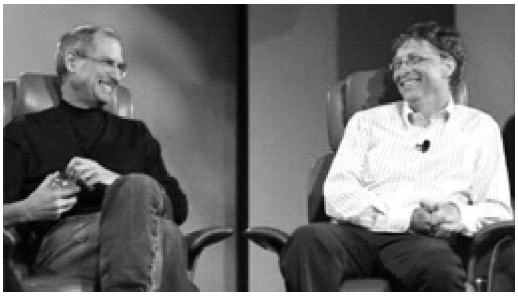

صديقي جواد

(بل غيتس) العراق

مـن مـنّـا لا يـعـرف (بـيـل غـيـتـس) (William Henry "Bill" Gates III)... الرّجل الذي حقّق أحلامه التي كان يحلم بها منذ الصغر، هو مؤسّس ورئيس شركة (مايكروسوفت) العالمية، وهي أكبر شركة برمجة كومبيوتر في العالم، وهو اليوم يتربّع على عرش أثرى أثرياء العالم حيث تقدّر ثروته الآن ب58 بليون دولار، وما يفرقه عن أثريائنا العرب من بلدان الخليج هو أنّ هؤلاء لم يكسبوا ثرواتهم من العلم والعمل والاختراعات، وإنّما كسبوها من خلال حكمهم لهذا البلد أو ذاك، من النّفط ومن تجارة السلاح واحتكار الشركات الكبرى الإعلامية والتلفزيونية، ولم نرَ يوماً أو نسمع عن ثري عربي حصل على ثروته من اختراع مهم للبشرية، أو من تجارة مشروعة، أو من علم أو عمل شريف.

إنّ بيل غيتس اليوم قرّر أن يستقيل من رئاسة مجموعة شركاته بعد أكثر من ثلاثة عقود قضاها على رأس أكبر إمبراطورية للتكنولوجيا في العالم، ليترك منصبه لصديقه ورفيق دربه (بول آلن) الذي يعرفه منذ فترة الدراسة في جامعة هارفرد، وبعد 33 عاماً من النّجاح وبعد أن جمع تلك الثروة الضّخمة، قرّر بيل غيتس أن يتفرغ للعمل في مؤسسته الخيرية التي تحمل إسم مؤسسة (بيل وميلندا (زوجته) غيتس) الخيرية[1] مكتفياً بما قدّمه في مجال التطور العلمي

---

(1) مؤسسة بيل وميليندا غيتس هي مؤسسة خيرية،أسسها بيل ومليندا غيتس في عام 2000 وتضاعف حجمها بمجيء وارن بافت في 2006، الأهداف الرئيسية للمؤسسة على الصعيد العالمي هي تعزيز الرعاية الصحية والحد من الفقر المدقع، وفي الولايات المتحدة توسيع فرص التعليم والوصول إلى تكنولوجيا المعلومات، يوجد مقر المؤسسة في سياتل واشنطن، قدرت أملاك المؤسسة ب37,6 مليار دولار أمريكي عام 2007. من الممكن معرفة =

والتكنولوجي للبشرية[1].

وبعد، هذه هي النبذة المختصرة من حياة غيتس ذلك العصامي الذي بنى نفسه بعلمه وعبقريته وحقّق الثروة الهائلة وقد سخّر بعضاً منها للخير وعمل جاهداً حتى يصل إلى ما وصل اليه اليوم، هذه حياة عملاق من عمالقة البشرية في القرن العشرين الذي جاء وأثرى العقل البشري الإنساني.

ولو أعود إلى الوراء قليلاً، إلى ستينيات القرن الماضي، إلى صديقي جواد الذي رافقني في المرحلة الثانوية ثم الإعدادية وكان جواد هذا يشبه إلى حدّ ما (بيل غيتس) كان أبيض اللون، عيناه تشعّان ذكاء، شعره يميل إلى الحمرة، يميل إلى القصر، منحني الظهر قليلاً، كان مولعاً مثل بيل غيتس بالكومبيوتر والبرمجة والتكنولوجيا، وخاصّة في أوائل السبعينيات عندما دخلت لأول مرة نُظم البرمجة والشيفرة إلى بعض جامعات العراق.

عندما تخرّجنا من الجامعة توجّه جواد للعمل في أحد مراكز الدولة في مجال الكومبيوتر في (المركز القومي للحاسبات الإلكترونية) في الباب الشرقي

= تفاصيل هذه المؤسسة الخيرية العملاقة بالدخول على موقعها:
(http://www.gatesfoundation.org).

(1) بدأ غيتس في سن الرابعة عشر بكتابة برامج قصيرة وأول برامجه كانت ألعاباً محدودة وكان يكتبها بلغة ال(بيزك) وكانت قدرته تلك نابعة من حبه للرياضيات وعلم المنطق وتفوقه فيهما، وفي عام 1969 أنشا وصديقه آلن شركة بإسم (مجموعة مبرمجي ليك سايد للكومبيوتر) تدرب غيتس على تطويع لغة البرمجة Basic لتصبح يسيرة بحيث يمكن استعمالها لإدارة الحاسبات الصغيرة، ترك غيتس الجامعة دون أن يصل إلى مرحلة التخرج، وفي عام 1974 عندما كان صديقه بول ذاهباً لزيارة غيتس رأى نسخة من مجلة (Popular Electronics) وكانت على الغلاف صورة لكمبيوتر شخصي إسمه (Altair 8800) وأحضرها إلى غيتس وأدرك الاثنان أن عصر الكومبيوتر الشخصي سيبدأ وسيكون متوفراً للناس، واتصل الاثنان بالشركة التي صممت الكومبيوتر وكان إسمها (MITS) ونجحا في تقديم برنامجاً سهلاً للكومبيوتر في غضون 8 أسابيع بلغة البيزك، وكان هذا السبب الرئيسي لولادة شركة مايكروسوفت (Microsoft) وولد نظام الDOS التي اشترته شركة IBM لصناعة الكومبيوتر، ونجح غيتس كمستثمر حين أستطاع إرغام تلك الشركة على الإرتباط حصرياً بنظام (دوس) وتطوير ذلك النظام تدريجياً ليتخذ هيئة نظام التشغيل (Windows). ممكن معرفة المزيد عن بيل كيتس من خلال موقع:
(http://en.wikipedia.org/wiki/Bill_Gates).

في بغداد، وكنت أتردّد لزيارته من وقت لآخر، وكنت لا أعرف من الكومبيوتر إلّا إسمه، وعندما حدثني صديقي عن البرمجة والكومبيوتر أحسست وقتها بأنّه كمن يحدّثني عن اللغة الصينية وقواعدها في ذلك الوقت، إذ كان يوجد في العراق ثلاث كومبيوترات: واحد في مؤسّسة الضمان الاجتماعي، والآخر في مؤسسة الطاقة الذرّية، بالإضافة إلى واحد في المركز القومي للحاسبات، مقر عمل جواد.

وذات يوم عرض علي جواد أن يأخذني ليريني الكومبيوتر في مكان عمله ذلك الجهاز الذي أثار إعجاب واستغراب العراقيين في ذلك الوقت، وصلنا إلى المركز نزلنا إلى قبو تحت الأرض كانت غرفة كبيرة مبرّدة، وفيها جهاز كبير مكتوب عليه باحرف كبيرة (NCR)، الشركة المصنعة لذلك الجهاز على ما أعتقد، ومنه كانت تتوزّع كابلات وتمديدات كهربائية إلى أجهزة أصغر، نظرت إلى جواد الذي سارع إلى القول: انظر أن هذا الجهاز الضخم والذي أتوقع له أنه سيكون من الأهمية للبشرية بحيث سيصبح في متناول الناس جميعاً -كما كان بيل غيتس يقول- واستمرّ صديقي قائلاً: ولو عرفنا مكنوناته وأسراره فإنّنا سوف نصبح في مقدمة الدول المتحضّرة... إبتسمت قليلاً، وقلت في نفسي أن جواد هذا عاشق ولهان، وهو ينطلق في تفسيراته من مشاعره وأحاسيسه، وتابعت معه باهتمام كيفية عمل ذلك الجهاز الذي استأجرته الحكومة العراقية آنذاك كما سمعت منه بخمسين ألف دينار أي ما يوازي 160 الف دولار سنوياً، إنّ ذلك الجهاز كان من المفترض أن يستعمله هؤلاء المتطلّعون إلى المستقبل، لكنّه بالتّأكيد كما قال صديقي لا يمكن أن يتوفر لعامة الناس بهذا الثمن العالي، وذكّرني بأوّل راديو دخل العراق إلى بعض البيوت وكان كبيراً وضخما جداً وغالياً أيضاً، لذلك لم يمتلكه إلّا القليل من الناس، أما اليوم فقد أصبح أصغر ويباع بثمن معقول، وحتى أنّنا نجده في كلّ بيت من بيوتنا كما كان يقول لي.

نظر اليّ جواد ثم قال: إنتظر خمس سنوات وسوف يكون هذا الجهاز بحجم ذلك الراديو الكبير، وبعد عشرين سنة أخرى سوف يكون بحجم دفترك

وكتابك، ضحكت لما كان يحلم به جواد، وتمنّيت له أن تتحقّق أحلامه كلها، وأكمل وقال: أنا الآن أقوم بكتابة برنامج لهذا الكومبيوتر، وفي طور إعداد مشروع قد يستغرق سنوات عديدة أطمح من خلاله تطوير اللّغة الخاصّة التي يفهمها الكومبيوتر، كما الطابعة التي نستعملها الآن، قلت له: لو افترضنا أنّ ما تقوله سيحصل في يوم من الأيام فما حاجتي أنا وغيري إلى هذا كله...؟ إبتسم جواد، وقال: يا صديقي إنّ هذا الجهاز من اختراع الإنسان، ولن يقوَ في تغليبه على عقل الإنسان، لأنّ الإنسان هو الذي اخترعه لخدمته ولكي يحاكي العقل والأفكار في طريقة عملها، وبما أنّ عقل الإنسان له القدرة والنوعية، ولكنّه لا يملك القدرة على محاكاة الكمية، فالعقل البشري يستطيع أن يحلّ مسألة رياضية بدقائق ولكنّ الكومبيوتر سيساعد الإنسان ويحل له عدّة مسائل بجزء من الثانية، وأنّنا نتعامل مع هذا الجهاز بلغته الخاصة التي يفهمها، فهو يفهم الصفر والواحد من الأرقام ويترجمها إلى حروف بثوان سريعة فتظهر الكلمات على الشاشة نفهمها كما هي.

سألته ثانية: وأنت يا صديقي ماذا تنوي أن تفعل...؟ إلى ماذا تطمح...؟ نظر اليّ جواد نظرة حزينة، وقال: إنّ ما أفكر في عمله صعب يا صديقي، ولكنّه ليس مستحيلاً أبداً، فلا مستحيل مع العلم والإبداع، فالمستحيل فقط هي لغة المجانين والفاشلين، وأنا سوف أدعو الله كي يساعدني في ما أطمح إليه، سوف ترى.

وتمرّ السنوات والأيام وتشاء الأقدار القاسية أن أبتعد عن العراق، وعن صديقي جواد، وأنقطع عن صحبته ومعرفة أخباره، ثم تشاء الظروف ثانية أن أعود إلى العراق، وألتقي بأحد تلامذتي وكان قد تخرّج طبيباً من الجامعة، وعين طبيباً لمعاينة السجناء في أحد سجون بغداد، وفي إحدى المرات وأثناء قيامه بالمعاينات جيء إليه برجل كان قد أخرج لتوه من غرفة التعذيب التابعة للسجن وهو على شفير الموت، وطَلب منه أحد الحراس معالجته والإشراف عليه حتى يشفى ممّا هو فيه من جرّاء تعرضه للتعذيب، وقد عمل ذلك الطبيب جهده طيلة أسبوع في معالجة ذلك السجين، وبعدها طلب من إدارة السجن

السماح له بنقله إلى المدينة الطبية نظراً لخطورة حالته، وتمّ له ذلك وأدخل إلى قسم خاص بالسجناء الذين يعالجون بإشرف المخابرات العراقية كي تتحسّن حالتهم ثم يعادون إلى السجن، ويعاد التحقيق معهم حتى يحصلوا على ما يريدون معرفته.

وصادف أن تقدّم هذا الطبيب الشاب لخطبة إحدى قريباتي، وكنت أنا من المدعوين لحضور عقد القرآن، سلمت عليه وجلسنا معاً في غرفة صغيرة نتكلّم في أمور الزواج والحياة القادمة، وفجأة سألني هل عندك أخ أو صديق أو قريب في السجن...؟ تنهّدت طويلاً ثم قلت: وهل تعرف أحداً هناك...؟ قلت له: ولكنّني أعرف الكثير من أحرار هذا البلد، كما أنّ لي أخوة وأخوات، وتقريباً كلّ أفراد عائلتي دخلت السجن فعن أيّهم تتحدث...؟ قال كلا، ولكن هل تعرف أحداً إسمه جواد...؟ أجبته مستغرباً من جواد...؟ قال: جواد النجّار...؟ أجبته بانفعال ظاهر: نعم أعرفه، أجابني بهدوء وحزن، وهل هو أخوك فعلاً...؟ قلت له: ولكنّ كيف ربطت ما بينه وبيني فشكلي مختلف عنه...؟ ثم سألته: كيف عرفت أنه صديقي...؟ قال تصورته أحد إخوانك أو أقربائك لشدة ما تتشابهان في طريقة الحديث والكلام، لقد التقيته في السجن وعالجته كثيراً وصرنا أصدقاء أيضاً، إنه شخص ذكي جداً وعبقري في الحاسبات، سألته: ماذا أصابه...؟ ولماذا أودعوه السجن...؟ قال: لقد أتوا به من المركز القومي للكومبيوتر، وهو متّهم إنّه من المعارضين للنظام، أتوا به وعذبوه كثيراً حتى ساءت صحته وضعف جسمه وأصيب بضربة في رأسه من التعذيب، خرج من المستشفى، ولكنّه لم يعرف الراحة أبداً والألم في رأسه يكاد أن يقتله، ثم قال: حرام أن يُعذّب ذلك الرجل العبقري، ما أتعسهم والله من وحوش وقتلة... لم استطع أن أردّ عليه، آلمني ما أصاب جواد، ومنعت نفسي من البكاء، ثم سمعته يقول: وهل تعرف أحداً من عائلته...؟ لم أجبه.

لكنني رفعت رأسي إلى السماء استغثت بالله وماتت الكلمات في حنجرتي، وماتت الدمعة في عيني، وبعد وقت قصير وبينما كنت خارج العراق

عرفت بأن المخابرات العراقية سلّمت جثة جواد إلى أهله بعد أن مات في سجونها من شدّة التعذيب.

اليست هذه من كبرى المفارقات أن نرى بيل غيتس وهو في قمة عطائه وخدمته للبشرية ونرى جواد صديقي وقد قتلته يد الغدر من أبناء وطنه الذي كان يسعى جاهداً إلى أن يبني لوطنه مستقبلاً زاهراً ملئ بالابداع...؟ ولو قُدّر له أن يلاقي الاهتمام الخاص لما احتضنه تراب العراق ولكان الآن ذو شأن كبير وأهمية للوطن وللبشرية أيضاً.

عندما لا نحترم الإنسان فإنّنا لا يمكن لنا أن نحترم العلم، وعندما لا نحترم العلم، فإنّنا نتحول إلى مخلوقات غريبة لا تمتّ إلى البشرية بصلة أبداً.

لم يعرف العراق ولسنوات طويلة عالم الكومبيوتر وعالم الإنترنيت ولم يتعرّف على برامج تطوير البرمجة، ولم تسنح لأبنائه الفرصة حتى تطّلع على أمور التكنولوجيا والتطور العلمي، لأنّ العراق كان في أيام العهد السابق بلداً منغلقاً على ديكتاتورية ظالمة ومتقوقعاً داخل ظلمات القتل والتعذيب، فأصبح بلداً بعيداً عن كلّ ما هو جديد، يحرّم العلم والإبداع والانفتاح على الآخرين حتى وصل إلى ما وصل اليه من عشرة سنوات خلت في غضون سقوط النظام السابق.

فالإنسان آنذاك لم يكن إنساناً حراً في العراق، كان كلّ همّه أن يحافظ على حياته وحياة أبنائه وأهله، فابتعد عن العلم وتأخّر لسنوات طويلة عن كلّ ما هو جديد ومتحضر. فإذا تأخر العلم تأخر الإنسان، وإذا أردنا أن ندمر شعباً ونقتل الأمم فإنّنا لا نحتاج لمدافع وطائرات وقنابل، بل يكفي أن نحرمه من مواكبة الحضارة، وتحصيل العلم والطموح إلى الإبداع، تماماً كما حصل لبعض الشعوب العربية خلال الحقبة الثانية من القرن الماضي وتحديداً بعد الحرب العالمية الثانية، إذ نمت شعوب واندثرت شعوب أخرى، شعوب قاومت الحروب والمجازر فارتقت إلى مراتب العلم العالية، واستفادت من كلّ تطور وجديد، وشعوب أخرى اختارت أن تحارب بالسلاح وتتاجر

بالأرواح، وأن تلتزم الصمت والأوهام وتنشر الجهل أينما كان، كلّ ذلك كي تحقق رغبات بالية خاصة لا هي من أصول الثقافة الإسلامية ولا العربية، وإنّما هي مفاهيم خلقناها بأنفسنا نابعة من جهل مركب سميناه (قيم) (وكرامة) و(عروبة)، وفي الواقع هي كلّها تعابير نعلم بأنّها موجودة على أطراف ألسنتنا.

وإذا عدنا قليلاً إلى بيل غيتس فإنّه ينبغي لنا أن نقدّم إليه تحية وتهنئة على كلّ ما أثرى به العلم والتكنولوجيا للبشرية جمعاء، وأنّ ما يقوم به اليوم من أعمال خيرية وتقديم يد المساعدة إلى فقراء وجياع العالم بالإضافة إلى التزامه توفير الدواء إلى الشعوب الفقيرة ما هو إلّا دليل واضح على حب ذلك الرجل للخير ونبذه القتل والحروب، وهو يدعو دائماً كلّ قادة العالم إلى ترك الحروب جانباً والتنبه إلى قدرات شعوبهم وإمكاناتهم.

وعندما زار بيل غيتس الهند بعد أن أصدرت محكمة أمريكية الحكم على شركته مايكورسوفت بأنّ عليها أن تنقسم إلى قسمين بسبب قانون الاحتكار (Monopoly) الذي يحرّم على أية شركة من شركات العالم ممارسة الاحتكار مهما كان نوعه، وكان ذلك بعد أن اشترت مايكروسوفت شركة (MSN) والتي ظهر آنذاك بأنّ صفقة الشراء هذه هي نوع من الاحتكار للسيطرة على السوق[1]، وهكذا كان العقاب على شركة بيل غيتس هو تقسيم شركته إلى قسمين كما جرت في بداية السبعينيات مع شركة (Bell) العملاقة التي سيطرت على سوق التلفونات آنذاك، وبعد صدور الأمر القضائي على شركة مايكروسوفت قرّر بيل غيتس نقل جزء من عملياته إلى الهند، الدولة التي تتميز بطاقات كبرى في مجال الاتصالات والعلوم والقدرات العقلية، وقد خرج لاستقبال بيل غيتس كلّ الزعماء الهنود، واستُقبِل كرئيس دولة بعد أن فُرش له

---

(1) أقرأ كل ما جرى من الأحكام القضائية حول قانون الاحتكار في مادة (United Staes v. Microsoft) على:
(http://en.wikipedia.org/wiki/United_States_v._Microsoft_Corp).

البساط الأحمر، وعندها أقدم بيل غيتس على إسقاط ديناً ضخماً على الهند لشركته، وقدّم المساعدة لعدد كبير من الفقراء، وأقام فيها مجمّعاً ضخماً لشركته على أمل أن ينشر العلم في ذلك البلد الفقير والغني في نفس الوقت، ومتمنياً أن يستطيع أن ينشر التكنولوجيا والعلم في كلّ أنحاء العالم، وأن يجعل العلم والإبداع والطموح هي منارة الشعوب لا المال والثروات والجاه، فالعلم والإبداع يبقى والمال والجاه إلى زوال.

كيف تطيل عمرك... الثاني؟

بالتأكيد إنّ الأعمار بيد الله، ولكن ليس من الناحية الجبرية كما يقول الأشاعرة، وإنّما هو العلم الذي به يعلم الله ساعة وفاة الإنسان، أمّا ما نتحدّث عنه هنا هو الجانب البيولوجي والجانب العلمي، فقد أثبت بانّه يمكن للخلية العادية أن تُعمر آلاف السنين.

في عالم اليوم وفي مجال الطب تمكن الإنسان من أن يحفظ حياة كائن لسنين قد تصل أكثر من ذلك عندما توضع في النيتروجين السائل بدرجة حرارة -170 مئوية وهو ما يحفظ به معظم الجراثيم والميكروبات والخلايا.

وتُجرى اليوم بحوث كثيرة ومتنوعة على إمكانية تمديد عمر الخلية الإنسانية، ولكنّ الطّب لحدّ الآن لم يقدّم لها برهاناً علمياً على إمكانية تمديد عمر الإنسان إلى الحد الذي يطمح إليه الكثيرون اليوم، وقد جعل الخالق قانون الموت نوعاً من التغيير البيولوجي لهذا المخلوق الذي تحدّى به البشر فيما إذا كانوا بإمكانهم تفاديه وتجنبه وإيقاف قانون الموت عند بني الإنسان.

فمتوسط عمر الإنسان يختلف من قطر إلى قطر ومن منطقة إلى منطقة وهو مرهون بالتطوّر الطبي والبيئي والاجتماعي وغيرها من العوامل التي تؤثر على دوام حيوية الخلية البيولوجية، وتعاني بعض دول العالم وخصوصاً العالم المتقدّم من مشكلة طول العمر لأنّها من القضايا التي تستهلك مالية الدولة وتؤثّر على انتاجياتها ووضعها السّكاني، ففي السّابق كان متوسّط عمر الإنسان في كندا وأمريكا خمسة وخمسون سنة، أمّا الآن فازدات هذه النسبة إلى عشرة سنوات فصار معدل العمر 65 وهذا يعني أنّ الدولة ملزمة أن تتبنى أولئك المسنين غير القادرين على العمل لفترة أطول، وبمصاريف ترهق كاهل الدولة

خصوصاً في الدول التي تؤمّن فيها الجانب الصحي للمواطن مثل كندا والدول الإسكندنافية، وتبحث هذه الدول عن مخارج عملية للسيطرة على الأعمار التي تتفاقم يوماً بعد آخر، فالتقدّم الطبي والبحوث العلمية ساعدت كثيراً على تجنّب الأمراض سواء المستعصية منها أو الجرثومية.

كما أن الوعي البيئي العام الذي تقوم به دول العالم المتقدّم والانتشار الحضاري للمعلومات وتحويل دول العالم إلى دولة مرتبطة إحداهما بالأخرى بشأن المخاطر التي تواجهها، كلّ ذلك ساعد الإنسان على أن يحمي نفسه من مشاكل الوفاة مبكراً والاستمرار في حياته العادية لفترة أطول.

كان آباؤنا العرب في السابق يموتون في حالات الإصابة التي لم تكتشف آنذاك مثل السرطانيات والسكري وما إلى ذلك مثل مرض القلب وهو ما يؤدي إلى تحديد سكاني لتلك المنطقة، أمّا البعض الآخر من عظماء العرب فقد وضعوا لأنفسهم برنامجاً صحياً جيداً في الغذاء والفعاليات وهو ما أعطى البعض طول العمر كما تقول التراثيات في بعض أخبار المعمّرين.

في عصرنا الحالي وفي حمأة التقدّم الكبير للغذاء وتركيبه والدواء تذهب البشرية وتتطلّع إلى وصفة معينة لإدامة عمر الإنسان وبقائه نشطاً حتى وأن وطأت قدميه عتبة السبعين.

بادئ ذي بدء نقول لماذا يشيخ الإنسان..؟ وما هي مؤثرات الحيوية وما هي مؤثرات الشيخوخة...؟

تعيش في الجسم البشري الخلية العادية ما دام هنالك إمداد غذائي وإمداد تنفسي سليم، فلو تغيّرت نسب الغذاء وتحوّلت إلى غذاء ملوّث فإنّ نسبة الحيوية ستقلّ ونسبة النشاط ستضعف، ومثلها مثل ماكنة السيارة التي تتحرك بطاقة كبرى إذا توفّر البنزين النقي الخالي من الرطوبة ومن كل مادة أخرى لا تحوي على عنصر الكاربون كالرّصاص وغيره.

فقد تسير السيارة ولكن لا تسير بنفس الكفاءة، كما أنّ عمر تلك الماكنة سيقلّ عما هو متوقع له أن يكون، فحركة السيارة أو حركة الآليات تتأتّى من

كثرة عنصر الكاربون في مصدر الطاقة، هذه الطاقة هي الغذاء والأوكسجين، فإذا اضطرب هذان العنصران فذلك معناه أنّ الخلية لا تعيش ضمن الخطّ المرسوم لها في الأداء، كما أنّ هنالك عاملاً آخر مهم وإن كان ذلك العامل لا يخرج عن عاملي الغذاء والأوكسجين ذلك هو العمل الذي يمنع هاتين المادتين الرئيسيتين من الوصول إلى الخلية، فما قيمة بنزين مطروح في العراق مثلاً وهنالك آلاف من السيارات تنتظره في جنوب أفريقيا.

إنّ عوامل المنع كثيرة جداً ومتعدّدة، وهي عوامل غير مباشرة لوصول الغذاء إلى الخلية. وبالعودة إلى مثال السيارة فنرى أنّ الطاقة، وإن كانت متوفّرة ونقيّة ولكن يبقى هنالك عقبات في وصولها إلى الماكنة مثل عدم القدرة على الدفع أو وجود عناصر تعيق حركة الوقود أو غيرها من العوامل.

والعلم الحديث اليوم يقوم بمحاولات كثيرة ومتنوعة لمعرفة أسباب موت الخلية أو ضعفها في جسم الإنسان، ولعلّ من أهمّ العوامل التي توصّل إليها العلم اليوم هو الغذاء الذي يعتبر أحد أهمّ العوامل الذي يؤثر على مسيرة الخلايا الحياتية، فالغذاء اليوم متنوع المصادر متعدّد الأدوات، فهل أنّ ما تستلذّه الخلايا الحسية الموجودة باللّسان هو الشيء الذي ينفع حياة الخلايا الجسمية، أم بالعكس... ؟ وهل ما تشعر به الخلايا الحسية هو المقياس للفائدة أم لا...؟

وقد أثبتت التجارب العلمية أنّ اللّسان يخدع الإنسان على الدّوام، فالصّالح للجسم لا يتذوقه بالطريقة الممتعة التي يتذوق بها الأشياء غير الصحية، فالسّكريات والدهون والنشويات والكحوليات هي من أفضل ما تستمتع به الخلايا الحسية الموجودة على طرفي اللسان، وبذلك يلتهمها الإنسان إلتهاماً ويتمنّى المزيد منها لو أنها لا تضغط على الحجاب الحاجز وتمنع الإنسان من تناول المزيد من تلك المواد.

إذن أين تكمن صحة الخلايا التي يريد الإنسان أن يطيل في عمرها، وأن تستمرّ مصادر الغذاء والهواء في الوصول إليها أملاً في طول العمر... ؟

ولكي نجيب على السؤال علينا أن ندرك بأنّ حياة البشر وصحتهم وحركة العالم برمته قائمة على مبدأ التوازن، ومبدأ المقاومة فكلّ شيء في الحياة يمتّع الإنسان ويؤنسه ويفتح نفسه تجاهه فإنّه يتحول إلى ضرر إذا لم يعرف الإنسان أين يقف...؟ وكيف يسير...؟ وكيف يتناول ذلك الشيء...؟

فهذه القطعة من الغذاء التي يأكلها الإنسان الخبز أو اللّحم أو الجبنة عندما تدخل وإلى حين خروج فضلاتها، فالعمليات التي تمرّ خلالها في انتزاع الطاقة منها وتمثيلها ما هي إلّا عبارة عن عمليات معقّدة جدّا.

ولو افترضنا أنّنا نرغب بأن نقوم بتلك العمليات خارج الجسم للحصول على الطاقة، فإنّ ذلك سوف يتطلّب منّا أن ننشئ معامل ضخمة جداً لا تستوعبها مدننا ولا أرضنا[1]. فالحياة بما هي عامّة لا يمكن لها أن تدوم بدون أن نفهم فلسفة الطعام وفلسفة العيش، فالطعام وإن كانت المخلوقات جميعها تتناوله وتستفيد منه ولكنّه عبارة عن فلسفة حياتية يجب على الإنسان المتحضّر أن يتفهمّها قبل أن يمارس عملية الأكل[2] فالإنسان كمخلوق متميز عن بقية مخلوقات الله الأخرى من النبات والحيوان بشيء آخر ذلك الشيء الآخر هو ما يسمّى (العقل).

وهو الذي يملك قدرات هائلة وضخمة زوّدها به الخالق حتى يتمكّن من أن يستنبط نظاماً وثيقاً لممارسة عملية الموازنة في الحياة برمّتها ومن ضمنها الغذاء والمعيشة وغيرها.

---

(1) فمثلاً هنالك جسيمات في داخل الخلية مايكروبية الحجم تسمى (مايتوكوندريا) تسبح في سائل كل خلايا الجسم كثيرة العدد يُعتقد أنها المسؤولة عن تحرير الطاقة وتمثيلها، لو أراد الإنسان أن يصنع مايتوكوندريا واحدة خارج الجسم فعليه أن يصرف أموال طائلة وأن يكون حجم ذلك المعمل بحجم البيت المتوسط بثلاث غرف لينتج نفس القدر من الطاقة التي ينتجها ذلك الجسيم المايكروني الذي لا يرى إلّا بالمجهر الالكتروني، وهذه واحدة من آلاف الوحدات التي تسبح في خلية واحدة من خلايا الجسم، فلو اختلت الطاقة في خلية واحدة من بلايين الخلايا فإن ذلك سوف ينعكس سلبياًعلى مجمل الجسم.

(2) يبدو ذلك كلاما مثالياً جداً.

من إحدى تلك الموازنات الأساسية في عالم الغذاء هو أنّني آكل ما أحتاجه فقط، ولا أقترب أو أتناول ما لا أحتاجه، أي أنّ حركة الإنسان الغذائية يجب أن تستند على فلسفة حاجة الجسم لا فلسفة رغبة الجسم... فالرّغبة شيء والحاجة شيء آخر، فالجسم يرغب بكلّ شيء، بل يبحث عن كلّ ما هو جديد كي يمتع بها أحاسيسه الذوقية ويشبع نداء الرّغبات في داخله.

بينما الواقع أنّ كلّ تلك المركبات الغذائية والأطعمة المتنوعة ماهي إلّا عبارة عن حاجات لا تستفيد منها الخلايا أبداً، بل تتحوّل إلى عبء على الجسم يحاول من خلال كلّ ذلك الكمّ الهائل من المواد الثانوية التي لا يحتاجها إلى أن يخلق لنفسه أجهزة أخرى لتحويل تلك الطاقة إلى دهون أو مواد مضرّة غير معروفة اكتشف بعضها العلم ولم يكتشف الكثير منها لخزنها في الجسم، وهذه المواد غالباً ما تكون الوسط الجيد لنموّ الكثير من الأمراض العضوية التي تتعطل من خلالها خلايا أخرى كانت تقوم بواجبها داخل الجسم.

اذن من أولى النقاط الجوهرية لإطالة العمر هي تفهّم ومعرفة (فلسفة الغذاء)، بمعنى آخر هو أن لا يشترك الإنسان مع المخلوقات الأخرى في نفس الفلسفة التي اعتادت عليها تلك المخلوقات في أن يكون الغذاء لإشباع الرغبة، بل على إنسان اليوم المثقف أن يتفهّم أن تناوله للغذاء ينبع من الحاجة، تلك الحاجة هي الاستمرار في الحياة وإثراء الحياة وخدمة أهداف الحياة.

فلا يمكن أن تنفصل فلسفة الغذاء عن فلسفة المعيشة وفلسفة الخلق، فإذا لم أفهم لماذا خلقني الله ولماذا جئت إلى هذا العالم، وما هي مسؤوليتي، وهل أنّ هذا الخلق هو عملية اعتباطية عبثية جاءت إلى الحياة...؟ إذا لم أدرك ذلك، فإنّ الحياة في نظري تتحول إلى رقم مهمل وعندها تكون ما يسيطر على فعاليات الجسم هو الرغبات لا العقل، وما أجمل ما قيل في هذا السياق بأنّنا نأكل لنعيش لا نعيش لنأكل.

قد يقول البعض، ولهم الحقّ فيما يقولون في أن هذه الفلسفة تعتبر من المثاليات التي يستحيل على الإنسان أن يحوّلها إلى مفهوم عملي، وأنّها نوع من الخيالات التي لا تجد لها أرضية للتطبيق... وما دام الأمر يدور في حيّز الخيالات فلنا الحقّ في الخيال، وللخيال مساحة لا تحدّها إلّا السماء والسماء غير محدودة.

وأنا أقول لهم أنّ المثالية هي ما لا يمكن تطبيقه، وأنّه نسج خيالي من أنسجة العقل، ولكني أقول أيضاً وأذكّر وأطمئن الجميع بأنّني أنا شخصياً رأيت الكثير، وحينما أقول الكثير أقصد عدداً لا بأس به من الناس يلتزمون ويتفهمّون فلسفة الغذاء، وقد طبقوها على أنفسهم بصورة عملية، هؤلاء ليسوا من المتصوّفين أو من طائفة ال (المونك) البوذية أو غيرهم، بل إنّهم شخصيات رفيعة بعضهم من المجتمع الشرقي مجتمعنا الذي نعيشه اليوم في الشرق، وبعضهم في المجتمع الغربي الذي تسوده المغريات وتسوده المخملية التعيسة، بعضهم شخصيات في مراكز القرار التجاري والسياسي، ولهم باع طويل في إثراء جوانب المال والتجارة في مؤسسات معروفة في العالم.

إذن إنّ إدراك فلسفة الجسم وفلسفة الغذاء ليست بالشيء المرتبط بالدّين أو بالتعاليم الروحية أو بالقوانين، وإنّما هي نوع من الفطرة التي أودعها الخالق في ذلك العقل العظيم، العقل الذي يملك من القدرات الهائلة التي هدفها سعادة هذا المخلوق المسمّى الإنسان.

ولا أستغرب في أن أجد في أدبيات ذلك العظيم الكبير وهو يخاطب ابنته وهي تقدم له نوعين من الطّعام وهو يقول لها: يا بنيّتي أتقدمين لأبيك (إدامين)... (نوعين)...؟

ارفعي أحد الإدامين، ثم يستمرّ ذلك العقل الكبير ليقول لابنته: فو الله ما من أحدٍ طاب مطعمه ومشربه إلّا طال وقوفه بين يدي الله.

ماذا يعني هذا العقل في قوله لابنته؟..يعني أنّ الجسم لا يحتاج إلى هذين النوعين من الطاقة وكان آنذاك (تمراً وملحاً)(1).

انظر هنا في هذا المثال الرائع حتى تكتشف أنّ تلك الشخصية قد جعلت من عنصر الغذاء فلسفة له، ليس في حياته فحسب، وإنّما في آخرته أيضاً، وهو بالضبط ما يجب على الإنسان الذي يرمي إلى إدامة عمره وجسمه وصحته أن يعمل في أن يحوّل الغذاء إلى فلسفة لا تنفصل عن بقية فلسفات العقل.

ولنستمر ولو لهنيئة مع هذا السيل الجارف من الوجهين الخلقي العالي والأداء الطبي الغذائي ولنستمع لموقفين حتى نتفهّم عن أي شيء نتكلم نحن عنه...؟ عندما قال: ما جاع فقير إلّا بما شبع به غني... ولو شئت لاهتديت

(1) فالتمر هو فركتوز ثم يتحوّل إلى كلكوز لطاقة الدم والخلايا في الوقت الذي كان على الوجبة التي سبقت هذه الوجبة كمية من الكلكوز قد تناولها ذلك الإنسان ربما بخمس ساعات بينما طاقة عشر قطع من التمر يمكن لها أن تمد الجسم بقابلية على أداء وظيفته الحياتية لستة ساعات، هذا إذا كان التمر هو الوحيد الذي تناوله عند الإفطار، وليس هنالك من طاقة مخزونة في الجسم أصلا وهذا مستحيل. وهكذا تستمر الرواية وتقول: بأن البنت أرادت أن ترفع الملح (الإدام الثاني) وتترك لأبيها أن يأخذ طاقته في صيام اليوم القادم الذي طوله من الساعة الرابعة صباحاً وحتى الساعة السابعة مساءاً أي 15 ساعة من التمر، هكذا هو ما أعتقدته البنت، ولكنه أشار إليها أن ترفع التمر وتترك الملح لأن الملح ينظم حركة الطاقة الموجودة في الجسم لا أن يخزنها، بالاضافة إلى قدرته على إبقاء الدم في حالة توازن، وهكذا اضطرت البنت أن تدع أبيها يأخذ لعقات من الملح وبعض من الأعشاب البرية التي تطرد بعض سموم نواتج الجسم التي تتراكم من عمليه الهضم وتقوم بعملية (Oxidation)، وهكذا عندما قال لها عن معنى إطالة الوقوف بين يدي الله، فإنه لم يكن يعني الحساب (و ربما الحساب) ولكنه كان يريد أن يقول بتعقد حالة فسيولوجية الإنسان وهو ما يعطل إنجاز مهام أخرى أراد الله للإنسان أن يتمها ويؤديها إما نوعاً من الواجبات أو نوعاً من الإلتزامات الأخلاقية، فعندما أملأ معدتي باللحوم والسكريات فإن ذلك سيفرض على جسمي أن يتكاسل في أداء واجباته، وليس ذلك فقط، بل القيام بالمسؤوليات الأخلاقية الأخرى التي تربطه مع مجتمعه وعائلته ونفسه ودولته وربه، فهذه وأن لم تكن واجبات فإنّها التزامات لا تدوم الحياة بدونها، وعدم تأديتها من قبلنا معناه أن يطول وقوفنا أمام من هو مسائلنا عنها سواء أكان ذلك الذي نقف أمامه الدولة أو الأب أو المسؤول الوظيفي أو الله.

إلى مصفى هذا العسل ونسائج هذا القزّ (الحرير)، ولباب هذا القمح، ولكن هيهات أن يغلبني جشعي إلى تخيّر الأطعمة.

إمسك هذه الجواهر من الأقوال عزيزي القارئ اللبيب والتي هي برنامج عملي فكري لكيفية التعامل مع الجانب الغذائي الذي يجب على الإنسان الإلتزام به والعمل به أمام غاية إطالة العمر.

وماذا أيضاً عن طرق إطالة العمر...؟

من النقاط الطبيعية المهمّة لإطالة عمر الإنسان هو دوام تناول الماء، أعني دوام تناول الماء يعني أن يشرب الإنسان على الأقل 25 قدح ماء يومياً، وربما تتباين أرقام الكمية ما بين شعب وآخر. ففي العراق مثلاً يستلزم أكثر من ذلك بسبب جفاف الجو وكثرة تبخر سوائل الجسم، أمّا في المناطق الرطبة كالخليج والتي تقل فيها نسبة تبخّر سوائل الجسم فإنّ النسبة المذكورة كافية لادامة حيوية خلايا الإنسان ...[1].

وقد يعاني الكثير من الناس من مشكلة عدم الرغبة في شرب الماء خصوصاً في المناطق الباردة والمناطق الرطبة، أنا من خلال تجربتي أرى أن شرب الماء هو عبارة عن عادة على الفرد أن يجاهد في تعلّمها وفي ممارستها، شأنها كشان أي قضية أخرى لا يرغب الجسم في أدائها كالتمارين الرياضية، وانتقاء الأكل المفيد وتجنب المضر وغيرها من الأمور التي يرفضها الجسم لأنها لا تسبب له السعادة الآنية.

فالكثير من الناس اليوم يميل إلى شرب المنتجات الغازية، فهذه المنتجات تحوي على أملاح، والأملاح لها القابلية على الاحتفاظ بالماء داخل الجسم وهو عملية مضرة، بل الأفضل أن تستمرّ السوائل بالدّخول

(1) فالماء كما نعرف هو الناتج العرضي لكل الافعال الحيوية التي يقوم بها الإنسان كما أنه المركب المطلوب دوماً في القيام بتلك العمليات الأيضية الحيوية، فلا تقوم أي خلية بامتصاص الغذاء بدون توفر عنصر الماء (H2O) وكذلك بالنسبة إلى التنفس لا تتحرر الإلكترونات في الانتقال من مركب إلى مركب بدون توفر ذلك الماء.

والخروج من الجسم لتنظيف مجرى الدم والخلايا وخصوصاً خلايا الدماغ، فالتفكير الدائم بقضية ما، عملية حسابية، اجتماعية، فكرية، شخصية، تؤدّي بالتالي لهذه الخلايا المسؤولة عن التفكير إلى إفراز نتائج عمليات التفكير وهي مركّبات مضرّة بالجسم إذا ذهبت إلى أماكن معينة وترسّبت فيها وتتحوّل إلى تجمعات كبيرة يصعب على الجسم التخلص منها، أمّا في حالة الأمراض فإنّ الماء يكاد أن يكون شيئاً أساسياً لطرد إفرازات الجراثيم وافرازات المعارك المناعية التي تقوم بها أجهزة الدفاع الداخلية المسؤولة عن مهاجمة الجراثيم.

وفي الوقت الذي يتحوّل به الماء إلى ضرورة قصوى لإدامة نضارة وحيوية الخلايا فإنّه يجب في نفس الوقت أن نجد الوسائل المتنوعة لخروج ذلك الماء، ولا عبرة في أخذ الماء إذا لم نجد له مخارج، ومن أهم مخارج الماء هو الكلية التي تعمل على سحب الماء من الدم وطرحة عن طريق البول، كذلك من مخارج الماء هو ما يخرج مع الفضلات الصلبة، ثم أيضاً من المخارج المهمة المسامات العرقية المنتشرة في جسم الإنسان، هذه المخارج الثلاث الأخيرة مهمّة جداً أن نحرص على أن تبقى مفتوحة على الدوام.

الأمر الثالث الذي يستوجب على الإنسان عمله لإطالة عمر الخلايا هو الرياضة والذي تعتبره شعوبنا العربية الإسلامية عموماً بأنّها نوع من أنواع الترف، وأنّها ممارسة فيها مضيعة للوقت عليه أن يستغل وقته في أمور أكثر أهمية من ذلك.

أمّا الشعوب الغربية فإنّها أدركت مؤخراً وخلال العقود الثلاث الماضية بأنّها جزء حيوي من حياة الإنسان، بل إنّه ضروري، ولا يجب أن يتأخّر أيّ فرد، رجل أو امراة عن ممارسة الرياضة يومياً، وعندما يتقدّم الإنسان في الغرب للحصول على وظيفة هنالك بعض الشركات تستلزم من الموظّف أن يكون رياضياً ممارساً لها يومياً. فقد أثبتت الدّراسات أنّ دور الرّياضة في الجسم لا يختلف كثيراً عن دور الغذاء ولذلك تحوّلت المؤسّسات الطبية إلى دراسة تخصص طبّ الرياضة وتمكنت من أن تكتشف أرقاماً مذهلة في ضرورة ممارسة الرياضة اليومية لكلّ مواطن ذكراً كان أم أنثى كبيراً كان أم صغيراً.

وفائدة الرياضة بالنسبة إلى إطالة العمر متعدّدة ومتنوعة أهمّها هو طرد المواد الناتجة من عمليات التفاعلات الداخلية تلك التي لا تستوعبها الكلية في أن تطرد من مخارجها الضعيفة الدقيقة أو من خلال القناه الهضمية التي تتجنب التعامل مع الجزيئات الدقيقة من الفضلات وتفضل أن تتعامل مع المواد الكبيرة الناتجة من الغذاء.

أمّا الرياضة فإنّها تساعد على طرد المواد المضرّة من الدم وفي الخلايا وفي الأعضاء عن طريق العرق والمسامات الجلدية، كذلك تساعد مناطق الإحراق في الداخل على تكسير تلك المواد ومن ثمّ طرحها بدل من أن تبقى نائمة ومترسبة في خلايا الجسم والتي تؤدّي بالتالي إلى إضعاف تلك الخلايا.

علينا أن ندرك ونتفهم أن مثال تلك الخلايا كمثل العجلة التي تدور باستمرار وكل خلية من الخلايا تدور ضمن نسق معين مشابه إلى نسق واتجاه الخلية الأخرى المجاورة، ومجموعة دوران عجلة كل خلية ضمن العضو الواحد تدور في اتجاه واحد له علاقة بالعضو المجاور الآخر الذي يستمد حيويته من العضو الأول، وهكذا، فعندما تعرقل مادة ما عملية دوران عجلة الخلية فإنّ الجسم يحاول أن يتخلص من تلك الخلية[1].

(1) التي إذا بقيت كما هي عليه في عدم القدرة على الدوران فإنّها ستؤثّر على ملايين الخلايا الأخرى المجاورة لها وبذلك يتأثر ذلك العضو برمته، وعليه فإن استجابة الجسم لذلك هو التخلص منها وبالسرعة الممكنة، هذا إذا كان الجسم له القوة في قتل والتخلص من تلك الخلية، أما في معظم الأحيان فإن ذلك غير ممكن، وعلى الجسم أن يستدعي جنوداً آخرين موجودين في مناطق أخرى كي يقنع تلك الجنود بأن هذه الخلية غير مرغوب بها ويجب انتشالها وقتلها لأنها ستؤثر على فعالية العضو بأجمعه، ذلك الجيش أو الجنود لو تفهموا وضع ذلك العضو وتقبلوا رأيه ثم قتلوا الخلية تلك التي تعمل على تعطيل العملية برمتها فإن المشكلة الكبرى التي تبرز فيما بعد هي أن الجيش الذي جاء ليقتل خلية واحدة فقط لأنها عطلت المسيرة سوف لا يدرك فيما بعد بأن الخلية التي قتلها هي الوحيدة التي يجب التخلص منها، بل سوف يقوم بمهاجمة الخلايا الأخرى المجاورة وتبدأ جيوش الدفاع الدخول في معركة داخلية مع الجسم ذاته، تسمى هذه الحالة (Auto lmmune Diseases) وهي من أخطر الأمراض التي يصاب بها الجسم والتي تحتاج إلى دقة في العلاج والمتابعة.

وفي هذه الحالة فإن أفضل الطرق للتخلص من المواد الضارة بالجسم وخصوصاً الدقيقة منها هي الرياضة فقط، وليس هناك شيء آخر من العمليات الطاردة التي لها القدرة على انتقاء تلك المواد وطردها، وذلك لصعوبة التمييز ما بين المواد الطبيعية والمواد الضارة.

أمّا أهمّ الرياضات التي يجب ممارستها من قبل الإنسان كي يتمكن من حفظ حيوية خلاياه فهي: المشي السريع، والرّكض، ورياضات القوّة جميعها، رياضات الكرة بأشكالها، ثمّ علينا أن نعلم بأنّ هنالك من يقوم برياضة خصوصاً النساء ولكن ليس لها من أثر إيجابي على الجسم. الرياضة المفيدة التي يستفيد منها الإنسان لها مميّزات وصور، من أهمّ تلك المميزات هو التعرّق الشديد، فإذا لم تكن تلك الحركات مصاحبة للتعرق الشديد فهي ليست من قبيل ما ينفع الإنسان، كما أن الرياضة المفيدة هي التي تشعرك بعد الانتهاء منها بعدم الرّغبة بالأكل أو الشعور بالشّبع حتى وأن كنت جوعاناً قبل الرياضة، وهذا معناه أن التمارين كانت قد أحرقت الدهون والمواد المنتشرة في الجسم وحوّلتها إلى مادة قابلة لاستخلاص الطاقة ودفعها إلى الدم، حيث أنّ الدّم شعر بالإكتفاء والشّبع حتى وإن كانت المعدة فارغة.

الأمر الآخر الذي يجب على الشخص اتّباعه إذا رغب في إطالة حيوية خلاياه ثمّ إطالة العمر هو أن يحبّ الحياة ويرغب بالحياة ويعمل للحياة، ويحب ما في الحياة، فإذا لم يحب الإنسان شيئاً سوف لن يبدع فيه، فحبّ الحياة هي الخطوة الأولى والأساسية التي تدفع الشخص إلى القيام بما يجب القيام به في إطالة حيوية خلاياه، فإذا كانت الحياة في عينه سوداء ومظلمة والناس الموجودون بها ليسوا بذي مروءة وإنسانية فعندئذ ليس هنالك من دافع يدفعه إلى البقاء فيها والعمل على إدامتها... إعمل لدنياك كأنّك تعيش أبداً ...

هنالك من الناس من يحب الحياة عبثاً لأنّه لا يرى شيئاً آخراً للوجود ممكن أن يوجّه له فكره وعمله، وهناك من يحبّ الحياة لأنّها الطريق الذي يكتشف به العالم، ومثل المثالين كمثل الطالب الذكي الذي يدخل قاعة الإمتحان وهو في أشدّ لحظات السرور لأنّ مرحلة الإمتحان ستنقله إلى مرحلة

أخرى أرحب وأوسع ممّا هو فيه، وهنالك أيضاً من يدخل قاعة الإمتحان وهو يرتجف خوفاً ويتمنّى أن لا يرى ذلك اليوم الذي يواجه به قاعة الإمتحان، وأن يبقى كما هو عليه، فالذي يحبّ الحياة هو الذي يحبّ الموت، والذي يكره الحياة هو الذي يكره الموت لأنّهما طريق واحد، وما الموت إلّا نقلة من نقلات الحياة ولكنّ نقلة بأدوات وأساليب أخرى.

لم أرَ في حياتي عظيماً من العظماء أو مفكراً من المفكرين إلّا وهو يعشق الموت ويعشق الحياة كعشقه للموت، وخصوصاً الموت الشريف والموت المبدئي الذي يلفّ الإنسان عندما تضيق عليه الحياة المحدودة، كي ينطلق إلى المطلق، الأبدية في الحياة الأخروية التي يراها أولئك الذين فهموها، لا الحياة الأبدية التي يفهمها عوامنا الذين يفهموها أنّها مجموعة من الحيّات والعقارب والظلمات وكلّ ما هو سوء وكلّ ما ولّدته لنا تلك الأفكار السوداوية بنيناها لأنفسنا من خلال تراثيات غير ثقافية هزيلة الأسس.

فهنالك من فهم الحياتين وأدرك سرهما، وعرف مراكز ارتباطهما، وعندما تحين ساعة الانتقال من هذه لتلك لم تر أن له دمعة تذرف أو أسف ينطلق على لسانه، وإنّما يفتخر وهو في لحظاته الأخيرة ويقول لما حوله: إنّني فزت... وكذلك الذي تأتيه بشارة النجاح وهو جالس في مكانه تراه يقفز فرحاً ليصيح: نجحت، فزت...

فنحن هنا عندما نتكلّم عن إطالة العمر في هذه المقالة لا ننوي في ذلك أن ننطلق في أعمارنا كي نعيش حياة الجمود والضعف، بل إنّنا ننوي في أن ننقل لكلّ شعوبنا عملياً مفهوم أن هذه الحياة هي ممر إلى الحياة الأخرى، وما لم تكن قوياً صحياً وذا عقل متّقد فعّال فلن تغنيك هذه الحياة عن تلك الحياة.

والإنسان كما ذكرنا وهو يعيش حياة العبور (الممر) لا يمكن له أن يبدع لا فيها ولا في الحياة الثانية إلّا إذا كان سليم الأعضاء قوي البنية سليم العقل نشط الفعاليات، فقد قيل سابقاً: إيّاك والكسل والضجر، فإن كسلت لم تقدر على أداء حقّ، وأن ضجرت لم تقدر على مقاومة شرّ.

فالحياة بمجملها محصورة ما بين طرفي كماشة الحقّ والباطل، أداء الأول (الحقّ) ومقاومة الثاني (الشّر) يحتاج إلى قوّة، قوّة في العضلة وقوّة في الذهن وقوّة في الجسم وقوة في الفعاليات الحيوية التي تجري في الدماغ، وفي الدم وفي الكبد وفي الغذاء بالاضافة إلى قوّة أخرى تضاف إلى تلك القوى، تلك هي (الإيمان)...(Faith) الذي سنجعل له فصلاً آخراً في كتابنا هذا.

ماهو المرض النفسي...؟

منذ أنّ كنّا صغاراً كنّا نسمع أحاديث الناس وكانت تبدو لنا غريبة عجيبة أحياناً، وأحياناً أخرى تنطبع في عقولنا وأذهاننا فتتحوّل إلى قضية كنّا نعتقدها صحيحة لا لبس فيها. وكنت في كثير من الأحيان أسمع جارنا يتكلم مع صاحبه فيقول له: لقد أخذوا فلاناً إلى (جاك عبود) فيردّ عليه الآخر بشيء من التعجّب متسائلاً: أصحيح ما تقول..؟ يردّ عليه الأول نعم... نعم، أخذوه إلى جاك عبود فلم يكن هناك أيّ حلّ آخر سوى الذهاب إلى هناك، ثم يسكت هنيئة ويقول: مسكين...مسكين لقد وضعوا له الكهرباء في رأسه بعد حلق شعره وها هو الآن مرمي في غرفة من غرف بيته.

وصرنا نتساءل من هو ذاك الغول المخيف "جاك عبود"...؟[1].

كان الشعب العراقي وما يزال ينظر إلى الطبيب النفسي بنوع من التعجّب والرّيبة، وسبب ذلك هو عدم إدراكهم لمفهوم المرض النفسي، فيعتقد البعض

---

(1) الدكتور جاك عبودي شابي -ولد عام 1908 من عائلة يهودية عراقية في البصرة، درس الإعدادية في كلية الملكة فكتوريا في القاهرة، وعمل مسّاحاً في بغداد قبل دخوله كلية الطب حيث تخرج في دورتها الأولى، وأوفدته الحكومه العراقية إلى بريطانيا بعد تخرجه بستة أشهر لنيل شهادة الدبلوم في الأمراض العقلية من معهد مودسلي، حيث عاد إلى العراق كأول أختصاصي في الأمراض العقلية، وافتتح أول عيادة متخصصة بالطب النفسي في نفس العام في رأس القرية، جرى تعيينه في مستشفى دار الشفاء الحكومية كدار إيواء للمرضى العقليين وأدخل عليها إصلاحات عديدة محسناً من خدماتها البدائية، وهو أول من أدخل العلاج بالصدمات الكهربائية،عمل كمدير لمستشفى دار الشفاء، رفض الهجرة إلى إسرائيل وظل متمسكاً بجنسيته العراقية، يعتبر أول من أسس مستشفى خاص بالطب النفسي المسماة بدار الرشاد، أحيل على التقاعد من كلية طب بغداد بناء على طلبه لأسباب صحية (د. صادق السامرائي - 18-06-2013، صوت العراق).

أنّ المريض النفسي هو الإنسان المخبول أو المجنون الذي فقد عقله، وهذا يُعدّ نوعاً من النقص الكبير في الشخصية الإنسانية. فمثلاً إذا أراد أحدهم أن يقلّل من قيمة آخر أو يحتقره يقول له: إذهب إلى الشّماعية، وهي المستشفى التي يتمّ فيها معالجة الأمراض النفسية، ولربما كانت تلك المستشفى الوحيدة التي كانت تعالج المرض النفسي في كلّ العراق[1].

إنّ المرض النفسي هو حالة عصبية يصاب بها الإنسان جرّاء تعرضه لحالة ما أو حادث معين ومرض كغيره من الأمراض التي يصاب بها الإنسان كالإنفلونزا أو أمراض التدرّن وغيرها من الأمراض التي يتعرض لها كلّ إنسان، ولكنّ الفرق أنّ الأنفلونزا تصيب الجهاز التنفسي والمرض النفسي يصيب الجهاز العصبي الشعوري عند الإنسان[2].

---

(1) الحالة النرجسية التي يعيشها الفرد العراقي متأتية من الواقع البدوي الذي تتميز به تلك الشخصية، وهي من النوع التي تميل إلى عبادة الذات والإعتزاز بشأن ما يصدر عن الشخصية (دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، علي الوردي، جامعة بغداد).

(2) وهذا يعني أن الإحساس في الإنسان ينقسم إلى قسمين قسم مباشر كأن يسحب الإنسان يده بسرعة إذا اقتربت من الحرارة التي تتعدى حرارة جسم الإنسان أي 37 درجة مئوية، فميكانيكية ذلك الأمر هو أن الإيعاز العصبي يرسل إشارة سريعة إلى الدماغ تفوق سرعة الضوء تخبره بوجود حالة غير طبيعية في محيط الإصبع وهنا الدماغ وهو القائد العام ينفذ الأمر بالابتعاد عن منطقة الخطر وذلك بسحب الإصبع عن النار، هذا إحساس مباشر ورد فعل مباشر تنتهي آلامه بأن يبعد الإنسان مناطق الإحساس وهي الأصابع عن مصادر الحرارة والتي هي النار، هنالك نوع آخر من الإحساس وهو غير المباشر أو اللاشعوري والذي لا يتمكن الإنسان من تجنبه حتى وإن ابتعد عن منطقة الأذى، ومثال على ذلك لو أصيب الإنسان بفقد عزيز على قلبه، فالألم المتولد من هذا الحادث ليس للإنسان سبيل للابتعاد عنه ونزعه من قلبه وتجنبه كما هو الحال في المثال السابق، وفي نفس الوقت فإن المدة الزمنية للألم من النوع اللاشعوري الثاني ليس له وقت محدد، فقد تجد أماً تبكي على وليدها التي افتقدته وتتألم داخلياً ونفسياً مدى الدهر، كما تقول الشاعرة الكبيرة الخنساء:

يذكّرني طلوع الشمس صخراً وأبكيه لكلّ غروب شمس

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي

فلو حاول الإنسان ومدى الدهر أن يغيّر ما بداخله من آلام وحزن فإنه لن يقدر على ذلك، مع أن المخلوق الآدمي بطبعه يميل إلى تجنب الألم والابتعاد عن الحزن، إذن لماذا =

والأوجاع النفسية الداخلية التي يصاب بها الإنسان لها أسباب كثيرة نذكر منها:

- فقدان عزيز قريب أو صديق.
- خلافات عائلية كبيرة.
- خسارة مالية وإفلاس.
- حالات الظلم والتعذيب جرّاء الحروب والأسر.
- وسواس ما يترسّخ في العقل.
- نقص في التركيبة الشخصية للفرد.
- رسوب وفشل في أمور الحياة.
- حالة ديكتاتورية لحاكم ما على أفراد شعبه.
- حالة ظلم وتسلط من قبل أحد أفراد الأسرة.
- الوحدة.
- الخوف من المستقبل والفقر والمرض والمجهول.
- إحساس المرأة بعدم الرضى من نفسها أو أنّها دميمة الخلق.

هنالك مئات بل آلاف من تلك الأسباب أثبت الطب الحديث تأثيرها على حدوث المرض النفسي عند الأفراد، وهذا معناه أنّ ما ذكرناه من تعداد

= يبادر الإنسان الذي فقد عزيزاً على أن يتجنب الألم...؟ ولماذا لم يتحرك كما تحركت اليد عندما قاربت الحرارة كي تمنع الألم من الوصول إلى اليد...؟

في الحالة الثانية حالة الألم النفسي لموت عزيز فإن الإنسان يجد نفسه ضعيفاً أمام الألم، ولا يقوى عن الابتعاد عنه، بل يقف يائساً أمام قوة وطغيان المصيبة التي تأكل من نفسه وحياته، ولو عدنا إلى المثال الأول الإصبع والنار لوجدنا حالات أخرى مشابهة للحالة الثانية فالدماغ قد يرسل إشارة للإصبع للابتعاد عن حرارة النار ولكن العضلة الذي تحرك اليد لا تملك القدرة على بث الحركة في اليد كي تنسحب من النار.

للأسباب النفسية هو عينه ما يمكن أنّ نقوله في أمراض الإنسان العضوية. ولكنّ الاختلاف ما بين الإصابة بالمرض العضوي والمرض النفسي يظهر في أنّ الحالة الأولى هو حالة مرضية من السهل معرفة أسبابها وعلاجها، أما الحالة الثانية فإنّ الطّب الحديث لم يتمكّن إلى الآن أنّ يحيط علماً بالأسباب أو تأثيرها أو طريقة العلاج الصحيحة والدقيقة.

إنّ الشعوب العربية تعاني في كثير من الأحيان من صعوبة في فهم ماهية المرض النفسي، ويتعاملون معه بنوع من القدح والنقص في الشخصية الإنسانية، فالفرد العربي يملك إعتزازاً كبيراً بنفسه وشخصيته لأنّ فكرة المجتمع العربي تقوم على الشخصية الفردية، لا على نظام أو دستور ما، فحركة الإنسان العربي في الحياة هي حركة شخصية ذاتية لا حركة اجتماعية، فالفرد يحاول دائماً أنّ يبني لنفسه كياناً قائماً بحد ذاته مستقلاً عن حركة المجتمع[1].

فقد بنى المجتمع العربي كيانه على الفرد الواحد في تركيبة القبيلة وتركيبة الحاكمية، وهذا ما تلاحظه ظاهراً بالاعتزاز اللّامتناهي بالشّخصيات العربية حتى وإن كانت شخصيات دموية ومجرمة، بينما يهمل التأريخ العربي التفاخر بالفكرة والأطروحة النظرية التي بنت تلك الشخصيات، وهكذا عندما تتحوّل تلك الرموز إلى أشخاص تُعبد ومحراب يسجد لها، فإنّه بالتّأكيد سوف يبقى أسير الخوف من أن يرى هنالك ما يقدح تلك الشخصية التي حافظ على إخفاء ما بداخلها عشرات السنين خوفاً من أن تظهر إلى المجتمع بحقيقتها التي هي عليها..[2].

---

(1) ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القَصَص: 78]، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ﴾ [البَقَرَة: 206]، ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ [غَافِر: 29]. أو قول المتنبي: أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي... و يقول آخر: ألّا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا.

(2) يقال أن كيسنجر كان شخصية داهية وهو الذي قاد مفاوضات فك الإرتباط في حرب 1973 ما يسمّى بالكيلومتر 101 ما بين مصر وإسرائيل وكان في ذلك الوقت مستشار الأمن القومي في عهد الرئيس نيكسون، وكان هو المشرف العام على الفصل بين القوات المتقاتلة في حرب تشرين =

كان في هذا التقرير يحمل في طيّاته الواقع النفسي للجانب العربي الذي يدور حول (الشخصية) ولا يدور حول (الفكرة) أو حول النظام أو المؤسسة، فإذا كان هنالك من تأثير فيجب عليه أنّ يكون متأتياً من خلال الفكرة المبدئية المطروحة.

إن الغربيين اعتادوا على بناء نظامهم من الكسب من خلال المؤسسة أو الشركة أو ما يسمى (Corporation) فالغربي يعتزّ بشخصيته، ولكنّ الفرق هو أنّ المجتمع الغربي ينظر إلى شخصية الإنسان من خلال نظرته إلى المؤسسة التي ترعرع فيها، أمّا الفرد العربي فإنّه يرى في شخصيته هي بحدّ ذاتها المؤسسة والدولة والوطن، وكلّما ازدادت وكبرت عوامل الفردية في الرجل كلّما ضعف الأمل في العلاج النفسي.

إنّ المرض النفسي عبارة عن حالة غير طبيعية يشعر بها الإنسان بأنّه غير قادر على القيام بالأعمال الطبيعية بحياته العادية ويمكن أنّ نعدد بعضاً منها:

- عدم القدرة على النّوم بشكل طبيعي أو النوم بكثرة ولمدة طويلة.
- شراهة في الأكل أو انقطاع شبه تام عن الطعام.
- الغضب السريع بدون أي سبب وإيذاء الآخرين.
- الابتعاد عن العائلة وعن الزوجة والأولاد.

= أو حرب العبور بين العرب وعلى رأسهم مصر من جهة وبين إسرائيل من جهة أخرى، وكادت الحرب أن تنتهي لصالح العرب ولكن دول الغرب آنذاك وخاصة أميركا كانت تحسب حساباً آخراً بشأن سياستها الشرق أوسطية لتفهمها طبيعة الصراع الدائر بين العرب وإسرائيل، طلب من مساعديه أن يقدموا له آراءهم المختلفة في كيفية إدارة الحوار مع العرب، في الوقت الذي كان كيسنجر يعلم كيفية التفكير الإسرائيلي، وقدمت اليه تقارير كثيرة كان أهمها هو الذي بنى عليه سياسته التفاوضية من أحد المحللين السياسيين، وقد سطر فيه افكاره وآراءه بعنوان (الخيمة والعصا) والذي كان ملخصه أن العرب يتحركون عادة من خلال الأفراد، وفي خيمة يجلس بها شيخ القبيلة وبيده عصا هو الذي يأمر وينهي، وعلى أفراد القبيلة إطاعته لأن المجتمع العربي تعود على أن يعطي لشخصيات في المجتمع صفة الملكية أو الربوبية فهو يربب تلك الشخصيات (و الرب معناه مالك الشيء) أنا ربكم الأعلى أي أنا مالك أمركم المطلق.

- عدم الرغبة بالعمل والميل إلى الانفراد بالنفس.
- عدم الرغبة في القيام بأيّة هوايات كالرّياضة مثلاً .
- بغض الآخرين والتي يمكن أنّ تتطور إلى روح العدائية.
- إهمال الشكل الخارجي أو الاهتمام الشديد بالشكل الخارجي.
- عدم الرغبة في ممارسة العلاقات الاجتماعية.
- التقييم المبتور للأشياء أو الظواهر.
- ضيق في التنفس أو الشعور بالإختناق أحياناً، والشّعور بأعراض ألم في مختلف أنحاء الجسم.
- الشّعور بسرعة نبضات القلب أو الشعور برجفة الأطراف.

هذا في العموم بعض عوارض المرض النفسي على سبيل العموم لا الخصوص، وهذا لا يعني أنّ الإنسان الذي يغضب سريعاً أو ذلك الّذي لا ينام بشكل طبيعي أو الذي يحبّ ذاته بشكل كبير هو مريض نفسياً، وإنّما المريض نفسياً هو ذلك الشخص الذي تراه يركن إلى نفسه وإلى قلّة الكلام، وقلة أو كثرة النوم كالّذي يصاب بالانفلونزا أو كالذي يصاب بالقرحة المعديَّة فهو يعاني أيضاً من قلّة الأكل، مع الشعور بآلام كثيرة، فلا يمكن إذاً أن نحصر المرض النفسي في صفة أو صفتين، وإنما اختلاف المريض النفسي عن المريض المصاب بمرض عضوي هو أنّه لا يملك القدرة على تشخيص ما يعاني منه، بينما لا يعجز المصاب بالزكام أو بحرقة المعدة أن يحدّد ما به، وهنا تتأتّى خطورة المرض النفسي حيث أنّ إدراك المريض لنفسه تكاد تكون مستحيلة أو نادرة على أفضل التقادير، وكلّما تقدم العمر بالمريض الذي لا يعلم بمرضه كلّما تعمقت جذوره في النفس وصعب عندئذ العلاج.

يبدأ المرض النفسي بحادثة ربما تكون بسيطة أو صعبة وذلك حسب طبيعة الإنسان، فبعض المرضى الذين التقيتهم كان متألّما لعدم وجود عدالة في العالم، وما كان يزيد من ألمه أنّه باعتقاده لا يمكن لنا أنّ نحقّق تلك

العدالة، وأنّ الطبيعة مخلوقة من غير عدل باعتبار أنّ الكبير يظلم الصغير والقوي يحيف على الضعيف.

ويمكن أنّ يحصل المرض النفسي بسبب وفاة قريب أو عزيز أو في حالة ظلم حاكم لشعبه، أو حالة طلاق تتعرض لها المرأة فتعجز كلّ تلك الضحايا على تحمل الألم والظلم فيصابون بالانهيار النفسي بأشكاله المتعدّدة وبالتالي بمرض عصبي يطول أحياناً كثيرة علاجه.

هذه الحالات تؤدّي إلى حدوث جرح في النفس البشرية، ويتأثّر الفرد من ذلك الألم مما يؤدي في بعض الأحيان إلى الإصابة بمرض نفسي ممّا يؤدّي إلى ظهور عنصر أو عناصر جديدة بيولوجية أو كيمياوية في داخل الجسم، فالإصابة بالانفلونزا يعني إفراز الفيروسات المرضية سمومها في الدم وقيام الجسم بمقاومتها من خلال جهازه الدفاعي المناعي، وأثناء تلك المقاومة يتسرب إلى الدم ناتج غريب جديد على كيمياء الدم الذي يتأثر به ويتأخر عن أداء دوره في نقل الاوكسجين والغذاء إلى كافة أنحاء الجسم، وعندما يقل الغذاء والاوكسجين في الدم يشعر الإنسان بألم سواء أكان ذلك الألم موضعي مثل أوجاع العضلات ثم شيئاً فشيئا يتحول إلى ألم عام في كل أنحاء الجسم بسبب وجود تلك التركيبة الكيمياوية الغريبة التي دخلت إلى مجرى جهازه الدموي ..

اما إذا أصيب بالمرض النفسي فإن مسببات المرض ونتائج مقاومة تلكم المسببات من قبل الجهاز المناعي للجسم تبقى نتائجها الكيمياوية تدور في مجرى الدم كل ثانية من ثواني حركة انتقال الكريات الحمراء، مع تعطل بنسب مختلفة في وظائف الدم مما ينعكس على الإنسان وقدرته في القيام بأمور حياته اليومية العادية المختلفة، حيث يصبح إنساناً متعباً تعاني عضلاته وخلاياه ودماغه بالتعب المستمر وذلك بسبب تغير التركيبة الكيمياوية لجهازة الدموي أو المناعي أو العصبي من جرّاء الإفرازات التي تُفرز من قبل الأجهزة التي تحاول إعادة التركيبة البيولوجية والكيمياوية إلى وضعها العادي، وهو ما

يظهر سلبياً على شكل أعراض متنوعة على سلوك الإنسان ونظرته إلى الحياة وإلى العائلة وإلى الأشياء التي من حوله كأي مرض آخر من فئة الأمراض الجرثومية أو الأمراض السّرطانية أو العضوية[1].

إنّ المشكلة التي تواجه المريض النّفسي -كما ذكرت- هو عدم معرفة المريض بحقيقة مرضه، فالكثير من أفراد المجتمع العربي يعتقد بأنّ تلك الأعراض ما هي إلّا ردود فعل لمرض عضوي خفي، أو إصابة في الجهاز الهضمي أو الجهاز البولي أو أيّ جهاز داخلي آخر. وهو في الحقيقة لا يعاني من تلك الأمراض بل يتهيأ له وجود شيء ما، وهو ما يدفعه إلى زيارة الطبيب ليشكو له الألم في اجهزته تلك من خلال الشعور الذي ينتابه في ألمه في تلك الأماكن وكأنّه فعلاً مصاب بمرض عضوي، وهنا يصف الطبيب بعض الأدوية المسكنة للآلام وبعد فترة لا يشعر الفرد بأيّ تحسّن فيظلّ يعتقد بوجود خطب ما به فيبدأ بالتنقل من طبيب إلى آخر عساه يجد الشفاء من حالته (النفسية).

فإذا شاءت الأقدار وأنّ التقى الطبيب المناسب القادر على التشخيص النفسي الدقيق فإنّه سوف يعالجه كمريض نفسيّ مع الصّعوبة الكبرى في إقناعه بحقيقة مرضه، وذلك لأنّ الإنسان العربي لا يستطيع أن يتقبّل تلك الفكرة، بل يرفض أي شيء يمسّ بشخصيته أو عقله ويرى أنّ المرض النفسي بحدّ ذاته عيباً ومنقصة منه ومن عقله وحتّى من رجولته.

أمّا في الغرب فيتعاملون مع المرض النفسي كأيّ مرض آخر، فلكلّ فرد تقريباً طبيب نفسي يلجأ إليه عند الحاجة، وبين فترة وأخرى متى ما يشعر الشخص بعدم الراحة من جرّاء ضغط العمل أو ضغط الحياة المادية أو الوضع المالي أو العائلي. وربما من أكثر الأشخاص إلتزاماً بزيارة الطبيب النفسي هم الأشخاص أصحاب القرارات في المؤسسات الكبيرة وفي المؤسسات العسكرية والتربوية والشركات الكبرى ومدراء البنوك لأنهم

(1) (http://ar.wikipedia.org). مادة الاضطراب النفسي

يعلمون تمام المعرفة أنهم مسؤولون عن اتخاذ قرارات مهمة ومصيرية ويجب أنّ يكونوا دائماً مرتاحي البال وفي وضع ذهني صاف ومتزن، ولا يجد أولئك الأفراد أنه من العيب أنّ يعرف مَن حولهم أنهم على موعد اليوم أو غداً مع طبيبهم النفسي، لأن الجانب الصحي في جميع مقاييسه من أهم الأمور التي يجب على الإنسان أنّ يهتم بها بالاضافة إلى الجانب التجاري والعملي أيضاً.

والرّجل الغربي الذي يحترم شخصيته يرى بأنّ السّعادة الحقيقية هي سعادة النفس الدّاخلية والرّاحة الذهنية وصفاء العقل والفكر، والعذاب الذي يشعر به الإنسان ما هو إلّا عذاب النفس الدّاخلية، لذا فالمرء يجب أنّ يحترم نفسيته وشخصيته كي يبتعد بهما عن طريق الضياع والألم من خلال دوام مراقبة الجانب الطبي للنّفس من خلال الطبيب المتخصّص (Psychatrist).

أمّا في بلداننا العربية عموماً فإنّ الإنسان العربي يتحسّس من الاطبّاء النفسيين، ولم ألحظ في بعض البلدان العربية التي زرتها ظاهرة الإهتمام بالجانب النفسي، وما لاحظته في بلدي الأم العراق الكثير من الضغوط والأمراض النفسية ومردّها بالتّأكيد إلى حالة الاضّطهاد والظّلم والدّيكتاتورية البشعة التي رزح تحتها المجتمع كلّه، وقد أحدثت تلك الأمور المؤلمة جروحاً عميقة في نفوس أبناء العراق الطيبين، فلا تجد بيتاً من البيوت لم يفقد عزيزاً أو أعزّاء، أو سجن أو إعدامات أو اختطافات واختفاء لأشخاص عديدين، ناهيك عن تلك المقابر الجماعية الكثيرة التي انتشرت في كلّ أنحاء العراق والتي وصلت أعدادها إلى أكثر من خمسمائة مقبرة، والعدد في ازدياد.

ولقد كنت دائماً أقول في مؤتمرات حقوق الإنسان التي كانت تعقد في الغرب، أن من مسؤولية العالم بأجمعه الاهتمام بالشّعب العراقي، لأنّ هذا الشعب قد عانى الكثير، وما من شعب على هذه الأرض قد عانى مثل ما عاناه من مآسٍ وظلم واضطّهاد خلال الثلاثين سنة الماضية، وكنت دائماً

أدعوهم إلى القيام بواجبهم تجاهه وإنقاذه من ألم النفس والفكر والعقل الذي يعاني منه.

وعندما زرت العراق في سنة 2004 فوجئت بما وجدته من أمراض نفسية مستوطنة في نفسيات من عرفتهم وتعاملت معهم، وجدت تلك الأمراض مستعصية بعضها عمرها ثلاثين سنة، وبعضها الآخر عشرون سنة وهكذا. وعندما حاولت أنّ أستفهم من بعض المثقّفين العراقيين وأصحاب الاختصاص في العلوم الطبية فيما إذا كانوا يدركون أيّ خطورة يمر بها هذا الشعب، وأي مستقبل ينتظر أبناءه من جرّاء هذا الوضع النفسي... ولكنّني فعلاً خاب ظني واكتشفت أنّ المشكلة التي هي من أعمق وأخطر المشاكل والتي لم ينتبه لها الأخصائيون ولم يشيروا إليها في علاجاتهم، وكانوا يردّون ذلك بالقول بأنّ هناك ما هو أكثر صعوبة من المرض النفسي هنالك القتل الجماعي، الإرهاب الذي جاء من الخارج ليجد هنا أرضاً سهله للقتل والدّماء.

وجدت أصدقائي وأقاربي والمعارف والجيران بحالة يُرثى لها، وقد أكلت الهموم حياتهم وتمكّنت الحالات النفسية من شخصاتهم ومن سلوكياتهم التي انعكست سلبياً على بناء الوطن وعلى نسيج المجتمع.

كيف نستطيع معالجة المرض النفسي، وعلى وجه العموم... ؟

لست هنا في مقالتي هذه أحاول إلقاء محاضرة طبية أو أن أصف علاجاً دوائياً ولكنّني أرمي من كلّ ذلك وأطمح في أن يشارك الجميع في تفهّم العلاج النفسي لمجتمع يحتاج إلى خلق روح تكافلية واجتماعية في مساندة أحدهم للآخر لأنّه أحد الجوانب المهمة في العلاج الذي يدعو إليه المختصون العلميون.

وطرق العلاج النفسي كثيرة من أهمّها: الطريقة الفسيولوجية، وهي السّيطرة على نسبة الهرمونات المسبّبة للألم النفسي[1] التي تفرز من الدماغ

(1) يعتقد حسب التجارب العلمية إنّ أهمّ الهرمونات المسببة لهذا الاضطراب هي: =

ويتفاعل معها الدم بصورة يفهم منها إنّها حالة اضطراب، وعليه فإنّه يجب على أجهزة الدم الجسم المناعية أن تعمل بشكل حثيث للتخلّص من مشكلة تلك الاضطرابات، ولتحقيق هذا المفهوم هنالك كما ذكرت اتجاهات أربعة في الموضوع:

❖ الطريقة الأولى: هو العلاج الروحي الذي يشتمل على تقوية الذات ورفع معنوية القوى الداخلية التي يملكها الإنسان، وكي يتمكّن المرض النفسي من مهاجمتها وتحطيمها والتخلّص منها، وهذا يتمّ بخلق بيئة روحية دينية كانت أم معنوية من خلال ربط الإنسان بالقيم الشعبية التي يؤمن بها أو بالقيم الدنيوية التي يرنو إلى تحقيقها، وعندما يعيش الإنسان مصيبة ما أو تختلج ذاكرته فكرة أو أفكار فإنّ ذلك يحفّز مراكز إفراز هرمون الأذى النفسي على الإفراز بعكس إذا ما ابتعد الإنسان عن المؤثّرات التي تؤلمه وذلك بسلوك تفعيل القوى الروحية أو المبدئية الدّاخلية.

❖ الطريقة الثانية: هو الرياضة العنيفة كرياضة الرّكض، و السكواش، و كرة القدم... الخ، والرياضات هي التي تحفّز الجسم على استهلاك طاقة كبرى غير الطاقة الموجودة في المعدة والدّم، وهو بذلك يدفع الجسم إلى تناول تلك الهرمونات وتكسيرها ثم رميها مع الإفرازات الأخرى.

❖ الطريقة الثالثة: هو الصّوم المستمرّ لا الصّوم الاسترخائي، فالصّوم يقوم تماماً كما تقوم التمارين الرياضية، وهو تحفيز الجسم على التوجّه إلى تلك الهرمونات وتكسيرها والتخلص منها.

❖ الطريقة الرابعة: الاستعانة بالكيمياويات، أيّ بالأدوية التي يأخذها الإنسان لتقوم بتكسير تلك الهرمونات[1]. ولكنّ المشكلة أنّ لهذه الأدوية

= Norepinephrin، Serotonin، Dopamine، Acetylcholine، CRH وغيرها من الأمور التي من الممكن معرفتها من خلال الطبيب المتخصّص.

(1) وأشهرها كما نعلم ال(Flouoxetine) أو كما يسمى الحبّة الزرقاء (Prozac) من صنع شركة Lilly في حقبة السبعينيات، والذي كان آنذاك اكتشافا علمياً ضخماً صار بعد ذلك =

تاثيرات جانبية كثيرة على الإنسان بعضها معروف وبعضها غير معروف ربما يكتشف في المستقبل أو يبقى في طيّ الكتمان.

هذه في المجمل أهمّ نقاط العلاج للمرض النفسي الذي يصيب الإنسان والذي يحاول الطبيب المعالج أنّ يستعملها كلّها في علاج المرضى، وإذا لم يتمكّن الطبيب من إقناع المريض بالطّرق الثلاثة الأولى غير الطريق الكيمياوي فإنّه يضطّر عندئذ الإلتجاء إلى الحلّ الأخير مع مراعاة مسيرة العلاج بشكل قريب خصوصاً في الأسابيع الثلاثة الأولى من مسيرة العلاج.

إنّ الأمراض النفسية متعدّدة ومتنوّعة تبدأ بحالة من حالات الضغط النفسي الخفيف وتنتهي بالشعور في الانتحار والتخلّص من الحياة، فإذا لم يعالج المريض النفسي منذ البداية وبقيت ظروف الإثارة كما هي فإنّ المرض سيتفاقم ويتحوّل إلى (كآبة) ثمّ يتطوّر أكثر وأكثر حتى ترى الإنسان المريض يفكّر بالإقدام على الانتحار ليس ضجراً بالحياة دائماً، وإنما لقناعته بأنّ هنالك حياة أفضل من هذه الحياة كما توحي له أفكاره وطريقة فهمه للحياة التي تستند كلها على أوهام وتصوّرات[1].

= من أهم وأكثر الأدوية إستعمالا في العالم. وكذلك Moclobomid، Sertaraline، Cetaloprime، ...Imipramine الخ.

(1) نسبة الانتحار في العالم، منتحر كل نصف دقيقة، أعداد الأشخاص المقبلين على الانتحار على مستوى العالم مذهل، حيث يقدم 10-20 مليون شخص على الانتحار سنوياً يفلح منهم مليون في محاولاتهم. وقد زادت نسب محاولات الانتحار الناجحة في الخمسة واربعين عاما الماضية بنسبة 60% سواء في الدول المتقدمة أو النامية. وفي خلال تلك الـ 45 سنة تغيرت أعلى النسب من كبار السن إلى مراحل عمرية أقل سنّا حتى أصبح الانتحار من أهم خمسة أسباب للوفاة بين رجال ونساء المراحل العمرية الأقل، أعلى نسب للانتحار على مستوى العالم توجد بدول الاتحاد السوفييتي السابق؛ حيث توجد أعلاها على الإطلاق بين رجال ليثيوانيا بنسبة 73,7 لكل 100،000 رجل، أما بين النساء فأعلى نسب للانتحار توجد في الصين بنسبة 17,9 لكل 100،000 أمرأة، أما ما بين الدول العربية التي يوجد لها إحصائيات رسمية في هذا الشأن فتوجد أعلى النسب في البحرين بنسبة 4,9/ 100000 رجل، ما بين 6-15% من مرضى الاضطرابات النفسية -خاصّة الاكتئاب- يقدمون على الانتحار، بالإضافة إلى 7-15% من مدمني الكحوليات و4-10% من مصابي انفصام الشخصية =

وعندما يصاب الإنسان بالمرض فإنّ تفكيره ونظرته إلى الحياة تتبدّل فيعتقد الخير شراً والشر خيراً، بل قد يتذوّق الطّعام أحياناً بما هو معاكس لطعمه الأصلي كذلك يرى الناس بصور مختلفة. فأنت أحياناً قد تستغرب لصديق لك قريب قد تحوّل إلى عدوّ وقد ضمر لك الحقد وصار همّه في كيفية التخلّص منك.

إنّ تحليلات الإنسان المريض غالباً ما تتحوّل إلى سوداوية، وهكذا ينعكس الأمر على جوانب الحياة المختلفة في الاقتصاد والسياسة والتعليم والعائلة وما إلى ذلك في الوقت الذي يصعب على المجتمع أن يتبين السبب في كلّ ذلك بل يعتقد الغالبية الكبرى من الناس بأنّ تلك التصرّفات هي تصرّفات صادرة من إنسان عاقل وعليه فإنهم يجب أنّ يردوا على اعتداءاته أو تصورّاته من منطلق فهمهم لهذه النقطة، في الوقت الذي كان يجب على المجتمع بل عليه هو المريض أو من يحيط به من عائلته أنّ تميز منذ البداية

= Schizophrenics، كما أظهرت الدراسات الحديثة التي تمت على الشباب المنتحرين أنّ 20-50% منهم كانت لديهم اضطرابات في الشخصية متمثلة في الاضطراب الاجتماعي للشخصية Antisocial personality disorder والشخصية المتكلّفة والشخصية النرجسية وبعض الصفات الشخصية مثل الاندفاع والعنف. هذا بالإضافة إلى زيادة نسب الانتحار بين المصابين باضطراب الذعر والمصابين باضطرابات التغذية مثل فقدان الشهية العصبي Anorexia nervosa والشره المرضيBulimia. المطلقون والأرامل والعزاب أيضاً أكثر عرضة من المتزوجين للإقدام على الانتحار، حيث يبدو من الدراسات أنّ الزواج يحافظ على الرجال خاصة من خطورة الانتحار وعلى النساء بدرجة أقل. معلومة قد تبدو طريفة وغريبة في نفس الوقت هي أنّ هناك بعض المهنيين أكثر عرضة لخطر الإنتحار مثل الأطباء البشريين والجراحين البيطريين والصيادلة وأطباء الأسنان والفلاحين... ويقول تقرير منظمة الصحة العالمية: إنه لا يوجد أية أسباب واضحة لهذه الظاهرة العجيبة إلّا أنّ سهولة الحصول على مواد قاتلة وضغوط العمل والانعزال الاجتماعي والمشاكل المادية قد يكون لها علاقة ما بهذه الظاهرة، آخر العوامل التي قد تزيد خطورة الانتحار لدى بعض الأفراد حسب ورودها في تقرير منظمة الصحة هي البطالة والغربة بسبب الهجرة وسهولة التوصّل لطريقة لقتل النفس وكثرة الضغوط النفسية، تقرير آخر يشير إلى أنّ 30% من حالات الانتحار عامة للشواذ جنسيا، كما أنّ إدمان المخدرات قد يشوّش الإدراك مؤديا أيضاً إلى الإقدام على الانتحار. راجع مادة (Suicide) على الموقع الاكلتروني: (www.wikipedia.org/wiki/Suicide).

بأنه مصاب بالمرض النفسي وأنّ تصرفاته ليست محكومة بالعقل وعليه فإنّنا بدلاً من أنّ نردّ الصّاع له صاعين علينا أنّ نعينه في التخلص من المرض.

والإنسان عندما يعاني من هذه الظاهرة وفي وضعه الاجتماعي فإنّه يميل إلى إخفاء شخصيته عن الآخرين ويتظاهر بعكس ما يشعر به داخلياً فإذا كان يكره فلان فإنّه يظهر له العكس حتى لا يُتَهم بالعدوانية أو الدّونية، بينما تجده يعمل جاهداً على محاربته بالخفاء والسّر لتحطيمه لا لسبب إلّا لأنّه يحمل في داخله عقدة مرضية، إنّ هذا النوع من الأشخاص المصابين بالمرض النفسي يبحثون وبجد عن متنفس لما يغلي في داخلهم من بغض للآخرين (بدون شعورهم) ويتمنّى في أعماقه أنّ يمارس الإنتقام... والإنتقام من كلّ شي حوله، فإذا لم يجد هنالك متنفس لذلك فإنّه يتوجّه إلى أقرب الناس إليه زوجته خصوصاً، أولاده، جاره، العاملين عنده من الموظّفين، فإذا لم يجد هؤلاء أو أنّ هنالك ظروفاً تمنعه من ممارسة سلطته هذه، فعندئذ تتحول تلك القدرة العصبية في داخله إلى كره لنفسه ولذاته، ولا يمانع في أنّ يجد هنالك أجواء تقوده إلى أنّ ينتقم من نفسه بالإنتماء إلى إحدى المنظمات المسلّحة والإرهابية ومنظمات التعذيب والإرهاب والإختطاف والقتل وغيرها من المجالات المحاطة بالعنف ضمن أسماء ومسمّيات مختلفة أحياناً تتبرقع بالديمقراطية طوراً وتتلبّس بالدين وبالوطنية طوراً آخرَ.

لقد أجريت أحصائيات كثيرة في العالم حول الجريمة ومنشئها في عقل الإنسان، فوجدوا أنّ الدافع الأساسي لروح الجريمة لدى مرتكبيها ما هو إلّا العامل النفسي الذي يمرّ به الإنسان بسبب ظروف غير طبيعية في حياته حيث تتجمّع تلك الظّروف بشكل تراكمي وتتحوّل وبمرور الوقت إلى عبء ثقيل ينوء به الإنسان ويشعر أنّ عليه أنّ يحط تلك الأحمال يوماً ما بعمل ما من خلال التنفيس الذي توفره الأحداث لمجتمع شارك في صنعها وبذلك يبحث ذلك المجرم عن ما يريحه من هذه المشاكل بالإنتقام من الآخرين الذين حوله.

لقد كنت أشعر وقبل أنّ أتوجّه إلى العلوم الخاصة بهذا المجال من الناحية الدوائية بأنّ المقالات القديمة التي نقرأها أو نسمعها عن الأشخاص

الذين كانوا يتلذّذون بمنظر القتل والدماء أنها نوع من المبالغات التي تعوّدت اللغة العربية في تقديمها كنوع من مسيرة اللغة في تضخيم الحادث.

فكنت آنذاك وعندما تروى حادثة ملك أو خليفة وضع رأساً لولي من الأولياء بعد أن فصله عن جسده أمامه في مجلس وجلس يحتسي شرابه مع الآخرين من الندماء الذين أحاطوا به احتفاءاً بهذا المنظر الذي يبدو مريحاً للأعصاب بالنسبة اليهم، كنت أرى في ذلك مبالغة أو أنّها نوع من خيالات الرواة، وعندما تقدّمت السنون وتعمقت أكثر في هذا المفهوم وبعد أن اطلعنا على جرائم عالمية، وجدتها صورة ليست بالمستبعدة وخصوصاً أنّ الجرائم الموثقة التي شاهدناها في عصرنا الحالي أكدت بعض الروايات القديمة في حدوثها وصحّة واقعيتها، وكانت تلك الجرائم الموثّقة التي حدثت في القرن الحالي وأوآخر القرن الذي سبقه قد شاهدها آلاف من الناس بأمّ أعينهم وهم لحدّ هذا اليوم لازالوا شهوداً يمكن استنطاقهم مجدداً إذا أحبّ البعض[1].

والشيء الذي أريد قوله في هذا المجال أنّ الإنسان عندما يعيش في ظرف نفسي بيولوجي كالذي تكلمنا عنه سابقاً فإننّا لا نتوقع منه إلّا الاشياء التي تؤذي المجتمع ونفسه.

إنّ نصيحة الأطباء إلى الفرد المريض أنّ يبقى تحت العلاج السريري والدوائي حفظاً لسلامته وسلامة المجتمع الذي يعيش فيه، والّا فإنّ عواقب السيطرة على ذلك النّوع من الشخصيات وفي أيّ مرفق من مرافق الحياة

(1) ففي حروب العراق التي شنت روى لي الكثير الأطباء الذين رافقوا مجريات الحروب بحرق أسارى وهم أحياء وقتل بعضهم بطرق لا تكاد تصدق لعقل بشر سوي، ولم تقتصر تلك الصورة على تلك الحرب وعلى الجانب الشرقي من الكرة الأرضية، وإنما شمل أناساً غربيون مثل الحادثة التي قتل فيها الشاب الصومالي بعد تعذيبه والتمثيل به من قبل جنود كنديين أثناء دخول القوات الكندية في التسعينيات ضمن ما يسمى بقوات حفظ السلام وتكررت الحالة مرات ومرات في مناسبات أخرى مثل حادثة سجن أبو غريب، حوادث راوندا، وبروندي،حوادث سبرينستا في البوسنة... الخ. ممكن مراجعة التقرير الأمريكي حول سجن أبو غريب: (www.en.wikipedia.org/wiki/Abu_Ghraib_torture_and_prisoner_abuse).

يعرض الآخرين إلى الأذى والألم بل ربّما للموت والدمار، فلقد أثبتت التقارير العلمية والطبية بأنّ هتلر كان مريضاً، وكان يعاني من مشاكل نفسية كثيرة أدّت به أنّ ينمو وينشأ وهو يحمل في داخلة قوة هائلة على تحطيم من حوله، وهذا ما دعاه إلى القيام بحرب عالمية كبرى راح ضحيتها ملايين من البشر، وقد أظهرت التقارير للقادة العرب الذين سقطوا فيما بعد 2003 وإلى أن انفجر الربيع العربي بأنّ المرض النفسي هو من أهمّ الدوافع التي كانت السّبب في المذابح التي مارسوها ضدّ شعوبهم إلى أنّ وصلت المقابر الجماعية إلى حدّ أذهل العالم في نوعية الوحشية والقساوة.

وفي الولايات المتحدة وفي أوروبا بشكل عام يلزم القانون الأمريكي الرئيس وبقية اعضاء مجلس الكونغرس والشخصيات المهمة في الجيش الأمريكي أن يعرضوا انفسهم على طبيب نفسي متخصّص، وهذا لا ينطبق على المراكز الحكومية فقط، وإنّما ذلك يطبّق أيضاً في مراكز الشركات الكبيرة العملاقة التي تتوقّف أرباحها على نوعية القرارات التي تُتّخذ من قبل المديرين والمتنفّذين بها، فقرارات الإنسان في الحياة هي نتاج استقرار الرّوح والصّحة والنفس، فالمريض لا يكوّن خارجه إلّا نكدا، وبالعكس تكون قرارات صاحب النفس القوية الثابتة الخالية من العقد والأمراض الاجتماعية صحيحة وسليمة[1].

إنّ الأطباء المتخصّصين في الأمراض النفسية يمتلكون قدرات عالية في تشخيص المرض النفسي من خلال حركة الشّخص المريض أو من خلال كلماته أو تصرّفاته أو كتاباته أحياناً حيث يمكن من خلال ذلك أنّ يضع اشارة

(1) هناك الكثير من المشاهير الذين أصيبوا على الأقل بنوبة واحدة من نوبة الاكتئاب الكبرى وتلقوا علاجاً دوائياً لهذا الغرض، ومنهم على سبيل المثال: ونستون تشرشل، جورج و. بوش، هاريسون فورد، إبراهام لينكولن، إسحق نيوتن، لودفيج بيتهوفن، نابليون بونابرت، فان غوخ، إرنست همنغواي، ريتشارد نيكسون، سعاد حسني، مارلين مونرو، امينم، ديفيد بيكهام، بريتني سبيرس .. وآخرون كثيرون ممن سمحوا لطبيبهم في أن يبينوا حالاتهم إلى الناس (المصدر السابق على موقع ويكيبيديا الاضطراب النفسي).

أو إشارات ما تشير إلى أنّ صاحب هذه الحركة أو هذا الوجه أو هذه الكلمة مصاب بنوع من المرض النفسي الذي يتطلّب تدخلّاً طبياً لعلاجه، ولولا إن كانت المعلومات الطبية للأفراد تعتبر في القانون الطبي العالمي نوعاً من الخصوصيات التي يحرّم على الطبيب البوح بها أو كشفها إلّا لصاحب العلاقة لنقلت لكم في هذه العلاقة العجب العجاب عن أسماء من وقتنا الحالي كانت الشعوب العربية ولا زالت تلهمها وترفعها إلى مستويات عالية.

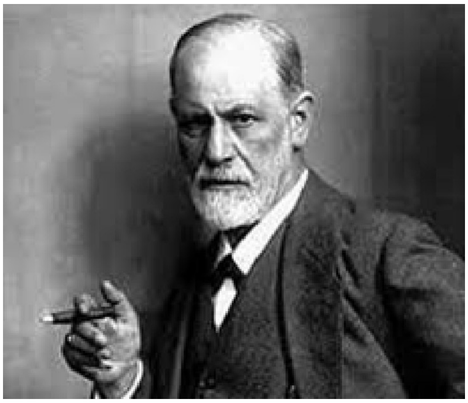

مفهوم الجنس

تأتي الغريزة الجنسية في المرتبة الثانية بعد غريزة حبّ الذات أو النفس، وهي دون أدنى شك من أقوى الغرائز الإنسانية سيطرة على حياة الإنسان، ويرى علماء النفس والاجتماع أنّ هذه القوّة هي من أهمّ القوى التي تتحكم بسلوك الناس وحركتهم وعلاقاتهم مع بعضهم البعض، ويناقش موضوع الجنس في محافل عديدة ويكتب فيه قصص وكتب عديدة ويتصدّر بعض الأفلام الغربية بشكل عادي وطبيعي.

وحتى أنّنا نجد هذه الظاهرة الآن في بعض كتبنا أو قصصنا العربية، إذ نلمس تلك الظاهرة في أدبنا العربي القديم في المعلّقات وكتب القدماء من العرب والكتب الروائية التي تتحدّث عن روايات صدر الإسلام، ولكن ليس على هذا النحو الذي نجدها عليه اليوم، إنّ هذه القوة التي تتحكم ببني البشر هي قوّة فطرية وضعها الله عزّ وجلّ في نفوس العباد كقوّة حبّ الذات، وحبّ النفس، وحبّ الراحة والمال وغيرها من الغرائز التي وضعها الله فينا.

ماذا نعني بالغريزة...؟ وما هي الخلفية البيولوجية للغرائز...؟

إنّ الإنسان مخلوق وهذا المخلوق عبارة عن ماكينة تتحرّك ضمن نطاق حاجاته ومتطلباته، فالغذاء حاجة ولولا حاجته للغذاء لما أكل الإنسان، وهو لا يعلم في ذات لحظة ممارسة عملية الأكل مصير ذلك الذي أكله، ولو فكّر للحظات فسوف لن يأكل أبداً (من كان همته بطنه كانت قيمته ما يخرج منها)... ولكنّ ما هو الدافع الذي يجعل الإنسان يجوع ويريد أنّ يأكل متناسياً تبعات عملية الأكل بكلّ تعقيداتها ...؟[1]

---

(1) الجوع هو الإحساس بالحاجة إلى الطعام ويسيطر على العملية هو غدة (الهيبوثلامس) =

والقوة الجنسية عند الإنسان لا تختلف ميكانيكياً عن غريزة الإحساس بالجوع فتستثار الحواس الخمس ويستثار الإحساس والتفكير بمجرّد أنّ يتصور الإنسان مائدة مليئة بكلّ ما لذّ وطاب، والميل الجنسي يحمل نفس الصفات ونفس المسيرة الميكانيكية،[1]

والحاجة الجنسية ما هي إلّا غريزة وهبها الله لكلّ البشر والمخلوقات لتؤدي مهمتها السامية لحفظ البشرية من الإنقراض، فلولا هذه الغريزة وهذا الميل لما كان هنالك إنسان على هذا الكوكب، ولتوقّف النّسل وعمارة الأرض وتوقّفت الحياة... بمعنى آخر إنّ الإنسان في حياته الغريزية ما هو إلّا عبدٌ لها، أي إنّه مسيّر بقوّة الغريزة التي يُعبر عنها أحياناً بأنّها (الحيوان)[2] والتي تسيطر عليه لا فقط على مجال الميل الشهوات وانّما تؤثّر على عقله من الناحية البيولوجية والسلوكية.

فقد خلقت السماء هذه الغرائز تسير بصورة متناسقة ولا يمكن الاستغناء

= وينشأ عن طريق مستقبلات في الكبد، ويبدأ إحساس الجوع بعد آخر وجبة بساعتين ويعتبر شعور غير مريح وينتهى إحساس الجوع بتناول الطعام، عندما يأكل الكائن الحي فإن الخلايا الدهنية تزيد إنتاج هرمون (اللبيتين) مما يؤدى إلى ارتفاع مستواه في الدم مما يقل إحساس الكائن الحى بالاحتياج للطعام وبعد ساعات من التوقف عن الطعام فإن نسبة الهرمون تقل بطريقة كبيرة مما يؤدى إلى ارتفاع نسبة هرمون (الجيرلين) والذي بدوره يعيد الإحساس بالحاجة إلى الطعام، تحدث تقلصات في المعدة بعد آخر وجبة بمدة تتراوح بين 12-24 ساعة ويستمر التقلص الواحد مدة تصل إلى 30 ثانية وتتلوه آلام الجوع لمدة 30-45 دقيقة ليختفى بعدها الجوع لمدة 30-150 دقيقة، ويؤدى الإحساس بالمشاعر الأخرى مثل الغضب والفرح إلى تبسيط الإحساس بالجوع ويزداد الإحساس بالجوع كلما نقصت نسبة السكر في الدم، وتصل آلام الجوع إلى أقصاها بعد 3 -4 أيام ثم تضعف بعد ذلك ولكنها لا تختفي وتقلصات المعدة تكون أقوى في السن الصغير من الشيخوخة.

(1) يتميز الدافع الجنسى بأنّه يسعى إلى الإشباع الجنسى ويتّجه غالباً لعدة شركاء، ويرتبط الدافع الجنسى بهرمونى الأستروجين والأندروجين وعند الإنسان يقوم هرمون التستوستيرون بدور رئيسى فى الرغبة الجنسية عند كل من الرجال والنساء، وتظهر دراسات باستخدام الرنين المغناطيسى الوظيفى أنّ الإثارة الجنسية عند الإنسان ترتبط بنشاط فى شبكات عصبية محددة فى الدماغ، ومن بينها غدتي هيبوثالموس، أميجدالا.

(2) أي خارج نطاق السيطرة الواعية المسؤولة.

عن أيٍ منها، لأنّ الاستغناء عنها يؤدّي إلى الاختلال البيولوجي والوظيفي في تركيبة الحياة.

والغريزة الجنسية ولدت الغريزة الاجتماعية والعائلية وولدت الغريزة الخاصة بالأبوّة والأمومة وما تسبقها من معاشرة وزواج ومسؤولية، ولولا هذه الغريزة الخارجة عن إرادتنا لما أحست المرأة بغريزة الأمومة وحبّ الأطفال، فالميل الجنسي غريزة تحّددها هرمونات تفرزها الأعضاء التناسلية عند الرجل والمرأة على حدّ سواء، مع الاختلاف في المصدر وفي الطريقة الميكانيكية لعمل تلك الهرمونات، وإذا زاد هذا الهرمون ازدادت رغبة الإنسان نحو الآخر، وكلّما قلّ الهرمون انعدمت الميول الجنسية وماتت الغريزة كما هو الحال ما قبل البلوغ.

وقدرات هذه الميول الجنسية لا حدود لها وهي من الغرائز القاتلة التي تدفع الإنسان إلى ارتكاب أفظع الجرائم سواء أكان ذلك بالحرمان أم من عدمه، أم من زيادته، ولعلّنا في وقت آخر نوضح كلّ مفهوم من تلك المفاهيم ماذا تعني بالمقياس الاجتماعي للإنسان، وعندما يفرغ الإنسان من اشباع رغبته تجده خال تماماً من أيّ ميل للجنس، ولكنّ لفترة قصيرة من الوقت، كما لو أنّه وهو جائع فإنّه ينظر إلى إسم أو رائحة الطعام على أنّها منبّهات حتى بدون رؤيته، ولكن متى ما شبع فإنّه لا يشعر بأيّ ميل أو تفاعل مع كلّ ما يقال عن الطعام، بل أحياناً تتكفئ نفسه عن ذلك ويشعر بغثيان فيتركه جانباً حتى يجوع ثانية في حالة غير واعية تتحرك خارج حدود الذات، فميول الإنسان الفطرية اللاإرادية معظمها تندرج نحو هذا المثال خصوصاً في مجال الطعام والجنس وبقية أمور الحياة، مع أنّ الصعوبة كلّ الصعوبة في الشعور بنتائج أو بطعم الشبع وأنت في حالة الجوع .

وكذلك الجنس يسير على نفس المنوال في الرّغبة التي تصبح قاتلة بل مدمّرة للإنسان في حالة استفحالها، ولكنّها تموت تماماً متى ما خرجت الهرمونات المسؤولة عن تلك الشهوة إلى خارج الجسم، ويتجدّد النشاط بتجدّد الحافز للهرمونات داخل جسم الإنسان، فلو افترضنا اننا أعطينا الإنسان

بعض العقاقير الكيميائية التي تعادل في تأثيرها هرمون الجوع أو هرمون الجنس فأن ذلك الفرد سوف يشعر بالميل نحو الطعام أو الجنس، والعكس صحيح عندما يتمّ إيقاف إفرازات الهرمونات إلى الجسم فإنّ الإنسان لا يشعر بحاجته إلى الجنس[1].

وعندما جاء الإسلام وانتشر بين القبائل العربية في الجزيرة وخارجها حرص على تقنين تلك الغريزة الجامحة فسنّ قانون الزواج ووضع لها حدوداً وضوابط وقواعد ممّا سهل للرجل وللمرأة إشباع حاجاتهما الجنسية في نطاق تلك القواعد والحدود[2].

إنّ دراسة الشهوة الجنسية ومعالجتها بأفضل الطرق قضية مهمّة تحتاج إلى دراسة معمّقة من قبل الدّول كافة وخاصة العربية منها وما فيها من

(1) وهذا ما كان يمارسه الأوائل مع عبيدهم فيلجأون إلى قطع القناة التي تربط الخصية بالجسم أو ازالة الخصية من الجسم وهي العضو المسؤول عن افراز الهرمون الذكري، وكانوا يسمونهم (الخصيان) الذين يعملون في بلاط الخلفاء إبان عهد الدولة الأموية والعباسية والعثمانية (اسطنبول وحضارة الخلافة الإسلامية، برنارد لويس) وذلك كي يمنع الخليفة أي ميل جنسي من هؤلاء العبيد نحو بنات أو نساء الخلفاء أو الغانيات اللواتي كن من المحظيات عندهم أكثر من نسائهم الأساسيات اللواتي كن فقط ينجبن الأولاد لا غير، وقد كان القدماء من بعض الشعوب العربية يلجؤن إلى عملية قص العضو عند الفتاة لاعتقادهم أنه مركز الشهوة الجنسية لدى الأنثى، وأنه مركز الإفراز الهرموني الذي يشعر البنت برغبتها إلى الجنس الآخر، مع أنّ العضو ذلك لدى المرأة المشابه تشريحياً لما هو لدى الرجل أو البظر لا يفرز أياً من هرمونات الجنس التي تشعر الإنسان برغبته إلى الآخر، وكان ذلك عند البنات الشابات يعرف بالختان، وكان يحصل في السنوات الأولى للفتاة الصغيرة حتى إذا ما وصلت إلى سن الشباب والمراهقة نجدها فاترة لا تملك ميلاً جنسياً نحو الجنس الآخر، ولكن الواقع العلمي يخالف هذه النظرية مع أنّ القص أو التصغير يساعد في لجم الشهوة إلى أقل من المعتاد، وقد لجأ القدماء إلى هذه العملية خوفاً من أنّ تقوم الفتاة بأي شيء يجلب لأهلها العار أو الفضائح في وقت كانت كل البيوت متقاربة، وكان الرجال يسعون وراء أرزاقهم في الصحارى والمدن ويقضون مدة طويلة خارجاً فكانوا يخافون من أنّ تلجأ النساء في أي وقت من الأوقات إلى إشباع رغباتها كيفما كان خارج حدود الأعراف الاجتماعية والقبلية، وهو نسخة متطورة من عملية (الوأد) التي كان العرب يلتزمون بها فيما قبل الإسلام.

(2) كما ضمن الحقوق للطرفين بالزواج، وفي نفس الوقت ضمن تبعات ما بعد الزواج، كأمور الطلاق وتبعاته من نفقة وحقوق الأولاد والزوجة، وسهل أمور الزواج فجعله بدون =

مؤسسات اجتماعية تعنى بحقوق الطفل، لأنّه لا يمكن للعقل أن يقبل ختان الفتاة الصغيرة لمجرد أنّ نقتل فيها الشهوة الطبيعية للجنس[1].

فهورمونات الجنس لدى المرأة يفرزها المبيض وجدار الرحم، كما أنّ محفزّات الجنس لدى المرأة تختلف عن محفزّات الرجل، فالرجل يتحفز بالنظر والرائحة والسمع والمشاعر، أمّا المرأة فإنّها تتحفّز بالكلام اللطيف والرائحة الطيبة والشعور بالأمان، فالمظهرالجميل والشكل الجذاب وحسن الطلعة والابتسامة العذبة يمكن أنّ تكون من المحفزات الثانوية لاستثارة شهوة المرأة فضلاً عن اللّمس والهمس.

إنّ الإثارة الجنسية عند الرجل عادة ما تكون جامحة ترتفع وتنخفض بشكل حاد، أمّا المرأة فإنّ إثارتها تسير ضمن حدود مستقيمة ليس فيها جنوح فجائي كما هو عند الرجل، ومن الناحية الطبية والبيولوجية تقترب هذه الحدود من الرأي الديني الذي أمر المرأة بالستر والحجاب باعتبار أنّ مختلف أنحاء جسدها يعتبر محفزاً جنسياً إذا ما نظر إليه الرّجل، لأنّ النّظر هو المحفز الأكبر لشهوة الرجل، بعكس المرأة التي تتحفّز بالكلام وبالشخصية، ولم تحتّم الأديان على الرجل الحجاب لأنّه لا يثير شهوة المرأة بشكل عام.

= شهود (على رأي بعض المذاهب الإسلامية) فكان القبول والرضى والإشهار هي التي يجب الإلتزام بها، أما الطلاق فقد حدد له شهوداً عدولاً وجعله حقاً للرجل والمرأة بعد الاتفاق فيما بينهما، فالرجل له الحق بتطليق زوجته إذا وجدت الأسباب الموجبة، والمرأة لها الحق في ذلك إذا ما كانت العصمة بيدها أي لها الحق المطلق بالتطليق أو من خلال رأي الحاكم الشرع الأعلى لأنه الولي لأمور المسلمين، وهي أمور فقية تقع خارج نطاق موضوعنا والتي من الممكن البحث فيها في كتب الفقهاء بشتى مدارسهم الفقهية، كذلك مراجعة هذه الدراسة المهمة:

Criminalizing Sexuality: Zina Laws as Violence Against Women in Muslim Contexts, The Global Campaign to stop killing and stoning women. Women Reclaiming and redefining culture program. Women Living Under Muslim Laws. Ziba Mir Hosseini.

(1) من المهم جداً أن تناقش القضايا الاجتماعية التي تهم عموم المجتمع بشكل منفتح في وسائل الإعلام وفي الحوارات التلفزيونية وفي الكتب وغيرها لأن هذا الأسلوب يساعد على تفسير الكثير من القضايا الخاطئة المستترة التي يمارسها المجتمع بدون إدراك لخطورتها.

والرّجل والمرأة عندما ينجذبان إلى بعضهما البعض فإنّ المحرك الأساسي لذلك هو الحاجة الجنسية والتي هي الغريزة التي لا يملك أحدهما وسائل كبحها بالكامل أو إزالتها، وعندما يتزوج الأفراد في بعض الشرائح الاجتماعية فإن جلّ الإهتمامات تتحوّل إلى تأسيس العائلة والاهتمام بالأولاد والمعيشة فتصبح كل تلك الإهتمامات من الأوليات في الحياة الزوجية، كما أنّ البعض من الأزواج والزوجات لا يرتفعون في تفكيرهم وأحاسيسهم إلى مرحلة المسؤولية حتى وإن تغيرت الظروف، فإنّ هؤلاء يظلون يعيشون كأنّهم مراهقون في حوافزهم البيولوجية، خصوصاً عندما يصبح الجنس غاية وليس وسيلة، هذه الطبقة من الناس غالباً ما يروي لنا تأريخها بأنّها عاشت الحرمان في حياتها العاطفية في الصغر أو في التربية، أو أنها وعلى الدوام تعيش في أجواء الإثارات الجنسية في التلفزيون وفي ظروف العمل، وفي الأجواء التي تضعف فيه شهوة أحد الشريكين لسبب من الأسباب أو لأمور أخرى قد نذكرها فيما بعد.

أمّا عند البعض الآخر فيصبح الزواج قضية ترفع من قدراتهم وطاقاتهم وعملهم في الحياة فيتحوّل الجنس وتبعاته إلى أمر ثانوي ويتوجّه الزوجان أساساً إلى مفاهيم العائلة ومفاهيم التربية التي تأتي بالتتابع من خلال نمو أفراد العائلة ودخولهم المدارس والانتقال من مرحلة إلى مرحلة أخرى حتى مراحل المراهقة المعقّدة(1).

وفي بلدنا العربية يعتبر موضوع الجنس من الأمور المحرّمة اجتماعياً ويحرّم الحديث به، أو تناوله في العلن، وقد وجدت ذلك أيضاً في بعض المجتمعات الغربية الأمريكية والكندية ومجتمعات أمريكا الجنوبية الكاثوليكية

---

(1) لقد اكتشف طبياً بأن الهرمونات التي تتحكم بسلوك الحب العائلي، أي النوع الذي يميل إلى الإشباع الجنسي من أجل العائلة (Love) لا من أجل اللذة هي غير الهرمونات التي تتحكم بالرغبة الجنسية (Sex)، وقد أثبتت تلك الدراسة التي نشرتها الباحثة (هيلين فيشر) وتوصلت بأن هرمونات الحب أو هرمونات العائلة تختلف تماماً عن هرمونات الرغبة الجنسية.
The New Psychology of Love, Helene Fisher.

المذهب أيضاً، مع الفرق في أنّ المجتمعات الشرق أوسطية تعيش الخوف الاجتماعي أكثر من الواقعية الفعلية لتفهّم هذا الجانب.

فالغربي رجلاً كان أو إمرأة يبادر وبسرعة إلى معالجة الخلل في مشكلة العلاقة الجنسية سواء كان ذلك من جانب الرجل، أم من جانب المرأة فسيولوجياً كان أم سلوكيا من خلال الإستشارة التخصصية الطبية أو الاجتماعية لتوجيههم نحو العلاج اللّازم لأيّ خلل في العلاقة وخصوصاً مشكلة البرود الجنسي لدى كلي أو أحد الطرفين[1].

فقد عُرف عن الأعراف الاجتماعية بأنّه لمن المعيب على الإنسان الإفصاح عمّا يختلج لديه أو لدى المرأة فيما يتعلّق بهذا الأمر، فيجد أو تجد أنه من غير اللّائق أن يقوم بزيارة الأطباء المختصين أو الحديث عن مرضه أمام أحد، ممّا يعرض العائلة في كثير من الأوقات إلى التفكك وانهيار الحياة الزوجية لعدد كبير من الأسر[2] وهنا تلعب الثقافة والمثل والمبادئ دوراً رئيسياً في معالجة هذا الأمر خصوصاً إذا أدرك الشريكان بأنّ حقيقة الجنس ليس هدفاً وإنّما هي وسيلة مهمتها ربط العلاقة بين الرجل والمرأة بالإضافة إلى روابط أخرى تجمع الشريكين وتلقي بظلالها على حياتهما معاً، نحن لا نتكلم هنا عن الجنس كمبدئية دينية، لأنّ الدين يضع للإنسان ضوابط وقواعد تتحكّم بالعلاقة بين الجنسين، وإنّما نتحدث بصورة عامة، ونبحث بموضوع الجنس من الناحية الإنسانية لا من الناحية التشريعية الدينية.

أثبتت الدراسات العالمية أنّ العجز الجنسي لدى الطرفين هو من أحد أهمّ

---

(1) ذلك المرض المنتشر في الغرب بشكل كبير بين الجنسين وربما يصل إلى أرقام تتجاوز 39% أو أكثر لدى الرجل، كذلك الأمر بالنسبة إلى المرأة التي قد يكبر ذلك الرقم عما ذكرناه وقد يصل إلى 49% كما أشارت بعض الاحصائيات .

(Why Women Lose Interest in Sex)

(2) لذلك يعزو البعض من أولئك الذين يعانون من مرض الضعف الجنسي أنّ السبب هو الشريك الآخر وهو ما يدفعهم إلى البحث عن شريك جديد خارج إطار الزوجية لإشباع هذا الجانب وهو ما يخلق بل يعقد المشكلة.

العوامل التي تؤدّي إلى تحطّم العائلة في شكل من الأشكال، فهذا المرض يمكن أن يؤدّي إلى أن يبحث الرجل عن إمرأة أخرى تشبع حاجاته التي لا يمكن أن يحصل عليها من زوجته والعكس يمكن أن يحصل، فتفتّش المرأة عن شريك آخر يلبي حاجاتها الطبيعية أيضاً، أو أن يتمّ الانفصال أو الطلاق وتتحول العائلة إلى واقع مأساوي ينجرف إلى الهاوية وخصوصاً إذا كان هناك أولاد بين الزوجين فتدخل العائلة عندئذ في معركة الحضانة والمحاكم... ولكي يتجنّب الزوجين كلّ ذلك يجب عليهما أنّ يتصارحا في موضوع الحاجة الجنسية ومسألة الإشباع للطرفين، ولكنّ غالباً ما ترى المرأة العربية أنّ الحديث في هذا الموضوع من المحرّمات ومن المعيب أنّ تناقش هذه الأمور حتى مع زوجها، أمّا الرجل فيجد أنّ الحديث مع زوجته بالموضوع هو منقصة لشخصيته ولذلك تبدأ المشاكل بينهما على أقلّ الأسباب وأتفهها.

وحينما خلق الله الحاجة الجنسية عند الطرفين فإنّ ذلك كان نوعاً من الشفافية التي يجب توفّرها في الناحية العاطفية وهو الجانب الآخر للشخصية الإنسانية إلى جانب العقل، فالعواطف غالباً ما تنبع من القلب إلى جانب العقل، أو في الجهاز (الباراسمبثاوي) والتي هي عبارة عن حاجة متأصّلة لا يمكن للإنسان انتزاعها من الجسم الإنساني، فالانجذاب الجنسي بين الرّجل والمرأة يوفر الأرضيّة الهادئة للبناء الفكري والعقلي، خصوصاً عند المرأة، فهي لا يمكن أن تفهم أي موضوع بدون توفّر الأرضية العاطفية كالحبّ والرّغبة والإعجاب، ونفس المنظومة بالنسبة للرجل حيث تعتمد ميكانيكية عواطفه على الجاذبية التي توفّرها المرأة له، ومن ثم إشباعها، لأن الرجل وطاقته الجنسية يمكن أنّ تتحول إلى نقمة أو إلى السلبية في التصرفات إذا لم يتم إشباعها بطريقة عقلانية صحيحة[1].

---

(1) في التراث العربي الديني أو الاجتماعي تتعامل الأدبيات في ذلك تبعاً لمفهوم (الذكورة والأنوثة) باعتبار أن المجتمع العربي هو مجتمع (ذكورة). وهذا المفهوم غالباً ما يحمل المرأة تبعات الأخطاء وليس الرجل في الوقت الذي لا يرى من ذلك المنظور أن ماينطبق على المرأة ينطبق على الرجل. فليس هنالك من تراث أدبي أو اجتماعي يراعي حاجة المرأة =

أسباب الضعف الجنسي لدى المرأة كثيرة أهمها هو المحيط المحافظ المتزمّت، ثمّ العوامل البيولوجية كالسّمنة التي تتعرّض لها المرأة في أغلب الأحيان متى ما تزوجت وحملت، ناهيك عن التغيرات الهورمونية التي تحدّث لها والتي تؤثّر على رغبتها، كذلك الشعور بأنّ المرأة هي المسؤولة عن أمور البيت والأولاد بعد ذلك، كما أنّ الفقر والعوز والحاجة كلّ ذلك يؤثر تأثيراً كبيراً على أداء المرأة الجنسي، أمّا الرجل فإنّ معظم أسباب الضعف لديه هو الجانب البيولوجي والإنشغال بالعمل والتفكير في تأمين معيشته ومعيشة عائلته فضلاً عن الجانب النفسي.

وقد تمّ مؤخراً اكتشاف علاجات كثيرة لحالات الضعف الجنسي للطّرفين وهي فعالة ومتوفّرة في الأسواق، ولكن قبل الاقدام على العلاج يجب على الزوجين أن يعرفا أنّهما يجب أن يعترفا ولو ضمنياً بحالة الضعف لديهما لأنهما ضمنياً يلقي الواحد اللّوم على الآخر[1]...لأنّ الحاجة الجنسية للرجل تغيّر من تركيبة التفكير العادي وتوجهه إلى سلوك في غاية الغرابة وغاية الضعف العقلي والتهور، وأمامنا الفضائح التي تنتشر في العالم.

إنّ الجهاز الجنسي عند الرّجل والمرأة عبارة عن جهاز معقّد جداً كغيره من الأجهزة الأخرى في جسم الإنسان والنقص البيولوجي في ذلك الجهاز

= إلى العواطف الجنسية وكيفية التزام الرجل بمسؤوليته تجاهها، بينما نجد الكم الكبير من التراث يحث المرأة على تحمل تلك المسؤولية. وأعتقد بأن أصل هذا المفهوم بالإضافة إلى خلفيته الاجتماعية فهو أمر متعلق بتفهم الجانب البيولوجي الذي يرى بأن المرأة ليست جزءاً من العملية الجنسية وإنما هي مستلمة فقط. (مراجعة المصدر السابق للباحثة زيبا مير حسين).

(1) فالمرأة تعزو الضعف الجنسي تجاه زوجها بأنه لا يغازلها ولا يسمعها كلمات حلوة أو لا يهديها ما تحب أو يأخذها بسفرات سياحية الخ.... و الرجل يلقي اللوم على أنّ المرأة لا تشعل في نفسه مشاعر الإثارة والرغبة إنّ كان في طريقة ملبسها أو الاهتمام بشكلها الخارجي ككل وبرشاقتها بعد أنّ حملت وأنجبت وتغيّر شكل جسمها... و لذلك نجد في المجتمعات الشرقية عموماً وبسبب ظروف الحياة فإن الرجل وبعد النقاش العقيم بينه وبين زوجته وكما يسمى (chiken&egg syndrome) يجد حاجته ويشبع رغبته بطريقة أو بأخرى وفي بعض الأحيان بطرق رخيصة.

قضية واردة وطبيعية كما يحدث لبقية الأجهزة والأعضاء في الجسم البشري، فعندما يصاب الجهاز بأيّ خلل فإنّه يؤثّر على الجانب البيولوجي والنفسي أيضاً لكلي الطرفين أو الزوجين.

في الغرب وبسبب وضع الحريات فإنّ التعامل مع الجانب الجنسي تحوّل إلى إباحة لأنّه مرتبط بالغرائز التي تعتبر هدف الكثير من طموحات الإنسان، فتحوّل إلى تجارة ضخمة تدرّ أموالاً طائلة على شركات متخصّصة ولا أعني هنا الجنس الرّخيص، وإنما أعني كل ما يتعلق بالجنس من ملابس وكتب ومرشدي جنس وعمليات التزويج وشركاتها الرّائجة، وما إلى ذلك من أمور لا تخطر على بال إنسان هذا فضلاً عن الجانب الإباحي الرّخيص لتلك التجارة[1].

أمّا في الشرق فمن الممكن أنّ يتمّ ربط مفاهيم الجنس بأمور مثالية أخلاقية حتى وإنّ كانت تلك الأمور مرتبطة بعالم التجارة ككتب الثقافة الجنسية الملتزمة أو ما يحتاجه الأزواج في حياتهم الجنسية من ملابس خاصة وعطور مثيرة أو ما شابه ذلك، وأن توجّه تلك الطاقة نحو هدف توحيد العائلة وربط الزوجين أحدهما بالآخر، وإشاعة مفاهيم الزواج المقدّس بين الشباب على أسس سليمة.

والدّولة هنا لها دور كبير في تأمين متطلّبات الشباب أو الإنسان بشكل عام، وهذا هو الطريق الوحيد للوقوف أمام عاصفة أو لنقل الثورة الجنسية التي بدأت تغزو منطقتنا وذلك بعد التغيير في العراق في أعقاب إبريل 2003 وفي بقية البلدان العربية التي تأثّرت بما يسمّى الرّبيع العربي، والانفتاح الكبير الذي حصل من خلال التلفزيون والإنترنيت وانتشار الاقراص المدمجة (DVD s)، فمن غير المعقول أنّ تواجه ثورة الجنس العالمية التي تراكمت في الغرب على مدى لنقل العشرين سنة الأخيرة بوسائل بدائية كمن يدخل معركة

(1) Closer Together, Further Apart: The Effect of Technology and the Internet on Sex, Intimacy and Relationships.. Are Young Women Avoiding Marriage? Love and Sex in the Digital Age. Robert Weiss. Psychology Today.

الصواريخ العابرة للقارات بسيف صغير، فهذا لا يشبه ذاك أبداً، بل يجب علينا أنّ نعدّ العدّة لمواجهة الانحراف الذي تحمله تلك الثورة والتي انطلقت من مفاهيم الحرية المنفلتة من عالم الغرب، نواجهها بدراسات ومراكز بحوث وبفهم الواقع الجديد لمفاهيم الجنس، وأنّ لا نربط تلك المفاهيم البيولوجية بميراث قديم لا يملك من أساليب العلاج إلّا الحرمان، في الوقت الذي يبحث فيها الشاب والشابة عن طرق عقلانية وعلمية في توجيه هذه المفاهيم التي أصبحت اليوم تضغط على الكلّ بسبب غياب مفاهيم الزواج والعلاقة بين الجنسين(1).

إنّ الغربيين عندما انطلقت ثورة الجنس في حدود منتصف السبعينيات من القرن الماضي، كانت تلك الثورة عارمة، وليس لها حدود بسبب عنصر المفاجئة الذي لم يحسب له حساب من قبل دول العالم الغربي كأميركا وكندا، وقد أدّت تلك الحالة في حدوث تصدعات كبيرة في التركيبة الاجتماعية والعائلية، إذ أنّ نسبة الطلاق صارت واحد من كلّ ثلاث زواجات، ثم وبمرور الوقت تصدّى لتلك الظاهرة مفكرون وعلماء وقادة وسياسيون ووضعوا خطّتهم على مدى ربع قرن من الزمن، وكانت أولى نتائج الدراسات وذلك بحدود الألفية الثانية أنّ المجتمع ابتعد عن فكرة الزواج بشكل ملحوظ، وهنا يطرح السؤال: ماذا يعني هذا بالنسبة إلى المجتمع الغربي...؟ يعني أنّ الرّجل أو المرأة في الغرب نسوا فكرة إنجاب الأطفال، فالزواج بالنسبة للغربي هو قرار باستعداد الطّرفين للإنجاب وتربية الأطفال، فالرّجل أو المرأة يعتقدان أنّ الثورة الجنسية المنفلتة ستؤثّرعلى مستقبل الأولاد وعلى سلوكهم وتوجّهاتهم الدراسية وخاصة فيما يتعلّق بالشذوذ الجنسي، إذ وجد أنّ هنالك الكثير من النساء والرجال قد رفضوا فكرة الارتباط الأزلي ضمن نطاق الفكرة الزوجية بسبب خوفهم من عدم توفّر محيط سليم وأجواء جيدة لتربية الأجيال القادمة، وهم مع ارتباطهم العاطفي فإنّهم لا يريدون

(1) Naomi Weeks, Effects of Pornography on Relationships, Families and communities, Utah State University Cooperative extension, 2010.

لأبنائهم أن يعيشوا أخطاء الماضي، الأخطاء التي كانوا هم ضحيتها.

وبدخول الألفية الثانية بدأ الغرب وكلّ المعنيين بالأمر منهم بوضع تشريعات قانونية في ما يخصّ الإباحية الجنسية، فحرّم الزّنا كما حرمتها الكنيسة قبلاً دينياً[1]، وتشدّد في تطبيق الاحكام والقوانين في هذا الصّدد، ونتذكر حادثة الملاكم العالمي مايك تايسون (ت 2013)[2]، كما حرّمت الدعارة بكلّ صورها وأشكالها، ومنعت كلّ إنتاجات الشركات الإباحية من الانتشار علناً، وحاربت وجودها سراً ممّا حدا بتلك الشركات من نقل نشاطاتها إلى دول أخرى تحيط بالولايات الأمريكية ولا تملك قانوناً يحرّم هذه التجارة والإنتاجات لحدّ الآن كجزر الكاريبي وجامايكا وجزر البهاماس.

في ذات الوقت حدّدت في الغرب أماكن خاصة لبيع أفلام الجنس، كما امتنع الكثيرين عن شرائها، وأعلنت شركات كثيرة إفلاسها، وأعلنت الحكومة مفاهيم تجعل من العائلة الغربية أن تكون شريكة لها في موضوع محاربة الإباحية الجنسية المنفلتة، وانتشار اعتداءات جنسية عديدة وحالات عنف[3]، وكلّ تلك الأمراض والحالات الشاذة أصبحت الشغل الشّاغل للكثير من العائلات الغربية في أميركا وكندا وغيرها من بعض بلدان أوروبا، وذلك لحماية أولادهم من السقوط فيها، والتي هي نتيجة أولية من نتائج الثورة الجنسية، فأصبح المجتمع عموماً يواجه تلك الثورة والدّعوة إلى الجنس الملتزم السليم والعفيف وهو الجانب التثقيفي والعلمي لمفهوم الجنس، ولا زالت القوانين الغربية متشدّدة في هذا الأمر وفي كلّ يوم تُسنّ قوانين جديدة في هذا الاتّجاه.

(1) حرمت 23 ولاية أمريكية الزّنا (Adultury) و(Infidility) الخيانة الزوجية.

(2) أرسل لسبع سنوات إلى السجن بعد أن مارس الزنا وبعد أن اعترفت عليه خليلته.

(3) كمرض الوحشية الجنسية البيولوجي (Pedophilia) لدى البعض من الرجال المهووسين والذين يتلذذون بممارسة الوحشية في علاقاتهم أو تجاه الأطفال الصغار وأحياناً عديدة تصل إلى حد القتل بعد التعذيب كجزء من تلذذهم الجنسي، بالإضافة إلى أمراض كثيرة مرتبطة بالمخدرات والشذوذ. راجع ذلك في: .(http://en.wikipedia.org/wiki/Pedophilia)

فظهرت خلال العقد الأول من هذا القرن مفاهيماً جديدة تقترب من مفاهيم الأديان ومفاهيم الشرق ومفاهيم العفّة والحشمة والعيب في الكثير من الأمور الحياتية، وتحوّلت تلك المفاهيم إلى ثقافة يتناولها الجميع ويقرؤها الكثيرون أيضاً في المجلات التي لا تكاد تخلو منها مجلة واحدة والتي تستهوي الكثيرمن الناس، وقد أدّت كل تلك المجلات الاجتماعية التوعوية إلى حركة داخل المجتمع، زاد في خلال السنتين الأخيرتين في الإقبال على مفهوم العائلة والحاجة الواقعية للجنس، وهذا كله لم يأتِ بين ليلة وضحاها، بل كان نتيجة صراع مرير لأكثر من 30 سنة، والتي هيأت المجتمع لتقبل تلك الآراء في الوقت الذي لم يهمل الغرب فيه أبداً أو ينكر القوة الجنسية وأثرها واهميتها في نمو المجتمع بالطريقة التي يراها مناسبة لأعرافه وتقاليده.

وقد لاحظت بأنّ بعض البلاد العربية وخصوصاً المنفتحة منها على هكذا مواضيع قد تعلمت من تجربة الغرب وهي الآن تتجّه نحو الموازنة العقلانية ما بين الحاجة الجنسية وبين التقنين وبين الفهم الاجتماعي كمصر ولبنان والمغرب العربي، ولذلك فإنّ الشرق عموماً والإتجاهات الإسلامية الدينية خصوصاً مطالبة بإعادة دراسة الظاهرة الجنسية من منطلق الفطرة ومن منطلق أهمية هذه الفقرة في تنظيم العلاقات الاجتماعية العائلية.

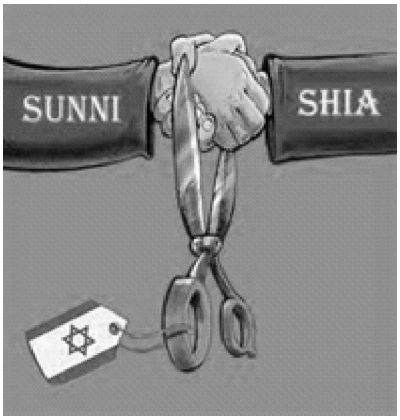

الشّيعة والسّنة

لقد برزت في الحقب الأخيرة من السنين المنصرمة ظاهرة (التسنّن) تقابلها ظاهرة (التشيع) في مجتمعاتنا العربية عموماً، والمجتمع العراقي خصوصاً وتحولت إلى حديث يتداوله الجميع وتمتلئ به الصحف ووسائل الإعلام ويدلو كلٌ بدلوه فيه متفلسفاً في مناقشة هذه الظاهرة، وقد انبرى لهذه القضية شخصيات كبرى من كلي الطرفين محاولين تقريب وجهات النظر بين ما يسمى (التشيع) وما يسمى (التسنن) أو (السّنة والشّيعة).

في ذات الوقت تصدى للظاهرة هذه جهات عديدة بعضها دولية والبعض الآخر محلية وشارك فيها دول ومؤسسات ومنظمات لإذكائها وإشعالها ما بين الناس في العالم الإسلامي، فأحياناً أجد نفسي محرجاً وأنا أتعامل مع البلجيكي أو الأمريكي أو الصيني والياباني، تارة أخرى فيسألني إن كنت أنا سنياً أم شيعياً في الوقت الذي لم أسأل إنساناً في يوم من الأيام إن كان كاثوليكيا أو بروتستانياً أم غيره من (41000) مذهب من مذاهب المسيحية، بل حتّى وإن سألت أحدهم هذا السؤال فإنه بالتأكيد سيستخف بعقلي وثقافتي لأنّ الإعتقادات الدّينية ما هي إلّا نوع من أنواع الأمور الشخصية الخاصة للإنسان لا يحقّ للآخر أن يتدخّل في السؤال عنه أو الإعتراض عليه[1].

(1) وعندما أسأل هذا السؤال من قبل الغربيين كنت أحوله إلى مادة للضحك والنكتة وهو ما يعجب الغربيون وكنت أقول لهم انّني (Sushi) (أكله يابانية مشهورة) فينفجرون من الضحك، وبعد أن نضحك جميعاً وننتهي من المصافحة أبين موقفي لهم وأقول للسائل، من أي جامعة تخرجت... ؟ فيقول مثلاً هارفارد أو لندن أو أوكسفورد، ثم أسأله مباشرة هل هناك أفضلية لهذه الجامعة على جامعة ليفربول أو جامعة برلين أو جامعة بغداد أو جامعة القاهرة؟ فيقول لا، الفرق هو طريقة ومواد التدريس، أسأله فيما إذا كان يوماً من الأيام قد دخل في معركة =

فالسّنة ما هي إلّا مدرسة من المدارس الفكرية (School of thought) والشيعة أيضاً مدرسة من تلك المدارس الفكرية، هذه لها روّادها وتلك أيضاً لها روّادها، وكلتا المدرستان لها مؤيدوها معارضوها، وعدد أو رقم المؤيدين أو غير المؤيدين ليس بذي أهمية في حساب في صحّة أو عدم صحّة الفكرة أو أفضليتها من عدمها.

والمذاهب الدينية في كلّ أنحاء العالم عبارة عن ظاهرة فردية خاصّة بذات الإنسان يعتنقها إذا ألفها أو أحبّ الأفراد الذين يعتنقونها، ففي الولايات المتّحدة الأمريكية كان لي صديق أمريكي في الجامعة وكان هذا الزميل يرتدي العمامة التي تعتمرها طائفة (السّيخ)(1). وهي عبارة عن قطعة قماش ملوّنة يلف بها شعر الرأس تماماً ويجمع في طيّات العمامة، بعدها تطلق اللّحية بشكل تغطّي الذقن، وكنوع من التطفل أو حب الفضول سألته يوماً وبعد مضي ربّما سنة كاملة من صداقتنا عن هذه العمامة وعن التوجّه

= مع خريج جامعة وأخرى... ؟ يقول لا ، عندها اؤكد لهم أن الخلاف هو خلاف (مدرسي) تماماً، فالبعض تخرج من جامعة هارفارد وهم يعتقدون أنها من أفضل المدارس الفكرية، والعلمية بينما خريجوا جامعة لندن يرون أن جامعتهم أفضل بكثير من هارفارد لأنها عريقة جداً وقديمة، ولها تجارب وخبرات ضخمة لا تضاهيها أي جامعة في العالم، وهكذا نرى الجميع يدافع عن جامعته ومراكز معلوماته ويعتبرها جزءاً من شخصيته، وهو حق طبيعي لكل إنسان أن يمارسه ولكن ليس بالمعنى العدواني، وهكذا كنت أنقل لهم هذه الرسالة التي تتضمن الصورة الواقعية للشيعة والسنة. راجع عدد المذاهب المسيحية الرئيسية (List of Chrisian Dominations) وليس الفرعية على مواقع كثيرة: .(http://en.wikipedia.org/wiki/List_of_Christian_denominations)

(1) تعتبر آخر العقائد الكبيرة التي ولدت على أرض الهند، مؤسس هذه العقيدة هو ناناك الهندوسي الذي ولد عام 1469 وتوفى عام 1539، والذي تأثر بالدين الإسلامي وكان يصوم ويصلي ويختلي بنفسه كثيراً، وقد أخلفه تلميذه أركاد الذي أوكل لتسعة معلمين مهمة زعامة السيخ، وبدأت الحروب بين السيخ والانجليز عام 1845 واستسلم السيخ ووقعوا معاهدة لاهور عام 1946 حيث فقد بموجبها السيخ نصف مملكتهم وانتهت بعد ذلك مملكتهم بتاريخ 10/ 3/ 1843. بعدها بأسبوعين ضم الإنجليز ما كان يسمى بمملكة السيخ إلى (التاج) البريطاني. وبعد سقوطها تعرضت السيخ إلى أخطر مراحلها واستطاع رجال الدين الهندوس الاستيلاء على معابد السيخ وإدارتها وأصبح مستقبل السيخ مجهولاً. راجع مادة (سيخية) على الموقع:
(http://ar.wikipedia.org).

الديني الذي يعتنقه فأخبرني بكل استرسالية وعدم تكلف بأنّه تحول إلى السّيخية واعتنق السّيخ مذهباً له بدلاً من المسيحية وارتدى هذه العمامة[1] .

---

(1) وعندما سألته عن السبب في ذلك ليس من باب المحاججة وإنما من باب المعرفة، لانني إذا دخلت معه في نقاش بهذا الأمر فإنه بالتأكيد سأبث في نفسه روح التشكيك بالدين السيخي لاطلاعي الواسع على تأريخه وتشكيله ومبادئه، ولكنني كنت أرى أن الوقت غير مناسب لذلك قبل أن أطلع تماماً على الخلفية الدينية والفكرية لصديقي هذا والدوافع التي دفعته لاتخاذ هذه الخطوة الغريبة، فقال لي بعد أن سألته عن سبب التحول من المسيحية إلى السيخية أجابني: بأنه لم يكن يوماً من الأيام مسيحياً ولم يعجب بالديانه الكاثوليكية، ولكنه اطلع قليلاً جداً على تلك الديانة فوجدها فارغة من مفهوم الدين، وعندها بحث عن دين جديد، هنا استوقفته لأسأله: هل كنت تعلم أن هناك أديان أخرى قبل أن تتحول... ؟ أجابني: أعرف اليهودية وهي جزءاً من المسيحية (كما قال)، وأعرف الإسلام، ثم اشار لي بيده أي ديني أنا ولا أعرف أي شيئاً آخر غير ذلك، قلت له: إسمحلي أن أسألك -كي أتعلم- ولا تعتبر ذلك تدخلاً في شؤونك أو أنني أرغب في دعوتك إلى ديني، ماذا كنت تعرف عن اليهودية وعن الإسلام... ؟ اليهودية، أجابني: لا أناقشها (هكذا قال) ولم ألح عليه بالجواب، الإسلام مشابه للمسيحية وتقولون أن محمد (كما لفظه) إله، ثم أضاف... وأنا أعتقد أن الإسلام دين صنعه محمد وهو ليس ما جاء من السماء، كنت أستمع له بكل هدوء ونحن نجلس في أحد المقاهي المطلة على نهر المسيسيبي نحتسي نوعاً من الحلوى وشيئاً من القهوة الأمريكية، سكت الصديق ليستمع إلى رأيي أو دفاعي عن ما قاله عن الإسلام فوجدت إنه ليس من الحصافة أن أقدم رأيي وهو ما سوف ينعكس على خطتي المستقبلية في تحويله إلى الإسلام، إذا كان هنالك أمل في الأمر، لذلك سكت ولم أجب منتظراً ما سوف يقوله، سكت هو واحترم هدوئي ثم قال: وفي أحد الأيام ذهبت إلى معبد قريب من بيتنا كان يدخله الهنود وكانت سحنة وجوههم تشبه سحنة وجهي أنا، فهم ليسوا بسود كما هو الأسود الأمريكي الذي نعرفه، ولا هم الأشخاص ذوو اللون الأبيض الأحمر، فقلت في نفسي إن لوننا واحد لأدخل المعبد وأرى ما فيه، وعندما دخلت قدموا لي شيئاً ساخناً وحلوى ثم أعطوني كتاباً صغيراً وبدأ الواعظ يتكلم، من أهم الأمور التي أثارت اهتمامي هو أن الدين السيخي حديث وهو فكرة تجمعت من مجموعة أديان... فانطلق السيخ كمذهب يحوي أفكار المسيحية والهندوسية والمسلمة والبوذية وغيرها من الأمور الأخرى، فوجدته جيداً فانتميت إليه وها أنذا أذهب أسبوعياً لحضور الاحتفال الديني هنالك، عظيم جداً... قلت له... أشجعك... فالحياة الروحية ضرورية للإنسان وخصوصاً في الغرب، وبدونها لن يجد الإنسان السعادة مهما كانت حياته المادية متقدمة، فالجانبين يجب أن يكتملا لتحقيق السعادة الحقيقية النسبية، بقي هذا الشاب صديقي لفترة طويلة، وفي السنه الثانية تمكنت بطريقة الصمت الهادئ والنقاش الموجه أن يطلب مني يوماً في أنه يرغب في التحول إلى الإسلام، قلت له مباشرة وبدون تردد، إن كنت تنوي تعدد الأديان فذلك خاطئ وعليك أن تبقى على سيخيتك...؟ أما إذا وجدت أن هنالك في الإسلام ما يعجبك، فعليك أن تخبرني لأجيبك على سؤالك قبل أن تتحول عقائدياً، دار بيننا نقاش طويل ومواصلة طويلة لسنا نحن بصددها في هذا المقال =

الصراع الديني والمذهبي يعتبر من الصراعات التي تتوفر أرضيته في المجتمعات المتخلفة التي تغيب فيها ثقافة العلم وثقافة العقل وثقافة الدين أيضاً، وكلما ازداد المجتمع تخلفاً كلما ازدادت فيه صراعات جانبية سواء كانت صراعات المذاهب أو الأديان أو القوميات أو أي قضية خلافية أخرى تكون مادة للتنفيس بين الأقوام المتشاجرة والمتقاتلة فيما بينها.

وبالعكس تماماً فإن المجتمع المثقف المتدين العلمي لا تجد في محيطه مجالاً لتلك الصراعات، وقد لا نجد ذلك على مستوى المجتمع فحسب، بل ربّما يصحّ على مستوى الأفراد أيضاً، فالمثقف والأكاديمي دائماً ما ينأى بنفسه عن الصراع الديني والفكري، بعكس ذلك الذي لا يملك حظاً من الثقافة والدين.

أمّا إذا أردنا أن نقيس مقدار قرب الشيعة والسّنة من الله سبحانه عزّ وجلّ ومن هو الذي سيذهب أولاً إلى عقابه أو إلى رضوانه فذلك من المستحيل أن ندركه نحن في هذه الدنيا، أو أن ندرك قرب الأفكار من الإسلام الأصيل الذي أوحى الله إلى نبيه، السنة يقولون باصيلية المذهب، والشيعة أيضاً يقولون نفس الشيء، وليس من مسؤولية أحد الطرفين أن يخطئ تفكير الآخر، أو أن يُسفّه ما يعتقده، لأنّ الله هو الذي سيحاسب الإنسان غداً على عقيدته، وليس لأحد في هذا الوجود أن يدعي امتلاكه لكامل الحقيقة مهما كان ذلك الإنسان، ومهما تعمّق في علوم العالم، فالحقيقة المطلقة لن يملكها أحد أبداً وهذا ما يدعو جميع منتمي أفكار الأرض فضلاً عن السنة والشيعة في أن لا يُتعبوا أنفسهم في صراع الآخرين وتكفيرهم، كما وفي نفس الوقت فإنّ التكليف الشرعي الرباني للمسلم الملتزم بالإسلام سنة أو شيعة لم يأمره في أن يُسفّه آراء الآخرين ومحاربتهم.

فلم أجد في كتاب من كتب الفقه من الفقهاء المحدّثين والقدماء من

= ولكن النتيجة إنه تحول إلى مسلم وهو الآن من أحد أهم الشخصيات في شركة من شركات التجارة العالمية التي تعمل في طوكيو.

الذين يُعتد بآرائهم بأنّ هنالك من يدعو إلى محاربة مدارس الإسلام الأخرى وأفكارهم التي يعتقدونها[1]، أمّا القرآن فإنّه ذهب إلى أبعد من ذلك ووضع القاعدة العامة للمحبة والوطنية، وتلك هي سمة الإنسانية فقال (يا أيّها النّاس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند لله أتقاكم) ولم يتطرّق إلى أي إشارة في تسفيه أفكار الآخرين أبداً، وترك الإعتقاد الفكري قضية شخصية لم يفرض تغييرها حتى على النبي الذي بعثه إلى قومه، بل أن رسالة جميع الأنبياء بأجمعهم هو الوحدانية فقط ولم يطالب من أي من أنبيائه في محاربة فرد ما أو أمة ما إذا رفضت الفكرة الأساسية لبعث الأنبياء وهو التوحيد، بل قال لهم كلمة واحدة (إنّا أو إيّاكم لعلى هدى أو في ضلال مبين) أي أنّنا كلانا ربما نكون على خطأ أو أحدنا أو كلانا على صواب ثم قال: (و لا يلحق المكر السيء إلّا بأهله)، ثمّ قال عزّ من قائل: (لا إكراه في الدّين)، ثم قال: (و إذا الذي بينك وبينه عداوة...)، ثمّ قال: (إدفع بالتي هي أحسن)، فترك الأفكار التي تدور في بوتقة الإسلام خاصة بأصحابها.

أمّا الذين هم خارج فكرة التوحيد فلم يطلب من أنبيائه إلّا البدء من نقطة النقاش، وليس من نقاط الشروط المسبقة في أنّ النبي على حقّ والآخرين على باطل، وإنّما قال نحن أو إيّاكم لعلى هدى أو في ضلال مبين، أمّا موضوع القتال والقتل التي وردت في القرآن فإنّها قضية لا تتعلق بالأمور الإعتقادية، وإنّما تتعلق بحوادث الدفاع والهجوم التي تدعو إليها جميع شعوب العالم.

(1) هنالك طبقة من العلماء ظهرت في أزمنة كتبوا كتباً طائفية وعندما نتعمق في خلفيات التأليف نراها بأن السبب السياسي للدولة كان وراء تلك المحاولات، ولذلك فإنه يجب على علماء العصر الحديث من كلتي الطائفتين تشخيص تأريخ كتابة تلك الكتب والاشارة إلى أبعاد الظروف التي رافقتها. معظم تلك الكتب هي الكتب التي كتبتها الدول المتسننة السياسية ضدّ الشيعة لأنّ الشيعة كانوا على مدى العصور هم طبقة من طبقات المعارضة بينما كان التسنن السياسي هو السائد في الدول الأربعة التي سادت التأريخ الإسلامي.

والكثير من المصلحين والعلماء من روّاد الإصلاح قديماً وحديثاً قد يعزون تلك الصراعات المذهبية بين الشيعة والسنة إلى أيادي الكافر وأيادي الغرب الصليبيين والحاقدين، ويحملونهم مسؤولية هذه الدماء التي تراق في العراق وفي أنحاء أخرى من العالم...

إنّنا لا نستبعد ذلك، بل نقول ربما هنالك من تتحقق مصلحته في إثارة هذا الخلاف مع تلك الجهات، كما تتحقّق مصلحته في إثارة نزاعات عشائرية أو قومية أو حتى عرقية، ولكنّنا نرى بأنّ هذه الصراعات التي نلوكها يومياً هي من صنع أيدينا ونحن الذين أشعلنا النار، ونحن الّذين أججناها، ونحن الذين تاجرنا بها، وذلك لأنّها تخدم طائفة معينة قليلة من هذه الجهة أو من تلك الجهة، بينما بقي الآخرون وقوداً لهذه الفتنة العمياء، فالمستفيد ليس هو ذلك الأجنبي الصهيوني الصّليبي أو ما قيل عنه، ولكنّ المستفيد هو نحن، نحن الذين ارتبطت مصالحنا بهذه الصّراعات، فعندما يعجز منطقي السياسي، والديني، أو منطقي الفكري عن تسويق ما أؤمن به فعندئذ سوف أسّوق ذلك بالمنطق الطائفي الذي هو من أروج ما يمكن التسويق به، فعندما تعجز الكلمة عن أن تبيع سلعة تجارية فإنّها تضع تلك السلعة إلى جانب إمرأة حسناء فينظر إليها الشخص العادي فتعمى أحاسيسه عن التفريق ما بين هذي وتلك، بين ما يظهر من مفاتن جسد المرأة، وبين تلك السلعة مع أنّ الاختلاف كبير، ولكنّ العقل الإنساني يعمل ضمن (المنبه اللّاشرطي) في الربط بين شراء تلك السلعة التجارية لأنّه أعجب بها وبما تظهره تلك المرأة من جمال وبين نوعية السلعة التجارية، والصراع بين السنة والشيعة يكمن في داخله مفهوم التسويق الحديثة في تأجيجه.

هل أنا طائفي... ؟ كيف أكتشف نفسي إن كنت طائفيا... ؟ الطائفيون على أقسام ملخصها خمسة، فيهم من يعتقد جازماً بأنّ الرّوايات التاريخية والآيات القرآنية ليس فيها لبس في الفهم في أحقية السّنة على الشيعة أو العكس، أو أن أحدهما على حقّ والآخر على باطل، هؤلاء هم الباحثون والعلماء، أولئك الذين بذلوا جُلّ عمرهم بحثاً عن الجواب على هذه النقطة

فقط، وهؤلاء حسب اعتقادي ليس لهم وجود فعلي اليوم، فليس هناك من ترك الدنيا وعلومها وتوجّه في الغوص لاكتشاف من هو على حقّ السّنة أم الشّيعة... ؟ ولو افترضنا وجود هذه الطبقة من العلماء أو الباحثين، فإنّنا في ذات الوقت لم نجد آثارهم وكتاباتهم مطروحة في ساحة العلم والبحث إلّا في الكتب الصفراء القديمة وهذا ليس له وجود الآن، لسبب بسيط وهو أنّ أولئك الباحثين عندما بدأ مجهودهم في طريق اكتشاف أحقيّة المذهب فإنّهم وهم في طريق البحث وجدوا أن هنالك ما هو أهمّ وأجدر أن يدرس أو يبحث عما هم ينوون القيام به[1].

امّا القسم الآخر من الطائفيين هم أواساط المثقفّين الذين قرأوا كتاباً أو كتابين وصنعوا لأنفسهم موقفاً لمعاداة الطّرف الآخر، نسبة هؤلاء كنسبة عدد القرآء في مجتمعنا العربي كما قدمت بذلك تقارير الأمم المتحدة: أقلّ من 1%، وهذا معناه أن هذه النسبة ربما هي النسبة التي تحرّك الأحداث الطائفية وربما من منطلق الحرمان[2].

الفئة الثالثة من الطائفيين هم غالبية الناس من الذين يبحثون عن قضية ما

(1) هذه الطبقة من الأمة الإسلامية ليس لها وجود، فقد ظهرت في وقت من أوقات كان للجانب السياسي للحكام من أهمية في نشرها ما بين الناس، فالخوارج هم أول طبقة ظهرت في تكفير الجميع بأعتبار أنّهم من أصحاب الصغائر وصاحب الصغيرة إن استمر في ذلك فإنه يصير كافراً يجب قتله، كذلك تفّرعت مدرسة الأشاعرة التي ضمتها الدولة الأموية والي قادها أبي الحسن الاشعري الذي تكلم في شخصية الحاكم وشرعيته، ولكي يعطي مبرراً للإضطهاد كان أمامه أن يستنتج فكراً يبرر للسلطة قتل الآخرين، منهم ظهر المعتزلة الذين صاروا وسطاً في تشخيص الكافر وتعريفه، وذلك في زمن السلطة العباسية التي كانت لها توجه آخر في موضوع الصراع الشرعي على الحكم. وهكذا من هنا ومن هنالك ظهرت المرجئة، وهم الذين اقترحوا تأجيل قتل الكافر، وهكذا تفرعت المذاهب والمدارس الأخرى وكان أشدهم المدارس الحنبلية التي كان لها أن تعارض الجميع وأن ترفع لواء العودة إلى أصل الدين ومنها تفرعت المدارس التي تكفر البقية الباقية من المسلمين (الملل والنحل، للشهرستاني) .

(2) هؤلاء هم خريجو المدارس الدينية الكثيرة التي انتشرت في أقطار العالم الإسلامي والتي كانت السلطة السياسية في ذلك البلد تحتاج إلى هذا النوع من الشكل الديني وذلك للظهور بمظهر التدين لتبرير إستمرار سيطرتها وذلك بعد تغير الواقع العالمي نحو الديمقراطية وبعد تحرر الشعوب.

تشغل حياتهم، أو أنّهم يحاولون أن يكفّروا عن ذنوب ارتكبوها في حياتهم بأنماط وطريق الطائفية، وهذا هو الحجم الكبير من الطائفيين من الذين يعتمد عليهم في دفع الأحداث وتأجيجها[1].

الفئة الرابعة هي الفئة التي تقف خلف الكواليس والتي لا يروق لها أن تجتمع كلمة المسلمين على طريق واحد، لأنّ الاجتماع معناه أنّ المجتمع سيفكر جدياً بمآسي الحكم والدولة، وسيبدأ بتنفيذ ما سارت عليه دول العلم في تقرير شكل الحكم، إما بالانتخاب أو من خلال المجالس البلدية أو غيرها وهذا ما يهدّد هذه الدولة أو تلك، وعندئذ فإنهم يحولون الكرة إلى ملعب آخر كي تستمر لهم كراسي الحكم، هذه الفئة يقف خلفها مؤسسات دينية وصحفية ضخمة تمارس من خلالها العملية الطائفية بكل أشكالها وصورها، ويسير خلفها السواد العام من المجتمع البائس رافعين شعارات حفظ الإسلام وحفظ العروبة[2].

الفئة الخامسة هي الفكرة الصهيونية، وهي الفكرة التي تريد أن تُديم العلو الإسرائيلي وتُبقي إسرائيل بدرجة متقدّمة أمام أنظار العالم مما هو موجود في البلدان العربية[3].

---

(1) التدين والطائفية ككفتي ميزان كلما رجحت إحداهما ارتفعت الأخرى، فمعظم هذه الطبقة هم عوام الناس ارتبطت مصالحهم مع المخططين السياسيين ومع المستفيدين السياسيين من الظاهرة الطائفية. في العراق وفي أعقاب الحروب الدامية والإشتراك في ظلم الشعب لبعضه توجه الكثير منهم وبعد أن تقدم في العمر إلى أن يعادل تعذيب ضميره من خلال الإفكار الطائفية التي تبدو للآخرين بأنّها مزيلة للذنوب التي ارتكبوها في فترة من فترات حياتهم إما في سلك المخابرات أو في الجيش أو من خلال خدمتهم في سلك الحزب الحاكم السابق.

(2) هذه هي فئة الحكام العرب الذين إما أن يكونوا حكاماً عشائريين أو حكام إنقلابات وهؤلاء هم جلّ النظم السياسية العربية وهي ذاتها التي كان الربيع العربي يستهدفها في حركته الكبرى، مع أن ذلك الربيع وقادته لم يكونوا موفقين بالشكل الدقيق في رؤية تلك الرموز بشكل موفق لإزاحتهم ربما ما عدا الشعوب المثقفة جداً كالشعب المصري العظيم والشعب التونسي وكذلك البحرينيين، في الوقت الذي لا ننسى اليمنيين الذين فاجأوا العالم في قدراتهم وفي صبرهم، وكذلك الليبيين وغيرهم من شتات الربيع العربي.

(3) لأن وجود إسرائيل متحدة ديمقراطية غير طائفية يرتبط إرتباطاً وثيقاً بدرجة إحترامها أمام =

والطائفية في العراق لها جذور على المستوى السياسي، ولكنّها تغيب على المستوى الشعبي[1]. فالعراق عبارة عن مجتمع قبلي، بعض تلك القبائل سكنت المدن وتحوّلت إلى مجتمع حضري، وبعضها الآخر بقي كما هو سكن الريف في الواقع الزراعي، هذه العشائر غالباً ما يكون نصفها شيعي ونصفها

= دول العالم الغربية، وهذا الإحترام غالباً ما يكسب من خلال إحترام إسرائيل للحالة الحضارية للدولة، والتي ربما تتميز هي وحدها بين دول المنطقة في امتلاكها دولة عصرية على شاكلة دول الغرب، أما بقية الدول المحيطة بها فإنهم دول متصارعة غير ديمقراطية تسيطر على مسار حكمها عوائل وأسر لا تملك في دستورها انتخابات وإن سجونها مليئة بأولئك المعارضين من الأحرار وسجناء الرأي، هذه الصورة تحرص إسرائيل على الاحتفاظ بها أمام العالم وربما تكون هذه الميزة هي النقطة الوحيدة التي دفعت الغرب إلى مساندة إسرائيل، مع أن مصالح الدول الكبرى مع الدول العربية أكثر بكثير من مصالحها مع إسرائيل، وعندما تريد إسرائيل إدامة هذه الصورة فعليها أن تحرص كل الحرص في أن تمنع أية دولة من الدول العربية أن تقفز إلى مصافي الدول المتقدمة في الإنتخابات والصحافة والدستورية، ولكي يتحقق ذلك فإن أمام إسرائيل أن تعمل بحرص على إبقاء دولنا العربية على ما هي عليه من التخلف الحضاري والاقتصادي والسياسي وذلك بإثارة المشاكل الكثيرة لدولنا العربية أهمها هو المشكلة الطائفية.

(1) هنالك مصطلحات (الطائفية السياسية)، و(التشيع السياسي)، و(التسنن السياسي) هذه كلها تعطي معنى واحداً ذلك هو تجيير الدين أو الطائفة لخدمة هدف سياسي، هناك إتفاق بين كل الدول في أن من حق كل البشر الانتماء والتصريح بالانتماء لأي دين أو اعتقاد أو طائفة، بشرط أن تكون أفكار الشخص لا تحض على أذى أو الإجرام بالآخرين. ويعرف معجم الأوكسفورد الشخص الطائفي بأنه الشخص الذي يتبع بشكل مُتعنّت طائفة معينة، بالنهاية يمكن وصف الطائفية في عصرنا الحالي بأنها التميز بالعمل والمدخول، أو الكره، أو حتى القتل على أساس طائفة الشخص أو دينه، وغالباً في سياق الشركات تعبّر عن ترقية شخص ليس تبعاً لمؤهلاته وإنما فقط لأنه ينتمي إلى طائفة معينة. من حق كل طائفة الدعوى إلى اتباع طائفتها وإظهار أدلتها أنها هي على الحق والصدع بعقيدتها دون استخدام أساليب الكذب والنفاق للتمويه على ما في منهجها من إنحلال وأستحلال الحرام والدعوى إلى كراهية المخالفين والانتقام منهم، معظم الأحيان تكون الطائفية السياسية مكرسة من ساسة ليس لديهم إلتزام ديني أو مذهبي، بل هو موقف إنتهازي للحصول على عصبية كما يسميها بن خلدون، أو شعوبية كما يطلق عليها في عصرنا هذا ليكون الإنتهازي السياسي قادراً على الوصول إلى السلطة، إن مجرد الإنتماء إلى طائفة أو فقرة أو مذهب لا يجعل الإنسان المنتمي إلى تلك الطائفة طائفياً، كما لا يجعله طائفياً عمله لتحسين أوضاع طائفته أو المنطقة التي يعيشون فيها دون إضرار بحق الآخرين، ولكن الطائفي هو الذي يرفض الطوائف الأخرى ويغمطها حقوقها، أو يكسب طائفته تلك الحقوق التي لغيرها تعالياً عليها أو تجاهلاً لها وتعصباً ضدها.

سني، والعراقيون أحياناً يكون ولاء انتمائهم إلى العشيرة بشكل لا يقلّ عن انتمائهم المذهبي إن لم يكن أكثر، فهم يتزاوجون ويتعاملون ويسكن أحدهم جنب الآخر ويحمي أحدهم الآخر ولا تجد هنالك من تمييز اجتماعي يعكس النفور الطائفي بين السّنة والشّيعة.

عندما جاء الأتراك إلى حكم العراق اعتنقوا المذهب (الحنفي)، باعتباره المذهب الإسلامي الوحيد الذي يعطى لغير العربي موقع الخلافة على المسلمين كما هي للعربي، وجد الأتراك بأنّ اللّحمة العشائرية ما بين القبائل العربية أقوى من أن تفصم باستعمال سلاح الإسلام، لأنّ القبائل العربية برمّتها كانت تقف موقفاً سلبياً من الحكم الأجنبي التركي مع أنّهم أناس مسلمون، ولكنّ العنصر العربي لعب دوراً هاماً في تأجيج روح الرفض لحكمهم وهو ما حدث أيضاً في الوجود الإيراني عندما تتصارع الدولتان على احتلال العراق، وعندما وجد الأتراك أنّ المشكلة العربية وغير العربية ستصبح الحاجز الكبير لرفض العراقيين السيطرة على دولتهم تفتّق عقلهم عن استعمال مبدأ الطائفية في الحكم وبشكل منسّق ومنظّم[1].

وعندما سقطت الدولة العثمانية، وجاء الحكم البريطاني إلى العراق في عام 1920 فإنّه لم يستبدل رجال العصر التركي بأناس آخرين، وإنّما أبقى من كان يعمل مع تركيا والذي حارب البريطانيين في بداية الانتداب وقبل انتصارهم، أقرّهم على المناصب المهمة في الدولة كما كانوا أيام العثمانيين[2].

---

(1) فجعلوا هنالك نوعين من الجنسية العراقية، جنسية (أ) وهي للسنة العراقيين وجنسية (ب) وهي للشيعة العراقيين وسمّوا الأولى بالجنسية (العثمانية) والثانية بالجنسية (التبعية) وجعلوا لكل فئة من تلك الفئات من تسهيلات في الدولة العراقية، فأصحاب النوع الثاني من الجنسية العراقية يحرمون من التوظيف ومن الخدمة العسكرية وكليات العراق المهمة كما يحرمون من الوصول إلى مراكز القرار، أما النوع الأول وهو الذي أنيط به عجلة البلاد من وزارات وجيش ودبلوماسية وبعثات علمية وأوقاف... الخ (راجع كتاب الشيعة والدولة القومية، حسن العلوي).

(2) وبالمناسبة هذه ربما صفة تكاد تكون عامة في كل تغيير في الدول مثل الاتحاد السوفيتي الذي قاد رجاله بعد سقوطه الدول التي تفرعت من ذلك السقوط، وهو بالضبط ما حاولت =

وهكذا نرى أنّ الشخصيات التي استفادت من الوجود التركي للعراق في استعمال مبدأ الطائفية السياسية في الحكم قد وجدوا أنفسهم في وضع لا يحسد عليه في الاستمرار بنفس مباديء الطائفية التي سارت عليها تركيا، وهذا ما وجد ترحيباً كبيراً لدى بريطانيا أن تكون هنالك فئة عراقية تحارب فئة أخرى وهو ما يضمن لدولتهم دوام السيطرة على البلد.

بقيت هذه الحالة حتى سنة 1958 بثورة 14 تموز التي قلّلت الطائفية السياسية، وزعزعت قسماً من وجودها، ولكنّ الأخوان عارف وخصوصاً عبد السلام أعاد الطائفية السياسية إلى قوّتها وعنفوانها عندما استلم الحكم في 1963 وحتى 1967 وحدوث نكسة الخامس من حزيران، ثمّ مجيء حكم البعث في 1968الى الحكم الذي كرّس الطائفية السياسية ولكنّ ليس كما كان أيام الأتراك والبريطانيين، وإنّما بصيغة فئوية باعتبار أن الحكم البعثي له ما يميزه في إحكام سيطرته على الحكم أكثر ممّا يسهّل له الانقسام الطائفي السياسي.

وبسقوط بغداد في التاسع من أبريل عام 2003 وجد أولئك الذين كانوا قد استورثوا الزعامة العسكرية وزعامة الحكم والوزارات -وهم المتسننون السياسيين- أنّ قبضتهم قد تهاوت أمام ظهور عراق جديد، لا تقف الطائفية السياسية أمام السيل الهادر من علائم التوحيد التي سادت العراقيين متناسين

= أمريكا تطبيقه في العراق بعد السقوط في 2003، سبب تلك السياسة ليس بمستغرب في فلسفة الغرب الذي يرى في الخبرة لرجال الحكم عامل مهم من عوامل الاستمرار والاستقرار في الحكم الجديد، هذا فضلاً عن أن السياسي عموماً عندما تتصارع مصالحه الشخصية مع المصلحة الوطنية فإنه بالتأكيد سيختار الأولى، إلّا النزر القليل القليل، ولذلك فالكثير من الوزراء الذين استوزرتهم بريطانيا في بداية إنتدابها للعراق لا يتكلمون اللغة العربية أصلاً مثل رئيس الوزراء عبد المحسن السعدون، كما ان الكثير من أولئك القادة عندما يتكلم بالعربية يتكلم مع اللكنة التركية مثل نوري السعيد والسويدي والعسكري ثم ساطع الحصري، وعندما وجدت بريطانيا أنها سترث قطراً مثل القطر العراقي فيه من الشخصيات ما يسهل عليها مهمة السيطرة بسبب التحول الذي حدث في إخلاص أولئك الشخصيات من تركيا إلى بريطانيا، خذ بنظر الاعتبار إن الشيعة قادوا ثورتين كبيرتين ضد بريطانيا منذ اللحظة الأولى التي دخلت قواتها العراق.

مذهبيتهم متوجّهين إلى بناء عراق الكلّ، وجد أولئك أن الوقت قد حان كي يلعبوا بلعبة الطائفية، لأنّها السّلاح القوي والمؤثّر في مجتمع مجزّء مهشم لا تربطه روابط إلّا رابطة العراق (الوطن) وهي رابطة هشة ضعيفة، فبنوا في نفوس الطوائف شائعات (الثأر) وأنّ السنة تريد أن تهاجم الشيعة، والشيعة تهاجم السّنة وهذا ما ولّد حالة من حالات عدم الإستقرار وانعدام الأمن ما بين القبيلة الواحدة مع ظهور حالات التطرّف المتعدّدة (كالقاعدة) وغيرها وهذا ما جعل العراق يخوض في دماء غزيرة لأكثر من عشر سنوات، قتل الأخ أخاه، وذبح أبناء القرية الواحدة أحدهما الآخر، حيث لم تقتصر المذابح على السنة مع الشيعة، أو العكس، وإنّما تحوّلت الحالة إلى حالة من عدم الأمان، ووجد الجميع أنفسهم أنّهم ليسوا محميين من قبل الدولة ولا من قبل الجيش، فعليهم أن يقتلوا من يعتقدون بأنّهم أعداؤهم، وفي هذا الجوّ المحموم برزت عصابات الاختطاف والقتل والاغتصاب ومافيات قطع الرؤوس بحيث تحوّل العراق إلى ساحة للمجازر الكبرى لا توازيها في العصر الحديث إلّا مجازر (راوندا) و(بوروندي)[1].

فالحرب الطائفية حرب شرسة، يعجز الإنسان دائماً أن يوقفها لأنّها تفتّت تفكير المجتمع، وتحوّل الأفراد إلى أناس لا يملكون الأمان مع حقد دفين وثارات مستمرّة وهذا ما يدفع الجميع إلى اتّخاذ القتل اليومي زاداً له.

على دولنا العربية الشقيقة أن تستفيد من واقع العراق الحالي، وأن تدرك أن الطائفية سلاح سهل الاستعمال، سهل الانتشار من منطقة جغرافية إلى

(1) الإبادة الجماعية في رواندا هي إبادة وقعت في إبريل 1994 حيث تعرّضت الأمّة الإفريقية الصغيرة في رواندا إلى أكثر الإبادات الجماعية في التاريخ في القرن العشرين تمت بواسطة حدث سياسي خطير قام علي أساس الدعاية العنصرية من مجموعة الأغلبية هوتو (يمثلون 80%) وقاموا بذبح أكثر من ثمانمئة ألف فرد من جماعة الأقلية التوتسيي (يمثلون 10%) في مدة 100 يوم بواسطة المنجل، وقد تمّ تفسير هذه الصراع علي أساس التنافس القبلي بين الجماعتين الممتد منذ قرون ولم ينجحوا حتى في التصالح في مرحلة ما بعد الاستعمار، ولم يتدخل العالم أو يرغب في التدخل لإنقاذ الموقف. (راجع المصدر السابق المذابح في التأريخ).

منطقة جغرافية أخرى، وهو لا يحتاج إلى أدوات تقنية متطوّرة وإنّما تسير الطائفية بالشائعات مع بعض الكتيبات الصغيرة، وبعض وسائل الإعلام عندها تتقوّى شوكة الطائفية وتسود البلاد، وتدمّر الجميع، ولا يستفيد منها إلّا أولئك الذين خطّطوا لها، وعليه فإنّ محاربة الطائفية اليوم هي من مسؤولية الجميع من رجال الدولة، ورجل الشارع العادي، ورجل الدين، والمثقف السياسي، وغيرهم ممن يجب عليهم المبادرة لمحاربة هذا الوباء[1].

(1) عندما زرت السعودية قبلاً وجدت الحس الطائفي الكبير الذي يحتقنه الكثير من رجالات المؤسسات الدينية التي ترعاها الدولة، ووجدت أن ذلك الهاجس قد تحول إلى قضية مركزية في عقول الكثير من علماء تلك المؤسسة، فاطلعت على ما كتبوه من أدبياتهم وبحوثهم في محاربة الطوائف الأخرى ونعتهم بالكفر، بل ليس ذلك فقط وإنما القتل، إن المؤسسات الدينية معظمها في المملكة أصبحت لها استقلالية مالية وسياسية وعلمية واجتماعية عن الدولة، تنازع الدولة أحياناً في مركز من المراكز أو قرار من القرارات، الحكومة السعودية تعيش اليوم في ورطة كبيرة لا أعرف هل بالإمكان علاجها أو أنها ستسقط أمام المؤسات الدينية الكبيرة والمنتشرة في طول المملكة وعرضها، وهل ممكن للدولة من أن تستبدل مناهج الدين ومناهج الثقافة التي كانت هي الأساس في بناء ثقافة الدين المتشنجة في المملكة ومن تلك الكتب التي تدعو إلى قتل المسلمين وتكفيرهم، إنها فعلاً من أصعب الصعوبات ولا أدري إن كان هنالك في الأفق من أمل في استبدال هذه بتلك، فليس أمام السعودية اليوم إلّا أن تعمل جاهدة على إنقاذ نفسها من مصيبة قادمة إن حلت فإنها تدمر الجميع.

هل هنالك من نظام للحكم في الإسلام...؟

هذا سؤال يمكن أن يطرح نفسه في هذا الوقت بالذات، أو ربما في كلّ الأوقات، هل هناك نظام سياسي محدّد وواضح في الإسلام...؟ وللإجابة عليه يجب علينا أن نحيط بجوانب كثيرة من المسألة الشائكة لهذا السؤال المحيّر[1].

من وجهة نظرهم لقد كان هنالك الكثير من الكتب والمقالات والدراسات التي تناولت هذا الجانب ولكنها كانت تتحدّث عن مجرد مفاهيم عامة عن الحرية والدولة والعدالة وصفات الحاكم، كل تلك الكتب كانت هامشية شأنها شأن أيّ كتاب يكتب في أي مشروع سياسي أو ديني أو اجتماعي، وفي الوقت عينه كانت تلك الكتب تتحدث عن شواهد تأريخية قديمة مأخوذة من كتب التاريخ القديم والتي هي في مجملها كانت غير موثّقة، وإنّما كتبها مؤلّفون كانوا آنذاك يعيشون تحت ظلّ حكّام يسيطرون على الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية لذلك المجتمع، أي أنظمة شمولية بالمعنى الحديث، ككتاب علي عبد الرزّاق، وكتب بعض قادة الإخوان المسلمين، وقادة أحزاب إسلامية أخرى.

إنّ معظم تلك الكتب هي كتب إنشائية تصوّر لنا مجتمعاً مثالياً للإسلام

(1) في إحدى زياراتي لمصر وفي سنة 2006 وبينما كانت الانتخابات العامة على أوجها نزلت الشارع فوجدت اللافتات ترتفع والشعارات تصدح في كل مكان كتب عليها (الإسلام هو حلنا الوحيد) وأخرى مكتوب عليها (الإسلام فقط لا غير!) وهكذا دواليك، كانت تلك شعارات عامة رفعها المستفيدون وأعتقد (الإخوان) وهم خلف الكواليس كي يصلوا في نهاية الأمر إلى ما يطمحون اليه ويصبح الشعار الوحيد لديهم الكرسي هو الحل.

تحت ظروف مثالية بقيادة ديكتاتورية مفروضة يرأسها فرد (خليفة) أو (راعي) أو (حاكم) أو مجموعة من الأفراد، والشيء الغريب في تلك التراثيات هو التبجّح العلني بالأسلوب الدكتاتوري لقيادة المجتمع في تطبيق الأحكام التي تقام على أساسها الدولة، فالممنوعات في الإسلام والتي هي من المحرّمات يجب على الدولة أن تستعمل القوة حتى يمتنع المجتمع عن ممارستها، وأنّ ذلك المنع- برأيهم- لا يدخل ضمن الديكتاتورية، وإنّما هي أوامر إلهية والأمر الإلهي لا يمكن أن يدخل في خانة الديكتاتورية، فهم لا يذكرون آلية إقامة ذلك الحكم أو آليات تكوينه، وإنّما يقفزون مباشرة إلى النواهي والعقوبات والواجبات التي تلزم الأفراد في اتّباعها.

ويمكن لي أن اتفهّم السّبب في إغفال هذا الجانب الرئيسي في أدبيات القادة المسلمين منذ أكثر من ربع قرن من الزمن حيث تناول المفكرون الإسلاميون جوانب عديدة ومتنوعة وخاضوا في مواضيع عديدة ومتشعّبة، ولكنّهم لم يأتوا على التفكير بالوسيلة الأنجح لإقامة حكم إسلامي وطرق تكوينه.

إنّ تفهمي لذلك الأمر ينطلق من حالة وشكل الحكم الذي كان المسلمون يعيشونه في العالم الإسلامي، وتناول موضوع كهذا معناه القدح في النظام القائم أو انتقاد أساسيات ذلك النظام، ولو أراد أحداً البوح به أو مناقشته وانتقاده فإنّ مقصلة الكفر والتكفير ستكون له بالمرصاد من دون أدنى شكّ، وقد وقع تحت وطأة تلك المقصلة الكثير من المفكرين والعلماء الإسلاميين وغير الإسلاميين لمجرد أنّهم اجتهدوا في قضية حسابية تخصّ قضايا نظرية بحتة كقضية تنزيل القرآن وقدمه، وتعرّض الكثيرون للإنتقاد والتكفير بسبب إيمانهم بهذا أو ذاك، وكان الحاكم يميل إلى جهة معينة ضدّ جهة أخرى كي يتمكّن من القضاء على هذا الفريق المعارض، ومنع أي قضية إجتهادية أخرى قابلة للدراسة أو البحث في ظلّ هذا الحكم، فالتوغّل في قضايا الإجتهاد والبحث سوف يؤدّي في يوم من الأيام لمناقشة قضية الحاكمية والحكم، ومن هو المؤهل كي يكون الحاكم الحقّ، عندئذ ستتطور الأمور إلى ظهور حركات وقوى تناهض الحكم الموجود.

وقد برزت خلال القرن الماضي قوى عديدة اجتهدت في موضوع الحاكمية وتحوّلت إلى مدارس فكرية خاصة وضعت في زاوية المارقين أو الخارجين عن الدين كما هو حال الإسماعلية[1] والكيسانية[2] وغيرها من المدارس التي أسّست لنفسها نظاماً خاصاً بها منفصلاً عن نظام الخلافة المركزية آنذاك[3] ولهذا فإنّنا اليوم قد نجد أن الباحثين الذين تعمقوا في موضوع أشكال الحكم في الإسلام هم من المذاهب الفكرية والأقلية في عداد الجسم الإسلامي الكبير كالزيدية[4]، والخوارج[5].

(1) الإسماعيلية إحدى فرق الشيعة وثاني أكبرها بعد الإثني عشرية، يشترك الإسماعيلية مع الاثني عشرية في مفهوم الإمامة، إلّا أنّ الانشقاق وقع بينهم وبين باقي الشيعة بعد موت الإمام السادس جعفر الصادق، إذ رأى فريق من جمهور الشيعة أن الإمامة في ابنه الأكبر الذي أوصى له إسماعيل المبارك، بينما رأى فريق آخر أن الإمام هو أخوه موسى الكاظم لثبوت موت إسماعيل في حياة أبيه وشهادة الناس ذلك، تفرع من الاسماعيلية مذاهب متعددة وذلك بسبب الاضطهاد الذي تعرضوا له بعضهم اتخذ الاسلوب السري طريقاً للدعوة إلى أن تحولت وبمرور الوقت بعض من أفكارهم إلى الى شئ خاص بهم فاصبحوا باطنيي التوجه، وبالرغم من وجود أفرع للمذهب الإسماعيلي فإنه في الاستخدام المعتاد اليوم تدل تسمية الإسماعيلية على النزارية ومنهم تفرعت الأغاخانية المعروفة في الغرب وهم غير فرقة المستعلية التي لازالت تتبع أسلوب المحافظة على التشريع.

(2) الكيسانية فرقة منقرضة، كان يدعو أتباعها إلى إمامة محمد بن علي بن أبي طالب، المعروف بابن الحنفية بعد مقتل أخيه الحسين.

(3) نظام الخلافة المركزية (السنية) تمثله مدرستان هما الأشاعرة في العموم ثم المعتزلة وفي الواقع لم تستند أدبيات كلا المدرستين على الكتاب والسنة، وإنما وبسبب غياب ذلك في المصدرين الرئيسيين فإن معظم الأفكار أخذت من خلال سيرة الشيخين في تعاملهما مع موضوع الحكم.

(4) الزيدية أو الزيود فرقة إسلامية تبلورت في أوائل العصر العباسي في القرن الثاني الهجري وسميت بالزيدية نسبة إلى الإمام زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. وهم أحد الفرق الإسلامية الشيعية.

(5) تتصف هذه الفرقة بأنّها أشدّ الفرق دفاعاً عن مذهبها وتعصبا لآرائها، أصر الخوارج على الإختيار والبيعة في الحكم، مع ضرورة محاسبة أمير المسلمين على كل صغيرة، كذلك عدم حاجة الأمة الإسلامية لخليفة زمن السلم.

انفصلت تلك المدارس عن جسم الخلافة العباسية أو العثمانية بسبب الاختلاف على شكل النظام وشكل الحاكم.

أما الإمامية المعروفون بقدراتهم العميقة في البحث والتنقيب في العلوم الدينية والدنيوية فإنّهم كذلك لم يشبعوا الموضوع دراسة وبحثاً كافيين خلال القرون المنصرمة باعتبارهم طائفة كانت تعيش الاضطهاد على مدى أربعة عشر قرن الماضية أي منذ ظهور الإسلام وحتى النّصف الثاني من القرن الماضي، فهم ليسوا بحاجة أن يكتبوا أو يناقشوا موضوعاً لم تتوفر فيه الحاجة إلى طرحه أو دراسته(1).

أقام الإسماعيليون في بادئ الأمر دولاً متفرقة في العالم فالدولة الفاطمية والحمدانية والبويهية كانت من الدول التي تتظلّل بشرعية الدّولة الأم أي الدولة العباسية فليس من المعقول أن تناقش موضوعاً يضرّ بهذا النوع من التوأمية مع الدولة العباسية.

وعندما وصل الأمر إلى الدّولة العثمانية كانت مواضيع الحكم واجتهاداتها من الأمور الخطرة التي تودّي بصاحبها إلى عواقب وخيمة بسبب قساوة وسطوة السيف المسلط على رقاب الناس من قبل الأتراك كما كان سلفهم من الدولتين التي سبقتهم.

وهكذا بقي هذا الموضوع مجمّداً حتى سقوط الدولة العثمانية سنة 1920 وابتداء عصر الاستعمار، ثم عالم القوميات ودول العالم القومية في أوروبا وفي الدول العربية ممّا أدّى الى غضّ النّظر عن بحثه ثانية.

---

(1) الامامية ومنذ إقصاء علي عن الخلافة ما بعد الرسول وإلى زمن الغيبة الصغرى فإن تأريخ الائمة الاثنى عشر لم يظهر أي طموح في التصدي أو إستلام الحكم الدنيوي لا عملاً ولا فقهاً ولا فكراً. أما في زمن الغيبة والى الآن فإنّ الغالبية الكبرى منهم من المحدثين ومن القدماء لا يقرّون إقامة دولة بإسم الإسلام بدون حضور المعصوم، ولذلك لم يتطرق علماء هذه المدرسة إلى مناقشة موضوع ليس من اختصاصهم (شمس الدين، نظام الحكم في الإسلام).

ولكنّ الشيء الذي حدث والذي لو أردنا ان نؤرّخه لكان تأريخ ما بعد الخامس من حزيران من سنة 1967 ذكرى نكبة العرب في حربها مع إسرائيل وبداية الصعود الفكري الإسلامي ثمّ تكوين الحركات الإسلامية المتنوعة في العالم، والتي كانت من أشدّها أحداث 1979 عندما وصل آية الله السيد الخميني إلى إيران ليعلن قيام نظام دستوري إسلامي في الوقت الذي كان فيه العالم يفتقر إلى معرفة فيما إذا كان هنالك مثلاً نظام إسلامي دستوري فضلاً عن ذلك الذي قدمه قائد الثورة آنذاك.

إنّ وجود ذلك النظام كان مفاجأة كبيرة للعالم أجمع، وهو نظام كان الإمام قد حضّر له قبل عقد أو أكثر من الزّمن والذي استند فيه على تأريخ وروايات وثّقها وجعلها دستوراً للبلاد والذي على ضوئها دعا الشعب الإيراني لتقبّل فكرة هذا الحكم الإسلامي حيث أصدر وثيقة قدّمها الإمام تحت اسم (ولاية الفقيه) وكانت الدستور الذي تعمل به إيران اليوم.

ما هي باختصار ولاية الفقيه؟[1].

---

(1) إنّ ولاية الفقيه تبدأ من عقائد الإمامية ومغزاها هو أن حكم البشر هي من صلاحية الباري عزّوجلّ، كذلك التشريع فهو من اختصاصه سبحانه وتعالى، ولكي يحكم الإنسان على الأرض فإنه يحتاج إلى شرعنه أو تفويض من الباري، وبعدمه فإن أساس ذلك الحكم باطل وغير شرعي، هذا هو علة الفكر التي جاء بها الإمام الخميني في أنه أناط مسؤولية الحكم إلى فقيه العصر (ضمن صفات معينة) بعد أن استنبط التفويض الشرعي من الباري عزوجل ضمن السلسلة الفقهية التي يعتمدها الفقهاء في تقرير الحكم والتي تبدأ بالتسلسل الذي يقول بأن الله بعث الرسول الاكرم (ص) رسولاً إلى البشرية لهدايتها بشريعة السماء بمواد دستورية متمثلة بالقرآن وبسلوك الرسول والذي هو في حد ذاته قانون، وهذه الشريعة تحتاج إلى راع لتطبيقها بعد وفاة الرسول الاكرم (ص) وحتى قيام الساعة، فالقائمون على تطبيق الشريعة هم الائمة الاثنا عشر والذين يبدأون بالأمام علي (عليه السلام) وينتهون بالغائب الحجة محمد بن الحسن (عليهما السلام) وهذا التطبيق لشريعة الله التي أنزلها على رسوله الأكرم إما أن يكون تطبيقاً عملياً فيما لو حدث وأن كان الإمام بإمكانه أن يملك السلطة الدنيوية كما حدث للأمام علي، أو أن يطبق أحكام الشريعة بحفظها وكتابتها ونشرها كما حدث مع الائمة الآخرين بعد الإمام علي وحتى زمن الحسن العسكري الإمام الحادي عشر، والتي هي الفتره التي نضجت فيه الأفكار على المستوى النظري وبقيت على تلك التركيبة النظرية كاطروحة تنتظر الوقت المناسب للتطبيق إما من قبل الشخصية المعصومة (الإمام الثاني عشر) أو من قبل من هم أقل منه في القدرة =

وهنا يمكننا أن نلاحظ جلياً بأنّ هذه النظرية تستمدّ عمقها وشرعيتها من التفويض الربّاني للإنسان، وأقوى آية من الآيات القرآنية التي استندت عليها هذه النظرية هي الآية في قوله عزّ من قائل[1]. هذا كلّه من خلال النظرية التي وضعها الإمام الخميني رحمه الله.

كما ظهرت هنالك نظريات متباينة ومتعدّدة في مسيرة المذهب الإمامي ترى بأنّ الشرعية المستمدّة للحكم القائم هي من الأمّة ذاتها، وهو مشابه للرأي الغربي الديمقراطي في أنّ القانون يستمدّ شرعيته من الناخب بعد إقرار الجهه التشريعية بقانونية النتائج وهو مشابه لما هو معمول به في موافقة المحكمه العليا في النظام الانتخابي الأمريكي[2].

والسّؤال الكبير الذي لم نجب عليه إلى الآن والذي بدأنا في مقدمته ولم ننتهِ إلى آخره هو ما هو شكل الحكم الإسلامي...؟ هل يمكن أن يكون

= التشريعية والإنسانية وهم الفقهاء، وبما أن الله سبحانه وتعالى قد ترك أمر إنشاء الحكومة الإلهية إلى الناس ولم يتدخل في نصبها، وإنما أحالها إلى الأمة في ذلك، فإن غاب الإمام الثاني عشر عن الناس كي يظهر في يوم من الأيام لتطبيق الحكومة الكونية الشاملة، فإن الظرف ما بين هاتين المحطتين وفي تغير الظروف فهنالك حاجة عقلية لقيام الحكومة التي ترعى أمر الناس، وتطبق فيها الشريعة الربانية على هذه الأرض، هذه الفتره الزمنية منذ 320 هجرية إلى وقت ظهور المخلص المهدي هي الفتره التي يجتهد بها الناس في تقرير شكل الحكم وشكل النظام مما يرعى مصالح الناس وتطبيق العدل وهي ما يسميها البعض ب (منطقة الفراغ)، وهنا وبغض النظر عن قوة سنديّة الرواية من عدمها فإننا هنا لا نحتاج وفي رأيي الشخصي من أن نناقش الوجوب العقلي لقيام حكومةٍ ما، أو أن نناقش مساحة عمل تلك الحكومة وشموليتها، وهل هي في ذلك للأمور الحسبية...؟ أم مما يتعلق بدماء الناس وأبشارهم كما تعبر عنه كتب الفقه...؟ ومن رغب في الاستزادة في ذلك فأمامه النظرية مطروحة في عدة بحوث ممكن أن يجدها الباحث في المكتبات وعلى صفحات الانترنيت.(المدرسة الإسلامية، محمد باقر الصدر).

(1) إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء، (المائدة 44).

(2) والذي يذهب إلى ذلك العلامة الكبير الشيخ محمد حسين النايني في كتابه المعروف تنبية الأمة وتنزيه الملة، الذي يرى بأن النظام الإسلامي قد وضع فقط خطوط عامة لشكل الحكم، وأن على فقهاء العصر أن يحددوا بعد أن يستنبطوا هوية ذلك النظام وطبيعته برلمانياً كان أم رئاسياً أو ما إلى ذلك من فرضيات الحكم.

ديمقراطياً أو رأسمالياً أو اشتراكياً...؟ أم أنّه خليط من كلّ ذلك...؟ أم أنّه لا ينتمي إلى أيّ من تلك الأنظمة وله نظامه الخاص الذي لا نعرفه نحن...؟

هنا اختلف فقهاء الإسلام بأجمعهم وتشتّتوا في تحديد هذا الشكل، وفي الواقع وبكلّ صراحة أستطيع أن أقول أنّ هؤلاء لا يعرفون الجواب على ذلك، وعدم معرفتهم لا ينطلق من قلّة معلوماتهم أو جهلهم كما هو حالي عندما أقول أنّني لا أعرف شيئاً في علم الفلك، لإنّني وبكلّ بساطة لم أطّلع ولم أقرأ عن هذا العلم. إنّ عدم معرفة العلماء عن شكل النظام الإسلامي منطلقه من عدم توفّر مادته الفكرية في الكتاب والسّنة كي يبني عليها العالم أو رجل الدين الفقيه رأيه ويبدأ في مناقشته فيما بعد في تخريج النتائج.

وهنا أعتقد أنني يجب أن أساند هذا الرأي بمثال كي يتوضح المعنى وتكتمل الصورة التي أريد طرحها قبل أن يُساء فهمي من قبل القارئ العزيز وأقول بأنّ الإسلام لم يأتِ بنظام اقتصادي، بل أنّ النظام الاقتصادي الإسلامي هو حالة مستنبطة من مصدري التشريع الإسلامي (الكتاب والسنة).

إنّ الإسلام أو أيّ دين آخر لا يمكن له أن يوحي من السماء نظاماً مكتوباً يشمل الحياة برمتها بكلّ أعراقها وأزمنتها، هذا هو نوع من المستحيل، فلو تحقّق ذلك الذي ذكرناه فإنّه كان يجب علينا أن نجد أن القرآن اليوم يتكون من آلاف الأجزاء وليس بهذه الصورة الموجودة بين أيدينا وهو ما يُعبر عنه ما بين الدفتين، كذلك الأمر في السنة النبوية الشريفة وهي أقوال الرسول (ص) وفعله والتي يجب أن تكون في سلسلة من آلاف الكتب، ولكنّها هي في الحقيقة تجمّعت في عدد قليل من الكتب.

إذن فالإنسان يحتاج تلك المواد الدستورية التي تنظّم حياته في جميع جوانبها وتدير شؤونهم فأين هي إذن...؟ والجواب بسيط ولكنّه من السّهل الممتنع.

فالقانون الإلهي أو الدين لا ينفصل بأيّ حال من الأحوال عن قوانين الطبيعة، وقوانين الأرض مثل قانون الجاذبية وقانون المرض، وقانون العمر

الفعلي، والعمر العقلي، وقانون الانحراف النفسي، وغيرها من القوانين الأخرى الفاعلة التي نراها موجودة في أرضنا هذه، بعضها تمّ اكتشافها قبلاً مثل قانون الجاذبية وقانون الطّاقة والكتلة، وبعضها لم يكتشف لحد الآن مثل قانون الزّمن الذي نحن في بدايات الإطلال عليه، وقوانين الطب بكلّ أبعادها وبما فيها من غموض وتعقيدات عميقة جداً.

إنّ دور الإنسان في هذه الحياة هو ليس صناعة القانون، وإنّما اكتشافه، كما اكتشفت قوانين الفراغ وقوانين الميكانيك، وغيرها ممّا شاهدناه في خلال الحقبة التي عشناها في نهاية القرن الماضي وبدايات هذا القرن، وبقدر عبقرية الإنسان من اكتشاف المزيد من تلك القوانين فإنّ الإتّجاه الطردي سيعمل بما هو منفعة له على المستوى العملي والمستوى الإداري لجنس الإنسان، فيستطيع حينها أن يُطوّع الحياة كيفما يشاء ويسخّرها لخدمته ممّا ينعكس بطبيعة الحال على طريقة معيشته وتعامله مع أخيه الإنسان.

إنّ الدّين هو أيضاً مجموعة من القوانين الإنسانية التي تحتاج إلى الكثير من البحوث لاكتشافها، ويتطلّب من الباحثين الملتزمين أن يبحثوا فيه كي يحوّلوا ذلك العلم إلى قانون فعلي يطبق على الناس كنظرية اجتهادية يمارسها العلماء الإسلاميون (عملية الإستنباط)، فإذا كان المختبر الذي اكتشف العلاقة ما بين الطاقة والكتلة له وجود فعلي، فإنّ العملية الاستنباطية التي يجب أن يقوم بها المستنبط أو المجتهد هو أن يكون حيّزها حيز العقل والمجتمع وببحوث مستمرة وطويلة وصعبة، لأنّ العلم التجريبي كالطّب والميكانيك أسهل كثيراً فيما يخصّ الجانب البحثي والاستنباطي عنها ممّا يتطلبه الجانب العقلي والجانب الفطري الإنساني[1].

(1) من أوائل من نادى بالنظرية الاستنباطية هو العالم الكبير (بيكون) في القرن السادس عشر إذ يعتبر هذا الرجل هو حلقة الاتصال بين الماضي والحاضر، وهو أستاذ الفكر الاستنباطي البحثي وذلك لأنه يرى أن الفلسفة علم نظري بحت لا ينفع ولا يضر، وأدرك بأن العيب الأساسي في طريقة التفكير لدى فلاسفة اليونان والعصور الوسطى هو الاعتماد على الجانب النظري فقط، وهو ليس وحده كفيل بالوصول إلى العلم، ورأى أن الداء كله يكمن في طرق الاستنتاج =

وبالعودة إلى النظام الاقتصادي في الإسلام كمثل ضربناه سابقاً لنوضح المعنى، ونأتي به الآن حتّى تكتمل الصورة، إن تطبيق الإقتصاد في الإسلام ما هي إلّا عبارة عن شذرات ومواقف متفرقة منذ مئات السنين، وهذه إما أن تكون موجودة في الآيات، أو في الأحاديث التي ذكرت على لسان الرسول، وما على الباحث إلّا أن يجمعها كي تكون مادة من مواد البحث لاكتشاف القانون الإقتصادي الذي تحتويه تلك المادة الفقهية من خلال المعلومات التي جمعت بطريقة استباطية أو إستقرائية.

إنّ مهمة المجتهد أو العالم أو الباحث الإسلامي الأساسية هي استنباط القانون الإنساني الذي من خلاله يتمكّن هذا الدين من تنظيم علاقات الناس فيما بينهم، فليس هنالك من تنظيم لأي شيء في الحياة بدون أن يسبق ذلك قانون موضوع متعلّق بأصل الحاجة التي يسعى إليها الإنسان، والقانون الإسلامي يختلف عن القانون الوضعي في أنّ الأولويات جاءت أو أنزلت أو كتبت من قبل السماء ثم تحوّلت إلى نصّ، فإذا كان الأمر كذلك فهنالك نصّ في الأمر، وليس أمام الباحث الإسلامي إلّا أن يبني على ذلك النصّ رأيه وعليه أن يكتشف قانوناً خاصاً بالموضوع.

لكنّ الباحثين الإسلاميين ومع الأسف، لم يتوجّهوا إلى اكتشاف القوانين التي تنظم علاقات المجتمع، ولم يمارسوا عملية البحث في هذا المجال حتى يتوصّلوا إلى اكتشاف القانون من خلال ما وصلهم عن القرآن وعن الرسول، ولقد قام البعض بتلك المحاولات من علماء أفذاذ وعمالقة تمكّنوا من إستنباط مذهب إسلامي للاقتصاد في الإسلام، وكان أوّلهم العلّامة الصدر في سنة 1960 في الوقت الذي كانت ظروف منازلة النظريتين العالميتين مؤاتية على

= القديم، وقد حمّل الفلسفة التقليدية وزر الجمود العلمي والقحط العقلي وعجزها عن الإسهام الفاعل في رفاهية الإنسان وتقدمه، وقد أعتقد بيكون أنه قد وجد الطريقة الصحيحة في الصيغة الجديدة التي وضعها للاستقراء، ويقصد به منهج إستخراج القاعدة العامة (النظرية العلمية) أو القانون العلمي الإستنباطي من مفردات الوقائع استناداً إلى الملاحظة والتجربة (البحث). من الممكن الاطلاع على كل ذلك من خلال الموقع الإلكتروني تحت مادة (بيكون): (http://arz.wikipedia.org/wiki)

مستوى الفكر، وكانت الدول العربية تعاني من ضعف في الحالة السياسية والاجتماعية والإقتصادية أمام الغزو الفكري والاجتماعي لكلتي النظريتين[1] .

وهكذا نرى أنّ البحث العلمي قد وجد طريقه في الحياة وتقدّمت الإكتشافات العلمية وتطوّرت وسائل الحياة بفضل تلك البحوث التي قدمت إلى البشرية من قبل مراكز البحوث، ومن قبل العلماء الذين اتخذوا البحث طريقاً لاكتشاف قوانين الطبيعة.

ولكنّ الشيء المؤسف هو تأخّر علماء الإسلام في مجاراة أسلوب البحث في شؤون المادة الإسلامية القرآنية والنبوية ممّا أدّى إلى أن يعاني الفكر الإسلامي من نقص هائل في إبداعاته (و أكرّر إبداعاته) وكانت النتيجة التي لمسناها في القرن الحادي والعشرين وبعد 1450 سنه من ظهور الرّسالة بأنّنا عاجزون في أن نكتب نظاماً للحكم، أو نظاماً للمجتمع، أو نظاماً لعلوم النفس، وما إلى ذلك.

هذا التأخّر عن مواكبة مسيرة الإستنباط أو مسيرة البحث والإكتشافات أدّى إلى أن يصلنا الإسلام بقوانين عرضة للإجتهاد الشخصي والإجتهاد النفعي والسياسي، وهذا ما أثّر بشكل كبير على مسيرة جسم الأمة برمّتها.

هذا الفراغ العقائدي والديني والفكري ترك المجال واسعاً أمام أنظمة أخرى مادتها الإنسان بذاته وبتفاعلاته ورغباته ونزواته واسعة حيال ظلمه لأخيه الإنسان، وذلك ما أنتج نظاماً عالمياً ناقصاً يفتقد إلى القيم الأخلاقية، وتغيب عنه مفاتيح النظرة الواسعة إلى الحياة وارتباطها بالسماء، وهذه هي النتيجة المرّة التي نعيشها اليوم عندما أهمل الباحثون الإسلاميون وخصوصاً أولئك الذين كانوا يعيشون في كنف الدولة المسيطرة من أن يمارسوا عملية البحث في تراث الإسلام (الكتاب والسنة) وأن يستنبطوا نظاماً حراً وعادلاً تتمكّن البشرية من خلاله العيش بسلام بدلاً من حالة الفوضى وحالة اللاأمان

(1) راجع كتابي أقتصادنا وفلسفتنا وكذلك كتاب (الأسس المنطقية للإستقراء).

التي تمرّ بها البشرية والتي دخلت في حربين عالميتين مات فيها ملايين من الناس، فسفك الإنسان دم أخيه الإنسان، وأكل من لحمه (كما هو الأمر في سوريا) وارتكبت الفضائح بحقّ بعضهم البعض الآخر حتى تطور شعور اللاأمان إلى أن يبتدع الإنسان أبشع الوسائل لهلاك أخيه في عملية مبرمجة، علمية ابتدأت بهيروشيما وناكازاغي، ولم تنتهِ بعد إلَّا بمذابح (سبرينيستا) والعراق وغزة وسوريا وبوروندي وغيرها ممّا أظهرت وحشية بعض البشر ضدّ البعض الآخر.

ولكنّ الشيء الغريب الذي حدث وبعد أن مرّت البشرية بأحداث جسام منذ العصور الوسطى وإلى تقريباً أواسط التسعينيات من القرن الماضي، قرّرت البشرية أن تبحث عن نظام عالمي يوفّر لإنسان اليوم شعور الإنسانية والأمان وذلك في أن تبدأ من حيث ابتدأت رسالة السماء، وهو العودة إلى قوانين الفطرة الإنسانية في محاكاة الواقع بدلاً من القول بالعودة إلى الدين وإلى تعاليم الأديان التي وصلتهم، إذ لم يجدوا في الإسلام في هذا الوقت إلّا مظاهر فارغة جوفاء من خلال الممارسة التي قدمت لهم من قبل الحكام وأنظمة الحكم التي أوصلت هؤلاء إلى مراكز القوة والذي لم تستهوهم تلك التجربة التي أصبحت لا تختلف عن تجارب الأديان الأخرى في العصور الوسطى، وهذا ما أدّى بالبشرية الآن إلى البحث عن بديل آخر ربّما بعضه من قوانين السماء وبعضه من إبداع الإنسان.

ومع شديد الأسف وبمراجعة بسيطة لبعض ما كتب خلال الألف وأربعمائة سنة لوجدنا أنّ تلك الكتب تمتهن تسقيط الآخرين وتكفيرهم والدعوة إلى قتلهم والقضاء عليهم، نعم هنالك البعض اليسير من تراث علمائنا العرب والمسلمين الذين هزتهم الحمية لنصرة الإسلام ونصرة تراثه السماوي العظيم وكتبوا تلك الكتب في تخصّصات الثقافات العامة ككتاب القانون في الطب لابن سينا، وكتب اللغة، وكتب العلوم الأخرى كالفلك والكيمياء، ولكنّ معظمهم أهملوا ما هو أهم من الطب والكيمياء، فالإسلام لم يأتِ يوماً كي يتحول إلى علم طب أو فلك أو صيدلة أو تجارة، وإنّما هو

نظرية سماوية جاءت كي تضع للناس قوانين الحياة في كيفية التعامل مع بعضهم البعض في مجال الحكم ومجال التربية والاجتماع وبقية مجالات الحياة المهمة، وهكذا تكاد المكتبة الإسلامية تخلو من نظرية إسلامية للحكم يستعين بها أولئك الذين يدعون إلى عودة الإسلام إلى الحكم.

هذا الموضوع كان من أهمّ المواضيع التي أثارت انتباهي منذ زمن بعيد وخصوصاً بعدما اطّلعت على أنظمة الحكم وخصوصاً الغربية، منها وصرت أتابع البحوث التي تقوم بها لجان متخصّصة لتقديم أفضل أساليب الحكم التي يجب أن تقوم بها الحكومة، ووجدت أن الإسلام في الواقع لا يملك نظرية محددة لشكل الحكم، بل ترك ذلك تبعاً لحالة هذا الشعب أو ذاك، بل بدلاً من ذلك وضع أساسٍ مهمٍ، وعلى ذلك الأساس تقام أنظمة الحكم من تلك الثوابت، وهي إقامة العدلً كأساس أول (و إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) (النساء 58) وهذه آية ليست مختصة بالحكم القضائي فحسب، وإنّما هي آية ثابتة من آيات البحوث التي تعتبر مادة للمشرع كي يستنبط منها قانوناً ما يتعلق بالحكومات وأنظمة الحكم المرجوّة.

أمّا الأساس الثاني فهو القانون الإنتخابي الذي بدونه لا يمكن لأي حاكم أن ينال فيه الشرعية لرئاسة حكومة ما وبدون توفّر هذه النقطة وهي التي لمّحت إليها الآية ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى 38] ومع أنّ الكثير من العلماء غير المتخصّصين، ومع الأسف، قد حجّموا هذه الآية وفرّغوها من محتواها وأشاروا إليها بأنّها تدعو الناس إلى التشاور، وكأنّ الناس قد غابت عنهم أهمية أن يستشير أحدهم الآخر، أو أن المجتمع يجب أن لا يتزمّت برأيه...

لقد أفرغوا هذه الآية تماماً من محتواها وحولوها إلى آية عادية شأنها شأن أي آية أخرى في القرآن وضعت للوعظ والتخويف، وكأنّ هذا الأخير هو كتاب موعظة نقرأه على الأموات وفي الأحزان وفي لحظات الخوف والجزع كي يمنّ علينا الله بالرّحمة والأمان في الوقت الذي نسينا فيه أن القرآن هو كتاب هداية وإرشاد، نبحث فيه عن قوانيننا التي نسّير بها حياتنا، ونقتبس منه كلّ السّنن والعلوم التي تسمح لنا بحياة عادلة ولائقة ليس فقط للمسلمين

فحسب، وإنما لسائر البشر أيضاً باعتبار أن هذ الكتاب هو الخاتمة اليقينة الذي من المفترض أن تسير بحياتنا إلى بر الأمان وبالتالي إلى تمام الساعة[1].

وبالعودة إلى نصّ الآية القرآنية التي ذكرناها آنفا في إشكالية الحكم (وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) إن المراد من هذه الآية هو العدل الذي لا يمكن أن يجتهد أي مجتهد ويقول العدل هنا يختلف عن مفهوم العدل الذي يعرفه الناس، فالعدل واحد بمعناه أينما وجد، ولكنّ تطبيقه من قبل الآخرين هو الذي يختلف، أما مناطق الفراغ في هذه الآية فهي الحاكمية، ولكنّ الآية لم تبين شكل تلك الحاكمية أكانت ديمقراطية أم أخلاقية أم فردية ملكية، أو جمهورية، وإنما ترك هذا الأمر للمشرعين المتخصصين في شؤون الحكم كي يبنوا للحاكمية الأسس المتينة على ضوء حالة المجتمع وحركة البشر زمانياً ومكانياً، وهنا في هذه المنطقة يتحرك الفقيه أو الباحث ضمن مساحة عمله كي يستنبط ذلك النظام الذي يحقق النص وهو (العدل)[2].

(1) وفي اعتقادي أن النظم بأجمعها سواء أكانت نظم سماوية أو نظم وضعية ولكي تساير الوضع الاجتماعي المتغير لدى البشر يجب عليها أن تكون إلى جانبها (هيئة إدامة) Maintenance ولا أقول هيئة تغيير أو تبديل لأن النظام السماوي لا يمكن أن تغير فيه واقع الأنظمة المذكورة، ويمكن أن تقوم تلك اللجنة بالدراسة والعمل في (مناطق الفراغ) كي يناسب الحالة الاجتماعية التي يمر بها الناس بدون تغيير وتبديل في النص إذا كان النص يقول على الحلية أو الحرمة، والذين يقومون بذلك هم أولئك المجتهدون والفقهاء وهو ما يعرف في البلاد الغربية بمجلس (السنت) الذي تنحصر مهمته في متابعة واقعية ذلك التشريع أو ذلك القانون.

(2) وإذا لم يحقق شكل الحكم الذي أراده الفقيه وما نصت عليه الآية فإنه بالتأكيد سيكون خارج حدود ما ذكرته الآية الكريمة، وإذا تحقق لنظام الحكم الذي أراد وضعه المشرعون أو الفقهاء أو المجتهدون ما تعنيه الآية من مفهوم العدل فإنه سوف لن يكون ذلك كافياً بالتمام ما لم تتحول كلمة (العدل) في الأمة إلى مفهوم اجتماعي يتحسسه المجتمع لا أن يكون نظاماً قد حقق مفهوم العدالة على طبقة معينة من المجتمع بينما غابت عن طبقة أخرى مفاهيم ذلك الهدف، فبعض القوانين قد يعالج حالة من العدل لأمة من الأمم بعيداً عن الشمولية، أي ان تلك القوانين يمكن ان لا تستوعب كل أفراد المجتمع والشمولية هي من إحدى أهم مواد التشريع، فإذا تحقق المجتهد أو المشرع أو عضو مجلس (السنت) بأن العدالة التي أقرها القانون لا تملك صفة الشمولية، وإنما كانت حركته في العدالة قد شملت فئة معينة من الناس =

واليوم المطلوب من الإسلاميين أن يدكوا ويتفهّموا الإسلام بشكله الصحيح وأن يبحثوا ثانية في كنه هذا الدين، وأن يتعمّقوا فيه لاكتشاف قوانين الحياة من خلاله، وأنا أقول ذلك بلحاظ أنّنا نعيش في عصر العلم والأبحاث والاكتشافات، وما لم تتوازن حاجة الإنسان الثانية وأعني بها الجوانب النفسية والفكرية مع حاجاته الأساسية وهي الجوانب العلمية والمادية فإنّ البشرية سوف تبقى ناقصة، ويبقى الإنسان يعاني ويقاسي من كوارث كبيرة تعمّ العالم بأسره.

إن علاقة الأرض بالسماء علاقة ترتبط بقوانين وما لم تكتشف تلك القوانين فلن تعيش البشرية بسلام وسعادة مهما عملت واجتهدت لنيل اهدافها، وكما نرى اليوم أنّ المنتفضين في الرّبيع العربي كلّهم مسلمون وربما معظمهم وهم مصممون في الحصول على نظام حكم ديمقراطي شبيه بتلك الأنظمة الموجودة في الغرب من دول أوروبّا وأميركا، إذ ليس هناك على أرض الواقع نظاماً يتمتع بضمان حرية الإنسان وكرامته إلّا تلك الأنظمة سواء أكان من المعارضين أو المؤيدين لها، ونحن هنا لا نتحدث عن نظام مثالي موجود في الكتب، أو في الروايات، وإنّما نتحدّث عن واقع قائم، وعندما تفكّرالشعوب تطبيق نظام حكم ديمقراطي يحترم حقوق الإنسان فإنّها تنظرالى شكل تلك الأنظمة، ولكنّها في نفس الوقت ترى تناقضاً واضحاً ما بين انعكاسات تلك الأنظمة على واقع هذه الشعوب والاستهانة بها وخصوصاً الموضوع الإسرائيلي وبين اعتبارها أنظمة لا يعرف غير صورتها هي لشكل الحكم في بلدانهم وهي بالتالي أي الجماهير تبحث عن مجهول، على شكل حكم ديمقراطي غربي ولكنّه يحمل البصمة العربية والإسلامية، ولكي يتمّ اختيار ذلك النظام (المهجن) إذا صحّ التعبير يجب على فقهاء القانون في

= عندئذ يتحرك أولئك المعنيين بشؤون هذا القانون في منطقة الفراغ هذه حتى يتمكنوا من الوصول إلى أفضل صيغة من صيغ العدالة التي يقدمها هذا القانون، وتنطبق هذه الحالة التي شرحناها على مجمل جوانب القوانين الاجتماعية كالاقتصاد والتجارة والعائلة وبقية ما تحتاجه الدولة من مستلزمات هامة لصيانة حالة العدل التي تشير إليها تلك الآية التشريعية في القرآن.

بلداننا والإسلاميين منهم أن يقدّموا ذلك الحل للجماهير على شكل أطروحة نظرية على الأقلّ لكي تحمل الثورة العربية الربيعية فلسفتها المكتوبة بدلاً من السعي إلى المجهول.

في العراق كتب النظام ما بعد 2003 دستوراً للدولة من أهمّ مواده هو السّعي نحو حكم ديمقراطي لا يتعارض مع الشريعة والقانون الإسلامي مع ترك التفاصيل إلى واضع ذلك القانون ولا زال الحكم القائم وللآن يصارع في اتجاه وضع أولويات النظام المنشود، وقد كان هذا الدستور ربّما أحد أهم العوامل التي فجرت الثورات في عالمنا العربي، والتي تطمح اليوم إلى وضع ديمقراطي أفضل مما هو في العراق.

أمّا موضوع السّعي إلى إقرار دستور وطني في كلّ الدول العربية التي شملها الربيع العربي هو أمر يقبل أحد الوجهين، إمّا من خلال إستيراد دستور من الخارج وبالتأكيد من الدول الديمقراطية الغربية، أو كتابة دستور أو نظام حكم إسلامي عصري متطور يكتب على ضوء المستحدثات الجديدة في عالم التطور، ولكي يكون الخيار التالي هو الخيار المنشود فإنه يجب على فقهاء الإسلام أن يكتبوا ذلك الدستور وهذا لن يحدث إلّا بعد أن يتم فتح باب الإجتهاد المغلق منذ أكثر من ألف سنة، ولكي نفتح باب الإجتهاد يجب على العالم الإسلامي وعلى المدارس الفقهية المتنوعة أن تعتبر ذلك من الأوليات لها، وأن تبادر لفكّ الطوق عن الحكم الذي أخّر المسيرة الإسلامية والاجتهادية لقرون من الزمن.

ولكنّ المشكلة الأدهى التي تواجه العالم الإسلامي للخروج من هذا المأزق هو ظهور الأفكار السلفية التي تساندها دول كبرى في المنطقة حيث جاهدت تلك العقول السلفية بتأصيل وجودها في كلّ الدول التي تغيرت من جرّاء الرّبيع العربي، وهي الآن تمثل مواقع متقدّمة في الدولة المصرية، وكذلك الحال في ليبيا واليمن وتحاول جاهدة وبقوة إيجاد مواقع قدّم لها في تونس وفي سوريا وغيرها من بقية الدّول العربية والعالمية، وهنا نرى بأنّ مقولة الرّبيع العربي سوف لن تكتمل بدون أن يقدّم الإسلام نظريته الواقعية في

الحكم، أمّا إذا بقيت الأمور كما هي فإنّ السّلفية القديمة ستسود مسيرة الصراع، وتبقى القوى السوداء تسير باتجاه إبقاء الأمور كما هي عليه الآن ولكن بمكياج جديد.

والآن وفيما يسمّى الرّبيع العربي، هنالك مفهومان برزا في هذا الربيع أولهما هو مفهوم (الحرية)، والثاني هو مفهوم الشكل القادم (لنظام الحكم) في تلك البلدان، وغالباً وعندما يثور شعب ما عربي أو أوروبّي أو غيرها فإنّه غالباً ما ينتفض على أسس بسيطة مفهومة للكلّ يتفهّمها الناس وهم مشتركون في إدراكها بكلّ أطيافهم وثقافاتهم، تلك المفاهيم التي حركت جماهير الرّبيع العربي تنحصر في التحرّر من الظلم والقهر وهذا مفهوم عام وقديم بقدم الإنسان، وإذ أنّنا في هذا الموضوع لا نحبّ أن نخوض في تفاصيل الثورات العربية في تلك البلدان أكثر من أنّنا نريد أن نشير إلى المفهوم الغائب أو المستتر في مسيرة تلك الثورات، ذلك هو شكل الحكم القادم، وكيف يجب أن يكون وهذا سوف يؤدّي وخلال أقلّ من بضع سنين لا إلى ربيع عربي، بل إلى خريف عالمي يجتاز الحدود ويحطّم كلّ ما بناه الربيع العربي من أزاهير وأسس.

ولكي ندخل في صلب الموضوع مباشرة ونناقشه بعقلانية مجرّدة نقول: بأنّ الأمم المنتفضة في المنطقة العربية أو غير المنتفضة تعيش اليوم فقدان مفاهيم شكل النظام القادم، فالعرب وخلال تأريخهم ومنذ أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمن، أي منذ أن كان هنالك ما يسمّى الحكم الإسلامي في الدّول الأربعة الرئيسية: الراشدين، الأموية، العباسية، العثمانية أو الدول الأخرى الفرعية كالسّلاجقة والفاطمية والحمدانية وما إلى ذلك، لم تتلمّس بوجود نظام نظري لشكل الحكم كما هو الحال في الدول الأخرى المتقدّمة... نعم هنالك أشكال مطروحه على الورق ولكنّها لاتمثّل إلّا الشكل المتعصّب من الدكتاتورية، ولكن بإطار آخر كنظام الخلافة ونظام الشورى ونظام المجلس الإسلامي وما إلى ذلك من أسماء لمسمّيات واحدة. ولذلك أنتفضت الشعوب الآن في الوقت الذي غابت تماماً الفلسفة الثورية الملتزمة التي تسير باتّجاه

الهدف الذي رسمته الجماهير في مخيّلتها عندما انتفضت في أقطار العرب المتنوعة.

وهنا يجب أمام أولئك الذين سايروا ذلك الرّبيع أن يقدّموا المفهوم الواقعي لشكل الحكم القادم، أكان إسلاميا، أم غير إسلامي، إذ إنّني أعتقد بأنّ ذلك مستحيل في الوقت الحالي بسبب الغياب الآلي أو الواقعي لوضع الحكم الإسلامي حيث لا يملك كلّ أولئك الذين وقفوا في صفّ الانتفاضات أسساً أو ثقافةً لوضع نظرية للحكم.

هل العالم بعيد عن الدّين؟

سؤال مهمّ يطرحه الناس والمهتمّون بشؤون المجتمعات وعلماء الأديان... وهو هل أنّ الدين والملتزمين به الآن أفضل ممّا كانوا عليه قبل خمسين سنة من هذا التاريخ...؟ بمعنى آخر، هل تحوّل الدّين إلى قيم قديمة تركها النّاس بسبب الثورة العلمية والتكنولوجية الهائلة التي بدأت بوادرها وتألقها في الثمانينيات من القرن الماضي...؟ والجواب هو لمن يوجّه هذا السّؤال، فإذا وُجِّه إلى أولئك المتشائمين فإنّهم بالتّأكيد سيكون جوابهم بالتشاؤم، أيضاً بنفس الجواب ستحصل عليه من قبل أولئك السلفيين الذين لا يفهمون الدين إلّا بمعناه الضيق، أمّا المتفائلون وهم قلّة قليلة جداً سيقدّمون لك الدليل الواسع في انتشار مفاهيم وقيم الدين[1].

وفي الخمسينيات والستينيات والسبعينيات أيضاً من القرن الماضي كانت هنالك موجة الابتعاد عن الدّين، وذلك بسبب إنتشار الفكر اليساري والإلحادي واكتساحه لقارّات العالم، وخصوصاً منطقة الشرق الأوسط والذي كان مناقضاً لمفاهيم الأغلبية الإسلامية من الشعوب، معتقدين بأنّ ذلك الفكر الذي جاء لإنقاذ فقراء العالم (البروليتاريا) هو الأمل في تحسين أوضاعهم وإعادة السيادة لشعوب تلك المنطقة، وكانت الشيوعية في المناطق العربية تمارس ظاهرة إستفزاز الدين ومهاجمته ونعت كلّ من يلتزم بالإسلام بأنّه رجعي الأفكار.

في العراق تحوّلت المواجهة بين الدّين وبين الشيوعية إلى مرحلة

(1) أعني بالدين هو مفهوم الارتباط مع السماء ضمن أطروحة الأنبياء التي وصلت إلى البشر منذ الخليقة وليس تحديداً الأطروحة الإسلامية.

الاصطدام، ومن ثمّ التخوين حيث أفتى علماء الامامية بأنّ المبدأ الشيوعي هو مبدأ كافر هدّام يحرّم من ينتمي اليه لأنّه خارج عن الإسلام. في السودان، وباعتباره يضمّ أكبر حزب شيوعي عربي قرّر ذلك الحزب أنّ يركب موجة الدين، وذلك بأن تقرأ آيات من القرآن قبل البدء باجتماع الحزب الشيوعي.

في مصر وسوريا وفلسطين كانت الشيوعية عبارة عن رمز فقط، ولا يهتمّ الناس بقربه أو بعده عن الدين، في مناطق الخليج لم تجد الشيوعية أرضاً لها بسبب التاثير الإيراني على تلك الدول، أمّا في إيران فإنّ حزب "تودة" قد فلسف قادته نظريته بطريقة بعيدة عن الاصطدام بالدين، والتوجّهات القومية التي كانت تعيش أخصب أيامها في حقبة الخمسينيات أو الستينيات شاركت أيضاً في عزل الدين عن الحياة، فزعماء القومية العربية ربّما أكثرهم كانوا من المسيحيين العرب من أمثال ميشيل عفلق وأمين الحافظ، والياس فرح، وجورج حبش، وغيرهم من الأسماء اللّامعة في المنطقة، وكان معظم القوميين يقفون على طرف نقيض من الدين، وأنّ الجامع الرئيسي للعرب هي مفاهيم القومية، بل يرى الكثير منهم أنّ الدين يقف حجر عثرة أمام الدولة القومية العربية المرتقبة.

هذا هو رأي المتقدّمين من القوميين، أمّا المتأخرين فإنّهم تمكّنوا من إحداث عملية مزاوجة ما بين القومية والدين واستخرجوا نظرية عدم التناقض، فقد تكون الدولة القومية دولة دينية، وأنّ الدين جاء ليقرّ القوميات، لا مسخها كما جاء في أحاديث وأدبيات الكثير من المتأخّرين القوميين ....[1] في تلك الفترة كان الحزب الشيوعي يضغط بشكل كبير على مواقع الدين، بل كان يرى أنّ الدين هو ما يجب محاربته أولاً، وأنّ سبب انتكاس المجتمع جاء من الإلتزام بالدين، الذين كانوا يرفعون هذه الشعارات هم الطبقة المسحوقة من

(1) في الجامعات العراقية وما بين الطبقات المثقّفة كان الدين في الستينيات مغيّباً، وكانت ظاهرة الحجاب ليس لها وجود في جامعة بغداد، والطالبة التي ترتدي العباءة تنزعها عند دخولها الجامعة ثم تلبسها ثانية عند مغادرتها، كما كان عدد المصلّذين محدوداً بين الطلبة.

الشعب الفقيرة، والتي هي الأكثرية التي تعاني مرارة الجوع والعوز والتي كانت تعتقد أنّ الدين هو الذي يحرمها من فرصة الثراء والعيش بمستوى ما يمكن أنّ يعيش به العراقي آنذاك.

بعد نكسة حزيران عام 1967 بدأت الشعوب العربية تدريجياً في العودة إلى الدين عندما شاهدوا بأمّ أعينهم حجم ماسأة النكسة الكبرى التي حدثت والتي كان قادتها هم القوميون بالدرجة الأولى، وقد ظهرت صورة تلك العودة بأشكال متنوعة أهمها زيادة عدد التنظيمات الإسلامية ومنتميها ثم ظهور بوادر صراع خفي ما بينها وبين القوى الأخرى القومية والشيوعية[1].

ولا ينطبق هذا الوضع على مستوى العراق فحسب، بل أنّه حالة عامة في معظم مناطقنا الإسلامية والعربية، والتي دخلت به السلطة في صراع مرير مع القوى الإسلامية مثل صراع عبد الناصر مع الإخوان وصراع السودان، وصراعات المواجهة مع القبائل التي كانت تتبنى أسلوب الصوفية في السيطرة على الحكم كليبيا وتونس والصومال، أمّا في الجزائر فإنّ الصراع آنذاك كان يدور حول الهوية العربية باعتبار أنّ الاستعمار الفرنسي عمل جاهداً على مسخ تلك الهوية، كذلك تجد تلك الصورة من الصراع في المغرب أيضاً وفي موريتانيا[2].

(1) وعندما حدثت ثورة البعثيين سنه 1968 تموز كانت من أولى مهماتهم استئصال التيار الديني والدخول معه في حرب مكشوفة وهو ما حدث فعلاً وبقي ذلك الصراع مستمراً وشرساً حتى حدوث الثورة الإسلامية في إيران شباط 1979 وتمكن النظام آنذاك من تصفية أعداد كبيرة من قياديين التيارات الإسلامية وتهجير القسم الآخر خارج القطر، وعندما تستقرء تلك المرحلة من مراحل تأريخ العراق فإن البعض كان يعتقد بوجود تواطؤ ما بين قوى الحزب الحاكم الذي يقوده مفكر قومي مسيحي وبين القوى الصليبية في العالم، وكانوا يرون بأنه وجه آخر من أوجه الصراع الصليبي لاستئصال الإسلام، ولكنني أخالف أولئك في التحليل واقول: أنّ الصراع هو صراع وجود، وليس صراع أفكار، صحيح أنّ القوى الإسلامية والتي كانت ضعيفة جداً من حيث العدد والعُدة إذا ما قورنت بما يملكه الحزب الحاكم من وسائل ضخمة في عداد المواجهة والصراع.

(2) وكانت من أولى صور الصراع التي تقودها القوى الحاكمة ضد الوجودات الإسلامية =

في العالم الغربي كان الكاثوليك وهم الغالبية الكبرى من المسيحيين،كانوا يعيشون في زوايا مُظلمة من حياة الناس، فالكنيسة آنذاك لم تكن إلّا عبارة عن رمز مهمل تماماً لا وجود له في كيان الفرد الغربي وهو "الإسم"، وليس ذلك فقط، بل أنّ الحكام الغربيين كانوا يقفون موقفاً لا مبالياً من قضية وجود الدين في المجتمع الغربي، فلم يُعرف يوماً أنّ هنالك أي تصريح صدر من رئيس أمريكي في أنّه يذهب إلى الكنيسة أو لا، أو أنّه يُقرّ بوجود أديان أخرى كاليهودية والإسلامية(1).

إنّ حالة النهوض الديني والرّجوع إلى الدين بدأت تأخذ طريقها بين الناس الغربيين عموماً في بداية الثمانينيات من القرن الماضي، وكانت أكبر تلك الحوادث التي مثّلت منعطفا كبيراً لاستقراء ظاهرة العودة إلى الدين هو بزيارة البابا إلى (كولورادو) إحدى ولايات الوسط الغربي، حيث حضر قداسه الملايين في الوقت الذي كان الأمريكيون يرون في الكنيسة وفي رئيسها البابا عنصراً من عناصر الاضّطهاد الذي فرض عليهم مغادرة أوروبا إلى أمريكا وبناء هذا الكيان الجديد(2).

وقد لوحظ أنّ مراسيم الاستقبال من قبل الجهات الرّسمية والشّعبية ظاهرة جديدة من ظواهر تقبّل الدّين، وقد قرأ بعض المحلّلين الأمريكيين تلك الحادثة على أنّها انعطاف كبير في حياة الناس نحو الدين بسبب التأثير الذي أحدثته الثورة الإيرانية.

= هو الإستفزاز أحياناً، ونشر الإباحية ثانياً، فعندما تشاهد مثلاً الأفلام المصرية والتي ربما هي الأفلام الوحيدة الموجودة في البلدان العربية ترى الإنفتاح والإباحية في الملابس وفي أشكال التمثيل، بينما لاتجد ذلك اليوم في النشاطات السينمائية والفنية، وليس هنالك من تجرأ أنّ يستفز الدين والمتدينين بتلك الأنواع من الأفلام.

(1) النسبة الكبرى من أولئك الكاثوليك يعتبرون الانتماء الديني مجرد إنتماء ثقافي بينما هم في الواقع إما لا دينيين (Atheist) أو لا (أدريين) ليس لهم من إيمان بأي دين .

(2) المسيحيين في أمريكا نسبتهم 76%، منهم الكاثوليك 24%، والباقون هم 51% بروتستانت، 1,7 مورمان، 1,7 طوائف أخرى. وهنا الكاثوليك هم أقلية نسبة إلى البروتستانت.

وكانت التغطية الصحفية الأمريكية في وسائل الإعلام الضخمة والكبيرة، وذلك في المحطّات الرئيسية الثلاث الكبرى قبل أنّ تظهر محطة CNN إلى الوجود بمثابة المحفز الكبير لرجل الشارع الغربي والأمريكي أهمية الدّين على تغيير حياة الناس، فقد أنبرى لهذه الظاهرة صحفيون عمالقة وكُتاب مشهورون كان بعضهم يميل إلى التدين (المسيحي واليهودي) بينما كان الآخرون الذين يقفون على الجهة الأخرى من القومية الأمريكية يرمون إلى استنهاض القوى الدينية (بكلّ تنوّعاتها) لكي تقف حائلا أمام المدّ الشيوعي في العالم الإسلامي.

فالولايات المتحدة والغرب كانا يعلمان أنّ الفكرة الشيوعية لا يمكنها أنّ تتعايش مع واقع المسلمين مهما كانت الظروف ملائمة لذلك، فالأمريكيون السياسيون كانوا لا يجدون حرجاً في أن تتحوّل إيران إلى دولة يقودها رجل دين بدلاً من الشاه، لأنّ هذا الأخير قد يقدم الكثير مع خسارة كثيرة، بينما رجل الدين يقدّم القليل مع خسارة قليلة، وهكذا قيل في التحليلات الخاصة في وقائع اللجان الخاصة بأحداث الثورة الإيرانية التي أنشأها الكونغرس الأمريكي[1].

وعلينا أن نفهم في هذا السياق حقائق مهمة جداً عن واقع الشعوب الأمريكية ونظرتها إلى الدين، فالأمريكيون لا يكرهون الدين، بل قد تجد في شعوبنا العربية هنالك من يكره الدين ويحاربه ويعمل على ازالته من حياة الناس، بينما لا تجد ذلك موجوداً في حياة الأمريكيين، والسبب أعتقد أنّه واضح وجليّ إذا فهمنا أنّ الدين عند الأمريكيين هو الدّين المنفصل عن الدّولة، وهو علاقة مُحدّدة بين إنسان وإله، أمّا عندنا في مناطقنا الإسلامية

(1) أرجو من القاريء الكريم أنّ لا يفهم من حديثي هذا بأنني من المؤيدين أو من المعارضين للرأي الأمريكي السياسي تجاه إيران فهذه قضية حساسة جداً ولا أريد شخصياً أنّ أبدي رأيي أو تحليلي في هذا الأمر بقدر ما أنّ أنقل للمجتمع العربي مدى التفاعل الشعبي للأمريكيين تجاه قضية الدين التي كانت أول ما كانت تتمحور حول رمز الدين في لباس الإمام الخميني.

العربية فالفهم العام للدين هو شمول حركة الفكرة وتدخّلها في حياة المواطن العربي، فإذا حدث انتكاسة لحياته فالدين ليس بمستثنى من اللّوم وخصوصاً على مستوى الحياة اليومية من معيشته وعلاقات واقتصاد وزواج وطلاق وما إلى ذلك.

فاذا وقفت الدولة الغربية،مثلاً الولايات المتّحدة الأمريكية من الرّمز الديني (الإسلامي) (المسيحي) (اليهودي) موقفاً معاديا فإنّ المواطن الأمريكي لا يُفسّر هذا العداء من منطلق فكري ديني، أو بالعكس فيما لو رحّبت الجهات الرّسمية الحكومية الأمريكية بموقف ديني فإنّ ذلك لا يُفسّر على ضوء التفكير الديني الأصولي، وإنّما يفسّره من خلال المنظار السّياسي فقط.

كان الأمريكيون يعتقدون والغربيون من ورائهم بأنّ زمن مزاوجة الدين بالسياسة قد انتهى، وأنّ الأمم في العالم الآن تعيش ضمن السّياق الغربي في عدم المساس بالدين من قبل الحكومة، وعدم المساس بالدولة من قبل الدين، ويعتقدون أيضاً بأنّ لكلّ من تلك الجهتين مجال اختصاص مُحدّد في الحياة، ويرون أيضاً بأنّ نقاط الاتّفاق في احتياج أحدهم إلى الآخر أكبر بكثير من نقاط التنافر فيما بينهما، ولذلك فعلى الطرفين تقبل واحترام الآخر وعدم المساس في كلي المعتقدين، وهو أسلوب بقي فعالاً في الحياة الأمريكية إلى الآن[1].

(1) أما موضوع إسرائيل الذي قد يثيره بعض القراء ونحن في سياق الأديان فإنّه موضوع خاص سأتطرق إليه في فصل آخر تجده في هذا الكتاب فارجع اليه كي تستكمل الصورة، فالنموذج الأمريكي لعلاقة الدين بالحكم هو الوضع (السعودي) بما عليه الآن وسابقاً، وكانت الولايات المتحدة ترى في الوضع السعودي كأفضل ما يمكن أنّ يكون من طريقة التعامل الإسلامي ديناً مع الدولة سياسة، ولذلك كان السياسيون الأمريكان من أشد الناس إندفاعاً لخلق نموذج سعودي في البلدان الإسلامية الأخرى، ولكن السؤال الكبير الذي يمكن أنّ يُسأل هنا: هل أنّ الولايات المتحدة على علم بتفاصيل الوضع في الحكم السعودي... ؟ الجواب لا، فأمريكا ليست هي الدولة التي تطلع على صغائر دول العالم بأجمعها، وتطلع على كل ما يدور في كواليس سياساتها، أو في كواليس العوائل المالكة والوضع الاجتماعي، أمريكا ليست مهتمة كثيراً لما يدور في الحياة اليومية للشعوب بقدر اهتمامها باتجاه بوصلة المنفعة التي يجنيها من تلك الدولة.

ومن المفارقات التي لم يستوعبها البعض هو أنّ فلسفة الولايات المتحدة الأمريكية من بدايات أحداث الثورة الإسلامية في إيران، لنقل السنتين اللتين سبقتا نجاح الثورة كانت تتّسم بالحيادية، مع أنّ المحللين السياسيين الإيرانيين، ومن المرتبطين بنظام الشاه وبعض السياسيين الأمريكيين كانوا يحذّرون من أنّ المدّ الإسلامي الجامح في إيران قد يكون يخفي في طياته فكرة التمدّد الشيوعي، وربما يكون قد اتخذ من الطابع الديني موجة للركوب في الوصول إلى الحكم، وقد ساد هذا الاعتقاد معظم السياسيين الأمريكيين والشعب الأمريكي أيضاً لما تمّ الترويج له في المحافل الدولية، وقد كان بطل تلك الفكرة كلاًّ من السعودية ودول الخليج العربي لتأصيل عامل الخوف لدى الولايات المتحدة من أنّ تتحول إيران إلى قاعدة ضخمة للسوفيات الطامحين في الوصول إلى شواطيء الخليج العربي المليئة بالنفط الذي يزود الغرب بعشرين بالمائة من حاجته من الطاقة...[1].

وعندما تسارعت أحداث الثورة في إيران، وبدأت صور قائدها تظهر على شاشات التلفزيون بلباسه الديني المعروف والذي لم يعتد المجتمع الأمريكي على مشاهدة رئيس دولة بلباس ديني،[2] هذه الظاهرة بدت حديثاً في أفغانستان والسودان وفي العراق أخيراً، كان عندئذ على مجتمع الغرب أنّ يفتح أمامه منفذاً لدراسة ظاهرة الدين عموماً، والدين الإسلامي خصوصاً.

نحن من الصعب جداً أنّ نقنع الأمريكي بإمكانية حكم الدين للحياة السياسية، ولا زال لحد الآن... لماذا...؟ لأنّ الدين عبارة عن قوانين ثابته

---

(1) هذه الفكرة، الخوف من المارد الشيوعي كانت دولنا العربية وعلى رأسها السعودية ترى فيها الورقة الكبيرة والمهمة في إثارة مخاوف الولايات المتحدة من أنّ تتحرك في تأييد هيجان الثورة المندلع على أشده في إيران في نهاية السبعينيات، ولكن الولايات المتحدة كسياسة لم تكن لتعتقد بما تقوله السعودية والعراق ودول الخليج الأخرى، بل كانت ترى في أحداث الثورة في إيران، وإن كانت قد اتخذت من الدين شعاراً لها ولكنها سرعان ما ستكشف عن واقعها الحقيقي وهو (قومية الدولة) هذا رأي الكاتب الأمريكي المشهور (ديفيد ديكنسون) الرجل القريب من مصادر القرار الأمريكي.

(2) الّا اللهم الرئيس القبرصي مكاريوس لظروف لا مجال للحديث عنها.

أنزلت من السماء، بينما الحكم، أي حكم يحتاج إلى قوانين متحرّكة يضعها البرلمان، فكيف يمكن هذا أنّ يحكم بتلك ما لم يتحول نظام الحكم في تلك الدولة إلى ما هو شبيه بحكم الكنيسة لأوروبا في القرون الوسطى، وهذا مستحيل في عالم اليوم.

وعلى ضوء هذا الاستنتاج كان المجتمع الغربي لا يرى في عمامة الإمام الخميني إلّا كما يرى في طاقية البابا، فمهما قال البابا ومهما تحرك فإنّه لا يرمي من خلال ذلك إلى حكم بلد ما، وإنّما يرمي فقط إلى تحقيق مباديء السماء في الفعل السياسي، وهذا ما يرجوه وما يدعو إليه المواطن الغربي بسبب ما يعيشه في انحسار لمبادىء الأخلاق في عالم السياسة أو الأخلاق في حياته الخالية من القيم، قيم السماء والدين، فلذلك لم يقف المجتمع الغربي من رسالة (عمامة الخميني) موقفاً غريباً أو معارضاً، وإنّما بدا له من وسائل الإعلام بأنّه تحرّك ضدّ حاكم دكتاتوري لازال يحكم شعبه لمدّة أكثر من ثلاثين عام في الوقت الذي لم يفهم الأمريكي العادي أنّ الحاكم قد يبقى لأكثر من دورة أو دورتين انتخابيتين (4 أو 8 سنوات)، أما إذا عرف أنّ حاكم واحد لا زال يحكم نفس الشعب لمدة 30 سنة فإن ذلك يثير حفيظته ويتهّمه بالتعسف والدكتاتورية، حتى وإنّ افترضنا بأنّه كان -جدلاً- عادلاً، هذا كلّه اكتمل في زمن الرئيس كارتر الذي جاء إلى البيت الأبيض من ولاية مغمورة، ومن تاريخ مغمور(1) ولكن بشعارات كان المجتمع الأمريكي يحتاجها وكان قد خرج تواً من حرب فيتنام الحرب التي شتتت أفكار الأمريكيين وغيّرت مفاهيمهم نحو الإنسان عموماً، خصوصاً إنسان الشرق، لقد جاء كارتر(2) بمبادىء جديدة على مسامع الأمريكيين، تلك هي حقوق الإنسان والعدالة في ذات الوقت الذي برز هذا الرجل من مجتمع ديني (الجنوب) حتى اجتمعت ثلاث خصال فيه، المبدئية، الدينية، المكانية، وهو

(1) معظم الرؤساء الأمريكيين ينحدرون من ولايات الشمال.

(2) رئيس الولايات المتحدة التاسع والثلاثون، وذلك في الفترة من 1977 إلى 1981 من الحزب الديمقراطي، بعد أن انتصر على غريمه الجمهوري جيرالد فورد بصعوبة.

ما تمكن فيه من أن ينتصر على غريمه الجمهوري وأن يصل إلى البيت الأبيض وقد كانت تلك المبادىء مساعدة جداً على انتصار الثورة المشتعلة في إيران وأن يتفهم الشعب الأمريكي ماذا تعني (عمامة) و(جبّة) قائدها.

ولكن الذي حدث والذي أثار الجدل في واقع المجتمع الأمريكي تجاه الإسلام، وتجاه الدين هو أزمة الرهائن الأمريكيين[1] والتي كانت بمثابة تحول خطير آخر في الفهم الديني والذي على ضوء هذين الحدثين المتناقضين توجّه الأمريكي إلى دراسة الإسلام كدين بشكل عام...[2].

الذي حدث هو أنّ المجتمع الغربي بدأ بدراسة الدين أكاديمياً لكي يطّلع على الكاثوليكية والبروتستانية كشقّين كبيرين ورئيسين في الديانة المسيحية، كما درس أكثر تأريخ الإسلام من الناحية الأكاديمية وليس من الناحية الرّوحية أو السماوية[3].

---

(1) أزمة رهائن إيران هي أزمة دبلوماسية حدثت بين إيران والولايات المتحدة عندما اقتحمت مجموعة من الطلاب الإسلاميين في إيران السفارة الأمريكية بها دعماً للثورة الإيرانية وأحتجزوا 52 مواطناً أمريكياً لمدة 444 يوم من 4 نوفمبر 1979 حتى 20 يناير 1981، بعد فشل محاولات الولايات المتحدة للتفاوض على إطلاق سراح الرهائن قامت الولايات المتحدة بعملية عسكرية لإنقاذهم في 24 إبريل 1980 ولكنّها فشلت وأدت إلى تدمير طائرتين ومقتل ثمانية جنود أمريكيين وإيراني مدني واحد، وانتهت الأزمة بالتوقيع على اتفاقات الجزائر في الجزائر يوم 19 يناير 1981، وأفرج عن الرهائن رسمياً في اليوم التالي بعد دقائق من أداء الرئيس الأمريكي الجديد رونالد ريجان اليمين، وُصفت الأزمة بأنها حادثة محورية في تاريخ العلاقات بين إيران والولايات المتحدة، ويعتقد بعض المحللين السياسيين أن الأزمة كانت سبباً في هزيمة الرئيس الأمريكي جيمي كارتر في الإنتخابات الرئاسية. راجع مادة (Iran Hostage Crises):

(http://en.wikipedia.org/wiki/Iran_hostage_crisis).

(2) فهو لن يتمكن من أنّ يدرك لماذا اعتقل رجل دين من المفترض أنّ لا تصدر منه إلّا السماحة والعفو أكثر من 50 أمريكي أبرياء ليس لهم ذنب إلّا لأنهم أمريكيين، فماذا يعني ذلك بالنسبة لهم، وكيف إذن يتعايشون مع مفهوم الدين بعد تلك الواقعة...؟

(3) فكما نعلم أنّ درس الدين (Theology) هو درس اختياري يعطى في جميع مراحل الدراسة الجامعية يسجل عليه الطالب كي يكسب نقاط المرور إلى المرحلة القادمة شأنه كشأن الفيزياء والرياضيات وغيره، وليس كما هو في مجتمع بلداننا العربية في التخصص العلمي أو الأدبي.

في تلك الحقبة من الزمن أي منذ أوائل الثمانينيات بدأت أفواج الأمريكيين بالدخول إلى الإسلام وخصوصاً بين السود ولم تكن تلك الخطوة بالمساعدة الكبرى لانتشار الإسلام ما بين معظم الأمريكيين المتحوّلين(1). ولم يقتصر تفهّم الدين وانتشاره على التحوّل إلى الإسلام، بل أنّ الديانات الأخرى بدأت تدبّ في نفوس قادتها أشعة القوة والأمل المسيحية واليهودية والكونفوشية والهندوسية والسيخية وما إلى ذلك، فالقيم الروحية للأديان ربّما هي نفسها لأنّها من مصدر واحد أهمّها الصدق، صفاء النفس، التوجّه إلى السّماء، عدم الاعتداء، بناء العائلة... هذه المفاهيم هي نفسها في كلّ الأديان في العالم، فإذا أحبّ المسيحي المتجرّد مفاهيم الدين أو أنّه تأثّر بعمامة الخميني فليس له إلّا اللّجوء إلى الكنيسة لا الذهاب إلى الجامع لأنه لا يعرف عن الجامع شيئاً، بل أنّ فهمه الذي اكتسبه من العمامة والجبة أو القلنسوة هو تبني مبادىء السماء لا تبني مبادىء القلنسوة أو العمامة أو الطاقية(2).

وقد كانت نهضة العودة إلى الإسلام هي السبّاقة ما بين الأديان الأخرى التي تبعتها، وكان التالي في المواصلة هو الدين المسيحي الذي تمسّك مجدداً بكنائسه لزيادة عدد القادمين الجُدد العائدين إلى ممارسة طقوس العبادة، وهكذا تلتها الأديان الأخرى البوذية، الهندوسية، اليهودية، السيخية،

(1) إذ أنّ معظم السود الذين دخلوا الإسلام هم من أصحاب الجرائم الذين انفتحوا على الإسلام وهم في زنزانات السجون يمثلون 17-20% من مجموع السجناء، وهذا ليس بالضرورة أنّ يكون رمزاً مساعداً لانتشار الإسلام بين مختلف طبقات المجتمع. انظر موقع السلطة التشريعية الأمريكية:
United State Senate, Committee on the Judiciary, Testimony of Dr. J. Michael Waller October 12, 2000.

(2) في تلك الفترة من الزمن كان هنالك عدد ضخم من الكنائس معروضة للبيع بسبب انحسار روادها وإفلاس قساوستها من المريدين، حيث أنّ النظام الضرائبي الغربي لا يسمح بأن تتحول الكنيسة (معبد) إلى حالة أخرى مثلاً بيت أو مدرسة فالكنيسة تبقى معبد... سواء أكان ذلك المعبد جامع أو كنيسة أو أي رمز آخر من رموز العبادة... فاشترى المسلمون كنائس كثيرة في أماكن متعددة في أمريكا وكندا بسبب زيادة عدد المسلمين وزيادة عدد الداخلين في الإسلام أو العائدين إلى ممارسته في حياتهم.

الكونفوشية، إضافة إلى تفرّعات المذاهب الإسلامية - إن صحّ التعبير- مثل الأحمدية والبهائية والإسماعيلية وما إلى ذلك من مسمّيات كثيرة من الاتجاهات الدينية التي انتعشت من عودة الناس إليها.

وهكذا انعكست ظاهرة التدين ليست على المستوى الشعبي فحسب، وإنّما تعدّتها إلى السياسيين الأمريكيين والكتابيين، فلقد صار في حكم العُرف أنّ يُقيم البيت الأبيض حفلة إفطار في رمضان، أو أن يهنىء الرئيس الأمريكي المسلمين بعيد الفطر، وهذا لم يكن فقط جارياً على جموع المسلمين بل أنّ البيت الأبيض بما يقوم به تجاه المسلمين للأديان الأخرى اليهودية والكونفوشية والمسيحية، كما أنّ الحكومة الأمريكية بأعضائها في الكونغرس غالباً ما يظهرون ملامح تدينهم والتزامهم في الذهاب إلى الكنيسة في الوقت الذي كان ذلك معدوماً فيما قبل الثمانينيات.

وقد ظهرت الجمعيات الدينية الضخمة التي انتشرت في الغرب وفي العالم المسيحي بالتحديد، ودعواتهم المستمرّة إلى الفضائل والقيم التي دعا إليها النبي عيس المسيح عليه السلام، كما ظهرت أيضاً جمعيات (العفّة) (Chastity)[(1)] والتي تنادي ببقاء البنت باكراً إلى حين الزواج ورفض كلّ أشكال العلاقات الجنسية خارج أطر العائلة.

والأفلام التي تُعرض في القنوات الرئيسية التلفزيونية لا يسمح لها بعرض المشاهد الفاضحة حيث كانت في السابق مسموحاً بها، فهنالك حرب

(1) Teen sexual activity rates have been dropping for over a decade, and now the majority of high school students are virgins. (Morbidity and Mortality Weekly Report 55:SS-5 (June 9, 2006.

Between 1991 and 2005, the sexual activity rate of high school boys dropped twice as quickly as that of high school girls. Among those who have already lost their virginity, two-thirds of them wished they had waited longer to have sex (77 percent of girls and 60 percent of guys). (National Campaign to Prevent Teen Pregnancy).

When a man is married as a virgin, his divorce rate is 63 percent lower than a non-virgin. For women, it’s 76 percent lower. Edward O. Laumann, et al., The Social Organization of Sexuality: Sexual Practices in the United States (Chicago: University of Chicago Press, 1994), 503.. FOR ALL OF THAT SEE: chastity.com.

شعواء لحظرها من قبل المجتمع الغربي وتحديدها والسيطرة عليها، ومن ثمّ إلقاء القبض على المسؤولين لأنّها تفسد المجتمع.

وهنالك ظواهر كثيرة من التي تؤكد مفهوم عودة الناس إلى الدين في العالم، وقد لاحظنا كيف تجرّأ (بات باترسون) وهو رجل دين وواعظ من طائفة (Evangelisa) أن يرشّح نفسه لرئاسة الولايات المتّحدة الأمريكية والوصول إلى البيت الأبيض كما رشّح نفسه أيضاً (القس جيسي جاكسون) لنفس المنصب، كذلك نلاحظ اليوم بأنّ الشخصيات المهمة في الواقع الغربي هم رجال الدين الواعظين المشهورين من أمثال (جيم سويكارت) وغيره، كما لا تقتصر الأمور عند هذا الحدّ وإنّما ظهرت بحوث جديدة في المجلات العلمية والمجلات الأدبية تناقش فكرة الله وفكرة المسيح[1].

وفي الجرائد العادية اليومية التي تصدر في أمريكا الشمالية تجد هنالك قسماً كبيراً تحت عنوان إمّا (Ethics) (القيم أو الأخلاق) هذا القسم فيه الكثير من المبادىء الدينية التي تهمّ الواقع الاجتماعي، في سنوات خلت نشرت جريدة المقاطعة مقالاً في عدد يوم السبت بعنوان (كيف نحصن أبناءنا من أخطار الحضارة) وكان المقال رائعاً جداً فيه إحصائيات كثيرة عن خطورة الثورات الصناعية والثورات الإعلامية التي تعصف بالمجتمع الكندي خصوصاً والغربي عموماً، كان المقال قد أخذ مساحة نصف صفحة كبيرة، وهذا معناه أنّ هنالك عدداً كبيراً من القراء الذين يتعاطون مع هذا النوع من المقالات[2].

---

(1) فقد كنت من قراء إحدى المجلات الشهرية (اتلانتيك) والتي تهتم بمجال العلوم الطبيعية والتجارية، ذهبت لأشتري المجلة فلم أجدها وعندما استفسرت عن ذلك من ادارة المجلة التي أتصلت بها تلفونياً أسألها عن السبب، قالوا لي أنّ هنالك مقال في ذلك العدد يثبت وجود الله من خلال الطرق الرياضية الحسابية كتبه أحد علماء الرياضيات لا أتذكر إسمه ولذلك انهال الجميع على طلب ذلك الإصدار.

(2) فقررت أنّ أتصل بالشخص المسؤول عن إعداد (صفحة القيّم) فاتصلت به فظهر لي أنه قس مثقف، مهذب، يحمل شهادة عالية، دعوته إلى إحدى تجمعاتنا الإسلامية لإلقاء محاضرة عن (وحدة أهمية تلك القيم في الأديان المختلفة) وفعلاً حضر الرجل وكان في غاية البساطة والتواضع، وبعد الانتهاء من المحاضرة قدمت له مجموعة من الكتب التي تتحدث =

وبعد شهر من تلك المحادثة تلقيت مكالمة تلفونية من (القس مكارني) الذي دعاني إلى إلقاء محاضرة عن الإسلام في إحدى الكنائس الواقعة في شمال مدينة تورنتو... قلت في نفسي ماذا عساني أن أقول، دوّنت رؤوس نقاط أمامي للمحاضرة التي سميتها (لقد وحدنا الخالق في الخلق وعلينا أنّ نوحد أنفسنا في المبادىء)..[1].

تجد اليوم في الجامعات الأمريكية والكندية، بحوثاً ضخمةً تجرى في أعقاب ثمانينيات القرن الماضي ولحد اليوم حول طبيعة الأديان وتأثيرها على المجتمعات... و كما نعلم أنّ الغربيين عندما يؤمنون بقضيةٍ ما، فإنّهم ينطلقون في ذلك من زاوية البحث العلمي، وهذا ما تقوم به جامعات الغرب لإثباته

= عن (إنسانية الإسلام) كان أحد الأمريكان قد كتبها بعد أنّ انتقاها وترجمها من اللغة العربية، ثم قدمت له كتاب يتحدث عن الاقتصاد في الإسلام باللغة الانكليزية، وكتاب يتحدث عن نظام البنوك من النظرة الإسلامية باللغه الانكليزية أيضاً، وكان كلاهما للمفكرالكبير السيد محمد باقرالصدر، وفي الأسبوع الذي تلاه كتب مقالة جميلة على شكل عمود قدم فيها أفكار ضرورة اهتمام الحكومة الكندية بالتنوع الديني والبحث عن تراث الأديان الموجودة على الأرض الكندية ثم أشار فيما أشار إلى وجود عباقرة إسلاميون لم يثنهم تخصصهم الديني عن الاقتصار على علم الدين واللاهوت، بل بحثهم في عالم الاقتصاد والنظام البنكي، كما شجع في مقاله هذا المجتمع الكندي على الاستفادة من طاقات الإسلام الكبرى ...

(1) وتطرقت فيها إلى عظمة الأديان وإلى أهميتها في بناء المجتمعات، ثم تناولت إنسانية تلك الأديان خصوصاً الثلاث الرئيسية، وذكرت لهم قصة الرجل المسيحي المسن عندما التقاه الخليفة في الكوفة أنذاك، ثم تكلمت عن أهمية أنّ نصب جهودنا في بناء أجيال قادمة أكثر وعياً وإيمانا بقيم السماء وهكذا، وبعد أنّ تحدثت لنصف ساعة، وما أنّ انتهيت حتى علا التصفيق في أرجاء الكنيسة، ثم سمح لي أنّ أرد على اسئلة البعض، فكان أول السائلين رجل متوسط العمر قال لي: هل أنت قس...؟.. إذا كنت قساً لماذا لا تلبس ملابس القساوسة؟ ثم في أي معبد أنت تصلي؟، ابتسمت قليلاً وقلت له أنا لست قساً مع تقديري للقساوسة، ولكننا في الإسلام نحن نختلف قليلاً عما هو في الديانة المسيحية، فالمسيحية يقوم بأعباء الدين أشخاص متخصصون، عندنا في الإسلام كلنا مسؤول عن نشر الدين... فقاطعني قائلاً: ولكنك تملك معلومات دينية؟، فقلت له: كما أخبرتك كلنا يجب أنّ يملك هذه المعلومات على بساطتها وقلتها، وأنا كما رأيتني أقلهم في معلوماتي... و هكذا استمرت المناورات الهادئة الموجهه مع القس مكارني ومع اتباعه في الكنيسة، وكان آخر ما قاله ذلك القس عندما شارفنا على الانتهاء: أنه سعيد أنّ تتحول هذه الكنيسة إلى منبر لكل الأديان وأنّ نكون متحابين لإنسانيتنا لا لأطباعنا أو قومياتنا أو ديننا.

وتقديمه إلى الناس، ولا تكاد اليوم تتناول مجلة يومية أو أسبوعية إلّا وتجد فيها بحوثاً في هذا الجانب يسميها البعض البحوث الاجتماعية، ويسميها الآخرون بحوث اللاهوت وآخرون بحوث الدين وهكذا.

وعندما طلّقت الأمة الغربية الدّين في العصور الوسطى، وهاجرت إلى الأمريكيتين تاركة أوروبا تعيش مع المبادىء التي وضعها الإنسان باسم الكنيسة بأنّها من السماء... كان القرار الأولي للأمم المهاجرة أنّ تبتعد عن الدين ما أمكنها، ذلك المفهوم الذي اضطهد تحت لوائه آلاف بل الملايين من البشر، ولكن وبعد مرور أكثر من خمسة قرون على تلك الهجرة نهضت الفطرة الإنسانية ثانية لتدق على ضمير الإنسان وتذكّره بعلاقته مع السماء، وهذا ما حصل فعلاً مع الأمة الأمريكية التي بدأت بنفض غبار الماضي السحيق والعودة إلى نداء الفطرة، وهو ما أعاد المواطن الأمريكي والكندي إلى البحث عن الدّين الذي يمكن من خلاله إشباع حاجة الروح في التوازن مع المادة ...[1].

---

(1) وقد صادفت وأنا في الولايات المتحدة في حادثة كنت آنذاك قد أخذت زوجة أحد الاصدقاء المحجبة إلى المستشفى، في الوقت الذي لم تعرف آنذاك تلك المدينة ماذا يعني الحجاب، وفي أثناء مسيرنا عبرت شابتان من جانب الشارع الآخر إلى حيث كنا نسير من هذا الجانب ثم اقتربتا من زوجة صديقي يريدان محادثتها، أول سؤال سألوا زوجة صديقي عن معنى هذا اللباس، وهل هو تقليد ديني أم تقليد اجتماعي...؟ حاولت أنّ أتعاون مع الأخت كي أنقل لكلي الطرفين الأفكار المتبادلة، ولكن الشيء الذي أدهشني ولم أسمعه قبلاً، هو أنّ هاتين البنتين قد قالتا لنا أنهما لم يلتقيا بامرأة محجبة قبلاً ولا يعرفان فيما إذا كان الإسلام يدعو إلى الحجاب أم لا، وكل ما يعرفانه عن فكرة الحجاب هو أنّ (الراهبة) تتحجب بالشكل المعهود لأنه زي الكنيسة لا غير، فلذلك جاءا ليسئلا هذه الاخت إنّ كان هذا الزي هو زي معبد ديني أم لا...؟ ثم قالا وهو المهم: أنهما أدركا وبفطرتهما أنّ المرأة يجب أنّ تكون هكذا، وعندما سألتهما فيما إذا كانتا متدينتان...؟ فأجابتا بانهما لا يؤمنان بالكاثوليكية، وهما يبحثان عن دين آخر يحقق به (إنوثة المرأة) كما قالتا: وهما الآن يعتقدان بأن الدين الذي يدعو المرأة إلى هذا الحجاب هو الدين الذي يضمن للمرأة أنوثتها، أعجبت كثيراً برأيهما وسألتهما إنّ كان هذا الرأي هو رأيهما أو أنه رأي الكثير من فتيات هذه المدينة، فاكدتا لي أنهما يعرفان الكثير من الفتيات يفكرن بهذا الإتجاه، فقلت لهن ببساطة هل رأيتن صورة مريم العذراء، وهل رأيتن كيف ترتدي غطاء الرأس في الوقت الذي لم يبعث الإسلام إلى الوجود بعد...؟ ثم أضفت إذن =

إنّ عدد دور العبادة في الغرب كبير جداً -لا يوجد إحصائية واضحة حتى أقدّمها لقارئي العزيز- ولكنّني أشير إلى رقم واحد أعرفه من بعد الاطّلاع، ففي مدينة تورنتو الكندية وحدها ما يقارب على 65 جامعاً رسميًا، أمّا الجوامع غير الرّسمية فهي أكثر من أن تُحصى، في الوقت الذي يمثل المسلمون من حيث عدد النفوس 5% وهاتان الإحصائيتان هما إحصائيتان رسميتان وليس لي من اطلاع على عدد أماكن العبادة الأخرى للأديان التي عددها في كندا بحدود خمسين دين تنتمي إلى 200 بلد في العالم.

وقد أقرّت الحكومتان الأمريكية والكندية مبدأ احترام الدين وممارسة شعائره، وهو حقّ للمواطن يجب التمتع به، وقد أقرّت أيضاً السماح لدافعي الضرائب الأمريكية والكندية في دفع ضرائبهم إلى المؤسّسات الدينية لبنائها والاهتمام بها والقيام بطقوسهم الدينية، مع العلم أنّ الدولة هي دولة علمانية تمنع على المدارس العامة أن تدرس مادة الدين، أمّا المدارس التي تبنيها المؤسّسات الدينية فإنّها تتمتّع بكامل الحقوق في تدريس مواد الدين التي تؤمن بها وذلك هو ما تقوم به المدارس الخاصة لليهودية والمسيحية والمسلمة.

إنّ الدّولة كمؤسسة سياسية دائماً ما تنأى بنفسها عن موضوع الدّين، وتعتبر العلاقة التي تربط الإنسان بدينه هي علاقة خاصّة شخصية، لا تتدخل فيها لا سلباً ولا إيجاباً، وإنّ الممارسات الدينية حقّ طبيعي للجميع على شرط أن لا تضرّ بمصالح الآخرين من أبناء الوطن...

وفي السابق، أي من بداية الثمانينيات من القرن الماضي، كانت معظم

= هذا يؤكد ما قلتن به تواً بأن الفطرة هي التي تقر حدود الدين، ثم شجعتهن على العودة إلى الكاثوليكية وتعلم أصول الدين المسيحي، فإن الإلتزام بالدين هو الذي يحمي الإنسان سواء أكان ذلك الدين مسيحياً أم مسلماً، استغربت الأخت المسلمة التي كانت ترافقني، وقالت لي: لماذا لم تدعهما إلى الإسلام، كما يفعل الآخرون... ؟ فقلت يا أختي الدين واحد فإذا عادت هاتان البنتين إلى المسيحية ووجدتا في المسيحية ما لا يشبع طموحهما فعندئذ أنا متاكد من أنهما سيعودان إلى الإسلام، فالعبرة ليست بكثرة عدد المسلمين أو تنقيص عدد المسيحيين، وإنما العبرة بالمبادىء التي يلتزم بها الإنسان.

الجاليات العالمية التي تقطن أمريكا وكندا تؤكد في نشاطاتها على شعار القومية للدّولة التي جاءت منها تلك الجالية، أمّا الآن فإنّ التركيز على الوضع الديني العام برزت كقضية أخرى إلى جانب الاهتمام بالموضوع القومي للجاليات، فالجالية العربية مثلاً ليس لها قوة بدون وجود الجاليات الدينية المتنوعة بمساجدها وأماكن العبادة فيها، كذلك الجالية الباكستانية والهندية والصومالية وغيرها. فقد تحول الدين اليوم إلى حاجة ضرورية من حاجات الإنسان، وليس كما كان في السابق، فالمشاهد لقنوات التلفزيون في يوم الأحد يمكن أن يطلع على العضات المسيحية المتنوعة في أرجاء المدن الأمريكية والتي يحضرها عدد كبير وضخم من الأمريكيين والكنديين للتزوّد بالجانب الروحي الذي يعتبر من الجوانب الأساسية للإنسان.

وقبل أنّ أنهي موضوعي أقول فيما لو سُئلت إن كنت متفائلاً حول مستقبل الدين لدى الأمم...؟ أجيب بالتّأكيد، فالعالم لا يسير نحو اللّادينية كما كنّا نعتقد، وإنّما يسير نحو التدين وتفهّم الدّين (بما هو عام)، وأنّ المواطن الغربي دائماً ما يفتخر مع نفسه وأمام الآخرين بأنّه يذهب إلى الكنيسة يوم عطلة الأحد، أو أنّه لا يكذب ولا يسرق لأنّه مسيحي ملتزم، أو قد يقول لك أحياناً بأنّه يؤمن بالله، ويؤمن بالدين ولكنّه لا يعلم كيف يتمكّن من فهم تعاليم الدّين، فهي بالنسبة له معارضة للعقل والعلم وعليه أن يبحث عن الجواب لإشباع التساؤلات المطروحة على صفحات عقله.

ونفس الوضع ينطبق على المسلم والكونفوشي واليهودي والهندوسي، والمسيحي، فهنالك في مفاهيم الدين فراغات كثيرة تحتاج إلى إجابات، وتتطلّب جهود كبيرة من الجهد الإنساني كي يتوصّل إليها، ويحلّ رموزها، فالعلم المادي الطبي والكيمياوي والميكانيكي عاش فترات طويلة من الصّراع ومن عمليات كثيرة في البحث إلى أن تمكّن من أن يقف الآن على رجليه ويتحول إلى علم حقيقي يتمكّن الإنسان في الإعتقاد بجدواه في حياته العملية، وأن يتّخذه مرجعاً في مواجهه مشكلات الحياة المتعلّقة بهذه الجوانب.

ولم تُطرح أديان اليوم جميعها على بساط البحث والتنقيب كما طرحت

علوم الحياة كالطّب والميكانيك والكيمياء والفيزياء وغيرها، وإنّما بقي الدين عبارة عن مفاهيم يؤمن بها معتنقوها لأنّهم بحاجة إلى الجانب الروحي الذي لو افتقدوه فإنّه سيؤثّر على حياتهم الشخصية، أمّا مفاهيم الأديان التي تطرحها فهي غالباً ما تكون غيبية لا يمكن اعتمادها مع مجريات البحث والتنقيب، وعلى المؤمنين بمبادىء تلك الأديان أن لا يناقشوا تلك الموروثات المنزّلة أبداً، أو أن يفكّروا فيما بينهم وبين عقولهم.

ولم يشجع علماء الأديان على معتنقيها أن يفكّروا في كُنه قواعد ذلك الدين أي الجانب اللّاهوتي فيه، وبدلاً من ذلك ترك لهم أن يأخذوا بإفرازات الدين وأن يستفيدوا منها وهي الفضائل والقيم، ولكنّ العالم اليوم لا يمكنه أن يكتفي بالنتائج بدون معرفة الأصول التي بنيت عليها أحجار تلك الفضائل، وهكذا ستبقى هذه القضية محلّ صراع دائم حتى تصل إلى اليوم الذي تبرز فيه عقلية هائلة كبرى تمتلك من مستلزمات العلم المادي ممزوجاً بالعلم اللّاهوتي حتى يزيح الستار عن الكثير ممّا خفي عنّا من علوم الدين، والتي تلك هي من أصعب المهمات التي يواجهها إنسان اليوم وهو ينتظر بفارغ الصّبر أن يتمكّن من الجواب على آلية علاقة الأرض بالسّماء.

وإذ إنّني قد أرى بالمسيحيين قد وجدوا الجواب، بل وجدوا الحلّ في هذا ذلك المعضل بأنّ المسيح هو الجواب، وعندما يعود إلى هذه الحياة ثانية فإنّه سيكمل مسيرة الإنسان في إنضاج عقله في تفهّم تلك العلاقة الأساسية من حياة الإنسان.

أمّا أنا فأقول بأنّ العقل الإنساني هذه الطّاقة الجبّارة التي تمكّنت من أن تكتشف البعض من قوانين الأرض وقوانين الطّب، والفضاء، هذه القدرة العظمى ليست بعاجزة أنّ تحلّ إشكالية علاقة الأرض بالسّماء وذلك من أن تتحوّل قضايا الدين إلى قضايا عقلية، لأنّ الدين أنزل إلى هذا الإنسان وبهذا العقل، فمن القبيح (كما يقول المناطقة) أن يخلق الله آلة (و هي العقل) غير قادرة على أن تحل مشاكلها ومشاكل حامل تلك الآلة.

ولذلك أرى أنّ القصور ليس في آلة العقل، بل في من برمجة تلك الآلة

ووضع خطّة لعملها، وهذا ما أدّى بالتالي إلى تعطيل قدرة العطاء لتلك الآلة في أداء دورها الذي رسمها الخالق لها.

وقد بات واضحاً بأنّ الأديان مادامت تعيش وحدة المصدر فسيتحقّق ذلك اليوم الذي تقترب الأديان فيما بينها في التوحيد وفي الاعتناق، كما أنّ قوّة الدين لا تتحقّق إلّا بقوّة العلم، فما دام الجانب العلمي ضعيفاً ولا يتمكّن من الإجابة على أسئلة الدين، فإنّ الدين سيبقى ضعيفاً إلى حين يتمكّن الإنسان من شقّ طريق العلم لكي تكتمل دعامتي الأرض والسماء في عقل المخلوق.... والأرض أعني بها العلم، والدين أعني به السماء، إن لم تكتمل هاتان الركيزتان فلن يتمكن هذا الإنسان من النهوض بأعباء الأرض وتحويل أجوائها إلى سلام ورفاه وسعادة، ولذلك فليس من قبيل الغرور أن نقول بأنّ قوة انتشار الدين ستبدأ من حيث قوة العلم، وكلّما ارتفع الناس في تفهم العلم كلّما اقتربوا نحو الدين، لأنّ العلم مهما تعمّق وكبر فهنالك ثغرات كبيرة فيه لا يمكن أن يجيب عليها إلّا الدين، وهنالك أيضاً ثغرات في تعاليم الأديان لا تكتمل مفاهيمها إلّا بالعلم.

وإذا اعتقدنا أنّ الدين كان بعيداً عن العلم كما كان يعتقد سابقاً، فإنّ المسافة التي كانت تفصلهما قد بدأت تضيق الآن وبمرور الوقت، وصار أكثر الناس اقتراباً من الدين هم أولئك العلماء في العلم الطبي أو الفلكي أو الفيزيائي أو الاجتماعي. فقد لاحظت أنّ الإيمان (Faith) يكبر في نفس الإنسان بنفس قدر ما يحمله من علم، فقد يجد ذلك العالم أو الباحث أنه لمن الصعوبة أنّ يتفهم معنى الإيمان في نفسه حينما يدرك صعوبة تحويل المفاهيم العلمية إلى واقع حياتي باعتبار أنّ الدين الذي يعتنقه الآن الغربيون محدود الفهم ومحدود الآفاق ضيّق النظرة ولا يمكن له أن يخرج أكثر من حدود الكنيسة وحدود الكلمات الثلاث التي تقال فيها[1].

---

(1) في إحدى المناسبات كنّا في اجتماع علمي في الولايات المتحدة الأمريكية كانت قد دعتنا إليها إحدى الشركات الأدوية الكبرى، وكانت الجامعة التي استضافتنا هي في قمة البحث =

الأديان مهما كانت، ومهما احتوت، ومهما تفرّعت في التفاصيل

= الطبي والدوائي والتي يجب أنّ يفتخر بها الإنسان، وكان لي أن التقي بشخصية علمية رائعة متخصصة في غشاء الخلية فقط يعمل تحت يديه 50 باحثاً (Post Doctor) يحملون شهادة دكتوراه كلهم يبحثون في تركيب غشاء الخلية، هذا الغشاء الذي هو عبارة عن شيء يتجاوز الوصف في دقته وفي تركيبه الذي يُذهب بالألباب، قدمت نفسي له ببساطة فرحب بي ثم دعاني إلى تناول قدحاً من القهوة، وهناك في مختبره العملاق انتحينا في زاوية من زواياه وبدأنا نتحدث عن أمور كثيرة تخص الجانب العلمي للخلية ولغشائها محاولاً الإستفادة من النتائج التي توصل إليها هذا الباحث في بعض إشكالات البحث الذي أنا بصدده، ثم انعطف شيئاً في حديثه إلى التفاعلات الكيمياوية في داخل غشاء الخلية، وأنه الآن في طور بحث تغير تركيب الماء لتغير الخلية نفسها وليس العكس. ابتسمت قليلاً ظن هذا العالم أنني ربما أقوم بإجراء نفس البحث الذي في ذهنه عن علاقة الماء مع غشاء الخلية، وعندما حاول الاستفسار أكدت له أنني تذكرت ما جاء في القرآن من آية الماء، قال: وما هي... قلت (و جعلنا من الماء كل شي حي). ثم حاولت جاهداً وبكل طاقتي أن أترجم الآية بالصورة التي أرادها القرآن وليس ما نفهمه نحن، والتي هي أنّ الماء جزء من الحياة وأنّ الحياة حياة أي شي في الوجود من الجسم الضخم إلى جزيئة غشاء الخلية تعتمد على وجود الماء. وإنّما المفهوم العلمي الأعمق الذي كنت مجداً أن أنقله إلى هذا البروفيسور هو أنّ تركيز الماء هو الذي يحدد حيوية الخلية، ثم بذلت جهداً مضاعفاً كي أنقل دقة التعبير القرآني... فهو لم يقل أنّ الحياة تحتاج إلى ماء، هذه قضية عادية يتفهمها الجميع، ولكن الإعجاز في كلمة (من)... وفي النهاية وجدت هذا الباحث العملاق قد أدرك المعنى بعد جهد جهيد في نقل المعنى القرآني... عندها فكر ملياً وسألني أين أجد ذلك القول، هل لك أنّ تعطيني ال(Bible) العائد لكم (أي القرآن)... ؟ أخرجت له القرآن باللغة العربية وكتبت على غلافه تعبيرات الهدية... أخذه وقلبه بين يديه وهو لا يفهم مابه، ثم سألني: كم عمر هذا الكتاب، ومن الذي كتبه، وهل فيه آيات تخص العلوم، وأين أجد الترجمة العلمية له، وكيف تقرأونه، وأين تقرأونه، في الكنيسة أم في البيت..؟... وهكذا وجدت عند هذا العالم الكبير رغبة غير عادية في هذا الكتاب، ثم سألني إن كان كتابكم نزل لكم أنتم المسلمون، ثم ولماذا لم نقتنيه نحن، ثم ما هو الإسلام...؟ شعرت من خلال سيل الأسئلة الكثيرة التي سألها بأن هنالك هداية نزلت على رأس هذا الرجل وهو ما يشبة المعجزة، ولكنني تذكرت آية وما أروعها من آية قلتها له وهو في حالة من البحث والسؤال (إنما يخشى الله من عباده العلماء) ومع تفسيري الركيك والضعيف مقارنة ببيان القرآن وجدت هذا العالم يهتز ويداه ترتجفان وكأن الله أراد له أن يهتدي إلى ملكوته، كنت انظر إلى وجهه ويديه وكأنني أعيش مع رجل من القديسين المؤمنين، وربما خطر على بالي (مؤمن آل فرعون) أو غيرهم من الشخصيات المؤمنة العظيمة، ثم قدمت له الكتاب الكريم فدسه في جيبه وقال لي بصريح العبارة: انظر. وأشار إلى مختبره الضخم وإلى الأجهزة المتنوعة التي فيه والكمبيوترات وعدد العاملين فيه... ثم رفع القرآن في يديه وقال هذا من هذا، وأشار إلى مختبره والقرآن. وبعد سنة ونصف السنة =

والتعاليم تبقى غايتها واحدة، وهي أن تكون هنالك قناة تربط العبد بخالقه، هذه القناة هي ما نسمّيه (الإيمان)، وهذا ما يجب أن ندعو اليه، ونؤكّد عليه، واكتشاف هذه القناة أو الوسيلة عمل مُجهد يحتاج إلى طاقة شأنه شأن أي أمر عظيم يحتاجه الإنسان ويسعى له، كالصّحة والمال والشّهاده العالية والمركز المتقدّم، فالإيمان لا يمكن أن يتمّ بدون مبادرة من قبل الإنسان، وأنه لا يأتِ وحده بالتمنيات أو بالسفسطائيات، بل يأتي بالعلم والقدرة والطاقة. قد أجد صعوبة في فهم التسابق من قبل الدعاة في السعي إلى أن يتحول المسيحي إلى مسلم أو الهندوسي إلى مسلم، أو بالعكس، وإنّما أؤمن بأهمية الكيان الذي يتمكّن به في أن يفتح آفاق السماء إلى قلبة، وأن يعيش الله لا في العلو، وإنّما في القرب، وأن يحول مفاهيم (الله) (الخير) إلى حركه إنسانية تنتقل بين بني البشر، وعلى ضوء تلك الحركه يقيم الإنسان علاقاته مع أخية الإنسان ضمن مفاهيم (الإيمان)، وهذا ما ينعكس طردياً على إثراء الحياة وتحويلها إلى ساحة من ساحات سعادة الإنسان في إقامة العدل فيما بينهم.

حيث يعتقد الكثيرين من الذين عاشوا في الشرق أنّ الإشعاع الديني لن ينطلق إلّا من الشرق، ثم يسير نحو الغرب، وأنا أقول لهم أنّ ذلك ليس بالتأكيد أنّ يكون صحيحاً، فالغرب يتميز بحالة العلم وحالة العقلائية، والتفتح والاستقلالية، وهذه هي مرتكزات وصفات هامة من صفات الإنسان المتدين الواعي، فالدين لا يبني مفاهيمه إلّا على مرتكزات الصفات الإنسانية الفطرية التي أودعها الله في خلقه، وعندئذ فإن الدين بتعاليمه سيُثري مفاهيم الفطرة وينعشها ويحولها إلى كيان متحرك تنتقل فيما بين بني البشر بأجمعهم،و لذلك فلست متاكداً أنا من أنّ الشرق سيبقى دائماً وأبداً منطلقاً لنهضة الدين، قد يكون في فتره من الفترات ولكنّ ليس بالضرورة أنّ يكون مستمراً استمرار التأريخ.

= من هذه المقابلة بعثت إلينا إحدى المجلات العلمية بينما كنت في قطر آخر خبر وفاة ذلك العملاق الكبير، فقلت في نفسي هنيئاً لك الجنة، أنا على يقين أنه مات مسيحياً، ولكنني على يقين أيضاً أنّ الإيمان لا يعرف المسيحية أو اليهودية أو الإسلامية... إنّه شي في القلب فإذا نبتت هنالك قنوات بينه وبين خالقه وأصبح لا يرى إلّا الخير لأهل الأرض.

وقد يقول أولئك الذين يلتزمون بمبدأ شرقية الأديان، ويدافعون عن موقفهم في أنّ الغرب قد تحول الآن إلى مستنقع كبير للرذائل التي يعاني منها الإنسان كأسلحة الدمار والإباحية الجنسية، والصراعات الجاهلة من الأفكار المنحرفة وغيرها من الأمور التي نراها اليوم بأمّ أعيننا لا تأتي لا من الشرق، وإنّما من الغرب، فالغرب سابقاً واليوم كان ساحةً ناضجة لإشباع غرائز الإنسان منذ ربّما مطلع القرن الماضي ولحين نهاياته، وهو موضوع طبيعي في أن تتحرك الغرائز الإنسانية الشيطانية نشيطة فاعلة من جرّاء غياب الدّين الحقّ والتوجيه.

فالغرب يحدّد الآن تلك الغرائز الفاسدة بالقانون الوضعي، وهذا القانون لا يهذّب النفس البشرية، وإنّما النفس البشرية تهذبّها مبادئ الأديان، فمن الطبيعي أن نرى ظهور تلك الغرائز بغياب حالة التهذيب والتربية وهذا ما نراه موجوداً الآن في الغرب الذي بدأ مفكروه وحكّامه يعون أهمية الدين في تهذيب طبائع مواطنيه، وأنّ القانون الوضعي لا يخدم في هذا الأمر شيئاً إلّا من قبيل العقوبة، والعقوبة وحدها لا تربي الإنسان على الفضائل.

فإذا اقترن الدين وتعاليم السماء مع القانون الوضعي العقوبات والمحفزات فإنّ المواطن لا يجد أمامه إلّا أنّ يتخذ من القيم طريقاً له في حياته، باعتبار أنّ القيم الفاضلة هي التي تساعده في النجاح في حياته المادية فضلاً عن راحته النفسية، فالصدق مثلاً فضيلة يلتزم بها الغربي لأنّها وسيلة للنجاح في الحياة التجارية، فكيف إذا عاضد الدين تلك الفضيلة وثبتها في النفس ليس لتحقيق مصلحته فحسب، وإنما لملأ شعوره بالسعادة الداخلية، عندئذ ستتحول الفضيلة أساساً ثابتاً في نفوس المواطن.

في الغرب الآن غُيبت الفضائل بسبب تغييب الدين من حياة الإنسان، وهذا ما يطالب به المهتمون بالجانب الاجتماعي في أن يفسحوا المجال للدين في أن يأخذ طريقه في تربية الإنسان، وأنّ القانون الوضعي لا يمكنه وحده أن ينجز مهمة التربية الإنسانية.

وهكذا نرى الغرب اليوم في بحث دائم عن منقذ يحمل من التعاليم

الدينية ما يمكنها من ملئ جوانب المواطن الغربي، وإثراء طبيعته وفطرته الإنسانية... الكاثولوكية كما هي موجودة الآن وكما ورثوها عن تعاليم القساوسة غير مجدية بالمعنى العام في احتواء حياة الإنسان الغربي لظروفها المعادية للعلم والمعادية للعقل بالإضافة إلى تأريخها الطويل الذي اتّسم بالدكتاتورية في نسيان العقل. كلّ تلك الأمور جعلت الغربي يرنو إلى مفهوم جديد وإلى تركيبة جديدة روحية يحلّ بها مشاكله الروحية والأخلاقية التي يواجهها في عالم اليوم.

والغرب اليوم يبدو أكثر قرباً في تفهم مبادئنا الرّوحية وتعاليمنا الإسلامية من أي وقت مضى، لذلك فإنّني لو شاء لي لوم جهة ما من الجهات إلى أسباب ذلك، فإنّني أرمي باللّوم على مفكرّينا الإسلاميين وقادتنا في عدم تبنّي مسؤولية وضع برنامج (روحي) لا أقول (إسلامي) لتلك الشعوب، والسّبب في أن لا أقول بالتسمية، ولماذا لا أقول (برنامج إسلامي)... ؟ لأنّني على يقين أنّ الحياة الروحية الهادئة ستعود بالإنسان، أي إنسان إلى دين الفطرة، وسيتفهم معاني الإسلام لا باعتباره ديناً آخراً منافساً للمسيحية أو اليهودية، بل باعتباره ديناً يتعايش مع الأديان أجمع.

ولكنّ المشكلة الكبرى التي نواجهها اليوم في الغرب أنّ علماءنا من المسلمين العاملين في الغرب يهتمون كثيراً بفكرة تحويل المسيحيين إلى مسلمين، وكأنّ هذا هو نوع من أنواع الانتصار أو الثأر من المسيحية أو اليهودية، وهو أسلوب خاطىء جداً لا يساعد تلك الأمم على اكتشاف طريق الفطرة الصحيحة، ولهذا ومن خلال هذه السطور أدعو مفكرينا الإسلاميين وعلماءنا للمبادرة إلى دراسة برنامج خاص للغربيين تتمكّن من خلاله تلك الشعوب أنّ تكتشفت عظمة رسل السماء وقيمها من خلال ذلك العرض الذي تسوده العلمية والعقلائية والذي له من مساحة البعد ما يتجاوز به حدود المسمّيات الضعيفة التي خلقناها لأنفسنا.

إنّ النهضة العلمية الهائلة اليوم والتي تمتلك من المؤهلات والقدرات

الكثيرة لهي من أهم الركائز التي سيجد الدين طريقه في عقول ونفوس بني البشر.

لقد دخلت دول العالم اليوم إلى عصر الإلتزام بالدين، وإن لم يكن التزاماً فهو احتراماً له، وبدا في أنّ الجانب الروحي هو حاجة لا تقل أهميتها عن الجانب المادي من الغذاء والدواء. وقد تفهّمت الأمم ذلك في عصر انتقلت فيه العلوم إلى درجات متقدمّة من الرّقي، وهذا ما أكّد المفهوم الذي يقول أنّ العلم والدين صنوان، فمتى ما ازداد العلم كان على الدين أنّ يعادل كفته، فإذا تعمق الدين في نفوس الأمة كانت الأمة بحاجة إلى العلم لتفهم تلك المفاهيم الدينية والأخلاقية.

أبو ناجي

إن العراقيين أصحاب نكتة ولطافة كما أنّهم كثيرو التندر فيما بينهم خصوصاً في المناطق التي تنتشر فيها المنتديات الأدبية الثقافية والجلسات الشعرية والفكرية بينما تخفّ وتقلّ في المناطق التي تعيش من الزّراعة والصّناعة.

التقيت في إحدى الجلسات الأدبية بأحد الأدباء العظام آنذاك في العراق، وهو الأستاذ "جعفر الخليلي" والذي كان يعتبر مفخرة من مفاخر ما انتجه العراق من أدباء وشعراء ومفكرين إذ كان من روّاد القصّة العراقية... فقد أبدع ذلك الرجل أيّما ابداع في عالم القصّة والرواية والصّحافة والتحقيق والشّعر... تعرّض هذا الرّجل للتهديد والمضايقة في أحداث كبيرة حصلت في مدينته، فقرّر أن يغادرها ويترك مسقط رأسه كي يعيش بعيداً في مدينة أخرى أكثر أماناً وأقلّ ضغطاً، فاتّجه نحو بغداد العاصمة حيث عاش لسنوات طيلة ومارس العمل الصحفي والفكري في مؤسسة صحفية كبيرة هي "دار التعارف"... و عندما اختلط بالمجتمع البغدادي وجد صعوبة في التعامل مع الناس وخاصّة وأنّه كان صاحب نكتة يفتقر إليها البغداديون، فعندما التقينا وكان قد مرت على هجرته لبلدته أكثر من ثلاثين عاماً، شكا إليّ في إحدى المناسبات قائلاً: عندما أمازح أحد البغداديين بنكتة أدبية وبطريقة لطيفة أراه يحملق في وجهي وكأنّني أنتقص من كرامته فيقول لي بحدّة: وماذا تقصد بذلك؟

وعندما تلتقي هذا المفكّر الكبير وتتطارح معه أبيات الشعر وأدب النكتة يتحوّل إلى إنسان مليء بالوجدان الأدبي يسرّ من حوله من الجالسين. لقد توفّاه الله في الامارات العربية المتحدة بعيداً عن وطن أراده أن يكون القبر

الذي يحتضنه فكأنّ الوطن ضاق بما يملك من علم وفكّر فقرّر أن يترك وطنه بحثاً عن وطن يستوعب عطاءاته وكي ينهي حياته حيث هو[1].

والعراقيون ليسوا فقط من محبّي النكتة، وإنّما هم محبّون للألقاب فهذا يلقّبونه بكذا وفلان بكذا، فالاتّحاد السوفياتي يسمونه مثلاً بـ (أبو شوارب) والولايات المتحدة الأمريكية بـ (أبو سروال) وبريطانيا بـ (أبو ناجي) وهكذا يطلقون العنان لمخيّلاتهم في تسمية الأشياء وإعطاء الألقاب لسياراتهم وبيوتهم وما يأكلونه فضلاً عن ذكرهم بعضهم البعض بالعديد من تلك الألقاب...

فـ (أبو ناجي) لقب أطلقوه على بريطانيا التي احتلت العراق منذ عام 1920 وحتى يوم 14 تموز من عام 1958، عندما قامت ثورة بقيادة مجموعة من الضباط يرأسهم (عبد الكريم قاسم). تحوّلت بعد ذلك الدّولة العراقية إلى جمهورية متحرّرة... وكان العراقيون منذ بداية القرن الماضي، يعزون سبب أيّ حركة سياسية أو فكرية أو اجتماعية في العالم إلى الإنكليز لأنّ بريطانيا

---

(1) أصدر أول جريدة في النجف سماها (الحيرة) التي ظهرت في الشهر الأول من عام 1927، ثم أصدر في العام 1929-1930 صحيفته الأولى واسمها (الفجر الصادق) التي كانت تصدر في ثماني صفحات كل أسبوع وعاشت ثلاثين أسبوعاً، وفي العام 1934م أصدر جريدته الأسبوعية الثانية (الراعي) التي توسعت إلى اثنتي عشرة صفحة وكان شعارها المعلن (لسان حال اليقظة الفكرية في النجف وما حواليها)، ولكن الحكومة سحبت رخصة الجريدة بعد سنة واحدة بتهمة اتصال الخليلي بسياسيين غير مرغوب فيهم، وهم أشخاص قال عنهم الخليلي: (إنه لم يقابلهم إلا بعد هذا الحادث بسنوات طويلة)، وبعد هذا الحادث، طلّق الخليلي السياسة متجهاً إلى الأدب مصدراً مجلة (الهاتف) في العام 1935، وكانت هذه المجلة منبراً حراً لأفكار الشباب النجفي، وإلى الآن هناك شارع في النجف يطلق عليه اسم (شارع الهاتف) نسبة إلى هذه المجلة، في العام 1948م انتقل الخليلي إلى بغداد ناقلاً معه مطبعته، وواصل فيها نشر مجموعاته القصصية ودراساته العديدة، وبعد إغلاق (الهاتف) في العام 1954م بقي الخليلي عامين لم ينشر شيئاً، غير أنه أصدر في العام 1956 مجموعة من الكتب هي: (هؤلاء الناس)، (الضائع) و(كنت معهم في السجن)، (هكذا عرفتهم) (التمور العراقية قديماً وحديثاً). ولكنه أخيراً كتب سفره القيّم الكبير (موسوعة العتبات المقدسة) وما إن انتهى منها حتى ضايقه النظام العراقي واضطره إلى مغادرة العراق ثم ملاقاة ربه في 3/ 2/ 1985م ودفن في الإمارات. انظر مادة (جعفر الخليلي). (http://ar.wikipedia.org/wiki).

باعتقادهم دولة تملك من الدهاء ما يعجز عنه الوصف، وهذا ما أهّلهم إلى استعمار معظم بلاد العالم فصارت إمبراطورية كبيرة لن تغيب عنها الشمس[1] وينظر العراقيون إلى بريطانيا بعين الرّيبة دوماً، فيعتقدون أنّ مشاكل العالم ومآسيهم بسبب بريطانيا التي لا تريد الخير للعالم وهي عبء على الإنسانية جمعاء... ومع نظرتهم السوداء إليها فإنّهم كانوا يقرّون بتفوقها وقدراتها وحسن تنسيقها كأمّة تستحق أن تسود وتستعمر العالم في ذلك الوقت.

وإبّان دخول الإنكليز العراق، قاد رجال الدين الشيعة حرباً شرسة ضدّ بريطانيا عند دخولها العراق، وذلك بعد تداعي الدولة العثمانية وبداية سقوطها محتلة لأراضيه وسالبة لما يملكه من ثروات وطاقات، فكان رجال الدين الشيعة أول من رفع شعار ومقاومة المحتلّ والدّفاع عن الدّولة العثمانية بالرّغم من أنّ تلك الدولة اضطهدت الشيعة أيّما اضطهاد وحاصرتهم وأعدمت الكثيرين من علمائها وقادتها[2].

ولكنّ للعلماء رأي آخر وهو إذا ما خُيِّرت الشعوب ما بين كافر ومسلم، فمن المفروض طبعاً أن تقف إلى جانب المسلم، وهكذا قامت ثورتان كبيرتان في العراق ضدّ الإنكليز أحداهما في سنة 1918 والثانية 1920 وكان العلماء والمراجع هم القادة الفعليون لهذه الثورات ووجّهوا عدداً كبيراً منهم ومن الجيوش التي وقفت معهم إلى أماكن تواجد الإنكليز في ميناء البصرة، والتحمت الجيوش فيما بينها في معركة ضروس ما لبثت أن انتشرت في معظم مناطق الفرات الأوسط، وقد ذهب ضحيتها مراجع كبار وعلماء أفذاذ في الوقت الذي كان يجب أن يكون دورهم مقتصراً على البحث والدرس والقيادة الدينية[3].

---

(1) ويروي العراقيون بهذا الصدد فيقول أحدهم مثلاً: أتعلم لماذا الإمبراطورية البريطانية لن تغيب عنها الشمس؟ فيجيبه آخر بالقول: لأنّه إذا غابت الشمس فإنهم سيسرقون الله ! لذلك ترك الله الشمس مشرقة دوماً خشية سرقته...

(2) هي ثورة 1915 التي انتهت بمذابح كبرى ارتكبها العثمانيون، وكانت النجف هي أول مدينة تتحرّر من العثمانيين (حسن الاسدي، ثورة النجف).

(3) أشترك في الثورة تلك كلّ الاديان والقوميات العراقية وكانت عنواناً واضحاً لمسيرة =

لم تدم الحرب طويلاً بعد أن تمكّن البريطانيون من إنهاء الحرب سريعاً لمصلحتهم والزّحف سريعاً إلى بغداد، مشكّلين أوّل حكومة عراقية برئاسة عبد الرحمن النقيب شيخ الحضرة القادرية آنذاك في بغداد.

والبريطانيون هم من أفضل الشعوب الغربية معرفة بواقع المجتمعات العربية والإسلامية وأقدرهم على تفهّم اختلافاتهم وثقافاتهم، ولم تتأتَّ تلك القدرة من اعتباط، وإنّما جاءت بسبب الدراسات المعمّقة التي قام بها الإنكليز قبل سقوط الدولة العثمانية قبل خمسين عاماً مهيّئين أنفسهم لاتخاذ هذا الدور للسيطرة على العراق وعلى الدول العربية الأخرى والتي أصبحت تحت سيطرتها بعد اتفاقية (سايكس بيكو) والتي قسمت تركة الرّجل المريض أيّ الدولة العثمانية بين دول التحالف بريطانيا وفرنسا..

ويوجد في بريطانيا وفرنسا اليوم معاهد وجامعات متخصّصة في دراسة المجتمع الشرقي والإسلامي، وهذا التخصّص لم يكن يمارس على المستوى النظري فحسب، وإنّما تعدّاه إلى المستوى العملي في إرسال الإرساليات التبشيرية إلى مناطق عديدة، كي يسهّل عليهم فهم حركة الشعوب حتى تتمكّن من السيطرة عليها، ومثال ذلك لورانس العرب، وجون فيلبي، اللذان درسا الثقافة العربية والإسلامية في بريطانيا ثم جاءا إلى البلاد العربية وبالتحديد إلى الجزيرة العربية التي كانت تمثل مركزاً للعرب والمسلمين ثم بدءا رحلتهما بالبحث والتدقيق بعادات وتقاليد التنوع الشعبي في البادية والمدينة وفي المناطق الريفية النائية إذا صحّ القول، وتمكّن هذان الرجلان من اتّقان لغة ولهجات الشعوب التي قابلوها وخاصة أولئك البدو الرّحل، فقد كان من الصعب أن ندرك خلفية هذين الرجلين من خلال لغتهما أو عاداتهما بحيث اندمجا في الحياة العربية وكأنّ ذلك يعبّر عن حياتهما الأساسية. كانت دوافع الغرب آنذاك السيطرة على البلدان العربية والإسلامية ومصالح عديدة أهمّها

= الوطن (و قد خيروني أن في الشرق وحدة... كنائسه تدعو فتبكي الجوامعُ \ وقد خيروني أن للعرب نهضة... بشائر قد لاحت لهن طلائعُ).

التوسع والسيطرة اقتصادياً، وأهمّها التدخل الصليبي ومحاولة السيطرة على مراكز المسلمين ومنعهم من النهوض ثانية، ولكني لا أعتقد أنّ هذا السبب الأخير هو السّبب الأوّل والأساسي لفكرة الاستعمار لبلداننا العربية والإسلامية، وإنّما هو غرض آخر من أغراض الإستعمار تتجمّع حوله جمعيات كنسية تبشيرية تصب كلّ جهدها وعملها في كسب الشّعوب العربية إلى جانبها وإقناع الفقراء منهم لاعتناق الدين المسيحي[1].

وقد لعب البريطانيون آنذاك بحذر ودقّة على أوتار الطائفية بين السّنة والشيعة في المجتمع العراقي خاصة، فانحاز الإنكليز نحو السّنة (المتسيسين) وأسندوا إليهم المناصب المهمّة والعليا في الدّولة في الوقت الذي قرّر الشيعة فيه أن ينسحبوا من الدولة بجميع مرافقها ممّا سبّب تحوّل الشيعة في العراق إلى معارضة يقف منها الإنكليز موقفاً شديداً كان هدفه أن يحرّكوا المتشدّدين من السّنة في التنكيل من الشيعة كي تظهر القضية وكأنّها قضية طائفية واضطهاد يقوده التسنّن السياسي ضدّ الشيعة، كما هي حادثة إبعاد المراجع الثلاث أبو الحسن الاصفهاني، وشيخ الشريعة والخالصي.. على يد شخصية سنية هي رئيس الوزراء آنذاك (عبد المحسن السّعدون)... وبهذه الأزمات السياسية والطائقية التي كان المحتل البريطاني يمارسها كان المجتمع العراقي يعيش نوعاً من الغشّ أمام رؤية الحقيقة وواقعها خلف الكواليس.

وقد استفادت بريطانيا في العراق من رموز العهد التركي الذين حاربتهم وطردتهم من العراق، وكانوا ممّن قربتهم تركيا والذين انقلبوا عليها لمجرد أن تغيرالنظام، وصار البريطانيون هم الأسياد، وهذا الشان تماماً ما حدث عندما سقط الاتحاد السوفياتي وتجزأت الدولة إلى دويلات صار أولئك الذين كانوا أعمدة الشيوعية والاتحاد السوفياتي أثناء مدة الحكم هم القادة الجدد وتنكّروا

(1) أهم عملاق في مناقشة هذا الموضوع الحساس هو الاديب الكبير المرحوم أدوارد سعيد (ت 2003) والتي نشر أفكاره في كتابه القيم المهم الذي سماه (الاستشراق) المطبوع في سنة 2003.

لكلّ المبادئ التي كانت الشيوعية تنادي بها، وبات الحكم هو المقياس العملي للإيمان بالشيء.

وتروي إمرأة تدعى (مسز بيل)[1] في مذكّراتها حادثة وهي عندما طرحت فكرة رئاسة الوزراء للشيخ عبد الرحمن النقيب سادن الحضرة القادرية رفض ابتداءاً، والسبب أنّه رجل درويش كما عبّر هو عن نفسه، ولا يعرف كيف يعمل بالسياسة في الوقت الذي كان على بريطانيا أن تضع في سدّة الرئاسة شخصية دينية معروفة كي تهدّئ عواطف عوام الناس وتظهر لهم احترامها للدّين والإسلام وذلك بتوزير شيخ الحضرة القادرية رئيساً للوزراء، وعندما رفض الشيخ أرادت مس بيل أن تثير في نفسه روح الغيرة والمنافسة الطائفية فذكرت له أنّها ستستدعي السيد محمد الصدر وتعرض عليه الوزارة، فلم يتردّد الكيلاني حينها أن يعلن رضاه وقبوله برئاسة الوزارة ...

هذه الحوادث وأمثالها وجدتها في كثير من دول العالم عندما تكون هناك تنوعات واختلافات طائفية وعرقية، فالسّيطرة لا يمكن أن تتم إلّا بالتفرقة بين أطياف الشعب المختلفة نسبة إلى القول المعروف فرّق تسد ...

ولا يزال العراقيون يتعاملون الآن مع الاحتلال الأمريكي لبلدهم ويلقون باللائمة على البريطانيين أو أبو ناجي، ويضعون لذلك سيناريو مدبلج ويصنعون الأفلام التي تعيش الخيال العلمي.

إنّ معظم العراقيين يستمعون إلى إذاعة (BBC) ويثقون بكلّ ما تذكره وفي

---

(1) باحثة ومستكشفة وعالمة آثار بريطانية عملت في العراق مستشارة للمندوب السامي البريطاني (بيرسي كوكس) في العشرينيات من القرن الماضي، جاءت إلى العراق عام 1914 ولعبت دوراً بالغ الأهمية في ترتيب أوضاعه بعد الحرب العالمية الأولى، فقد كانت بسعة علاقاتها ومعارفها وخبراتها بالعراق أهم عون للمندوب السامي البريطاني في هندسة مستقبل العراق، يعرفها العراقيون القدماء بلقب الخاتون، يعتبرها بعض المحدثين بأنها جاسوسة، وهي في الواقع موظفة بريطانية خدمت بلدها بريطانيا بكل جد وإخلاص، اقترحت هي وتوماس إدوارد لورنس قيام مجلس تأسيسي للدولة العراقية بهدف تنصيب الأمير فيصل بن الحسين ملك على العراق، ولها الفضل في تأسيس المتحف العراقي.

دقّة أخبارها يناقشون الأحداث التي تذيعها فيما بينهم في أوقات الراحة في المقاهي وفي البيوت ويتطارحون همومهم السياسية ومشاكلهم الاجتماعية، وكلّما سمعوا خبراً ما سألوا عن مصدره فيقول أحدهم من "أبو ناجي" معناه أنّ الخبر صحيح ومصدره بريطانيا طبعاً.

ولا زالت الشعوب العربية حتى يومنا هذا، تؤمن بمصداقية إذاعة ال BBC وتعتبرها إذاعة صادقة وغير منحازة كأبي ناجي الوجه السياسي للثعلب البريطاني.

فالعراقي وبسبب بدوية ثقافته يرى في أسلوب الغلبة نوعاً من الذكاء حتّى وإن كانت أساليبه غير أخلاقية كما هي سمة السرقة التي يسمّون فاعلها ومرتكبها (زلمة ليل).

إسرائيل كيف نفهمها

كلّ العرب الذين ولدوا في القرن الماضي، وكذلك الذين ولدوا في هذا القرن هم أسرى لموضوع الفهم الفلسطيني، ولمشكلة النزاع مع إسرائيل بما يتعلّق في إرجاع تلك الأرض إلى أهلها الأصليين. لقد سمعت تلك الأجيال آلاف بل ملايين من الخطب الحماسية وقرأوا ربّما مئات من المقالات السياسية، وسمعوا شعراً ونثراً بلا حدود حول ذلك القطر العربي الذي احتله اليهود، وتحول إلى دولة أخرى إسمها إسرائيل في عام 1948 ولحد الآن... ودخلت دول عربية معها في تاريخ صراعات هذه المنطقة الحسّاسة من العالم.

وقد خاضت الدول العربية حروباً، ولكنّها ليست كالحرب التي قامت بين العراق وإيران، أو حرب الخليج، بل أنها حروب من نوع خاص، قصيرة المدة، غامضة النتائج، جلبت على العرب الويلات وحوّلتهم في نظر الشعوب الأخرى إلى أمّة لا تعرف الحرب فقط، وإنّما تعرف الشغب أيضاً.

ونحن كشعوب عربية ارتبطت نظرتنا إلى الآخرين من خلال هذه القضية، فصرنا نقيس الناس على ضوء قربها وبعدها من تفهّمها للقضية الفلسطينية، كذلك تحليلاتنا السياسية، وأدبنا الوجداني حيث انعكست على كلّ ذلك قضية فلسطين وإسرائيل، ثم عادينا دولاً وجارينا دولاً أخرى وصادقنا ثالثة بناءً على المقياس الفلسطيني، أكان صحيحاً ذلك أم لا[1].

---

(1) لسنا في موضع تحليل هذا الأمر لمعرفته أكثر من أننا هنا نحاول أن نتفهم أن الإنسان عندما يرمي بنظره إلى مَن حوله من الناس فهو إما أن يجد صديقاً له أو عدواً أو محايداً، فإذا كان صديقه عليه أن يكتشف مداخلات تفكير ذلك الصديق كي يديم صداقته وعلاقته، وإذا كان عدواً فعليه أن تحذره كي تتجنب ما يصدر منه من أذى تجاهك، وإذا كان محايداً =

وإسرائيل دولة أقيمت على أسس وروايات تأريخية في عودة هذه الأرض إلى (قوم) وهم بنو إسرائيل أي (آل يعقوب)، أو بمعنى آخر عشيرة أو قبيلة من القبائل إسمها (بني إسرائيل) كانت تملك هذه الأرض في يوم من الأيام، وأنّ الحكام الذين توالوا عليها قد سرقوا منهم تلك الأرض وهجّروهم في بلاد العالم، ويستشهدون بهذه الفكرة بأرقام مختلفة منها هيكل سليمان ومنها آثار أخرى تؤكّد عودة هذه الأرض إلى أولئك القوم أو تلك العشيرة التي تسمى (بني إسرائيل)، هذه المقولة التاريخية لم يتمكن الإسرائيليون لحدّ اليوم من إثباتها علمياً، مع أنّ الحفريات التاريخية والجيولوجية أثبتت بعضاً من تلك الوقائع، ولكنّها لم تثبت كامل الصورة.

ولكنّ العرب يعتبرون هذا الكلام هراء، وأنّه ليس من قبيل ما يجب أن يُرد عليه بأيّ حال من الأحوال، وقد اتّخذ حكامنا العرب قراراً في أنّ الأرض الفلسطينية هي أرض عربية إسلامية سواء أثبتت الحفريات اليهودية والعلمية ذلك أم لا، مع أنّ العرب بأجمعهم لم يتّبعوا أساليب البحث العلمي في مصداقية عائدية هذه الأرض لهم كما فعل اليهود، بل اتّخذوا الأمر من باب البديهيات التي لا تقبل حتى النقاش فيها أو المرور عليها.

أمّا اليهود أو الإسرائيليون في العالم انقسموا إلى قسمين، القسم الأكبر يقول بملكية تلك الأرض إلى أجدادهم، مع اختلاف في طبيعة الرؤية، فالبعض لا يرى في إقامة دولة على تلك الأرض العائدة لهم هو واجب ديني أو عقلي أو سياسي، بينما ترى الأقلية منهم بأنّه مسؤولية جميع اليهود في العالم.

لم يحسم الباحثون والعلميون المهتمون بشؤون الحفريات والآثار للوقت الحالي مسألة عودة الأرض إلى ذلك الشعب (بنو إسرائيل) القديم، ولم يتّفقوا

= فعليك أن تستقرء تفكيرة كي تكسبه إلى صف الأصدقاء، أو على أسوء الإحتمالات أن لا تحوله إلى صف الاعداء، هذا المبدأ هو من أساسيات التفكير الفطري للفرد فضلاً عن المبدأ السياسي والمبدأ الاجتماعي.

من خلال تلك البحوث التي لازالت جارية منذ القدم في التوصل إلى حقيقة علمية في عائديتها، إلى بني إسرائيل، وبعض من يهود العالم، وخصوصاً الأمريكيين منهم يرون في الحقيقة العلمية هذه طريقاً لحسم حلقة النزاع الدائرة الآن في الأحقّية لاحتلال الأرض، منهم الكاتب الكبير والمفكر اليهودي الأمريكي المشهور (ناعوم تشومسكي)[1] الذي لم يحسم أمره بعد في قانونية الدولة الإسرائيلية مع أنّه من الباحثين العريقين في الأدب اليهودي وفي الشؤون السياسية لإسرائيل فضلاً عن مكانته العملية في كلّ الأوساط الجامعية.

أمّا الأمم المتّحدة فقد اعترفت بإسرائيل كدولة (قومية) في سنه 1948 على أسس الدول الأخرى في أمريكا وأوروبا والعالم وهو الأساس (القومي)، فاليهودية اليوم في عرف أمم العالم ليست (ديناً) بل (قومية) فالأمم المتحدة لا تعترف بالدول (الدينية) ولا ترى في الدين جامعاً شاملاً لتكوين الدولة، وإنّما الدين عبارة عن قيم أخلاقية تحدّد الإنسان في اتباع الطرق

(1) هو أستاذ لسانيات وفيلسوف أمريكي إضافة إلى أنه عالم إدراكي وعالم بالمنطق، ومؤرخ وناقد وناشط سياسي، وهو أستاذ لسانيات فخري في قسم اللسانيات والفلسفة في معهد ماساشوست للتكنولوجيا، والتي عمل فيها لأكثر من 50 عام، إضافة إلى عمله في مجال اللسانيات فقد كتب تشومسكي عن الحروب والسياسة ووسائل الإعلام وهو مؤلف لأكثر من 100 كتاب، وفقاً لقائمة الإحالات في الفن والعلوم الإنسانية عام 1992 فإنه قد تم الاستشهاد بتشومسكي كمرجع أكثر من أي عالم حي خلال الفترة من 1980 حتى 1992، كما صُنف بالمرتبة الثامنة لأكثر المراجع التي يتم الاستشهاد بها على الإطلاق في قائمة تضم الإنجيل وكارل ماركس وغيرهم، وقد وُصف تشومسكي بالشخصية الثقافية البارزة، حيث صُوت له كـ "أبرز مثقفي العالم" في استطلاع للرأي عام 2005، ويوصف تشومسكي أيضاً بأنه "أب علم اللسانيات الحديث كما يُعد شخصية رئيسية في الفلسفة التحليلية، أثر عمله على مجالات عديدة كعلوم الكومبيوتر والرياضيات وعلم النفس. كما يعود إليه تأسيس نظرية النحو التوليدي، والتي كثيراً ما تعتبر أهم إسهام في مجال اللسانيات النظرية في القرن العشرين، ويعود إليه كذلك فضل تأسيس ما أصبح يُعرف بـ (تراتب تشومسكي) ونظرية النحو الكلي ونظرية تشومسكي–شوتزنبرقر. وهو من أفضل من تناول الموضوع وفند الرأي الإسرائيلي علمياً واركيولوجياً. يهودي الاصل ملحد التوجه (راجع كل المواقع الالكترونية وكتب التأليف) وكذلك مادة (نعوم تشومسكي) في: (www.ar.wikipedia.org/wiki).

العقلائية في العلاقات فيما بينهم، أمّا القومية فإنّها جامع له حدوده في إنشاء كيان الدولة، فالدول العربية بأجمعها في نظر الأمم المتحدة عبارة عن دول قومية تجمعها مشتركات واضحة كافية لتحديد معنى الدولة، فقد تكون تلك القومية دينية أحياناً، كما هو حال القومية الإسلامية البوسنية، والقومية الصربية البوسنية، والقومية الكرواتية البوسنية، وهي المكونات التي تجمّع الأمّة البوسنية أو القومية البوسنية والتي على ضوئها انشأت دولة (البوسنة هرسوكوفينا) القائمة الآن في وسط أوروبا، فالجامع الكبير في هذه التشكلية هي القومية البوسنية التي تتكلّم لغة واحدة ولها تراث وكيان مشترك، وهي الأطروحة الوحيدة التي تعترف بها الأمم المتحدة ودول العالم في إمكانية تسمية الدولة. أمّا الدين في مثل القومية البوسنية فانّه إحدى الجوامع والمشتركات، وأنّه طريق وأسلوب للتعامل بين منتمي القومية تلك.

وإسرائيل دولة قومية لها لغة واحدة مشتركة وهي (العبرية) وهي من اللّغات الشرقية المعروفة التي كان يتكلم بها شعب (آل إسرائيل)، أمّا اليهودية هنا فإنّها ديانة ولكنّها ديانة قومية، كما هو حال المسلمين البوسنيين أو المسلمين الكوسوفيين أو المسلمين الباكستانيين أو المسلمين الأمريكيين، لذلك فاليهود اليوم في عرف الغرب هم قومية، بالإضافة إلى أنّها دين، وعليه فإنّ معنى المسلم في الغرب هو دين يعتنقه مجموعة من القوميات، بينما اليهودية دين تعتنقه قومية واحدة، ولذلك امتزج الدين بالقومية في موضوع اليهود فقط.

فإذا قلت يهودي فمعناه هو القومية اليهودية، لأنّ اليهود هم من قبيلة واحدة تختلف عن أية قبيلة أو مجموعة دينية في العالم.

أما إذا أردت ان تشير إلى الدين اليهودي فتقول الدين اليهودي، ولا تقول اليهود، في ذات الوقت فإنّ كلمة إسرائيلي تعني مواطن في دولة إسمها إسرائيل، وهو تابع لشعب واحد ذو قبيلة واحدة هم اليهود.

وفي العالم الغربي وفي ظروف ما بعد الحرب العالمية الثانية وبسبب براعة العلماء اليهود، وقدرتهم على قراءة الأحداث وسيطرتهم المالية تمكّنوا من أن يمرّروا قانوناً صارماً. ذلك القانون هو قانون (معاداة السامية)[1]، مع أنّ العرب واليهود هما من أصل سامي (أي سام بن نوح) ولكنّ الكلمة اصطلاحاً تشمل اليهود فقط.

هذا القانون تحوّل الآن إلى مادة تشريعية عالمية، لا تنحصر في أمريكا فقط، أو في كندا، أو أوروبا، وإنّما هو قانون عالمي تبنّته الأمم المتّحدة وهو ينطبق على كلّ أصول القوميات والشعوب في العالم ولكن المستفيد الأكبر فيه هم اليهود.

هذا القانون المهم الذي من خلاله تمكن اليهود من إحكام قدراتهم على مسيرة الغرب، وإيقاف أيّ تمييز ممكن أن يظهر من هذه الفئة أو هذه الطائفة أو هذه القومية أو هذه الدولة ضدّهم. مغزى ذلك القانون العالمي ينحصر في تجريم أي شخص يحاول النّظر إلى أصول الشعوب الأخرى وخصوصاً

---

(1) معاداة السامية أو معاداة اليهود (Anti-Semitism's) هو مصطلح يعطى لمعاداة اليهودية كمجموعة عرقية ودينية وإثنية والمعنى الحرفي أو المعجمي للعبارة هو (ضد السامية)، وتُترجَم أحياناً إلى (اللاسامية). تم أستعمال المصطلح لأول مرة من قبل الباحث الألماني فيلهم مار لوصف موجة العداء لليهود في أوروبا الوسطى في أواسط القرن التاسع عشر وبالرغم من انتماء العرب إلى العرق السامي فإن معاداة العرب لا تصنف كمعاداة للسامية، تعود أصول معاداة السامية في المسيحية إلى اتهام اليهود بصلب يسوع واضطهاد تلاميذه في القرون المسيحية الأولى مستندين بذلك على قول اليهود أثناء محاكمة يسوع: (دمه علينا وعلى أولادنا)، كما تم اتهام اليهود بعدة تهم، ومنها تسميم آبار المسيحيين والتضحية بالأطفال كقرابين بشرية وسرقة خبز القربان وتدنيسه، وبسبب هذه التهم تم طرد معظم اليهود من دول أوروبا الغربية إلى شرق ووسط أوروبا والمغرب العربي، انتشرت معاداة السامية في المجتمعات الإسلامية بنسبة أقل منها في أوروبا، ومن أشكالها فرض زي خاص لليهود ومنعهم من الاختلاط بالمسلمين في بعض الحقب الإسلامية، كما أدت إشاعات تعاملهم بالربا إلى عدة مجازر كما حدث في صفد سنة 1838 عندما قام مسلمون ودروز بقتل ونهب أملاك يهود صفد كما أدى الفراغ السياسي في العراق بعد سقوط حكومة رشيد عالي الكيلاني إلى ما سمي بالفرهود، سلب المئات من اليهود في بغداد. أقرأ مادة (Antisemitism) في:
(http://en.wikipedia.org/wiki/Antisemitism)

الساميين بنظرة عداء أو تفرقة أو ضعف أو إستهزاء أو تحقير أو ما إلى ذلك من أساليب الكره أو البغض ضدّ مجموعة عرقية أو قومية أخرى، فإذا ظهر أنّ ذلك التعبير أو العمل أو الإشاره أو المقال بانه يحمل معاني معاداة السامية، أو يُشم منه ذلك، فإن ذلك العمل يقع تحت طائلة هذا التعريف، وهو ما يؤدي بالتالي إلى توجيه أصابع الإتهام بالجرم إلى ذلك الشخص باعتباره إنسانا معادياً للأصول القومية أو الأصول العرقية للآخرين.

في ذات الوقت، فإنّه لا يمكن أن يحكم على أيّ إنسان فيما لو أظهر بغضه أو معاداته إلى أيّ دين من أديان العالم أو أظهر كفره بالباري عزّ وجلّ، أو كفره بالقومية الأمريكية أو معاداته للدستور الأمريكي أو للبيت الأبيض أو أي معتقد آخر من المعتقدات الثابتة لأمم الأرض التي يتمسك بها مواطنو تلك الدول، سواء أكانت معتقدات دينية أو سياسية أو عرقية أو ما شابه، وذلك لعدم وجود قانون واضح يحرّم ذلك العمل.

نعم ممكن أن يرفع الرئيس الأمريكي دعوى ضدّ ذلك المعادي الذي أهانه، ومزّق مثلاً صورته أو مثلاً نعته بنعوت لم تكن فيه، وفي هذه الدّعوى يجب أن يحضر المدّعي والمدّعى عليه أمام القاضي للتّأكد من صحّة الدّعوى، أمّا في موضوع قانون معاداة السامية فليس هنالك من مرافعة قانونية، وإنّما إصدار الحكم الجاهز، ولهذا حُكم على أناس كثيرين ممّن وقف معارضاً لأعمال إسرائيل، أو أعمال اليهود، أو طالبوا برفع السيطرة التي تفرضها الجاليات اليهودية على مؤسسات المال، أو مؤسسات الدولة، فإنّ التهمة التي سوف توجّه لهم هي معاداة السامية، بينما الواقع الحقيقي للمعارضة ليس هو معاداة اليهودية كدين، وإنّما معاداة اليهود كعمل وبرنامج يراد من خلاله السيطرة على المسيرة الاقتصادية والإعلامية والفكرية لتلك الدولة، والتي تنعكس دوماً على معيشة الشعوب وعلى واقعهم الاقتصادي والاجتماعي.

فاليهود يعتقدون بالمحرقة الأوروبية التي أقامها هتلر والتي أسموها

(الهولوكوست)[1] ويدّعي اليهود بأنّ هتلر أباد في تلك المحرقة ستة ملايين ونصف المليون من اليهود بحرقهم بأفران الغاز الموهومة، والتي كانت محل تعاطف كلّ سياسييّ العالم وإقرارها من قبلهم، لأنّه الطريق الواسع لكسب رأس المال السياسي في الوصول إلى مراكز السيطرة والحكم.

وموضوع المحرقة قضية مبدئية بالنّسبة إلى كلّ يهودي، وأقرب طريق إلى استرضاء اليهود هو الإعتراف بحدوث تلك المحرقة، والتي أساساً لا يمكنها أن تتمّ بسبب إستحالة حرق ستة ملايين إنسان في تلك الفتره الزمنية التي قيل عنها 3 سنوات أو ما شابه، ولم يقف اليهود عند تلك النقطة فحسب، بل استفادوا من الجانب المأساوي لفكرة الحرق في تصفية كلّ الأعداء لهم من الشعوب والأمم الأخرى، في الوقت الذي حمّلوا الشعوب الأوروبية خصوصاً الألمان شعور الذنب لمشاركتهم المباشرة أو غير المباشرة بالاسطورة المفبركة، كذلك طال الأمر الكثير من شعوب الأرض وخصوصاً المسيحيين، وتركوهم يرزخون تحت طائلة الخوف من إلحاق تهمة الحرق، وتهمة مساعدة هتلر وألمانيا في هذا العمل باعتبار أنّ أوروبا كانت تحكم من قبل العالم المسيحي.

وأمام هذه التهمة، وأمام المأساة التي سطروها في مراكز بحوثهم

(1) هولوكوست هو مصطلح استخدم لوصف الحملات الحكومية المنظمة من قبل حكومة ألمانيا النازية وبعض من حلفائها لغرض الاضطهاد والتصفية العرقية لليهود في أوروبا أثناء الحرب العالمية الثانية، كلمة هولوكوست هي كلمة مشتقة من الكلمة اليونانية (holókauston) والتي تعني (الحرق الكامل للقرابين المقدمة لخالق الكون. في القرن التاسع عشر تم استعمال الكلمة لوصف الكوارث أو المآسي العظيمة)، أول مرة استعملت فيها كلمة هولوكوست لوصف طريقة معاملة هتلر لليهود كانت في عام 1942 ولكن الكلمة لم تلق انتشاراً واسعاً لحد الخمسينيات، ومع السبعينيات أصبحت كلمة هولوكوست تستعمل حصرياً لوصف حملات الإبادة الجماعية التي تعرض لها اليهود بالتحديد على يد السلطات الألمانية أثناء هيمنة الحزب النازي بقيادة أدولف هتلر، اليهود أنفسهم كانوا يستعملون كلمة شواه في الأربعينيات بدلاً من هولوكوست، وهي كلمة مذكورة في التوراة وتعني الكارثة. راجع مصطلح (Holocaust) في: (http://en.wikipedia.org/wiki/The_Holocaust).

المتخصصة في شؤون المحرقة، فإنّ العالم أصبح اليوم مُداناً بل متهماً بالتعاون، وربّما أقلّها السكوت عن تلك المحرقة.

فالقوى اليهودية العالمية تستعمل هذا السلاح متى ما كان هنالك حاجة إلى المخاصمة السياسية، كما استعملوها مع المستشار الألماني (هلموت كول) الشخصية الوطنية الكبيرة عندما رفض الاستمرار في الدّفع المالي لإسرائيل، والتي بقيت ألمانيا ملتزمة في ذلك منذ خروجها من الحرب الثانية ولحدّ الآن، والتي على ضوء ذلك تمكنوا من إسقاط هذه الشخصية الكبيره في قصّة ليس لنا مجال في سردها هنا، هذا بالإضافة إلى شخصيات كبيرة مهمة أخرى مثل كورت فالدهايم سكرتير الأمم المتحدة.

وإسرائيل الآن مستمرّة في عملية الإبتزاز خصوصاً للعالم المسيحي، لسكوتهم عن تنفيذ المحرقة، وهاهم الآن يلوّحون بسيف المحرقة لكلّ أمم الأرض بأجمعها، أمريكا، كندا، بريطانيا...الخ في الحصول على ما يريدون تعويضاً عمّا أصابهم في تلك المحرقة.

وقد وجد الكثير من أصحاب الضمائر الغربيين، والكثير من الأدباء والمؤرخين والوطنيين في ذلك الإبتزاز مهانة كبرى لهم ولشعوبهم ومعتقداتهم وعليه فإنّ البعض منهم بحث في أصل تلك المحرقة فيما إذا كانت قد حصلت بالفعل أم لا...؟... البعض الآخر حاول مناقشة المحرقة ونتائجها إن كانت قد حصلت، القسم الكبير رفضوها بسب غياب الدليل البحثي والواقعي على ذلك،و استحالة حرق 6,5 مليون إنسان، مثلاً الكيفيّة التي تم بها جمعهم ثم حرقهم، وما حجم تلك الأفران، ومن أين جيء بذلك الغاز كي تنفذ العملية...؟ تلك أسئلة مثارة الآن على الساحة الغربية، وبين الحين والآخر تبرز شخصيات وطنية نبيلة تنتفض في وجه الإبتزاز اليهودي وتقدم آراءها حول تلك المحرقة المزعومة.

قانون معاداة السامية ينصّ بعدم قانونية أولئك الذين شكّكوا بالمحرقة المزعومة مهما كانت دواعي التشكيك سواء أكانت دوافع سياسية، شخصية،

دينية، أم علمية. ولذلك انكفأ الكتاب والأدباء والمحققون في الغرب أمام هذه الدكتاتورية الفكرية التي لا يمكن لأي دكتاتورية في العالم أن تصنع مثلما صنعوا، فقد لاحقت الجمعيات اليهودية شخصاً كندياً (Zalm) لمدة أكثر من عشرين سنة لأنّه نشر كتاباً يبين فيه خرافة تلك المحرقة، وبقي ذلك الشخص يتنقل من بلد إلى بلد بينما تطارده القوانين اليهودية أينما حلّ، وأينما رحل، بعدما تتدخل المحافل اليهودية لتغيير قانون ذلك البلد كي يتم اعتقال ذلك الرجل، وأخيراً أن تم إسقاط جنسيته الكندية التي كان قد حصل عليها قبل أكثر من 40 سنة ثم إعادته إلى البلد الذي كان يحمل آخر جنسية له، كما وفي نفس الوقت لاحقت الجمعيات اليهودية العالمية المنتشرة في الغرب زعماء كبار وشخصيات مهمة، وأعضاء برلمانات، ورجال أعمال، ورؤوساء بنوك، ورؤساء دول، كلّ تلك الأسماء والمناصب الكبيرة ليس أمامها إلّا الإذعان أمام قانون معاداة السامية فيما لو تأخرت تلك الشخصية في تحقيق مطالب اليهود، فقد سمع العالم ما حدث إلى (كورت فالدهايم) الأمين العام الأسبق للأمم المتحدة، وإلى (هادر) السويسري الذي وصل إلى سدّة الرئاسة في النمسا، وبقية الزعماء العالميين الذين حطمتهم اليهودية لأنّهم قالوا كلمة حق، ودعوا إلى رفع سيف التسلط الفكري الإرهابي اليهودي عن العالم.

والدول الوحيدة التي يضعف فيها التأثير لذلك القانوني اليهودي هي دول العالم الثالث، حيث حاولت اليهودية بشتّى الطرق أن تحطّم باني ماليزيا وقائدها الكبير (مهاتير محمد) بعد أن فشلت في تحقيق حلمها في السيطرة على اقتصاد ماليزيا المتنامي.

وكان الرئيس الأمريكي الراحل (نيكسون) الذي فاز بدورتين رئاسيتين عن الحزب الجمهوري يعتبر من أقوى الرؤساء الأمريكيين، وكان من أول من فتح الباب لإسناد منصب رفيع لشخص يهودي وهو (هنري كيسنجر)، حيث لم يكن يسمح ليهودي أن يشغل منصباً حكومياً حساساً بسبب رفض الأمريكيين السّماح لليهود في السيطرة على مسيرة حياتهم في الاقتصاد والسياسة، ولكنّ نيكسون كان واسع الأفق، عميق النظرة، إذ كان ينوي من ذلك أن يحصل

على مساندة اليهود والأمريكيين إبّان حرب فيتنام، ولكنّ اليهود نصبوا له فخاً كبيراً في حادثة فضيحة (ووترغيت)[1] وتمّ إسقاطه ومن ثمّ إبعاده من الرئاسة بحادثة مشهورة ومعروفة لا مجال لذكرها هنا، وكان ثاني رئيس أمريكي يتمّ عزله من مركزه من قبل مجلس الشيوخ، وعندما حانت ساعة وفاة نيكسون في ظروف غامضة، قال لابنته التي كانت إلى جنبه في المستشفى: لو عشت سنة أخرى لكنت قد أنقذت الأمّة الأمريكية من أمراض أولئك الغرباء[2].

إنّ إسرائيل ليست دولة محصورة في هذه البقعة من الأرض التي نعرفها نحن العرب، وإنّما هي دولة تمتدّ في العالم بأجمعه، حيث ينتشر أكثر من عشرة ملايين يهودي خارج إسرائيل يعملون ضمن منظومة منسّقة اقتصادية، قانونية، اجتماعية، سياسية، لها مجلس قيادة كبير يحرّك هذا العدد الضّخم من العاملين لمصلحة تلك الدولة.

(1) إسم لأكبر فضيحة سياسية في تاريخ أمريكا، كان عام 1968 عامًا سيئًا على الرئيس ريتشارد نيكسون، حيث فاز بصعوبة شديدة على منافسه الديموقراطي همفري، بنسبة 43,5% إلى 42%، مما جعل موقف الرئيس ريتشارد نيكسون أثناء معركة التجديد للرئاسة عام 1972 صعباً جداً، قرر الرئيس نيكسون التجسس على مكاتب الحزب الديمقراطي المنافس في مبنى ووترغيت، وفي 17 يونيو 1972 ألقي القبض على خمسة أشخاص في واشنطن بمقر الحزب الديمقراطي وهم ينصبون أجهزة تسجيل مموهة، كان البيت الأبيض قد سجل 64 مكالمة، فتفجرت أزمة سياسية هائلة، وتوجهت أصابع الاتهام إلى الرئيس نيكسون، إستقال على أثر ذلك الرئيس في أغسطس عام 1974و خلفه نائبه حسب القانون جيرالد فورد، تمت محاكمته بسبب الفضيحة، وفي 8 سبتمبر 1974 أصدر الرئيس الأمريكي جيرالد فورد عفواً بحق ريتشارد نيكسون بشأن الفضيحة. (المصدر السابق ووترغيت).

(2) في الغرب الغرباء كلمة عامة تطلق حسب موقعها، ولكن السياسي إذا قالها فهو يعني اليهود مع عدم القدرة على المقاضاة لأنه لم ينطق بكلمة اليهود، وكان اليهود يخشون أن يكون نيكسون قد كتب كتاباً بهذا الأمر، أو أنه قد ينشره يوماً ما، وهو ما دعاهم إلى تلافي ذلك الأمر لو حدث وإن نُشر ذلك الكتاب، فقاموا بشتى وسائلهم بتسخيف وتسفيه شخصية نيكسون وصوروه بشكل رجل مخبول فقد عقله في أيامه الاخيرة بسبب طرده من رئاسة الولايات المتحدة، إبنة نيكسون الآن مراقبة بشكل سري من قبل القوى اليهودية استعداداً لما قد يحدث فيما إذا كان هنالك كتاب حرره نيكسون قبل موته (المزيد من التفصيل من الممكن مراجعة نص المحادثات التلفونية تلك من خلال الدخول على الموقع:
(http://www.fpp.co.uk/History/antisemitism/Nixon_onJews.html).

والولايات المتّحدة الأمريكية هي الدولة التي خلقت إسرائيل وغذّت قوتها وزودتها بالإمكانيات الضّخمة والكبيرة، في زمن كان الوضع يتطلب أن تكون هنالك إسرائيل أو دولة مثل إسرائيل، فقد كان الاتّحاد السوفيتي وقدراته الضخمة في منافسة أمريكا على دول الشرق الاوسط، كانت أمريكا في حاجة كبيرة إلى رأس حربة في الشرق الأوسط، تتحرّك وتضرب وتناور نيابة عن الولايات المتحدة كما هو شأن تايوان مثلاً بالنسبة إلى الصّين مع الفارق في التفاصيل، وليس ذلك فقط إذ أنّ إسرائيل كان مقرّراً لها أن تكون رأس حربة للقوى الغربية عموماً والأمريكية خصوصاً، وكان دور تلك الدولة هو منع أي مغامرة يمكن أن يقوم بها حزب أو حكومة أو حركة خارج نطاق ما هو معهود دولياً خصوصاً في هذه المنطقة الحساسة من العالم والشرق الأوسط، كما حدث في حادثة ضرب المفاعل النووي العراقي أو منع حالة التوحيد العربية التي كان لها أن تحدث لولا وجود إسرائيل، فالعرب غالباً وإن كانوا يختلفون في أمور كثيرة، ولكنّ القضية الفلسطينية كانت من أكبر الأمور التي لا يختلفون في خطّها العام خصوصاً عندما أتحدّث عن الشعوب وليس الحكّام.

وقوة إسرائيل الأساسية ليست بقدراتها العسكرية فحسب، مع اعترافنا بأنّها تمتلك ترسانة من الأسلحة ضخمة ومتطوّرة، ولكنّ القوة الإسرائيلية تأتي من قدرتها في كسب ودّ دول العالم، وذلك من خلال ربط مصالح تلك الدّول بها، فالولايات المتّحدة مثلاً نموذج لما قلناه تواً، تتمركز سياستها على الورقة الإنتخابية للنّاخب الأمريكي، الناخب هنا يمكن شراء صوته إمّا بالإعلام أو بالمال، ولا أعني بالمال هو الدفع المباشر للفرد الأمريكي لأنّ ذلك مستهجن وغير وارد أبداً، وإنّما أعني بالمال الوعود الاقتصادية التي يقدمها الناخب لمرشحيه والتي من شأنها رفع المستوى الاقتصادي لتلك الولاية أو لهذه المدينة مثل إيجاد فرص عمل أو إحياء مشروع صحي أو ما شابه.

فالشّعب الأمريكي شأنه كشان أي شعب آخر في العالم يتأثّر بالعقل الجمعي ويتأثّر بالجانب الاقتصادي لواقعه المعاشي والاجتماعي، ولذلك فإنّه

ليس بمستغرب أن نجد أنّ سلاح الإعلام وسلاح الاقتصاد هما عمادا البطاقة الانتخابية الأمريكية.

وفي هذا السّرد مصطلحان يجب أن نوضحهما، وهما: مصطلح إسرائيل كدولة، ومصطلح إسرائيل كشعب، في كلتي الحالتين فإنّ القوتين لن يفترقا في توجهاتهما وفي فلسفتهما إلى الواقع العالمي وإلى التوجّه إلى فكرة العلو والسيطرة في إيقاف كلّ المشاريع الدولية لتوحيد العالم المسيحي الذي قد ينقلب على العالم اليهودي في مذبحة أخرى شبيهة بالمذابح التي قام بها هتلر في أربعينات القرن الماضي، وهذا هو أهم منطلق تسير به الشعوب اليهودية والإسرائيلية في تعاملها مع السياسة العالمية ومع الواقع المتغيّر، ولكي تتحقّق تلك الفكرة، فكرة الوصول إلى عدم توحد العالم المسيحي المتمثل بأوروبا وأمريكا، أعني الأمريكيّتين الشمالية والجنوبية، يجب أن تتوجّه سياسات الأشخاص السياسيين إلى الهمّ الشخصي والاقتصادي، في الوقت الذي يجب على الحكومات أن تدرك شظف المصاعب الاقتصادية وانعكاساتها على تلك الشعوب وعلى واقعها المعيشي والاجتماعي.

وبما أنّ الدّيمقراطية وفلسفتها في تلك العوالم مرتبطة بمفهوم الغالبية الإنتخابية التي تبحث عن تحقيق الهدف الإقتصادي والمعيشي، فعندئذ فإنّ عاملي القوة في أي مجتمع ديمقراطي يعتمد على المال وعلى الإعلام، ومن خلالهما يتمكّن المرشح هذا أو ذاك من الوصول إلى تحقيق الأهداف مع تأكيدنا هنا على عدم تشكيكنا في نية المرشحين استعمال منطق الخداع، بل بالعكس فإنّ غالبية المرشحين -أقول الغالبية- يرون وجوب توفير مطالب ناخبيهم من خلال الحصول عليها إمّا بهذا الطريق أو ذاك، ولا يهمّهم في تحقيق ذلك سواء أكان من خلال القناة الاسرائيلية أو القناة العربية أو القناة المسيحية أو غيرها ما دامت تلك الطرق لا تربط ذلك المرشح بشروط مسبقة، أو بفرض وصايات سياسية أو اجتماعية أو غيرها.

فوصول المرشحين إلى الكونغرس وإلى مجالس الولايات أو غيرها لا

يتحقّق إلّا بأن يقوم المرشح باسترضاء الصّحافة أو مراكز المال حتى يصل إلى مطمحه في نيل مقعد الممثلية، وهذا يعني بأنّه يجب عليه أن يمرّ بالطّرق الطبيعية التي يمرّ بها السياسيون في تاريخ الإنتخابات ذلك هو إرضاء من يملك تلك القدرتين[1]،

أو زيارة المعبد اليهودي، أو زيارة إسرائيل أو التصريح حول القدس وما إلى ذلك ممّا هو يفهم بأنّه رسالة إلى اليهود في الاقتراب منهم.

فالمرشّح لمنصب ما سواء أكان على مستوى المحلة، المدينة، الولاية، المقاطعة أو الكونغرس عليه أن يقدّم برنامجه الانتخابي إلى الناخبين ومن خلال هذا البرنامج يتمكّن من أن يحصل على مساندة الناس الذين يسعون لتحقيق مطالبهم من خلال ذلك البرنامج مثلاً[2].

---

(1) اليهود في هذه القضايا أذكياء جداً ومتمرسون، وذوو خبرة واسعة في إدارة اللعبة، فمن خططهم أنهم لا يُشعرون ذلك المرشح بأنهم قاموا بشراءه وذلك لأن الأمر سيقلب ظهر المجن إذا أدرك المرشح أن هنالك ابتزاز في العملية، وإنما يقومون بذلك وكأنهم موافقون حقيقيون مع الخطة العملية لذلك المرشح، مع مشاعر خفيفة ورقيقة يمررونها من أمامه في إعلان هويتهم، الراكضون نحو نيل مقاعد حكام الولايات أو أعضاء الكونغرس أو غيرها من المراكز، وعندما تحتد حمى الصراعات فإن الأمور غالباً ما تتجاوز المباديء أو القيم، أو كما تسمى قواعد اللعبة، بل سيركز هذا المرشح على الوصول إلى هدفه وبأية وسيلة كانت، فليس أمامه خيار إلّا أن يفتح صفحة جديدة من التعامل مع الكارتيل اليهودي بطريقة أو بأخرى وذلك من خلال ايحائه لهم بأنه يتعاطف معهم ومع أهدافهم مثل زيارته (ايباك) لجنة الشؤون العامة الأمريكية الإسرائيلية (American Israel Public Affairs Committee) وهي من أقوى جمعيات الضغط على أعضاء الكونغرس الأمريكي، هدفها تحقيق الدعم الأمريكي لإسرائيل، ولا تقتصر الأيباك على اليهود بل يوجد بها أعضاء ديموقراطيين وجمهوريين، تم تأسيسها في عهد إدارة الرئيس الأمريكي دوايت أيزنهاور، تعتبر منظمة الأيباك منظمة صهيونية، وقد يكون أكبر دليل على ذلك الإسم السابق لها والذي تأسست باسمه وهو(American Zionist Committee for Public Affairs) اللجنة الصهيونية الأمريكية للشؤون العامة والتي تم تأسيسها في سنة 1953، تم تحويل مسماها إلى ما هو معروف اليوم بالأيباك بعد تدهور علاقة داعمي إسرائيل والرئيس الأمريكي دوايت أيزنهاور حيث وصلت الأمور إلى إجراء تحقيقات مع اللجنة الصهيونية الأمريكية للشؤون العامة، لهذا تم تغيير الاسم وتأسست جماعة ضغط جديدة تُسمى اللجنة الإسرائيلية الأميركية للشؤون العامة (إيبالك).

(2) عندما احتدم الصراع في إحدى السنين ما بين حزبين كبيرين وهم =

أحياناً تقف المنظمات اليهودية ومن ورائها إسرائيل في موقف واحد ضدّ مرشح من المرشحين وترمي تلك المنظمات بثقلها في تحطيمه ومنعه من الوصول إلى ذلك المركز السياسي. وقد اختلفت المصالح بين الدولتين بطريقة ما، بعد حرب الخليج الثانية، ثم ازدادت قمّة الخلاف بسقوط الاتّحاد السوفيتي، عندها وجدت الولايات المتحدة نفسها أنّ مصالحها ليست بالضرورة أن تلتقي مع مصالح إسرائيل، بل أحياناً تتعارض معها تماماً[1].

= ((National Democratic Party (NDP)) وبين الليبراليين في الفوز برئاسة وزراء أكبر وأهم مقاطعة كندية تلك هي (اونتاريو) كان الحزب الأول يدعو إلى تسهيل أمور المهاجرين وزيادة عددهم ورفع العراقيل التي تضعها الحكومة المركزية في تقليل نسب الهجرة، هذه قضية مهمة جداً وحيوية لكل مهاجر، هل هذا إعلام؟... وهل هذا بالضبط ما جرى في تلك الانتخابات، هل هذه هي حقيقة ماجرى؟ كلا... ليست هذه هي الحقيقة... إنها لعبة لم يصنعها الحزب وإنما صنعتها للحزب تلك الوسائل الإعلامية العملاقة التي تسيطر على مراكز قرار الإعلام في تلك الولاية لتحقيق الفوز فقط لا غير، الحقيقة هو أن هذا الحزب هو من أضعف الاحزاب لعبة بيد اليهود، إذ حققوا في خلال فترات حكم هذا الحزب مكاسب كبيرة وجمة في الوقت الذي طعن هذا الحزب المسلمين والمهاجرين طعنات نجلاء كانت إحداهما أن استقبل رئيس وزراء تلك المقاطعه ورئيس حزب NDP (بوب ري) سلمان رشدي في حفل أقامه خصيصاً له، في الوقت الذي شاهد رئيس الوزراء هذا بأم عينيه المظاهرة الأولى في التاريخ الكندي بضخامة عدد الحاضرين إستنكاراً لكتبه التي يسيء بها إلى الرسول الاكرم (ص)

(1) لنضرب مثلاً على ذلك: من مصلحة الولايات المتحدة تحديث الدول العربية ودمقرطتها واستحداث حالة من الوضع الاجتماعي والسياسي المستقر الذي تقوم على أساسه مصالح الولايات المتحدة في استمرار تدفق الطاقة من منطقة الشرق الأوسط، وكذلك استعمال هذه المنطقة أسواقاً للبضائع الأمريكية، وهو مطلب بديهي لدولة عظمى مثل الولايات المتحدة، ولتحقيق ذلك يجب على دول المنطقة العربية والإسلامية أن تسعى إلى تحويل أنظمتها الدكتاتورية والعشائرية إلى أنظمة تحكم بدستور وبرلمان ومجالس انتخابات، وهو النظام الذي يضمن بقاء الدولة واستقرارها وازدهارها، بعض الدول العربية كإستجابة للضغط الأمريكي قامت بإجراء رتوش كوزماتيكية على وجوه أنظمتها. الولايات المتحدة عندما أقرت بمشروع التغيير هذا فإنها انطلقت في وجوبه من خلال تحقيق مصلحتها بالدرجة الأولى، فمشروع دمقرطة الشرق الأوسط سيخدم المصلحة الأمريكية في نقطتين الطاقة والأسواق، ولكن هذه الخطوة سوف تنعكس في ذات الوقت على إيجابية الدولة في إسعاد مواطنيها ورفع الحيف والظلم عن أبناءها وفسح المجال أمام عقل المواطن العربي في أن ينطلق نحو الانفتاح والعلم والتجارة والرفاه وهو أمر طبيعي وناتج موضوعي من نتائج الأنظمة الديمقراطية الغربية، هذا هو المنظار الأمريكي المنطلق من المصلحة الأمريكية التي تتوقع أن تجنيها من العرب.

أمّا النظرة الإسرائيلة فهي تختلف عمّا تراه الولايات المتّحدة حرصاً على كلتي المصلحتين، فإسرائيل ترى نفسها اليوم إنّها الدّولة الوحيدة في الشرق الأوسط ربما في أفريقيا أيضاً في امتلاكها نظاماً ديمقراطياً برلمانياً أصيلاً[1].

وتستمدّ إسرائيل قوّتها من قوة مشابهتها لأنظمة الغرب، وتعاطف الغرب معها أحد أهم أسبابه هو الديمقراطية التي تتمتّع بها الدّولة العبرية، وهي حريصة في أن تديم هذا التفاوت في النظام، وحريصة جداً على إبقاء الأنظمة العربية على ما هي عليه من الدكتاتورية وغياب الديمقراطية، ولذلك فإنّها تعمل جاهدة على تشجيع الحركات المتطرّفة العربية وخصوصاً الحركات الدينية التي تدعو إلى حالة من حالات النظام الدكتاتوري وخصوصاً منظّمات الإرهاب التي انطلقت إبّان حرب الخليج الثانية، وبالتّحديد في زمن الرّئيس الأمريكي الأسبق بوش الأب الذي كان يرى في أهمّية الولايات المتحدة بأن تنفصل أو تتمايز في المصلحة مع إسرائيل. وقد كانت آراء بوش الأب تلك هي التي أثارت سخط الإسرائيليين وحاربوه بكلّ ثقلهم في عدم بقائه في البيت الأبيض لدورة رئاسية ثانية مع العلم أنّه يعتبر من أقوى الرؤوساء الأمريكيين قاطبةً[2].

---

(1) فالنظام الإسرائيلي يعتبر من أرقى أنظمة العالم الديمقراطية كدولة عمرها نصف قرن من الزمن وتعيش حالة حرب منذ تأسسها ولحد الآن، المفكرون الغربيون يعتبرون النظام البرلماني ونظام الحريات الإسرائيلي أنه أرقى أنظمة العالم الحر،و الدولة العبرية تحرص أشد الحرص على ديمومة هذا النظام الديمقراطي، وإظهار نفسها أمام العالم بأنها تعيش في محيط من الأنظمة الدكتاتورية العربية والتي تنوي القضاء عليها ورميها في البحر.

(2) وفي فتره حكمة تمكن من تحطيم عدوه الكبير الإتحاد السوفيتي وأن ينتصر بحرب الخليج الثانية بمدة قياسية، وعندما أجري إستفتاء عن مدى شعبيته في داخل الولايات المتحدة نال بوش أعلى نسبة ممكن أن يحصل عليها رئيس أمريكي في التاريخ، بل أعلى من الرئيس روزفلت الذي خاض الحرب العالمية الثانية بانتصار غير معهود، وهكذا ركزت إسرائيل طاقتها الإعلامية والاقتصادية في تحطيم بوش ومنعه من الوصول إلى مدة الرئاسة الثانية، وكان السلاح الذي استعملته القوى اليهودية هو الحالة الاقتصادية في تدمير الاقتصاد الأمريكي من خلال طرق معقده جداً لا مجال للخوض فيها الآن، وقد نفرد لها مجالاً آخراً بل كتاباً مخصصاً يعالج تلك الأساليب المعقده، فقد عمل اليهود على تكسيح اقتصاد أمريكا بعد أن نقلوا رؤوس الأموال التي تحرك البلد إلى أوربا واليابان والصين، فاختل الميزان التجاري =

وهكذا سقط أقوى رئيس أمريكي على يد مخطّط دقيق قادته الصهيونية واليهودية العالمية لأنّه أراد أن يفصل المسار الأمريكي عن المسار الإسرائيلي ...[1] وهكذا جاء بعده (كلينتون) في زمنه أعادت الصهيونية العالمية واليهودية رؤوس الأموال إلى أمريكا وحركت الاقتصاد الأمريكي مجدّداً وهذا ما انعكس إيجابياً على الوظائف وعلى الحالة الاقتصادية العامّة للولايات المتحدة.

هذا الاختلاف في المصالح ما بين أمريكا وإسرائيل دفع ثمنها الرّئيس بوش، وكان ثمناً غالياً جداً، لكنّ الشعب الأمريكي شعب يتميز بالوفاء والعقلانية واحترام قادته، فعندما رشّح بوش الابن نفسه، وجد الشعب الأمريكي آنذاك و-هي المرة الأولى في التأريخ الأمريكي- بأنّ مصالح الأمريكيين الأصليين تتباعد عن مصلحة الأمريكيين اليهود ولذلك فالرّئيس بوش الإبن هو الرئيس الوحيد الذي وصل إلى البيت الأبيض بدون أصوات اليهود، ذلك في الدورتين الانتخابيتين الأولى والثانية، فقد ركزت وجهدت كلّ المنظمات اليهودية، ومن ورائها منظمات منتفعة، في أن يمنعوا الرئيس بوش الإبن من الوصول إلى سدّة الرئاسة، وأعطوا أصواتهم إلى منافسه الديمقراطي (ال غور) ونائبه اليهودي وبكلّ ثقل بحيث صار واضحاً على

= الأمريكي، وارتفع سعر الدولار إلى أقصى حد ممكن، ثم ازدادت نسبة التضخم، ونسبة البطالة بشكل سريع وهو ما شكل عنصر ضغط شعبي كبير على الرئيس بوش الأب، ثم قامت تلك المنظمات اليهودية برفد المنافس (كلنتون) بإيرادات مالية ضخمة وحملة إعلامية كبيرة حيث جاء بشعارات إعادة الاقتصاد الأمريكي إلى قوته، واستحداث وظائف لكل الأمريكان وتقليل نسبة الضرائب التي يدفعها المواطن الأمريكي.

(1) وعندما اجريت معه -بوش الأب- مقابلة قبل الإنتخابات الرئاسية التي خسر فيها وسأل فيما إذا كان يلقي بلومه على أحد من الجهات المسببة لهذه الخسارة غير المتوقعة، أشار في لغته الدبلوماسية المعهودة بكلمات عامة لا يفهمها إلّا السياسي المخضرم، إذ أنه من الصعب عليه أن يقول ما لا يتمكن من أن يقوله، فليس أمامه أن يقول أن اليهود أسقطوني، أو أن المخطط الإسرائيلي كان خلف عملية فشله في الرئاسة، بل قال كلمة يفهمها المواطن الأمريكي حق الفهم، ويفهمها السياسي العالمي المطلع على خفايا كواليس السياسة العالمية... قال انني ألوم (Media) أي الإعلام الذي ساعد بشكل كبير على تشويه صورتي أمام شعبي.

الساحة الأمريكية أن هنالك إنقساماً واضحاً بين الشعب الأمريكي نفسه، يقود اليهود أحد جوانبه، ويقود الأمريكي الأصيل الجانب الثاني.

وهذا ما ظهر واضحاً في تقارب عدد الناخبين وعدد الأصوات ما بين (بوش) (و ال غور)، لقد حرص اليهود على منع بوش من الوصول إلى البيت الأبيض، وحرص الأمريكي العادي غير المهجّن أن يصل بوش إلى البيت الأبيض ليحقّق حلم أبيه في أن تكون أمريكا حرّة في امتلاكها قراراً لنفسها، وأن تستعيد قوّتها وأن لا تكون أسيرة لدى دولة تسمّى إسرائيل.

ومنذ وصول بوش الإبن إلى سدّة الرئاسة الأمريكية، كانت الأيادي الصهيونية الخفية قد ساندت منظّمات الإرهاب والقواعد الإرهابية في العالم لإحراج بوش واظهاره بمظهر الضعيف، كي لا يتمكّن من أن ينفّذ مشروع أبيه في فصل المسارين الإسرائيلي عن الأمريكي، فبدأت الأموال اليهودية تصل إلى المنظمات الإرهابية في أنحاء العالم من خلال (الوسيط الدولي) المعروف وليس من قبيل العقل أن نفصح عن إسمه وهويته لأنّه وكما أعتقد أكبر من أن يخفي هويته أمام القارئ الحاذق، وقد بدأت عمليات الإرهاب في العالم وهي تحمل عناوين متنوعة وشعارات مختلفة وهي الآن تعمل ربما في كلّ الدول العربية والإسلامية بمسانده مالية ضخمة من قبل الكثير من المنظمات الدينية السلفية التي تلتقي مصالحها مع المصلحة الإسرائيلية مع التوضيح بأنّ القسم الكبير من أولئك المنظمات الدينية السلفية والجمعيات لا تعلم بالضبط ما يدور خلف الكواليس.

وهدف إسرائيل الرّئيس من كلّ تلك المجازفات هو الحفاظ على مفهوم التميّز الإسرائيلي ومنع الولايات المتّحدة من التفكير بتغييرالأنظمة العربية من خلال الثورات أو من خلال التحرّكات الشعبية والتظاهرات المليونية إلى أنظمة ديمقراطية حرّة.

أمّا مشكلة العراق وإسرائيل، فإنّها النقطة الجوهرية اليوم في الخلاف الإسرائيلي الأمريكي، فإسرائيل تحاول اليوم بكلّ جهدها وطاقتها وتأثيرها في

أن تمنع ظهور دولة ديمقراطية حقيقية في العالم العربي، لأنّ ظهور الديمقراطية في قطر عربي ما سيؤثر على نشر الديمقراطية إلى أقطار عربية أخرى وعندها فإنّ إسرائيل لا يمكن لها أن تستمرّ في وجودها ضمن حالة الديمقراطية الدولية، وإسرائيل تتنفس وتعيش فقط عندما تحاط بدول دكتاتورية، لأنّ ذلك هو المبرّر الوحيد لقدراتها النووية وعدوانها وقوّتها واستمرار تدفّق الأموال العالمية إليها، لهذا فإنّ مشروع إجهاض الديمقراطية في العراق يعتبر من المهمّات الأولى للسياسة اليهودية والإسرائيلية.

أمّا الولايات المتحدة فإنّ مصالحها في المنطقة هو موضوع الطاقة وغيرها ممّا يخدم أهدافها البعيدة، ترى العكس في أنّ استقرار العراق وتحوّل دول المنطقة بأجمعها إلى وضع ديمقراطي دستوري سوف تعود فائدته فيما بعد على استقرار الولايات المتحدة من ناحية الطاقة وناحية السوق لمنتجاتها.

ولكنّ السؤال الكبير الذي يسأله المواطن العربي، وهو السؤال الملح في استمرارية الدعم الدائم الذي تحصل عليه إسرائيل من أمريكا وأسباب ذلك الدّعم... مثل الدّعم السياسي في الأمم المتحدة، الدّعم العسكري، الدّعم الدولي، الدّعم المالي... وما إلى ذلك من أنواع المساعدات التي تقدّمها أمريكا لإسرائيل...

وقبل أن نجيب على كلّ واحدة من تلك الفقرات أقول إنّ موضوع الدّعم الأمريكي لإسرائيل ليس هو من قبيل القرار الذي يصدره الرّئيس ويوقّع عليه وتطبقه الولايات المتحدة في إجراء تفاصيل ذلك الدّعم، ليس الصورة بتلك السهولة التي نتصوّرها، وإنّما هي حالة تفاصيلها في غاية التعقيد أساسها هو أنّ الدولة العبرية أحكمت طريق إبتزاز الولايات المتحدة بشكل لا تتمكّن من الخلاص منه إلّا بعملية جراحية كبيرة يجب أن يقدّم عليها رئيس شجاع مثل بوش الأب وبوش الابن يجازف فيها بتأريخه السياسي وفترة رئاسته، بل بحياته أيضاً، وهو من الأشياء التي لا يقوم بها إلّا ذلك الوطني العريق الذي يعتقد أنّ موته أمام تلك المبادىء أفضل من بقائه رئيساً للولايات المتحدة.

في نفس الوقت يجد المواطن الأمريكي أنّ هنالك صعوبة في أن يطالب حكومته بما يجب أن يكون في عدم مساندة إسرائيل، فدافع الضرائب الأمريكي يدفع خمسة سنتات من كلّ دولار إلى إسرائيل، وهذا مبلغ ضخم جداً، ولكن هل تتمكن أمريكا بأن تنتزع قراراً من مجلس الشيوخ الأمريكي والكونغرس لإيقاف هذا الدّعم المالي... ؟ ابدأ لا أعتقد ذلك في هذا الوقت، ربما مستقبلاً... ؟ لا أدري ..؟ هذا كله يعتمد على الرأي العام الأمريكي الذي يجب أن يدرك جيداً ما يدور حوله وما تخطط إسرائيل له، ولكنّ من أين يحصل على تلك المعلومة ومن ينشرها ومن يدافع عنها...؟ لا أحد...

من يقول بتلك المقالة أو يدافع عنها أمامه قانون (معاداة السامية)، السيف الصارم المسلط على رقاب الجميع الذي سيحطّم حياة كلّ فرد أمريكي يفكّر أن يناقش هذا الموضوع أو يعمل له، إنّها ورطة كبيرة تورّطت بها الولايات المتحدة، وتورّطت بها دول أخرى في العالم لا يمكن الخلاص منها إلّا بمعجزة لم تتحقّق بعد، وهذه المعجزة لا أعتقد انّ الزمن الحالي كفيل بأن يحققها، فما على الجميع إلّا الانتظار.

فالولايات المتحدة الآن تعاني معاناه كبيرة من المشكلة الإسرائيلية، فإسرائيل تحولت إلى عبء ضخم على أمريكا، والعالم اليوم يكره أمريكا لأنّه يكره إسرائيل، مع أنّ الولايات المتحدة تقدم سنوياً لدول العالم الفقيرة ما لا تقدمّه أي دولة أخرى في العالم، ولكنّ مع ذلك فإنّ الولايات المتحدة اليوم هي من أكثر دول العالم كرهاً بين الشعوب، والسبب في ذلك كما تقول البحوث المتخصصة هو الاحتواء الإسرائيلي للقرار الأمريكي، وتمكن أنياب الدولة العبرية من أن تشلّ حركة المارد الكبير وتحوّله إلى ألعوبة بيدها.

فهل فهمنا اليوم من هي إسرائيل، وكيف تعمل في طريق تحقيق مصالحها؟... بالتأكيد هذا غيض من فيض.

فعندما تجتمع مع الأمريكيين وخصوصاً أولئك الذين تركوا السياسة أو

تقاعدوا من عالم السياسيين، أو رجال الأعمال الكبار المتنفذين، فإنّك تسمع منهم العجب العجاب عن القوة الإسرائيلية الضّخمة في سرقة القرار الأمريكي.

أما الصّورة الآخرى لهذه الدولة... فإنّ إسرائيل بقدر ماهي قوية هي ضعيفة جداً، وأضعف نقطة في التركيبة الإسرائيلية هو ازدياد عدد نفوس العرب في الداخل، وبعد 50 سنة سيكون اليهود أقلية والعرب أكثرية، وبذلك تتحقّق عملية إستبدال السلطة كما حدث في أفريقيا الجنوبية.

كذلك من نقاط الضعف الإسرائيلي هو حالة الديمقراطية وحالة الإستقرار التي يجب أن تسود دولنا العربية والإسلامية، وأن تتحوّل تلك الدول إلى صفّ الدول التي تؤمن بصوت الناخب المواطن وعندئذ لا يمكن لإسرائيل أن تحقّق لدول العالم مصالحها، وأنّ تلك الدول سوف تستغني عن خدماتها وبذلك تضعف الدولة العبرية، وتتحوّل إلى دولة كبقية الدول يعيش العرب فيها على قدم المساواة عرباً مسيحيون يهود ويبنون دولة عامة كما هي دول العالم المتقدم الأخرى كندا، هولندا، بريطانيا، أو البوسنة.

إنّ نقطة ضعف إسرائيل الأخرى هي مجتمع السّلم، وليس مجتمع الحرب، فالحرب تقوّي إسرائيل، وتكثّف الدعم المالي لها، إن كان من قبل يهود العالم المنتشرين، أم من قبل الدول العالمية نفسها، أما مجتمع السلم فإنّه يُحجّم إسرائيل ويجعلها دولة ليس لهل موقع مهم فيما بين المجتمع العالمي لأنّها لا تملك من المؤهلات ما يجعلها تقوم بدور مهم في الأسرة الدولية.

وليس ذلك فقط بل أنّ المجتمع الإسرائيلي سوف لا يجد في عيشه في تلك البقعة الغريبة عن أعرافه ووطنه الذي جاء منه، فهناك نوع من الغرابة في الاستمرارية في هذا النوع من المعيشة، فالهجرة الإسرائيلية اليوم بدت أزمة كبرى لإسرائيل بعدما صار عدد الذين يتركون إسرائيل أكثر من عدد المهاجرين إليها وبمرور الوقت سيعود جميع أولئك القادمين إلى أوطانهم في روسيا أو أمريكا أو حتى الدول العربية وتتحول ما تسمّى اليوم بإسرائيل إلى تاريخ.

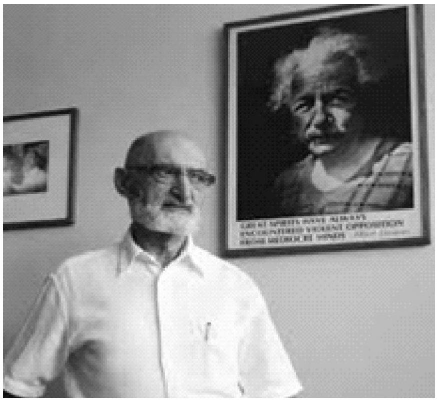

الإجهاض مبدأ، أم قتل...؟

في أحد الأيام في كندا، وبينما كنت عائداً إلى عملي، فوجئت بتظاهرة كبيرة تجوب الشارع المقابل لمركز عملي، وكان معظم المتظاهرين من النساء، يحملن صوراً لأطفال مع شعارات تندّد بقانون الإجهاض الذي كانت الحكومة الكندية قد سنّته، واعطت الحقّ للطبيب المختص بممارسة الإجهاض في عيادته الخاصة[1].

كانت المظاهرة صاخبة وحماسية بنسائها اللّواتي كنّ يرفعن أيديهن عالياً منّددات بأولئك الذين يؤيدون الإجهاض وينعتنهم بالقتلة والمجرمين...[2].

---

(1) فقد قُدر أن ما يقرب من 46 مليون حالة إجهاض تتم في جميع أنحاء العالم كل سنة، أجريت دراسة في عام 2008، من 27 بلداً عن الأسباب التي تجعل المرأة تسعى لإنهاء الحمل، وخلصت إلى أن أهم العوامل: الرغبة في تأخير أو إنهاء الحمل، القلق إزاء انقطاع عمل المرأة أو تعليمها، المسائل المالية ومدى استقرار العلاقات، وعدم النضج الكافي، كما وجدت دراسة أُجريت على نساء حوامل في الولايات المتحدة أن بـ (رفضهن) سبب حملهن هو الاغتصاب، و0,5 نتيجة زنا المحارم، وقد أشار معهد Guttmacher إلى أن معظم عمليات الإجهاض في الولايات المتحدة وقعت بين النساء من الأقليات، لان نساء الأقليات لديهم أعلى قابلية للحمل غير المتوقع. (http://www.guttmacher.org)

(2) وقفت على جانب الشارع وبدون تفكير مسبق صحت عالياً ماذا عساكن تطالبن به...؟ ما الذي سوف تحققنه من كل هذا...؟ استشاطت إحداهن غضباً ووقف رجال الشرطة بيننا ظناً منه أنني ممن يؤيدون حق الإختيار أو (Pro choice) وقد جئت كي أفسد على تلك النسوة التظاهرة، تحلقت بعض النساء حولي فصرخت قائلاً: لماذا تتظاهرن...؟ نظرت الي إحداهن بغضب وقالت نحن نرفض قتل الأطفال في بطون أمهاتم...! هذا ما نريده... قلت وأنا أشعر بالغضب أيضاً: أنا مسلم وعراقي من مجتمع يرفض الإجهاض، وديني يحرمه، وأنا ارفض أيضاً قتل النفس، ولكنني أعترض على طريقة اعتراضكن ومطالبتكن بما تؤمنن به، لأنكن الآن تصفن كل اؤلئك الذين لا يؤمنون بما تؤمنن أنتن به بالقتلة، وهذا غير صحيح ولا يمثل أي صفة حضارية في بلد حضاري ككندا، كما أنّ الإجهاض قضية اجتماعية تعتمد على =

إنّ موضوع الإجهاض في الغرب تحوّل إلى قضية رئيسية مبدئية، انقسم على ضوئها المجتمع ما بين مؤيّد ومعارض، وحتى داخل الأسرة الواحدة، فالجهة التي تقف وراء حرية خيار الإجهاض ترى أنّ الحرية الشخصية للأمّ الحاملة للجنين تمكّنها من أخذ قرار الإجهاض باعتبارها المسؤولة عن الحمل به، وربّما ستؤدي ولادته إلى مشاكل كثيرة في المجتمع الذي تعيش فيه بشكل عام، وداخل العائلة بشكل خاص.

بينما يرى المعارضون للإجهاض أنّ هذه العملية بكلّ بساطة هي عملية قتل لروح إنسانية، والقتل بحدّ ذاته جريمة يعاقب مرتكبها مع الفرق في أنّ القتل في حالة الإجهاض هو عدم قدرة الجنين في الدفاع عن نفسه. وتقف المؤسسات الدينية مع هذه المجموعات المعارضة والتي تحرّم الإجهاض، وحتى حبوب منع الحمل، ويقف إلى جانب هؤلاء مؤسّسات إنسانية وجمعيات حقوق الطفل ونقابات تعليمية وتربوية عديدة، والسبب الرئيسي للمعارضين عند أغلبية المجتمع هو الحب الكبير للطفل وما يمثله من براءة وعفوية، ويرتبط بهما شعور الأمومة التي وهبها الله للأنثى وفضّلها عن الذكر في هذا الأمر، فالمجتمع الغربي عموماً مجتمع عاطفي تؤثّر فيه المواقف العاطفية الوجدانية وخاصة تلك التي تتعلّق بالطفولة.

إنّ المجتمع الكندي والأمريكي لا ينظر إلى مسألة الإجهاض من زاوية اقتصادية أو سكّانية، بل ينظر إليها من ناحية إنسانية عاطفية إنطلاقا من مفهوم الطفل والأمومة اللّذين يشغلان حيزاً مهماً في تفكير المجتمعات، وموضوع الإجهاض موضوع كلّ ساعة وكلّ وقت نظراً لأهميته عند كلّ شعوب الأرض.

ففي الولايات المتحدة أُنشئت مجموعات كبيرة في العديد من الولايات من الداعين إلى الحرية في الإختيار مثل (منظّمة: للمرأة حق الإختيار،

= مدى الثقافة التي تنتشر بين الناس، وقلت لهن: أنتن الآن أمهات، والبعض سيصبحن غداً أمهات أيضاً فيجب عليكن أنّ تجنبوا بناتكن عدم اللجوء إلى العلاقات غير الشرعية كي لا يلجأن في المستقبل إلى الإجهاض.

ومنظمة الإجهاض خيار شخصي) وتضمّ كلّ من تلك المنظمتين أكثر من عشرين ألف عضو من مختلف أنحاء العالم لإفساح المجال أمام أيّ كان مناهضاً أو داعماً لإبداء الرأي دون محاولة إقناع الآخر بوجهة نظره.

أمّا في البلدان العربية والإسلامية فإنّ مسألة الإجهاض ليس لها حيّز كبير من الاهتمام لأنّها أمر مرفوض ومحرّم وممنوع حتى وإن طرح للجدال أو النقاش بين الأفراد أو الهيئات أو المجتمع ككل... وهنا تكمن المشكلة الكبرى والسؤال الذي يطرح نفسه في مجتمعاتنا، هل تحصل عمليات الإجهاض في مجتمعاتنا...؟ وهل هي مشكلة اجتماعية...؟ أو اقتصادية...؟

إنّ الإجهاض وبكلّ بساطة موجود ويمارس في بلداننا العربية شئنا أم أبينا وهو في بعض الأحيان يكون حلاً مناسباً للبعض من المشاكل، مع أنّ هذا المفهوم لم يجد طريقة الواسع إلى المجتمع العربي كي نستطيع أنّ نتبين مدى تفاعل المجتمع معه، فذلك المجتمع مرتبط بتقاليد إسلامية وبتعاليم دينية تقف موقفاً صلباً في وجه كل ما هو محرم وهو ما يحول المفهوم في خانة المواضيع التي يحضر الحديث أو الإعلان عنها (Taboo) كما هي قضية الجنس.

ولو ألقينا نظرة بسيطة على مشكلة الإجهاض لوجدنا أنّ أفراد المجتمع في الوطن العربي لا يعرفون كيفية التعاطي مع هكذا مشكلة، لذلك يستلزم على العوائل أنّ تتصرف مع هذه القضية على أساس ثقافي وديني كي تجد هذه المشكلة حلولاً سريعة أساسها الدين أولاً ثم المجتمع ثانية، ومع أنّنا لا ننكر ما للطرح الاجتماعي من سلبيات خصوصاً في الخوض في أمور حساسة كالإجهاض والمفاهيم الجنسية أو أي أمور دقيقة تهمّ المجتمع والعائلة، ولكنّها في نهاية الأمر أمور حاضرة معنا وبيننا، شئنا أم أبينا وهي جزء مهمّ في حياتنا، وعلينا أن نضافر الجهود الكبيرة لكي نعتبرها مواضيع يجب طرحها للنقاش.

في خضمّ هكذا موضوع سأذكر حادثة اجتماعية حصلت مع أحد

الأصدقاء في فترة وجودنا في الجامعة في السبعينيات...[1].

ولم ينعكس الإختلاف حول موضوع الإجهاض على المجتمعات والأفراد، فحسب بل طال معظم المدارس الدينية الإسلامية وفقهائها، فالبعض يعتقد أنّ الإجهاض لا يمكن أن يحدّد تحت عنوان القتل إلّا بحلول الرّوح في الجنين... هذا صحيح... و لكنّ السؤال الكبير متى تحلّ الرّوح في الجنين؟ وما هي الرّوح...؟ هل هي الحركة التي يتحرّكها الجنين...؟ أم أنّها الحالة في الخلايا طالما هي خلايا وطالما اقترن الحيمن بالبويضة وتحوّل إلى ما نسمّيه بالـ (زايكوت) (zygote)...؟

إنّ بعض التشريعات الفقهية الإسلامية ترى أنّه ليس هناك من روح خلال الأسابيع الثلاث الأولى من التلقيح.. بينما ترى مدارس دينية أخرى وخصوصاً القديمة منها أنّ الرّوح تحلّ منذ اللحظة الأولى لتلاقي الحيمن بالبويضة... إنّ فقهاء المسلمين لم يناقشوا الموضوع في فتاواهم باعتباره ليس بالقضية الابتلائية التي تواجه المجتمع الإسلامي، لأنّ واقع المسلمين والعلاقات الأسرية ومفهوم الجنس لا يسمحون بأن تتحوّل ظاهرة الإجهاض إلى قضية ابتلائية، وقد ناقشوا الأمر من زاوية أخرى وأفتوا بحلّية الإجهاض بشرط إذا ما تعرّضت حياة الأم للخطر بسبب حملها وهذا ما فتح للفقهاء أبواباً كثيرة لمناقشتها...

أمّا اليوم، وعندما انفتحت المجتمعات على بعضها البعض وتقاربت

---

(1) عقد صديقي قرآنه على إحدى الطالبات معنا، اقترنا على سنة الله ورسوله واتفقت عائلتيهما أنّ يتم الزواج بعد عام حتى يتم تجهيز المسكن وكل المتطلبات اللازمة كما هو المتبع في الأعراف السائدة والتي كما أرى لا زالت تعمل في هذا الوقت، فكانت لقاءاتهما تحصل ضمن حدود معينة وبالرغم من كل هذه القيود تم بينهما لقاء حميمي كأي زوجين عاديين فحملت الفتاة جراء ذلك، فزادت التعقيدات وسادت حالة من الإرباك والتشنج عند الطرفين كادت أنّ تؤدي إلى الطلاق والإنفصال وربما لو سنحت الظروف إلى القتل، وفي خضم كل تلك المشاكل كان الإجهاض الخيار الوحيد بالنسبة للجميع، وهكذا كان وأكمل الشابين حياتهما وتخرجا من الجامعة ثم عادا وأعلنا زواجهما رسمياً وعادت الأمور طبيعية بينهم وكأن شيئاً لم يكن.

الأمم ودخل العالم عصر الإنترنيت والفضائيات بدأ الفقه الإسلامي ينحى منحاً آخرَ بتغير مفاهيم الزواج والجنس وما يلحق بهما من أمور حسّاسة هامّة..

وبالعودة للغرب لننتقل إلى تلك السّاحة لنتعرف أكثر إلى الأفكار الاجتماعية التي تحدّد موضوع الإجهاض وما يليه من أمور اجتماعية ستتحوّل ذات يوم إلى أمر ملحّ لمناقشته ودراسته من قبل المهتمين به..

في أحد الأيام كنت في النادي الرياضي الذي اعتدت على التدريب فيه كلّ يوم لممارسة رياضتي المفضلة، وبينما أنا في غرفة الملابس دخل رجل قصير القامة أصلع الرأس، ذو لحية طويلة، في الستين من عمره تقريباً ومعه ثلاث فتية بأعمار متقاربة، بدأ هذا الرجل يساعد أولاده على ارتداء ملابسهم الرياضية بكلّ اهتمام، وأول ما نظرت اليه تذكّرت ذلك الوجه الشهير، إنّه الدكتور (هنري مورغنتايلور)، نظرت إليه وعرفته، ذلك الطبيب الذي كان أوّل وأكثر من قام بعمليات الإجهاض في عياداته كلّها، ليس فقط في كندا، وإنّما في كلّ أميركا الشمالية، إنّه يهودي من أصل بولوني كما كتب في مذكراته، وكان أحد الناجين من محرقة اليهود الشهيرة (الهولوكوست) إبّان الحرب العالمية الثانية، ثم هاجر إلى كندا وأكمل دراسة الطب في جامعة مونتريال وعمل طبيباً مع هيئات تعنى بحقوق الإنسان، والجدير ذكره أنّ منظّمات حقوق الإنسان في العالم يرأسها يهود لسبب بسيط، وهو ردّ الفعل على الاضطهاد والمعاناة التي عاشها اليهود في أوروبا سابقاً..

لم تمضِ عشر سنوات على عمل الدكتور هنري كطبيب، حتى رفع للحكومة الكندية مذكرة يطالبها فيها بمنح المرأة حقّ وحرّية الخيار في أنّ تحتفظ بجنينها أو عدمه، أثارت هذه المذكرة ضجة هائلة في أوساط السياسيين، وفي المجتمع الكندي المحافظ الذي كان قد منح المرأة لتوّه حقّ الانتخاب عام 1962، وفي الوقت الذي كان الكنديون شأنهم شأن الأمريكيين متحسّسين من كلّ ما يصدر من اليهود من آراء وتحفّظات ومخطّطات باعتبار

أنّ الكنديين شعب كاثوليكي[1] هاجر من أوروبا إلى أميركا الشمالية، وأنّ اليهود هم من صلب ربهم أي المسيح، فلاقت الفكرة معارضة كبيرة وضخمة واعتبرها المجتمع الكندي بأنّها طريق لتحلّل المجتمع وتشتيته في الوقت الذي كانت كندا في حاجة إلى زيادة النسل[2] لكنّ الدكتور هنري لم ييأس وعاد ثانية وقدّم مذكرة أخرى رفعها إلى وزارة الصحة والبرلمان الكندي ذاكراً أنّه قرّر أن يجري عمليات الإجهاض في عيادته مساندة لحق المرأة في تقرير مصير الجنين الذي تحمله، وفي أوّل عملية قام بها اعتقلته السلطات الكندية، وتمّت محاكمته، وخرج بكفالة دون أن يتمّ توجيه التهم اليه، ولكنه لم ينثنِ عمّا قرّر القيام به من متابعة وإجراء عمليات الإجهاض للنساء الراغبات في ذلك ممّا حدا به إلى أن يدخل في مواجهه صريحة ومعركة مع السلطات الكندية.

وكان في كل مرة يُعتقل فيها يخرج ثانية بكفاله لأن مفهوم القتل في القانون الكندي الغربي يجب أنّ تتوفر فيه نية القتل أولاً، ونيّة القتل لم تكن

(1) وفقاً لتعداد 2001، 77,1% من الكنديين مسيحيون؛ من بينهم يشكل الكاثوليك أكبر المجموعات (43,6% من الكنديين). أكبر الطوائف البروتستانتية هي الكنيسة المتحدة في كندا (9,5% من الكنديين)، تليها الإنجيلية (6,8%) فالمعمدانية (2,4%) فاللوثرية (2%) بينما غيرهم من المسيحيين (4,4%). لا يعلن نحو 16,5% من الكنديين أي انتماء ديني بينما تنتسب نسبة 6,3% المتبقية إلى ديانات غير المسيحية، وأكبرها الإسلام (2,0%) ثم اليهودية (1,1%). انظر (www.statcan.ca).

(2) أحصى التعداد السكاني الكندي عام 2006 تعداد السكان البالغ 31،612،897 نسمة بزيادة قدرها 5,4% منذ عام 2001. ازداد تعداد سكان كندا بين 1990-2008 بنحو 5,6 مليون أي 20,4% نمو في عدد السكان مقارنة بنحو 21,7% في الولايات المتحدة و31,2% في المكسيك، وفقاً لإحصاءات منظمة التعاون والتنمية/ بنك تعدد سكان العالم نما تعداد سكان العالم بين 1990-2008 بنسبة 27% أي 1،423 مليون شخص، يعود النمو السكاني الكندي للهجرة وإلى حد أقل إلى النمو الطبيعي. نحو أربعة أخماس سكان كندا يعيشون داخل 150 كم من الحدود مع الولايات المتحدة، وغالبية الكنديين (حوالي 80%) يعيشون في المناطق الحضرية المتركزة في ممر مدينة كيبك وندسور والبر الرئيسي الأدنى لكولومبيا البريطانية، وممر كالجاري إدمونتون في ألبرتا، تشترك كندا مع العديد من البلدان الأخرى المتقدمة بالتحول الديمغرافي نحو السكان المسنين، مع تزايد أعداد المتقاعدين وقلة أعداد من هم في سن العمل.

موجودة أو متوفرة عند الدكتور هنري، وإنّما الدّافع هو إعطاء المرأة حقّها في الإختيار مثلما منحها القانون حرية التصويت وحرية الانتخاب والعمل وحقّ الترشح، فلماذا لا يمنحها هذا القانون أيضاً، حرية الاحتفاظ بجنينها أو عدمه...؟ وفي سنة 1986 أجرى الدكتور هنري عملية إجهاض أخرى وكما جرت العادة اعتقل من قبل السلطات، ومثل أمام القضاء ولم تثبت ثانيةً عليه تهمة القتل ..و لكن في هذه المرة لم يطلق سراحه بكفالة، وإنّما كان قرار المحكمه البقاء في السجن، بعد أن اختلف القانونيون في شرعية تفسير عملية القتل وعملية الإجهاض، وهذا ما حدث ما بين الحكومة المحلية (في أونتاريو) والسلطات الفدرالية للحكومة والقضاء الكندي.

وعليه وفي حمأة الأحداث والصراع بين سلطتين قضائيتين أودع الدكتور هنري السجن ريثما ينتهي السجال القضائي ما بين المحكمة الخاصة والمحكمة الفدرالية.

لم يهدأ ذلك الرجل ولم يستكين ولم ينسَ هدفيّة عمله وحرّية عقل الإنسان، فقد أعلن الإضراب داخل سجنه ولكنّه لم يكن إضراباً عادياً عن الطعام، بل إضراب عن ارتداء ملابسه، فقد نزع ملابسه كلّها في السجن وكان يتجول داخل الأروقة والباحة الخارجية، ممّا أثار بلبلة واعتراضات كبيرة لدى السلطات القضائية ومنظمات حقوق الإنسان، وتدخلت المنظمات السياسية ونقابة الأطباء، ومنظمات الدفاع عن الرأي، فاضّطرت الحكومة إلى إخلاء سبيل الدكتور هنري، ورفعت قضية الإجهاض إلى المحكمة الكندية العليا (The Supreme Court Of Canada) والتي سيكون لها القرار الأخير في هذه القضية، بعد أن رفضت لمرات متعدّدة دراسة ملف الإجهاض، وبالفعل فقد أقرت المحكمة العليا وبعد مضي ثلاث سنوات على قانونية الإجهاض وسمحت بممارسته كحقّ من حقوق المرأة، وهكذا ردّت إعتبارات الدكتور مورغن تايلور، وأعادت له جميع الحقوق المدنية، وهكذا وبعد صراع كبير مع الحكومة خرج هذا الرجل بقرار طالما أراده، وظلّ قوياً ومتمسكا برأيه بعناد لا مثيل له من أجل قضية كان وما زال هو يعتقد بصوابها.

وفي عام 2000 تمكن من إدخال عمليات الإجهاض في البرنامج الحكومي الذي تؤمّنه الدولة للمستشفيات وللمرضى، بمعنى آخر، إنّ الدولة الكندية هي التي ستقوم بدفع تكاليف عملية الإجهاض، وليس الأم شأنها كشأن أيّ عملية جراحية أخري تغطّيها الدولة، ثم فتح الدكتور مورغن تايلور عيادات كثيرة في مقاطعات كندية أخرى إحداها بجانب البرلمان الكندي في العاصمة أوتاوا.

هذا هو الرجل نفسه الذي التقيته في النادي مع أولاده وكنت كلّما سمعت عنه أو رأيته على التلفزيون أو قرأت عنه في الصحف أعتقد بأن شخصية خالٍ من الإنسانية، ومن مشاعر الأبوّة، ولكنّني فوجئت به مهتماً وحنوناً مع أولاده الثلاث، وحتى كنت أظن - وشأني كشأن الكثيرين- أنّه وحيد غير متزوج، وبالتأكيد دون أطفال ولكنّني رأيت العكس، وسألته مباشرة وبتعجّب أهؤلاء هم أولادك...؟ ردّ عليّ بكلّ هدوء: نعم كلّهم أولادي.. نظرت اليه باستغراب، ثم قلت له أنت لا تمزح أليس كذلك...؟ قال: لماذا تنظر إليّ هكذا...؟ ولماذا أنت مستغرب من وجود أطفالي معي...؟ قلت له: لم أتصور يوماً أنّك متزوج وعندك أطفال، وأنت بطل الإجهاض، وأشهر طبيب في هذا المجال، سألني حينها: من أنت...؟ أجبته: أنا فلان وأخبرته عن تخصصي، وعملي وشهادتي، ثم قلت له: إنني من المعارضين لما تؤمن به أنت، ولكننّي أحيّي فيك روح الصّلابة وحرية الرأي وحبّ الإصرار والمطالبة بتحقيق ما تؤمن به، بغضّ النظر عن معارضتي أو تأييدي، ثم أضفت له وبهدوء. بعد أن تصافحنا قلت له: أنا من خلفية دينية واجتماعية مختلفتين عنك تماماً، وربّما ديني ومعتقدي هما اللذان دفعاني لأقف موقف المعارض من أفكارك بشأن الإجهاض، أجابني مبتسماً: ولكنّني ربّما لا أختلف أنا عنك، فأنا متدين يهودي، وأنت متدين مسلم، واليهودية والإسلام أعتقد أنهما يتفقان في نظرتهما إلى الإجهاض، ولكنني لي إيماني بحرّية اختيار الإنسان لما يريده، وخاصّة المرأة في موضوع الإجهاض، فهي كائن لها حريتها في اختيار ما تريده بغض النظر عن التشريع الديني أو الاجتماعي،

قلت له وأنا أغيّر ملابسي وأولاده يتدافعون معه في لبس هذه القطعة أو تلك: ربّما ما تقوله صحيح، وكنت أتمنى أنّ نناقش الأمر من نواح عدّة لاحقاً، ولكن عندي موعد هام بعد قليل... صافحته ووعدني أن نلتقي مجدداً في وقت لاحق... ومضيت في طريقي وأنا أفكر في طريقة تعامل الدكتور هنري مع أولاده والمحيط الذي يعيش فيه، ومدى لباقته ولطافته في التحدث مع الآخرين، وهكذا رجل لا أعتقد أنه كان يدافع عن فكرة الإجهاض بدافع الرّبح المادي أو كان يهدف إلى بث روح الفساد في المجتمع، ولا كان يحتاج إلى شهرة في مجال عمله، بل أنّه بكل بساطة كان يدافع عن رأي يؤمن به لسبب أو لآخر... وتمنيت حبذا لو تعاملنا مع بعضنا البعض بشيء من الموضوعية وتوقّفنا عن إصدار أحكام مسبقة بحقّ أي كان قبل أن نعرف ونسمع وجهات نظر هذا أو ذاك حتى لو كنّا لا نتّفق مع آرائه وأفكاره ..و لكنني أيضاً فكرت كما العرب كانوا يعتقدون بأنّ الدكتور هنري كان يهدف إلى محاربة وتصغير مفهوم العائلة في الغرب ..ربّما ..و لكنّني وبعد لقائي به والتحدث اليه وجدت أنّ هذا افتراء عليه، وكل ذنبه فقط هو تأكيد وتطبيق ما كان يؤمن به فقط..لا غير!

أزمة الدولة في العراق

لم تكن أزمة الدولة في العراق منفصلة عن أزمة أيّ دولة في العالم العربي والإسلامي، فضلاً عن أزمات دول أمريكا اللّاتينية، وهي من أعقد المشاكل التي يجب على السياسيين العرب والإسلاميين التوجه لمناقشتها باعتبارها من القضايا الكبرى التي نعيشها منذ القدم وبالتّحديد منذ العشرينيات أو ربّما العقد الذي سبقه من القرن الماضي، وتدور الآن الكثير من البحوث في مراكز العمل العربي والإسلامي لتناول هذه المشكلة، ولكنّ الحاجه بدت ملّحة بصورة أكبر بعد أحداث الثورة المصرية بالتحديد، وكذلك الثورة التونسية مع أنّ تلكم الثورتين كانتا تراهقان في بداية عصر جديد من عصور التنوير الخاص بمفهوم الدولة.

فالدولة في المنظور العام، نقول العام بأنّه متعلّق بالمفاهيم الإسلامية أو المفاهيم الدينية إن صحّ التعبير... (انطلاقا من واقع مجتمعنا العربي وليس بالمنطلق الدولي الواسع) وقد تأسّست معظم دولنا في المنطقه انطلاقاً من تلك المفاهيم الفكرية السماوية، وجاءت أحداث إيران في ثورتها الإسلامية في 1979 لتأصّل الفكرة ولتترك الأمر محسوماً أمام الإرتباط السماوي بالأرض في المفاهيم التي تتعلق بالدولة.

والثورة المصرية في الواقع جاءت على النقيض من المفاهيم التي تبنتها الثورة الإسلامية الإيرانية لتغيّرها إلى خليط جديد من فكر آخر كما هو الحال لتغير المفاهيم التي برزت في التسعينيات عندما أصدر (صاموئيل هنتنغتون) كتابه (نهاية التاريخ والإنسان الأخير) والتي تحدث فيها عن مفاهيم الدولة بصورة مختلفة عمّا كان سائداً في دهاليز الساسة الدوليين من الأمريكيين.

لم أكن متجنباً للحقيقة إذا قلت أنّ مفاهيم الدولة في أقطارنا العربية والإسلامية تنطلق من مفهومين هامين:

أولهما هو المفهوم التراثي الإسلامي، وثانيهما هو المفهوم السياسي الإسلامي.

هذان المفهومان هما الأساس التي قامت عليها الدولة في العصور التي مرّت على دولنا العربية والإسلامية مع أنّ الأسلمة لم تكن قد دخلت في عصرنا الحالي إلّا بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران في سنة 1979 ولكنّ تلك الأفكار قائمة ربما كانت في سبات أو ربما متأصّلة، أطرها في المفاهيم القومية التي أقيمت عليها الدول العربية ما بعد عصر التحرّر من الاستعمار وفي الخمسينيات من القرن الماضي، وكانت فكرة الدولة هي عبارة عن موضة تكبر وتخبو كما هي التقليعات الأخرى في الهندام والملبس.

فالأسلمه في زمن ما بعد 1979 صارت موضة العصر ولم يتخلّف عنها أي من الأنظمة العربية والإسلامية. أما بعد سقوط المعسكر الشرقي فإنّ الفكرة التي تربط أزمة الدولة بالإسلام قد تأصّلت بشكل كبير وتحوّلت إلى مفاهيم تكاد تكون ثابتة وعلى أساسها بدأت موجات التحرّر وتكوين الأحزاب والمنظمات بهذا المنحى، وصارت كلّ التنظيمات التحررية في العالم العربي والإسلامي تحمل صفة الأسلمة من قريب أو بعيد، وعندما تطورت المفاهيم الإسلامية باتّجاه الأسلمة وبعدما تأصّلت المفاهيم النظرية في هذا الشان وتوصّل الكثير من المفكرين الإسلاميين إلى حقيقة مرّة لم يكن يدركونها من قبل. تلك هي حقيقة أنّ الإسلام كنظام وكشريعة لم يكن وضع في تشريعه رأي في مفهوم الدولة، ولم يتمكّن فقهاء المسلمين بشتّى طرقهم (الإماميون خصوصاً) من أن يستنبطوا وضعاً للدولة أو مفهوماً لها من أصول الفقه الإسلامي، ولا من سيرة الرّسول الأكرم، ولا من العلماء -علماء السلف أو ائمّة الإمامية- يوضح ذلك المفهوم فيما يكون مرجعاً كبيراً فقهياً يمكن الركون إليه في تكوين مفهوم نظري للدولة...

نعم هنالك آراء من هنا وهناك، ولكنّها لا تصلح أبدا أن تكون منهجاً

استنباطياً لفكرة الدولة، وحتى الفقيه الكبير والمفكر المعروف محمد باقر الصدر الذي يعتبر الأب البحاثة والعملاق المتفقّه في هذا الموضوع لم يتمكّن (لا أعني قصوره عن ذلك، ولكن غياب الأدبيات الفقهية التي يمكن الاستناد عليها من قبل الفقهاء هو ما يجعل الفقيه عاجزاً من الوصول إلى الحكم الإستنباطي) من أن يستنبط نظرية للدولة...

في المقابل كان على الكثير ممّن تورّط في مفاهيم الحكم أن يقدّموا ما يتمكّنوا من إيجاد نظرية ما، كما هو الحال في إيران التي كانت تغلي منذ بداية الخمسينيات وخصوصاً عندما شرعت إيران في أن تضع للفقه الإسلامي من دور في تكوين الدستور الإيراني وهو ما دفع البعض من الفقهاء الكبار أمثال السيد الخميني في وضع نظريته المسماة (ولاية الفقيه) لتكون الأطروحة النظرية التي تقدّم فلسفة الدين في شأن الدولة.

وعندما غابت المصدرية للدولة في الإسلام توجهت المجاميع التغييرية إلى حالة من الانعتاق لتولد مفاهيم التعصّب ومفاهيم الإصولية في تفسيرها للدولة مستعينة بمفاهيم وآراء بعضها أخذت من بعض الحركات الإسلامية التي أمسكت بزمام الحكم كالأباضية والإسماعيلية وبعض فرق الشيعة والسنة وهذا ما أدّى أخيراً إلى تبلور أفكار التطرّف وأفكار السّلفية.

ولكن هل ذلك يعني بأنّ هنالك انفصال ما بين تلك الأفكار الأصولية وبين الأفكار المعتدلة للدولة فيما بين القائمين على قيادة الدولة..؟ بالتّأكيد الاتّصال كبير، بل أنّ مفهوم الدولة حتى في عرف اليساريون الذين لا يعترفوا بالدين فإنّ الفكر الديني قد تسرّب بشعور أو بدون شعور لمفاهيمهم نحو الدولة.

إنّ العراق بعد التغيير في في عام 2003 توجّه بصورة ذاتية نحو الدين، ونحو الرّموز الدينية حتى أنّ البعض منهم اكتشف بين عشية وضحاها، بأنّه أصبح قائداً مقداماً، وعليه أن يرفع من مستواه لكي يتمكّن من استيعاب الموجة الكبيرة التي حطّت رحلها في بابه.

ولم يكن الوضع العراقي فيما بعد 2003 بمختلف عن وضع مصر وتونس إلّا بالخصوصيات التي يتميز بها الشعبان في نظرته إلى الدولة وارتباطها بالدين، فبعد وفاة عبد الناصر وفي أواسط عهد السادات صارت الأحداث مشابهة لما كان حاصل في العراق من التفاف نحو الرّموز الدينية، ثمّ تسييس الدين بما يتناسب مع التكوين الرئاسي.

ولكن ماذا تغيّر في المشهد...؟

تغير المشهد وبعد أحداث نجاح الثورتين المصرية والتونسية وتبدلت أمور هامة فيما يتعلق بمفهوم الدولة كما يلي:

1. إنّ الدولة يمكنها أن تقوم بمفاهيم أخرى غير المفاهيم التي تعودت المجتمعات عليها، تلك الأفكار هي مفاهيم الحداثة ومفاهيم التحديث مع الاختلاف فيما بينها.

2. إنّ الشعوب يمكنها أن تملك أكثر من مفهوم للدولة، يمكّنها من أن تستورد تلك المفاهيم من الأمم الأخرى لأنّ الإطار مع الإختلاف هو واحد.

وأمام هذه المفاهيم الجديده للدولة على الباحثين المعنيين بشأن الحكم وبشأن النظام الحكومي أن يضعوا أمامهم برنامجاً جديداً في مسيرة فلسفتهم للدولة الحديثة مع إمكانية التغيير:

- أولاً: بثّ الأمل في نفوس العراقيين في إمكانية التغيير لواقع الدولة بدون الرّبط بين الأرستقراطية الدينية ومفاهيم الدولة.
- ثانياً: التحلل من المفاهيم التراثية القديمة التي جاءت بها النظريات المرتبطة بالدين أو لنقل من يربطون الدولة بالدّين والتي تقام الدول غالباً عليها.
- ثالثاً: الانفتاح على التشابهات الكبيرة ما بين العراق، وبين الدول الأخرى التي قادت عملية التغيير وبالخصوص دول أمريكا اللاتينية ودول الاتّحاد السوفيتي السابق بالإضافة إلى التجربة المصرية

والتونسية لكي يكون العراق دولة في منظومة الدول الحديثة التي تتعامل مع مفاهيم الدولة من منظار البحث العلمي الجماهيري الإنساني وليس الأفكار الموضوعة سلفاً.

- رابعاً: وهو المهم... بداية الانفصال النهائي والطلاق اللّارجعي ما بين الدولة وبين الإرهاب، وهذا يعني بأنّ الغرب سيتعامل مع العراق بمفهوم مختلف جداً بعدما أدرك معادلة الدولة وفلسفتها غير القائمة على احتمال الارتباط غير العضوي مع الإرهاب ومفاهيم الأصولية وغيرها مما يتخوف منه الغرب في السماح للديمقراطية في أن تتّخذ دورها في العراق.

إغتيال تحت الصفر

في أشدّ الأيّام قساوة في البرد الكندي، وفي الجوّ القارص الذي كان يجتاح الشمال الأمريكي بحدود أواسط الشهر الثاني من سنة 1999، وبينما كنت في طريقي إلى العمل وإذا الأخبار تحمل لنا نبأ الصّدمة الهائلة التي جاءت متسرّبة إلينا باغتيال الشخصية الوطنية المفكر السيد محمد الصدر ابن محمّد صادق الصدر صاحب الموسوعات العميقة والقدرات العلمية التي تعتبر من مفاخر الفكر العلمي والفكر الفقهي فضلاً عن الفكر الإنساني الديني.

كانت عملية الاغتيال غامضة ونحن نعيش البعد عن الوطن في الوقت الذي يتحاشى الجميع الاتّصال بالعراق للاستفسار عن مجريات هذه العملية الجريئة، إذ كانت عيون النظام متقدة لتصيد العلاقة ما بين هذه الشخصات وبين المعارضة في الخارج.

لم أكمل طريقي إلى العمل، وقرّرت أن نخرج بمسيرة وتظاهرة كبيرة أمام سفارة النظام في أوتاوا، وهذا ربّما أقلّ ما يمكن القيام به في مثل هذه الظروف، وفي أجواء الرّعب والاغتيال والقتل، إذ أنّ الكثير من أفراد الجالية العراقية كانت تخشى من انتقام النظام من عوائلهم داخل العراق فكانت تتردّد في المسيرة نحو مؤسّسات النظام والتظاهر أمام سفارته في العاصمات الأوروبّية أو الأمريكية، ولكنّ المشكلة هو أنّ التظاهرة تحتاج إلى عدد وإلى رقم في حجم المتظاهرين، وإلّا فإنّها تنقلب عموماً إلى شعار سلبي في الهدف الذي خرجت من أجله، وكان أمام الأخوة وأمام الجماهير العراقية في كندا أن تتحرّك سريعاً لأنّ الحدث رهن في مثل هذه الأمور بالحادثة وبالوقت، والتأخر في مثل هذه الأمور ربما ينعكس سلبياً على مجمل مسيرات المعارضة ومسيرات المواجهة مع النظام في العراق.

أجريت اتّصالات مع المدن القريبة فيما بينها في مونتريال حيث كانت الثقل الأكبر للعراقيين، وأوتاوا العاصمة ثمّ تورنتو المدينة التي أعيش بها والتي مع أنّها تمثل الثقل الواقعي للعدد ولكنّها لا تمثل الثقل للمعارضة بسبب انشغال العراقيين بمعيشتهم أولاً وعزوفهم عن المشاركة في مثل هذه المظاهرات والتجمعات لأسباب كثيرة لسنا هنا في معرض التطرّق لها.

سافر أحد الأخوة من (تورنتو) مباشرة إلى (أوتاوا) العاصمة لكي يقدّم إلى السلطات الكندية إجازة السماح بانطلاق التظاهرة مع أنّني شخصياً كنت أنوي أن أخرج أنا وحدي مع زوجتي وابنتيّ، حتى لو امتنع الكلّ عن المشاركة في مثل هذه الأجواء القاسية البرودة التي لا تحتمل في مثل هذه الأجواء من السنة وفي ظروف الخوف والرغب الذي فرضه النظام على العراقيين، وكان الموعد غداً صباحاً في يوم 20 فبراير من هذه السنة أي 1999.

كنت قد قررت أن أخرج في الصباح الباكر، وقبل صلاة الفجر وقد نويت أن أصليها في الطريق، في إحدى المحطات على الطريق الرئيسي. حزمت الأمر ليلاً وقرّرت أن أصطحب معي العائلة، وقرّرت أن أسافر قبل المجموعة التي ستتجمع في العاصمة أوتاوا حيث هنالك تقع سفارة النظام العراقي لكي أحضّر أمر التظاهرة والحديث مع الصحافة ومقابلة السياسيين من الدول الأخرى التي قد تطل على المسيرة.

كان الليل بثقله عبارة عن كابوس طويل وأنا أتذكر هذه الشخصية العملاقة التي تقف أمامها العقول حائرة في قدراتها العملية وقدراتها البحثية، كان السيد محمد الصدر يمثل لي شخصياً أكثر من معنى، وأكثر من بُعد.

وأتذكّر عندما حضر يوماً من أيام الشدّة وفي سنة 1971 وفي قمة الهجمة الشرسة على القوى الوطنية والدينية حضر الشهيد إلى احتفال خاص يضم شخصيات علمية من أساتذة الحوزة العلمية، ومن الرعيل المتقدم من العلماء، وكانت الكلمة الوحيدة هي للسيد الصدر، فجاء الشهيد، وأنا أتابع

كلّ حركة من حركاته بنظرة الشاب الذي يبحث عن نموذج فكري وعلمي فضلاً عن النموذج السلوكي، جاء الشهيد بملابس أفضل ما يقال عنها بأنّها بسيطة أو متواضعة غاية التواضع، ودخل بهدوء إلى المجلس ورأيت بأم عينيّ كيف انتصب الكلّ وقوفاً له احتراماً وتقديراً وساد صمتاً مطبقاً في القاعة التي كانت تضمّ حوالي 75 عالماً، وكنت أحسّ الوقار والهدوء الذي ساد المجلس.

لم ينبس السيد الشهيد ببنت شفة، ولم تتحرّك قسمات وجهه كما هو طبيعة الناس في انفعالاتهم وحبهم وفي المناسبات الاجتماعية من علائم الود أو الترحيب، أو الخجل أو ما إلى ذلك، التي تتغير سحنة الوجه أو تقاسيم المحيّا، جلس في ركن من أركان القاعة التي غصت بالحاضرين وامتلأت وقام البعض بالجلوس على الأرض القرفصاء لضيق المكان، وكان الجو آنذاك حاراً، في شهر أغسطس من سنة 1971 القاسية الحرارة، لم تمرّ دقائق إلّا وعريف الحفل يعتلي المنبر إيذاناً ببدء المحاضرة التي كنت أنا أعيش في عالم لكي أطمئن نفسي إلى صدق رؤياها في علاقه هذه الشخصية بالمُثل العليا...

ولا أدري لماذا كنت حريصاً على كلّ ذلك، تكلّم عريف الحفل قائلاً: بخ بخ لك يا منبر... سيعتليك الصدر الأكبر، وكلمات لا أتذكرها بسجع رائع، كان السيد يرتدي كما أتذكر جبّة سوداء فوقها عباءة خفيفة ربما بلون آخر غامق، وقد تكون سوداء أيضاً، ويرتدي أيضاً قميصاً أبيضاً يظهر من خلال منطقة الرقبة، ويعتلي رأس الشهيد عمامة سوداء متوسطة الحجم، وأيضاً أتذكر بأنّه كان يحمل مسبحة سوداء في يده اليمنى.

صعد الرجل الدرجات الثلاث، وجلس وبدأ بكلامه بالصلاة على الرّسول ثم انهمر كالسيل في الفكر وفي الحديث وفي البلاغة فرضت على الحضور صمتاً مطبقاً وانتباها مركزاً، وكان مجرى الحديث الذي أتذكره هو العلاقة الفكرية لمفهوم الدولة من المنظور الاستنباطي الإستقرائي لما بعد وفاة الرسول. استمرت المحاضرة ربما لأكثر من ساعة متكاملة ثمّ أنهى حديثه بشكل هادئ بعد أن قدّم ما نقول فيه بعالم اليوم أطروحة فكرية متقدّمة.

وهكذا كانت تلك المحاضرة مساحة مفتوحة لي لأن أنطلق لدراسة فكر هذه الشخصية العملاقة الكبرى، فبدأت أقرأ كلّ ما ألّفه بشكل مستمر مع الصعوبة في إيجاد تلك الكتب في المكتبات آنذاك، وبقيت أتابع هذا العالم النحرير عن قرب وأراه في مناسبات مع أنّني انتقلت من المدينة التي كنّا نعيش بها إلى العاصمة وكنّا نزور المدينة بين الفينة والأخرى، ونحاول زيارة العلّامة الصدر.

وكنت أتذكر جيداً وفي سنة 1979 وعندما كنت في طور مغادرة العراق لتكملة دراسة الدكتوراه في الولايات المتحده الأمريكية[1]، تذكّرت وأنا أتحدّث مع الأستاذ الكبير الصدر الأول، كان الشهيد الثاني يرمقني بنظرات لا يمكن لي من تفسير لمعناها لأنّ تقاسيم وجهه لا تتغير بتغيّر المواقف، أو الحب أو الغضب أو الرضى أثناء توجية تلك النظرة.

وقبل أن أودّع الشهيد الأول، وأنقل له خبر مغادرتي العراق، سألني الشهيد الثاني سؤالاً كان له أكثر من معنى... سألني: ماذا أنت فاعل...؟ لم أفهم السؤال بالدقة ماذا يعني...؟ ولم يسعني إلّا الابتسامة في وجهه، وكأنّني أريد المزيد من الشروح والتوضيح... ولكنّ الشهيد الأول عندما لاحظ حيرتي فبادره إلى القول: هو فاعل ما أنت فاعله ياسيدنا، مع الاختلاف بنسب القوّة

(1) قررت أن أزور العائلة والمعارف، وكلّ أساتذتي في الحوزة العلمية ومن جيراننا، وأن أطلب من الشهيد الصدر محمد باقر المساندة في رحلتي هذه، مررت على بيت السيد الشهيد الكبير وكان لي آخر كلمة أن أقولها له قبل رحلتي التي كنت قد قررت فيها إما أن يأخذ الله أمانته أو أن أعود بقيام مجتمع العدل والديمقراطية، وبما أن الخيار الثاني كان أقرب إلى المستحيل في تفكيري، فإذن الأقرب هو الفراق الأبدي إلّا اللهم ربما في عالم الخلود، وعندما قررت الزيارة في أوقات كانت جداً عصيبة عليّ وعلى الشهيدين وفيها من المخاطرة الكبيرة، ولكن قراري كان الأخير وبدون الرجوع عنه وفعلاً ذهبت بحدود الساعة الحادية عشر صباحاً إلى حيث يقيم السيد الشهيد الأول الصدر محمد باقر، وهو في الواقع ليس بيتاً بالمعنى العرفي للبيت، وإنما هو جزء من مقابر تلحق بالبيت لتكون مكاناً لاستقبال الزوار، وعندما هممت بالجلوس وجدت أن الشهيد الثاني جالس إلى جنب الشهيد الأول وقد وجدت في وجهه آثار مرض جلدي مع ظهور بقع حمراء على جبهته بالإضافة إلى شئ من التغير في شعر لحيته وهو ما بادرني أن أسأله عن صحته وعن شكل المرض الذي تبدو آثاره عليه.

والفعل... لم يبتسم الشهيد الثاني، أمّا أنا فلم أقل شيئاً، وإنّما كنت متسمّراً أمام عملقة هذين الجبّارين ولم أتمكّن من مجاراة شخصياتيهما، وطريقة تناقل الأفكار فضلاً عن (الكاريزما) الهائلة لكليهما.

ثم بادرني الشهيد الثاني قائلاً: سأدعو لك، أن يحرسك الله من عيون الظالمين... ثم قلت له خجلاً...أشكرك سيدنا... قبلت يده الطاهرة وطلبت منه أن يدعو الله ليثبّتنا على ديننا... نظر إليّ وابتسم ثم قال سأفعل، ثم بادر ثانية بقوله: ولكنّك شبل الأسد، والأسود تبقى دوماً أسوداً... ثم أشار لي الشهيد الثاني بإشارة برأسه فغادرت المكان مبتسماً.

وفي ذلك الصيف العصيب، وفي غمرة الأحداث الدموية التي اجتاحت العراق بأكلمه غادرت بلادي إلى أمريكا... وهناك حدث ما حدث بعد أن علمت أن أهلي شُرّدوا من بيتنا، وقتل العديد منهم، وبقي بيتنا الذي ترعرعت فيه فارغاً من أهله. وفي سنة 1984 وصلني خبر أنّ الشهيد الثاني يريد إستئجار ذلك البيت، بما أنّني كنت أكبر إخواني ولم نكن ندري أي خبر عن الوالد، ولم نكن نعرف إذا ما كان حياً أو استشهد في غياهب سجون صدام الظالم، أرسل لي الشهيد الثاني رغبته بالعيش في بيتنا بعد أن كبرت عائلته، وأصبح بالتالي بحاجة إلى بيت أكبر وأنا من جانبي أرسلت إليه موافقتي على طلبه، وقلت له أنّ البيت موهوب له من جانبي وجانب أخوتي وأخواتي ووالدتي(1).

كنت في تلك الليلة أستعيد كلّ تلك الذكريات وقد مضى عليها عقدان من الزّمن في الوقت الذي لم أكن أعلم جيداً ماذا حدث في العراق بعد

---

(1) وانتقل السيد للعيش في بيتنا وبين الفينة والأخرى كان يصلني من الشهيد الثاني كان يجمع لي الإيجار لأنّه لم يكن يقبل أن يعيش في البيت دون أيّ مقابل، وفي أحد الأيام طلب مني الإذن أن يبني لولديه غرفتين في الطابق العلوي من البيت بهدف تزويجهما و(هما السيد مؤمّل والسيد مصطفى) فأخبرته بموافقتي، وأنه حر التصرف في البيت، وفي صرف أموال الإيجار، وهكذا بنى السيد غرفتين ومنافعهما في الطابق العلوي وزوج أولاده السيدين اللذين استشهدا معه، وقد تزوجا من بنات الشهيد الأول.

استشهاد الشهيد الصدر الأول مع أخته العلوية بنت الهدى في 9 / 4/ 1980 على يد صدام، وكنّا نحشى أن نتصل بالتلفون خوفاً على أهلي وأقاربي من الانتقام منهم وقتلهم.

أمضيت الليل وأنا أستعيد تلك الذكريات المؤلمة وأسأل نفسي لماذا يُغتال شخص كالشهيد الصدر على يد طاغية العراق مع أنه كان رجل إعتدال ولم يكن يعمل ضمن المجال السياسي أو التنظيمي، وكنت أراه شخصية علمية فقهية تميل للمحافظة على الدين والتأليف والتدريس ونشر القيم الإسلامية بين الناس، وكغيري من الشباب كنّا نعتبره رجلاً أقرب إلى المحافظ منه إلى الشخصية الثورية، فكنت أتساءل ما الذي حدث في تلك السنة...؟ كيف تحوّلت تلك الشخصية إلى ثورة...؟، هل تحوّلت بفعل الأحداث إلى شخصية جماهرية ثورية اجتماعية تستقطب الناس في ذلك الوضع الصعب في العراق، وخصوصاً بعد حرب الخليج الثانية في 1991 واحتلال الكويت وفرض الحصار الاقتصادي على الناس الفقراء...؟ وكان جُلّ ما أرقني تلك الليلة هو غرابة ما يحدث في العراق، والتعقيدات التي تحصل هناك في خضمّ تلك الأحداث العصيبة، وكنت شخصياً أعتقد بأنّ هنالك وضع في العراق مختلف تماماً عما تركناه وتوقّعناه.

اسيقظت حوالي الرابعة والنصف صباحاً وانطلقنا في ساعات الصباح الأولى، وكان الجو سيئاً للغاية مع تساقط الثلوج، وهبوب الرياح القوية الباردة وصعوبة الرؤية، وكنت قد طلبت من زوجتي أن نترك الطفلتين عند أحد معارفنا، ولكنّها رفضت وفكرت أنّه من الأفضل أن تعيش ابنتانا ما نعيشه كي يعرفا في المستقبل ما كنا نعانيه وما سنعانيه في حياتنا القادمة، وعلى أجيالنا أن تعيش ما عاشه الآباء.

انطلقت بالسيارة على الطريق السريع الذي غطته طبقات الثلوج المنهمرة، والآليات الخاصة كانت تحاول أن تفتح الطرقات أمام السيارات، وكانت كلّما أزالت طبقة من الثلوج حتى تتراكم أخرى، وساءت الرؤية أكثر فأكثر، ولم أكن أستطيع أن أقود السيارة أكثر من 50 كلم بالساعة لصعوبة

الرؤية، وسوء الأحوال الجوية، سرنا حوالي الساعة، والسيارة تميل يمنة ويسرة من شدّة العاصفة.

خففت سرعتي قليلاً بعد أن توقفت كي أغطي ابنتيّ اللّتين نامتا في المقعد الخلفي، وبعد ساعات، بدأت بواكير الصباح تظهر أمامنا، توقّفت حينها في محطة للوقود، وكان الطقس بارداً جداً لدرجة لا يمكن تحمّلها، وكانت كلّ دقيقة تمرّ تكون أصعب من التي مرّت ممّا كان يؤدي إلى تأخّر المسير، وهذا يعني بالمفهوم السياسي فشل في الحركة ضدّ النظام والمعارضة. واصلت السير على طريق لا أعلم نهايتها، منتظراً في أية لحظة أن تقذفني الرياح إلى وادٍ هنا أو هاوية هناك، وكنت قد أخبرت زوجتي أن تحذّرني إذا ما أغفلت عن الطريق، أو سهوت بطريقة ما.

وكان أكثر ما يخيفني تلك الجسور الطويلة التي تراكمت عليها كميات من الثلوج وكدّت مرة أن أفقد السيطرة، وصارت السيارة تدور في وسط الطريق إلى أن تمكّنت من السيطرة عليها والعودة إلى مساري وأنا مصمّم على إكمال الطريق والوصول إلى نهاية رحلتي.

والطّريق من تورنتو إلى أوتاوا ينقسم إلى طريقين الطريق الأول الخطّ السريع الذي يستغرق حوالي 4 ساعات متواصلة، والطريق الثاني هو الطريق الفرعي، وهو طريق ضيّق يمرّ في مزارع بعيدة عن المدن، ومن الصعوبة أن نجد محطة للوقود هناك أو أي خدمات أخرى، وكانت المحطات الإذاعية تحذّر الناس من قيادة سياراتهم وذلك لكثرة حوادث الطرق.

وصلنا الطريق الفرعي وطوله 100 كم، وكان خالياً مقفراً، والشيء الغريب الذي حدث هناك أن قطرات الثلج والمطر كانت تتحول إلى ما يشبه القطع المدورة القوية كأنها حصى مثبت على الكونكريت ممّا يؤدي إلى صعوبة السيطرة على السيارة التي كانت تميل يمنة ويسرة وكأنّني تركتها بين يدي الله كي ينقذني من هذه الحال، كانت الساعات تلك صعبة للغاية تبعث في داخلي ضغطاً نفسياً ونحن نشاهد سيارات عديدة منحرفة عن الطريق، وسيارات

الإسعاف تنقل بعض الجرحى. كنت أحاول جاهداً أن أكسب الوقت ومواصلة السير على تلك الطريق المغطاة بتلك المساحات الشاسعة من الثلوج، وكان علي أن أتجنب إستعمال المكابح على هذا النوع من الطرق ممّا قد يؤدي إلى فقدان السيطرة على السيارة.

وبينما كنت أفكر في لحظات الوصول أحسست فجأة أن السيارة بدأت تنحرف بشكل لا شعوري باتجاه الجانب الأيمن منزلقة إلى طريق فرعي وربما حفرة في الوقت الذي كان كلّ ما حولنا مغطّى بالثلج، فلم أعد عندئذ أقوى في السيطرة عليها، وهنا بدأت الأفكار الغريبة تتملّكني هل ستنقلب السيارة فينا ونتحول معها إلى ركام، أم أنّها بقدرة قادر ستتوقف على حافة طريق، أو سنصطدم بشيء ما في نهاية الأمر..؟ انسابت السيارة على جانب الطريق كأنّها لعبة وضعت على سطح أملس وبدأت تنزلق عنه واستمرت بالانزلاق دون سيطرتي عليها حتى شاءت الأقدار أن تصطدم بشجرة كبيرة أوقفتها عن الاستمرار في الانزلاق...

كان المشهد مروّعاً، وأحسست بالموت يحوم حولي وحول عائلتي، استغرق ذلك كله أقل من دقيقة، ولكنها دقيقة الموت التي ينفتح عليها عقل الإنسان لثوان قليلة، وكنت حينها أعيش ألم اقتراب الموت بكلّ جوارحي، وما دام الإحساس بالألم موجوداً فالتفكير بالموت يكون الملاذ الوحيد للتخلص من ذلك الألم الذي لا يحتمل. وهذا الشعور يرافق أولئك الذين يواجهون الموت ويشعرون بألم التعذيب والظلم فيصبح الموت بالنسبة لهم تحصيل حاصل كما يقال متناسين قساوة الألم وشدته.

وكان الهاتف الخلوي في كندا يعمل فقط في داخل المدن غالباً، أمّا الطرق الخارجية فهنالك بعض الشركات ممكن أن تغطيها، ولكن عموماً فإنّ الشركة التي كنت مشترك بها لا تستلم الخطوط خارج مراكز المدن، ولكن الموضوع ليس موضوع موبايل وإنما موضوع وقت وزمن، والتفكير بغير هذا الاتّجاه بالنسبة لي عبثاً.

عندما توقفت السيارة من شدّة الصدمة بالشجرة إرتحت قليلاً، وصرت أتحسّس أولادي وزوجتي من شدة خوفي في أن يكونوا غائبين عن الوعي، أو تعرّضوا لصدمة ما، فلم أجد آثار دماء عليهم ولم يكونوا غائبين عن الوعي.

نظرت إلى وجهي بالمرآة فلم أجد أي جرح أو خدش، ولكن بدا وجهي شاحباً من هول الصدمة، يا إلهي لم أكن أريد أن نموت بهذه الطريقة، وصرت أدعو الله أن ينهي عذابي وينجيني وعائلتي من هذه المحنة.

تفقدت عائلتي جيداً، لففت ابنتيّ اللّتين كانتا في المقعد الخلفي ببطانية إضافية تقيهم الصقيع الذي كنت أشعر به في عظامي، حذّرت زوجتي من النزول من السيارة من شدة البرد، فتحت الباب وترجّلت حذراً من السيارة أحس بنفسي بين الحياة والموت، وصرت أتحسس يدي ورجلي لربما كنت مصاباً ومن شدة البرد لم أكن اشعر بالألم، شعرت بوجع شديد في أسفل ظهري لا أدري مكان الوجع بالتحديد ولكنّ الألم كان يلفّني ولم تعد رجلاي تساعدني على الوقوف فسقطت أرضاً على الثلج، أحسست أن جسمي بدأ يتجمّد والثلج يتساقط على وجهي ورقبتي والرعشة تتسرب إلى أعماقي، نهضت بصعوبة أحاول جاهداً إعانة نفسي في الوقوف وسرت باتّجاه الطريق علّني أجد أحدهم ليساعدني، كنت أفكّر بالتظاهرة ولم يهمّني أيّ شئ آخر غير ذلك، فأنا أوّلاً أتحدّث باسم الجالية العراقية، فيجب أن أكون موجوداً أوّل الناس لشحذ نفوس الذين كانوا يأتون من كافة المدن الكندية.

غابت عني كلّ الآلام التي كنت أحس بها، ولم أكن أفكر إلّا بكيفية الوصول للمشاركة بتلك المظاهرة وبقي أمامي 54 دقيقة، وكانت ساعتي تشير على العاشرة صباحاً، وبينما كنت جاثماً على الثلج لا أدري ما العمل أتضرّع إلى الله أن يساعدني، ويرسل اليّ من يعينني على ما أنا عليه وإذا بسيارة كبيرة من نوع جيب رباعية الدّفع، توقفت وترجّل منها شاب لا يزيد عمره عن ال25 سنة وعلى رأسه قبعة سميكة ويرتدي معطفاً من الفرو وكان يحمل بيده عصا أو هكذا بدا لي، أشار علي بالاقتراب ولكنني كنت خائفاً أن أبتعد ولو

متراً واحداً عن السيارة وعائلتي داخلها، كنت خائفاً من كلّ ما حولي، فاقترب مني بحذر وألقى علي التحية فرددتها بكلّ هدوء، أشار إلى وجهي وسألني ما سبب الدماء التي تسيل منه، بسرعة مررت يدي على وجهي وأدركت إنّني مصاب في رأسي عندما أصطدم في سقف السيارة، لم أهتم لما حصل معي كثيراً وقلت له: إن عائلتي داخل السيارة، اقترب منها، نظر داخلها فوجد ابنتيّ وزوجتي يرتجفون من البرد الشديد وهم متقوقعون على بعضهم البعض.

إتّجه إلى سيارته أخرج حبلاً سميكاً وعرض علي أن يسحب سيارتي إلى أوتاوا، نظرت اليه نظرة شكر وسألته من يكون هو، ولكنّه ضحك ضحكة خفيفة وكأنّه يعرفني من قبل، وأنا أحاول أن أمزح معه في خضم ما أمر به وفي ذلك الوقت العصيب... انشغلت بإزالة الدم عن وجهي وأنا أفكّر بشدة البرد، ولم أعد أحس بيدي وأصابعي ولم أستطع النظر جيداً إلى وجه ذلك الشاب، ولكنه كان يبدو لطيفاً، أرجع سيارته إلى الخلف بمواجهة مقدمة سيارتي ربطها بالحبل جيداً ثم بدأ يسحبها ببطء من الحفرة، حاول عدة مرات وأنا أدعو الله أن يساعدنا وفي المرة الأخيرة تحركت سيارتي وبها عائلتي وسحبها بسرعة من تلك الحفرة إلى قارعة الطريق...نظر الي وسألني ما أسمك...؟

- قلت له مبتسماً...إسمي (فلان) ...

- من أين انت...؟

- قلت له من العراق

استغرب قليلاً وابتسم مع أنّة لطيفة... ثم سألني

- و ماذا تفعل هنا، وإلى أين أنت ذاهب...؟

- قلت له... أنا ذاهب بعمل إلى أوتاوا

هزّ رأسه وطلب مني أن أصعد إلى السيارة وأحاول أن أشغلها، لكنّها

لم تشتغل، طلب مني أن أفتح الغطاء الأمامي الذي كان متجمداً من الثلج، كان من الصعوبة جداً أن أفتحه، طلب مني أن أسحب القطعة التي تفتح الغطاء، وهو سيفتحه من الخارج ..قلت له:

لا تحاول يا صديقي... الأمر صعب جداً

ولكنه صاح قائلاً إسحبها يا رجل يجب أن نحاول...

ثم قال: شغل المفتاح بسرعة، قلت له: إنها سيارة تعمل على الديزل، ويجب أن أنتظر قليلاً حتى أشغلها... لكنّه لم ينتظر صاح مرة ثانية قلت لك شغل السيارة يا رجل..

وضعت يدي على المفتاح وصرت أقرأ بعض قصار السور، سمّيت بالرحمن وأدرت السيارة وتفاجأت بأنّها اشتغلت بهذه السهولة.

أسرع ذلك الشاب وفك الحبل من سيارته وتوجه إلى سيارته وجلب بعض المناديل الورقية وقنينة ماء وبعض الشمع، أشعل شمعة ووضعها على مقدمة السيارة ثم صبّ لي الماء كي أغسل وجهي ويدي ثم جففتهما جيداً من الدماء والماء.

شعرت بالراحة بوجود ذلك الشاب إلى جانبي بينما أنا أستمتع بصوت محرك السيارة التي أعطتني الأمل بأنّني في الطريق إلى التظاهرة، شكرت الله لأنّه لم ينساني وعائلتي وأنّه أرسل اليّ ذلك الشاب الشهم لمساعدتي، بعد لحظات نظرت إلى الساعة وأدركت أنّها العاشرة والنصف صباحاً... نظر إلي ذلك الشاب وسألني بكلّ براءة:

- هل تحبّ عائلتك؟

تعجبت من سؤاله في هذه الظروف، ونظرت إليه شزرا ولم أجبه، لكنّه قال لي بالتأكيد تحبّها وأنا أعرف ذلك يا صديقي...

إبتسمت له شاكراً مساعدته، وطلب مني أن أسير وراءه حتى نصل إلى أول مفترق إلى أوتاوا ونودّع بعضنا هناك ...

كنت في تلك اللحظة كأنني مررت بحلم، ولم أدر هل أنا حي أم أنني ميت، أم أنني ما زلت أحلم، ولكنّني شكرت ربيّ على كلّ حال...

ركبت سيارتي وعائلتي ما تزال نائمة وانطلقت وراء صديقي الشاب، وصلنا بعد وقت قصير إلى المفترق الذي سوف يوصلني إلى أوتاوا، توقّفنا نزلت من سيارتي واتّجهت لوداع صديقي، صافحني وقال لي: لم تسألني لماذا فعلت ذلك معك...؟

أجبته بشيء من المزاح: ربما لأنّك قديس (Saint)...

أجابني بابتسامة: إذن أنت تعرفني...

أعطاني ورقة صغيرة فيها رقم هاتفه، وكلمة من خمسة حروف قال لي ربما ستحتاجها في يوم من الأيام... وكنت من شدّة البرد الذي جمد أطراف أصابعي، وإستعجالي وذهولي لم أقرأ ما فيها وماذا يعني كلّ ذلك.

ودّعته بحرارة وضعت الورقة بسرعة في جيبي بعد أن أحسّست بالبرد القارس يلف جسدي من جديد، ولكنّني في نفس الوقت شعرت بنوع من القوة تلفني ما أن وضعت يدي في يد ذلك (الصديق الغريب) كما أحببت أن أسمّيه، وتجمدت الكلمات في داخلي من شدة صقيع تلك البلاد الباردة، أردت أن أسأله عن إسمه لكن كلماتي تجمدت في فمي، صافحني وانطلق بسيارته في اتّجاه بعكس الإتجاه للعاصمة التي كنت أحاول أن أصلها بأسرع وقت ممكن.

إنطلقت ثانية في طريقي علّني أصل في الوقت المناسب للمشاركة في المظاهرة الموعودة، وصلت الي مقصدي في الساعة الحادية عشر، ركنت سيارتي في أقرب مكان وطلبت من زوجتي أن تهتم بالفتاتين ثم شاركت بالمظاهرة، ونحن نحمل اللّافتات المؤيدة للشهيد الصدر الثاني ومنددة باغتياله الظالم، وأخرى مندّدة بالنظام داعين إلى سقوط صدام، وكنّا نهتف داعين إلى الديمقراطية، واصلنا مظاهرتنا، ورجال الشرط الكندية وهم مسلّحون بالعصي

يحيطون بنا بكثافة حول السفارة العراقية، ترافقهم فرقة مكافحة الشغب، كان هدفنا أن نحاول أن ندخل إلى السفارة التي كانت السلطات قد أغلقتها خوفاً من أعمال شغب أو إقتحام محتملة، ولكن فكرة الدخول كانت تجول في أفكار بعض منّا، وكنا ننتظر الوقت المناسب لذلك، فقوتنا ودفاعنا كانا متواضعين أمام قوة واستعداد رجال الشرطة المجهزين.

في خضمّ كل ذلك اشتدّ الجو قساوة والبرد القارس كان ينخر عظامنا والثلج يتساقط بكثافة من حولنا وصرنا قلقين على الأطفال الصغار الذين اصطحبناهم معنا، وبعد أن رفضت الزّوجات والأطفال أن يبقوا بعيدين عن مجرى الأحداث فأبين إلّا أن يشاركننا في كلّ ذلك، فقرّرنا أن نحاول التقدم للسفارة أو التفرق والعودة إلى بيوتنا، ولكنّنا أردنا أن نُسمع العالم أصواتنا ورفضنا لكلّ ما يقترفه النظام في العراق من ظلم وقتل واستبعاد، وأردنا أن تكون الصحافة موجودة معنا. طلبت من أحد الأخوة أن يتّصل بمجموعات صحفية لتغطي الأحداث، ولكي تنقل صورتنا للعالم بأجمعه في لحظات دخولنا إلى السفارة، وبالفعل هرعت محطات تلفزيونية عديدة إلى المكان بأقل من 15 دقيقة، وقامت مجموعة لا تقل عن 10 شبان بالتوجّه بخطى سريعة نحو الحاجز الذي أحاطوا به السفارة، وكنت أنوي مشاغلة رجال الشرطة بادئ الأمر، فطلبنا منهم بكلّ هدوء أن يفسحوا لنا المجال للدخول بسلمية، في هذه الأثناء وبينما نحن نعدّ العدة للهجوم.

بدأت الحشود وراءنا بالتدافع علينا وساد الهرج والمرج، وسقطت أنا على الأرض فسقط معي الحاجز الحديدي أمامنا فسحبني رجال الشرطة ووضعوا رأسي بين يدي وبدأوا يفتشونني علهم يجدون معي قطعة سلاح أو سكين أو ما شابه، ثم رموني ثانية خارج الحاجز المعدني، في هذه الأثناء كانت مجموعة أخرى من الشباب قد اتّجهت إلى ناحية أخرى من الحاجز واقتحمته بسرعة غير مبالية بالضّرب وبالعنف الذي مارسه رجال الشرطة، وكان الحماس قد أخذ منا كلّ مأخذ لم نهتم وأكملنا تقدّمنا فتخطّى أحد الشبان الحاجز بسرعة فهرعوا إليه واعتقلوه وكان ذلك بالنسبة لنا نعمة ومادة

دسمة للصّحافة الموجودة بكثافة ولكاميرات التلفزيون التي كانت تصوّر كلّ ما يحدث.

بعد اعتقال ذلك الشاب طلب منّا رجال الشرطة الهدوء والتروي وأرسل بطلب للتحاور معنا فطلبت مني الجالية أن أمثّلها بالكلام بالنيابة، وكان رجال الشرطة قد طلبوا منا إمّا أن نتفرق بهدوء وتراض وإطلاق سراح الشاب المعتقل، وإمّا أن يفرّقونا بالقوة، طلبت بعض الوقت للتحاور مع الجالية حول الخيار الأنسب في هذا الوقت الصعب.

فكان خيارنا الوحيد هو تبيان مظلومية الشعب العراقي في العراق وخارجه أيضاً وأنّ حادثة اغتيال الشهيد الصدر لا يجب أن تمرّ مرور الكرام في كلّ بقاع الأرض، وهذا ما أردنا إيصاله للجميع... و لذلك اخترنا الإنسحاب بهدوء إلى الوراء، والذي قد يعكس الصفة الحضارية للمعارضة العراقية، وهكذا رجعت وبلغت الشرطة الكندية بقرارنا أن نبقى معتصمين طيلة الليل كحق طبيعي لنا، وأن يسلّموا مذكّرة منا للسفير العراقي والذي كان آنذاك (هشام الشاوي) فسلمناهم مذكرة موقّعة من مئات وحتى آلاف العراقيين استنكاراً على وحشية النظام، وبالفعل تسلّمها أحد رجال الشرطة وسلّمها إلى عناصر الأمن في السفارة، عاد رجل الشرطة صافحني وشكرني على قرارنا، عدت إلى أفراد الجالية وتشاورنا فيما بيننا وقررّنا أن ننهي التظاهرة.

في اليوم التالي قرأت في صحف عديدة أخبار التظاهرة فعرفت أنّ وسائل إعلام كثيرة كانت مهتمة بشكل ملحوظ وجدّي بالقضية العراقية، وما يجري في العراق من اغتيالات ومجازر وإبادة من قبل النظام، وكانت المرّة الأولى التي يذكر فيها إسم الشهيد الصدر في الصحف والتلفزيونات والإذاعات، وذكرت بعضها وبإسهاب حادثة الاغتيال بتفاصيلها وأبدت امتعاضها واستنكارها لما يرتكبه نظام صدام المجرم من ظلم وقتل واغتيالات لرجالات مهمة في العراق ناهيك عما تقترفه أياديه بآلاف الشباب هناك.

فقد يعتقد البعض بأن الثورة هي عبارة عن حدث بعمر لا يتجاوز مساحة

تلك الثورة والسقوط، ولكنّ الواقع هو أن الثورة عمرها من عمر الإحساس بالظلم لا يقاس بزمن ولا بمدة محددة، وأحياناً كثيرة يطول عمر الثورة لسنوات وحتى قرون لأنّ مفاهيم الثورة تحتاج في نضوجها لفترة طويلة، وهكذا نرى مفاهيم كثيرة في الحياة لا زالت تعيش في مراحل الثورة، كمبادئ الرسول (ص) ومبادئ السيد المسيح (عليه السلام) واستمرار الإمامة بمبادئها التي حملتها والتي هي أكبر من مبادئ الحياة التي نعيشها..

فالشهيد الثاني بشخصيته الفذة وعمق فلسفته لا يمكن لتلك الفلسفة أن ترى النور بين ليلة وضحاها، وإنّما هي نتاج سنوات طويلة من التعب والصراع حتّى ولو سقط النظام العراقي وتحوّل العراق إلى دولة ديمقراطية قوية، فإنّ مبادئ شخصية الصدر وحتى بعد استشهاده تظلّ مبادئ تتجاوز حدود الزمن، ولا تموت بتغيير النظام، وتتوقّف عند سقوط صدام، وإنّما شخصيته الفذة وعطاءاته أكبر من أن تكون مرتبطة بسقوط النظام، أو إقامة حكم جديد، وإنّما هي مبادئ تقترب في عناوينها ناهيك عن مضمونها من مفاهيم ومبادئ الأنبياء والرّسل، وهي التي وضعت لكلّ إنسان وللبشرية جمعاء، وليس للعراقيين أو المسلمين أو للعرب بالخصوص أو للأمم الشرقية فقط. هي إبداع إنساني ساهم في إنشاء وقيام حضارة الجنس البشري المعاصر والمستقبلي، وبكل تلك العطاءات يكون استشهاد أولئك الكبار جزءً من خطة فكرية رسمت معالمها لتحقيق العدل والمساواة بين بني البشر عموماً.

المصادر

1 – المصادر العربية

1. الحرب النفسية أو معركة الكلمة والمعتقد لصلاح نصر، الجزء الأوّل، دار القاهرة للطباعة والنشر، القاهرة، 1967
2. الملل والنحل للشهرستاني، تحقيق البير نصري نادر، دار المشرق بيروت 1970.
3. من تأريخ التعذيب في الإسلام، هادي العلوي، دار المدى للثقافة و النشر، بغداد العراق، 1999.
4. ثورة الحسين ظروفها الاجتماعية وآثارها الإنسانية، مؤسسة دار الكتاب الإسلامية بيروت. 2006.
5. ثورة النجف، حسن الأسدي، وزارة الإعلام بغداد 1975
6. دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، علي الوردي، جامعة بغداد بدون تأريخ الطبع.
7. نهاية التأريخ و الإنسان الأخير، فرنسيس فوكاياما. مركز الإنماء القومي، بيروت 1993.
8. مذكرات وزير عراقي مع البكر وصدام، ذكريات في السياسة العراقية: 1967– 2000 عن دار الساقي لندن)
9. نظام الحكم في الإسلام للشيخ شمس الدين، المؤسسة الدولية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الثانية 1991.

2 – الكتب والمؤلفين الأجانب

1. Brenda Cossman. Lesbians, Gay Men, and The Canadian Charter of Rights and Freedoms: Osgoode Hall Law Journal,VOL. 40, NOS. 3 & 4. 1982. (http://www.ohlj.ca).
2. Carl Bernistein, The CIA and the Media,, 2007. (http://www.carlbernstein.-com).
3. Daniel Trotta, Iraq war costs U.S. more than $2 trillion. (http://www.reuters.com).

4. Naomi Weeks, Effects of Pornography on Relationships, Families and communities, Utah State University Cooperative extension, 2010.
5. Pierre, Joseph M. (2001). "Faith or Delusion? At the Crossroads of Religion and Psychosis". Journal of Psychiatric Practice 7 (3): 163-72.
6. Robert Weiss. Closer Together, Further Apart: The Effect of Technology and the Internet on Sex, Intimacy and Relationships.. Are Young Women Avoiding Marriage? Love and Sex in the Digital Age. August 14, 2013. Psychology Today.
7. Strickler, Dave. Syndicated Comic Strips and Artists, 1924-1995: The Complete Index. Cambria, California: Comics Access, 1995. ISBN 0-9700077-0-1.
8. Teun A. van Dijk, What is Political Discourse Analysis? Universiteit van Amsterdam, (http://www.discourses.org/). 1995.
9. Ziba Mir Hosseini: Criminalizing Sexuality: Zina Laws as Violence Against Women in Muslim Contexts, The Global Campaign to stop killing and stoning women. Women Reclaiming and redefining culture program. Women Living Under Muslim Laws. 2010.

3 - البحوث

10. Lesbian, Gay, Bisexual, and Transgender Concerns Office. Retrieved January 17, 2014. (http://www.apa.org).
11. Sexual Orientation and Homosexuality. American Psychological Association.
12. The longest war: The Iran-Iraq military conflict, Dilip Hiro. Psychology Press. 1989.
13. United State Senate, Committee on the Judiciary, Testimony of Dr. J. Michael Waller October 12, 2000. (http://www.judiciary.senate.gov).
14. Why Women Lose Interest in Sex. (http://www.webmd.com).

4 - المواقع الالكترونية

15. http://ar.wikipedia.org مادة أبو طبر
16. http://ar.wikipedia.org الدين السيخي في العالم
17. http://ar.wikipedia.org). مادة الاضطراب النفسي
18. http://ar.wikipedia.org. جعفر الخليلي
19. http://ar.wikipedia.org/wiki المناضل الفلسطيني محمود محمد عيسى
20. http://ar.wikipedia.org/wiki. الهجوم النووي على هيروشيما
21. http://ar.wikipedia.org/wiki. مادة إعدام
22. http://ar.wikipedia.org/wiki/ مادة فضيحة ووتركيت

23. http://ar.wikipedia.org/wiki/ مادة الإسلام في الولايات المتحدة

24. http://arz.wikipedia.org/wiki مادة بيكون

25. http://en.wikipedia.org/wiki/Abu_Ghraib_torture_and_prisoner_abuse فظائع سجن ابو غريب في العراق

26. http://en.wikipedia.org/wiki/Antisemitism معاداة السامية

27. http://en.wikipedia.org/wiki/Bill_Gates مادة بيل كيتس مؤسس شركة ما يكوسوفت

28. http://en.wikipedia.org/wiki/CNN تأريخ محطة اسي ان ان

29. http://en.wikipedia.org/wiki/Islam_in_the_United_States Islam in the United Sates

30. http://en.wikipedia.org/wiki/Ivan_Pavlov العالم الروسي بافلوف

31. http://en.wikipedia.org/wiki/Jewish_ethnonym مصادر كلمة واصل اليهود

32. http://en.wikipedia.org/wiki/List_of_Christian_denominations عدد المذاهب المسيحية الرئيسية في العالم

33. http://en.wikipedia.org/wiki/List_of_events_named_massacres أشهر مذابح التأريخ

34. http://en.wikipedia.org/wiki/Louis_Farrakhan Louis Farakkhan

35. http://en.wikipedia.org/wiki/Malcolm_X حياة مالكولم أكس

36. http://en.wikipedia.org/wiki/Militia_(United_States) المليشيات المسلحة في أمريكا

37. http://en.wikipedia.org/wiki/Mohamed_Bouazizi محمد بو عزيزي التونسي

38. http://en.wikipedia.org/wiki/Mormons طائفة المورمان المسيحية

39. http://en.wikipedia.org/wiki/Pedophilia المهووسون في الاعتداء الجنسي على الأطفال

40. http://en.wikipedia.org/wiki/Robert_Latimer تريسي لاتيمار

41. http://en.wikipedia.org/wiki/Security_certificate مادة طرد العائلة العراقية بالقانون الكندي للهجرة

42. http://en.wikipedia.org/wiki/Sue_Rodriguez سو رودريكز

43. http://en.wikipedia.org/wiki/Suicide الانتحار في العالم

44. http://en.wikipedia.org/wiki/Svend_Robinson سفيد روبنسن أول من أعلن انتمائه إلى الشاذين جنسياً من السياسيين الكنديين.

45. http://en.wikipedia.org/wiki/United_States_v._Microsoft_Corp. الحكومة الأمريكية ضد شركة مايكروسوفت

46. http://thoughtcatalog.com. حرق رجال الدين البوذيين أنفسهم في سايغون فيتنام

47. http://www.fpp.co.uk. مكالمات الرئيس نكسون مع مساعده بشأن اليهود

48. http://www.gatesfoundation.org/ مؤسسة بيل كيتتس ميلاندا الخيرية

49. http://www.independent.co.uk موقع مؤسسة جرائد التابلويد
50. http://www.mash4077tv.com/articles/gfa_ratings/ عدد مشاهدي برامج التلفزيون
51. http://www.sec.gov/Archives الموقف المالي لمؤسسة تامي وارنر
52. http://www.sotaliraq.com صادق السامرائي في صوت العراق .جاك عبود وترجمته بقلم د
53. www.timewarner.com موقع مؤسسة تيم وارنر العملاقة
54. www.wikipedia.org/wiki/Fouad_Ajami د. فؤاد عجمي

المحتويات

المقدّمة 7

❖ الدعاية والإعلام: محاولة لفهم الخلفيات 11

❖ الألم... ما أقساه...!!: نزاع العقل مع النفس 27

❖ مشكلة الفهم الخاطئ للانسان: مرض نقص المناعة المكتسبة 41

❖ الشيزوفرينيا... مرض انفصام الشخصية - القاتل الخفيّ 51

❖ في السّجون الكندية - المخفي في هذه الدّولة 65

❖ المبادئ وعلاقتها بالعقل 93

❖ المحكمة الأمريكية العليا 105

❖ المسلمون السود في أمريكا 115

❖ إن لم تكن الحياة كما أريد فليكن الموت كما أريد 135

❖ درس بليغ على سياسيينا الانتفاع به في ظرف الفهم الخاطئ للسياسة 149

❖ دمقرطة شعب، أو قوّة الفرد 159

❖ صديقي جواد (بل غيتس) العراق 173

❖ كيف تطيل عمرك... الثاني؟ 183

❖ ماهو المرض النفسي...؟ 199

❖ مفهوم الجنس 219

❖ الشّيعة والسّنة 235

❖ هل هنالك من نظام للحكم في الإسلام...؟ 251

❖ هل العالم بعيد عن الدّين؟ 271

❖ أبو ناجي 297

❖ إسرائيل كيف نفهمها 307

❖ الإجهاض مبدأ، أم قتل...؟ 329

❖ أزمة الدولة في العراق 341

❖ إغتيال تحت الصفر 349

❖ المصادر 367